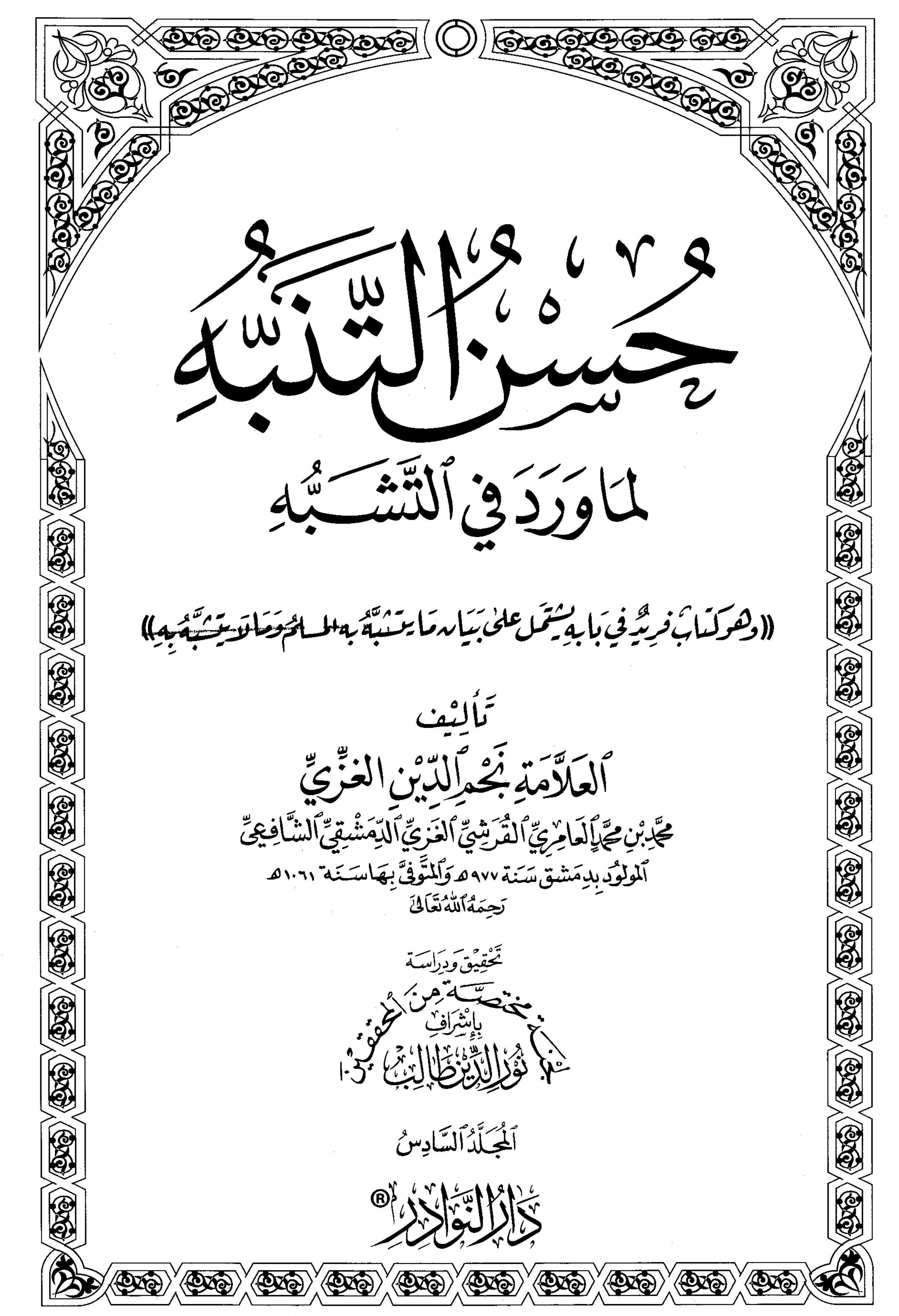


حسن التنبه

لما ورد في التشبه

((وهو كتاب فريد في بابه يشتمل على بيان ما يتشبه به المسلم وما لا يتشبه به))

تأليف

العلامة نجم الدين الغزي

محمد بن محمد العامري القرشي الغزي الدمشقي الشافعي

المولود بدمشق سنة ٩٧٧هـ والمتوفى بها سنة ١٠٦١هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق ودراسة

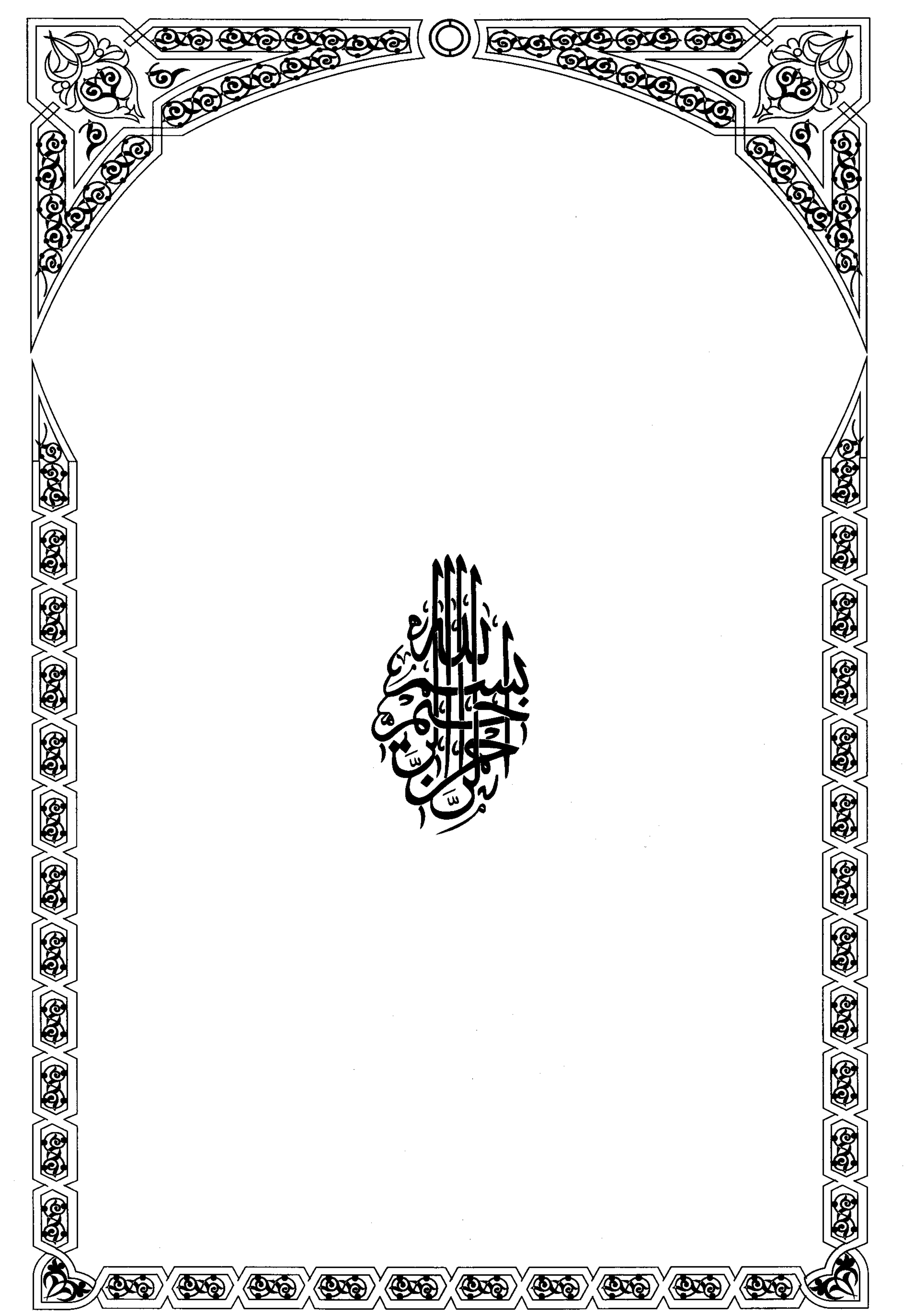
لجنة مختصة من المحققين

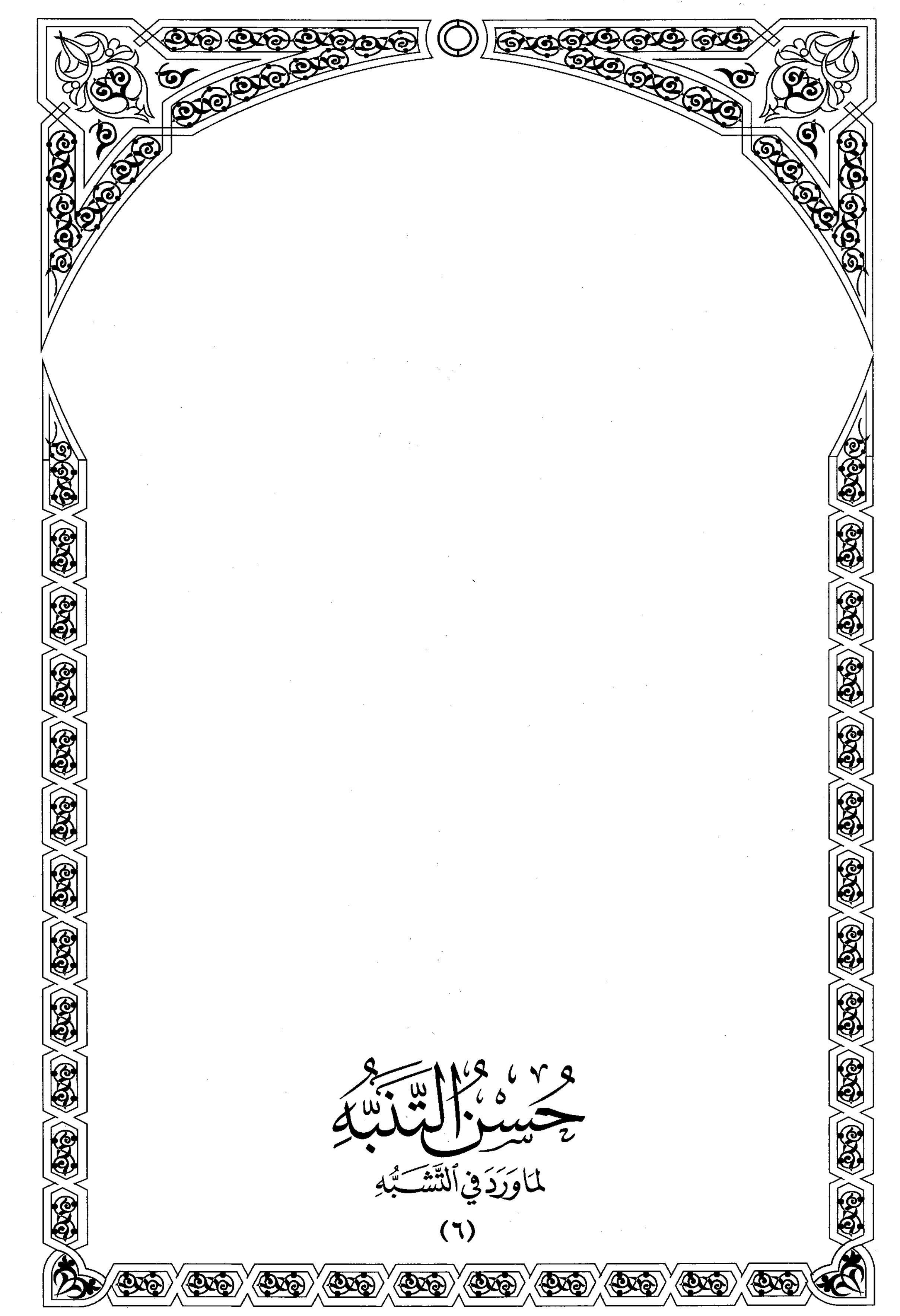
بإشراف

نور الدين طالب

المجلد السادس

دار النوادر ®


بسم الله الرحمن الرحيم



حُسْنُ التَّنَبُّهِ

لِمَا وَرَدَ فِي التَّشَبُّهِ

(٦)



الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

ردمك : ٩٧٨ - ٩٩٣٣ - ٤١٨ - ٨٤ - ٧ : ISBN

9789933418847

سورية - لبنان - الكويت

مُؤسَّسَة دَار النَّوادِر م.ف - سُورية ❁ شَرِكَة دَار النَّوادِر اللُّبْنانِيَّة ش.م.م - لُبْنَان ❁ شَرِكَة دَار النَّوادِر الكُوَيْتِيَّة ذ.م.م - الكُويت

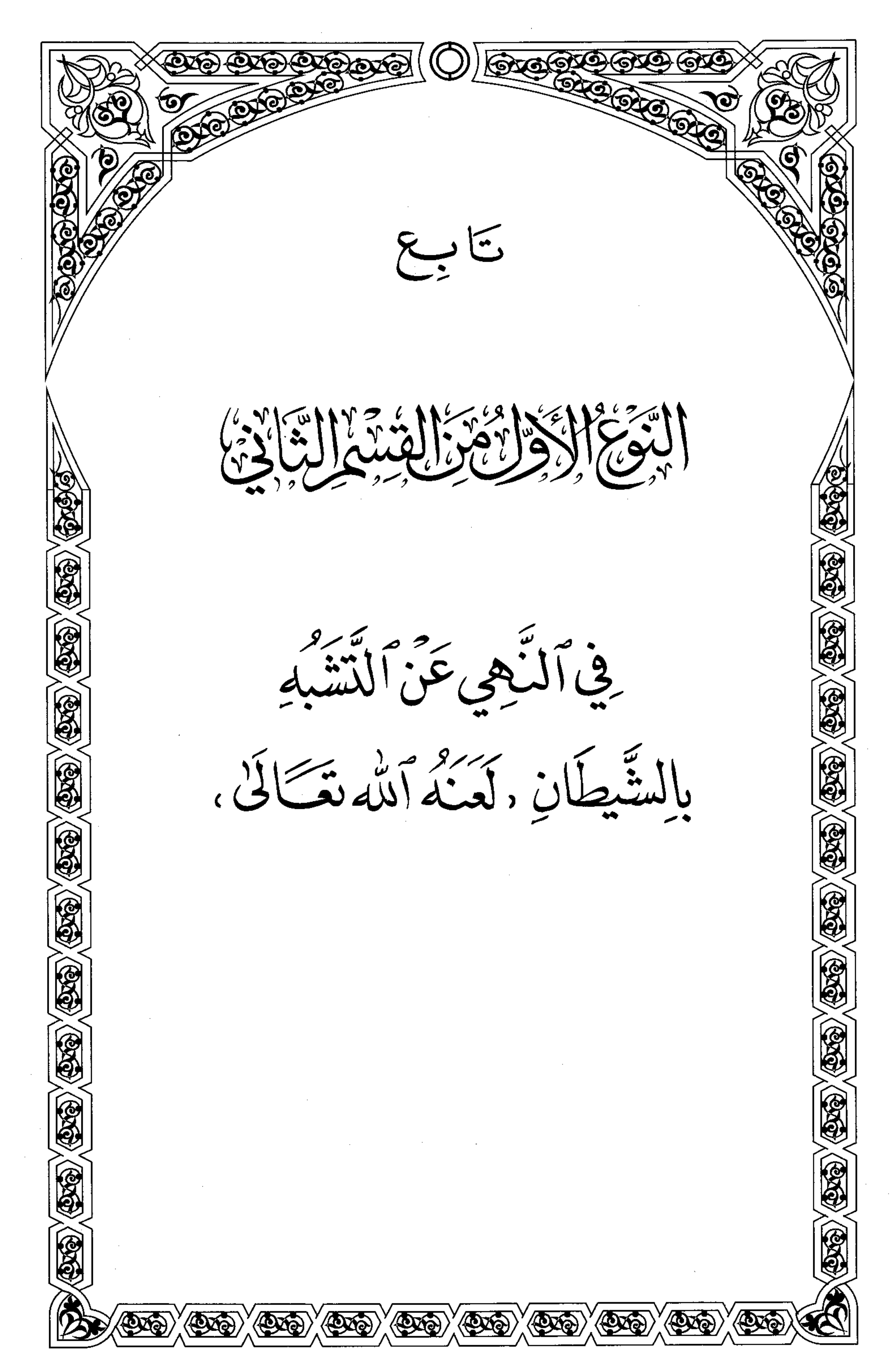
سورية - دمشق - ص. ب : ٣٤٣٠٦ - هاتف : ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس : ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)

لبنان - بيروت - ص. ب : ١٤/٥١٨٠ - هاتف : ٦٥٢٥٢٨ - فاكس : ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)

الكويت - حولي - ص. ب : ٣٢٠٤٦ - هاتف : ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس : ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

www.daralnawader.com   info@daralnawader.com

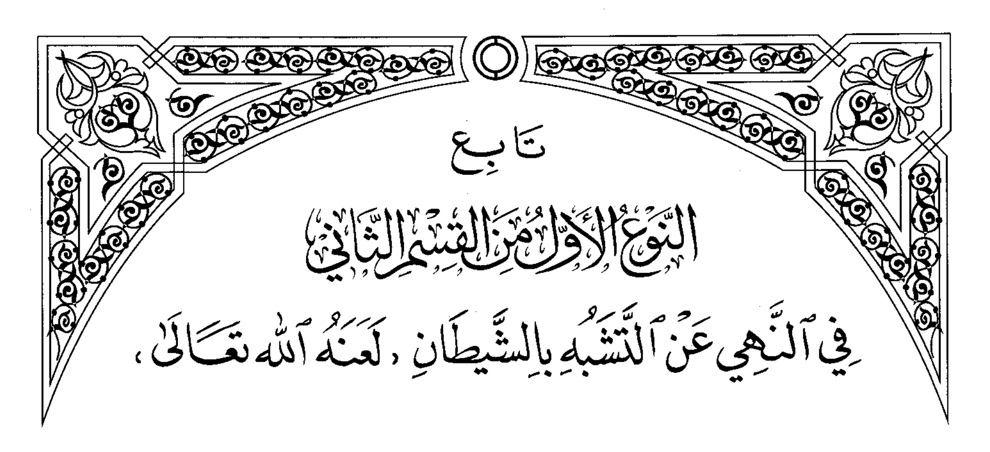
أسسها سنة : ٢٠٠٦م نور الدين طالب المدير العام والرئيس التنفيذي



تابع

النوع الأول من القسم الثاني

في النهي عن التشبه بالشيطان لعنه الله تعالى



٦٦ ـ ومن أعمال الشيطان: شرب الخمر، وتناول المسكرات، والقمار، واللعب بالنرد ونحوه مطلقاً، واللعب بالشطرنج إذا اقترن بمحرم، والتكهن، والتنجيم، والتطير، والزجر، والطرق، والعيافة، ونحو ذلك.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[المائدة: ٩٠].

وتقدم في حديث أبي أمامة رضي الله تعالى عنه أن إبليس طلب من الله تعالى لمَّا أهبطه إلى الأرض أن يجعل له شراباً، فقال: كل مسكر(١).

وذكر الثعلبي في «العرائس» عن ابن جريج رحمه الله تعالى أن الله تعالى أهبط على آدم عليه السلام عرشة عنب فغرسها، فلما أطلعت وحملت العنب جاء إبليس وسرق من عنبها، فقال له آدم: أخرجتني من الجنة ولا تريد تدع لي رزقاً؟

---

(١) تقدم تخريجه.

فقال: إن لي فيها حقاً.

فقال آدم: وما حقك فيها؟

قال: لي فيها شرابها.

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «ذم المسكر» عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: قال إبليس: ما أعجزني فيه بنو آدم فلم يعجزوني في ثلاث: إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته فَقُدناه حيث شئنا وعمل بما أحببنا، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم، ونبخله بما في يديه ونمنيه ما لا يقدر عليه[1].

وأمَّا المَيْسِر فقال ابن عباس وغيره من المفسرين: هو القمار[2].

وروى البخاري في «الأدب المفرد» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه كان يقال: أين أيسار الجزور؟ فيجتمع العشرة فيشترون الجزور بعشرة فصلان إلى الفصال، فيجيلون السهام فتصير لتسعة ـ أي: يخرج منهم الغرم على واحد، فيغرم فصيلاً واحداً فتصير لتسعة حتى تصير إلى واحد ـ يغرم الآخرون فصيلاً فصيلاً إلى الفصال، فهو الميسر[3].

وروى ابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي رحمه الله تعالى

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم المسكر» (ص: ٦٧).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٢/ ٣٥٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١١٩٧).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٥٩).

قال: كانوا يشترون الجزور فيجعلونها أجزاء، ثم يأخذون القِداح ـ أي: السهام؛ جمع قِدح بكسر القاف ـ فيلقونها، وينادى: يا ياسر الجزور! يا ياسر الجزور! فمن خرج قِدحه أخذ جزوراً بغير شيء، ومن لم يخرج قِدحه غرم ولم يأخذ شيئاً[1].

وقال ليث: عن طاوس، وعطاء، ومجاهد: كل شيء فيه قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالكعاب والجوز. رواه ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، والمفسرون، وأخرجه ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[2].

وروى ابن أبي شيبة عن محمد بن سيرين رحمه الله تعالى: أنه رأى غلماناً يتقامرون يوم عيد فقال: لا تقامروا؛ فإن القمار من الميسر[3].

وروى ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ عنه قال: ما كان من لعب فيه قمار، أو قيام، أو صياح، أو شر فهو من الميسر[4].

وروى ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: النرد والشطرنج من الميسر[5].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ١٧٠).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ١٧٠).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٧٠).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (ص: ٨٤)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ١٧٠).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٥٠)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٣٩١).

وروى الإمام أحمد قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا هاتَيْنِ الكَعْبَتَيْنِ المَوْسُومَتَيْنِ اللَّتَينِ تَزْجُرَانِ زَجْراً؛ فَإِنَّهَا مِن مَيْسِرِ الْعَجَمِ»(١).

وروى ابن أبي حاتم، والطبراني عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ: أنه كان يقول: «اجْتَنِبُوا هَذِهِ الْكَعْبَاتِ الْمَوْسُوْمَةِ الَّتِي يُزْجَرُ بِهَا زَجْراً؛ فَإِنَّهَا مِن الْمَيْسِرِ»(٢).

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «الْخَيْلُ ثَلاثَةٌ؛ فَفَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ، وَفَرَسٌ للشَّيْطَانِ، وَفَرَسٌ لِلإِنْسَانِ، [فأمَّا فرسُ الرَّحْمنِ] فَالَّذِي يُرْتَبَطُ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ فَعَلَفُهُ وَرَوْثُهُ وَبَوْلُهُ فِيْ مِيْزَانِهِ، وَأَمَّا فَرَسُ الشَّيْطَانِ فَالَّذِي يُقَامَرُ أَوْ يُرَاهَنُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا فَرَسُ الإِنْسَانِ فَالْفَرَسُ يَرْتَبِطُهَا الإِنْسَانُ يَلْتَمِسُ بَطْنَهَا فَهِيَ سِتْرٌ مِنْ فَقْرٍ»(٣).

وروى ابن أبي حاتم عن يزيد بن شريح رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «ثَلاثٌ مِنَ الْمَيْسِرِ: الصَّفِيْرُ بِالْحَمَامِ، وَالْقِمَارُ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٤٤٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً، ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٧٠) موقوفاً، والبيهقي في «السنن «الكبرى» (١٠/ ٢١٥) مرفوعاً وموقوفاً، وقال: المحفوظ الموقوف.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٣٩٠)، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١١٣) إلى الطبراني.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٩٥).

وَالضَّرْبُ بِالْكِعَابِ»[1].

وأما الأنصاب فروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: الأنصاب أحجار كانوا يذبحون لها، والأزلام قداح كانوا يقتسمون بها الأمور[2].

واختلف المفسرون فقال جماعة: هي الأصنام التي كانوا يذبحون لها في الجاهلية.

وقال مجاهد، وقتادة رحمهما الله تعالى: كان حول البيت ثلاث مئة وستون حجراً منصوبة، كان أهل الجاهلية يعبدونها ويعظمونها ويذبحون لها، وليست هي أصناماً، إنما الأصنام المصورة المنقوشة[3].

قال مجاهد: وكانوا يبدلونها بحجارة أعجب إليهم منها. رواه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر[4].

وأمَّا الأزلام فقال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: هي حصى بيض كانوا يضربون بها؛ أي: ينجمون.

وقال أيضاً: الأزلام القداح؛ كانوا إذا خرجوا في سفر جعلوا قداحاً

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٣٩١)، وكذا أبو داود في «المراسيل» (ص: ٣٥٠).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ١٧١).

(٣) انظر: «تفسير البغوي» (٢/ ٩).

(٤) رواه الطبري في «التفسير» (٦/ ٧٥).

للخروج وللجلوس، فإن وقع الجلوس جلسوا، وإن وقع الخروج خرجوا. رواهما ابن جرير[1].

وروى عبد بن حميد عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: الأزلام القداح يضربون بها لكل سفر وغزو وتجارة[2].

وعنه أيضاً قال: هي كعاب فارس والروم التي يتقامرون بها، وهي النرد[3].

وقد تقدم أنها من الميسر، فيكون ذكرها ثانياً من باب عطف الخاص على العام اعتناء بالنهي عنها.

وقال الشعبي، وغيره: الأزلام للعرب، والكعاب للعجم[4].

وقال سفيان بن وكيع رحمه الله تعالى: الأزلام الشطرنج[5].

روى ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا عن القاسم رحمه الله تعالى: أنه سئل عن الشطرنج فقال: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر[6].

---

(١) رواهما الطبري في «التفسير» (٦/ ٧٦).

(٢) ورواه الطبري في «التفسير» (٦/ ٧٦).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ١٧١).

(٤) انظر: «تفسير البغوي» (٢/ ١٠).

(٥) رواه الطبري في «التفسير» (٦/ ٧٦).

(٦) ورواه الطبري في «التفسير» (٢/ ٣٥٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٣٩١).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أنه مر على قوم يلعبون بالشطرنج فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ لأَنْ يمس أحدكم جمراً حتى يطفىء خير له من أن يمسها[1].

ومذهب الشافعي رحمه الله تعالى: أن اللعب بالشطرنج مكروه، فإذا اقترن به قمار أو فحش أو إخراج صلاة عن وقتها، أو كان مصوراً كان حراماً[2].

وقال أكثر العلماء بتحريمه مطلقاً.

وسئل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن الشطرنج فقال: هي شر من النرد. رواه ابن أبي الدنيا[3].

وقد اتفق العلماء على أن النرد حرام، وهو من الكبائر.

وقال جماعة من المفسرين: الأزلام ثلاثة قداح كانت الجاهلية تستقسم بها ـ أي: تستخرج قسمها وأرزاقها بها ـ كان مكتوباً على الأول: أمرني ربي ـ يعنون: الصنم ـ، وعلى الثاني: نهاني ربي، وعلى الثالث: غفل؛ فإن خرج الأول فعلوا ما استقسموا عليه، وإن خرج الثاني

---

(١) رواه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٧٤٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٥٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢١٢).

(٢) انظر: «الأم» للإمام الشافعي (٦/ ٢٠٨)، و«روضة الطالبين» للنووي (١١/ ٢٢٥).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (ص: ٨٣)، والإمام أحمد في «الورع» (ص: ٩٢).

تركوه، وإن خرج الثالث عادوا إلى الاستقسام، فنهى الله تعالى المسلمين أن يستقسموا بالأزلام، وبيَّن أنها من عمل الشيطان[1].

وقال الحسن: مكتوب على الأول: أْمُرني، وعلى الثاني: انهني، ويتركون الثالث محللاً بينهما. رواه عبد بن حميد، وابن جرير[2].

وقال آخرون: كانت الأزلام سبعة قداح مستوية من شوحط ـ وهو شجر من أشجار الجبال ـ وكانت تكون عند سادن الكعبة مكتوب على واحد: نعم، وعلى الآخر: لا، وعلى آخر: منكم، وعلى آخر: من غيركم، وعلى آخر: ملصق، وعلى آخر: العقل، وآخر: غفْلٌ ليس عليه شيء.

وكانوا إذا أرادوا أمراً من سفر، أو نكاح، أو ختان، أو غير ذلك جاؤوا إلى هُبَل ـ وكانت أعظم أصنامهم بمكة ـ وأعطوا صاحب القداح مئة درهم؛ فإن خرج (نعم) فعلوا، وإن خرج (لا) لم يفعلوا ذلك حولاً، ثم استقسموا.

وإذا أجالوا على نسب فإن خرج (منكم) كان وسطاً منهم، وإن خرج (من غيركم) كان حليفاً، وإن خرج (ملصق) كان على منزلة لا نسب له ولا حلف، وإن خرج (الغفل) أحالوا ثانياً[3].

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٧٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١١٩٨).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٦/ ٧٦).

(٣) انظر: «تفسير البغوي» (٢/ ٩ ـ ١٠).

فنهى الله تعالى عن ذلك، وبين أنه رجس من عمل الشيطان لأنه دخول في علم الغيب من غير علم مع ما فيه من الكفر القبيح، والشرك الصريح.

قال في «الكشاف»: والكَهَنة والمنجمون بهذه المثابة، وهو ظاهر[1].

قلت: وعوَّض الله تعالى أهل الإسلام بالاستخارة والاستشارة عن الاستقسام بالأزلام.

ومعنى قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿رِجْسٌ﴾[المائدة: ٩٠]، قال ابن عباس: سخط[2].

وقال غيره: قذر تعافه العقول.

ومن هنا استدل العلماء على نجاسة الخمر[3].

قال القرطبي: ومعنى قوله: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[المائدة: ٩٠]؛ أي: يحمله عليه [ويزينه].

وقيل: هو الذي كان عمل مبادىء هذه الأمور لنفسه حتى اقتدي به، انتهى[4].

---

(١) انظر: «تفسير الكشاف» (١/ ٦٣٩).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٧/ ٣٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١١٩٨).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٣٦٢).

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (٦/ ٢٨٨).

* **تَنْبِيهانِ:**

الأَوَّلُ: كان الاستقسام بالأزلام مختصاً بالرجال.

قال سلمة بن وهرام: سألت طاوس رحمه الله عن الأزلام فقال: كانوا في الجاهلية لهم قداح يضربونها؛ قِدح معلم يتطيرون به، فإذا ضربوا بها حين يريد أحدهم الحاجة فخرج ذلك القِدح لم يخرج لحاجته، فإن خرج غيره خرج لحاجته.

قال: وكانت المرأة إذا أرادت الحاجة لها لم تضرب بتلك القداح، فذلك قول الشاعر: [من الطويل]

إِذا حدَّدَتْ أُنْثى لأَمْـر خِمارِهـا ... أَتَتْهُ وَلَمْ تَـضْرِبْ لَـهُ بِالْمَقاسِـمِ

رواه أبو الشيخ(١).

ولم يكن امتناع النساء عن الاستقسام إيماناً منهن وتسليماً، وإنما كان من باب الهجوم على الشر والطيش لغلبة الهوى، وكلا حالتي الرجال والنساء في الجاهلية كان على غير صواب متابعة للشيطان.

ومقتضى الإسلام ترك الاستقسام مع التروي في الأمور، والامتحان فيها، والاستشارة لها من الرجال والنساء جميعاً دون الهجوم على الأمور والعجلة فيها ما لم يكن من أعمال الآخرة.

التَّنْبِيْهُ الثَّانِي: ليس من الاستقسام بالأزلام القرعة الشرعية في مسألة الإقراع بين المماليك في العتق وغيرها من مسائل القرعة كما

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ١٧١).

قال به الشافعي رحمه الله تعالى وغيره؛ لأن استعمال القرعة مبني على الأحاديث الصحيحة، ويفرق بينه وبين الاستقسام بأن العتق مثلاً حكم شرعي، وكان خروج القرعة عَلَماً على تحقيق ما مضى من حكم العتق بخلاف الاستقسام؛ فإنه استخراج لأمر مستقبل.

وكذلك ليس من الاستقسام التفاؤل بالفأل الحسن بخلاف التطير؛ فإن النبي ﷺ كان يعجبه الفأل الحسن، ويكره الطيرة كما رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، والحاكم وصححه، عن عائشة رضي الله تعالى عنها[1].

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا طِيَرَةَ، وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ».

قيل: يا رسول الله! ما الفأل؟

قال: «الكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُم»[2].

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله تعالى: الفرق بين الفأل والطيرة إنما هو من قبيل الاتكال على الله تعالى وحسن الظن بالله، والطيرة إنما هي من طريق الاتكال على شيء سواه.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٥٣٦) عن أبي هريرة ﷺ.
ورواه الحاكم في «المستدرك» (٨٩)، وكذا ابن حبان في «صحيحه» (٥٨٢٤) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه مسلم (٢٢٢٣)، وكذا البخاري (٧٦٠٧).

وروى عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأبو داود عن قبيصة رضي الله تعالى عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «العيَافَةُ وَالطِّيَرَةُ وَالطَّرْقُ مِنَ الْجِبْتِ»[1].

قال عكرمة رحمه الله تعالى: الجبت هو الشيطان بالحبشية. رواه عبد بن حميد، بل رواه هو وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[2].

ومعنى الحديث: أن هذه الثلاثة من تسويل الشيطان؛ أي: من أعماله.

قال ابن فارس: الطرق: الضرب بالحصى، وهو جنس من التكهن[3].

وقال أبو داود: الطرق: الزجر، والعيافة: الخط؛ يعني: التنجيم[4].

ونقل البغوي عن ابن سيرين رحمه الله تعالى: أن الطارق هو الكاهن[5].

وروى الطبراني، عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال:

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨٨٤)، وأبو داود (٣٩٠٧).

(٢) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٩٧٤)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٥٦٤).

(٣) انظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٣/ ٤٥٠) (مادة: طرق).

(٤) انظر: «سنن أبي داود» (٣٩٠٧).

(٥) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٢/ ١٧٧).

«لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، وَلا مَنْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ»[1].

وتقدم في حديث أبي أمامة أن الكهنة رسل الشيطان.

ولقد جمع الله تعالى بين الشيطان والكاهن في قوله تعالى في أهل الكتاب: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾[النساء: ٥١].

ففي أثر ابن عباس المتقدم: الجبت: اسم الشيطان بالحبشية، والطاغوت: كهان العرب.

وقال قتادة رحمه الله تعالى: كنا نحدث أن الجبت شيطان، والطاغوت الكاهن[2].

وقال مجاهد رحمه الله تعالى: الجبت: كعب بن الأشرف، والطاغوت: الشيطان كان في صورة إنسان[3]. رواهما ابن جرير.

وروى هو وسعيد بن منصور، والفرياب، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ورسته في «كتاب الإيمان» عن عمر بن الخطاب رضي الله

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٢٦٢) لكن عن ابن عباس رضي الله عنهما.
ورواه البزار عن عمران بن حصين، كما عزاه إليه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١١٧) وقال: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح، خلا إسحاق بن الربيع، وهو ثقة.

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٥/ ١٣٢).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٥/ ١٣٣).

تعالى عنه قال: الجبت: الساحر، والطاغوت: الشيطان[1].

والطاغوت مبالغة في الطاغي، وهو لائق بالشيطان والكاهن والساحر، إلا أنه في الشيطان أظهر.

ثم إن الكهنة والسحرة يلحقون بالشياطين لاجتماعهم في الصنعة، واتفاقهم في الحرفة.

وروى أبو الشيخ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: الكهنة هم شياطين الإنس[2].

٦٧ ـ ومن أعمال الشياطين لعنهم الله: عمل السحر، وعِلْمُه وتَعَلُّمِهِ وَتعليمِه، وهي منه.

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وروى عبد الرزاق، والبيهقي في «الشعب» عن قتادة رحمه الله تعالى قال: لما أهبط إبليس قال: أي رب! لقد لعنته فما عمله؟

قال: السحر.

قال: فما قرآنه؟

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٥/ ١٣١)، وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (٨/ ٢٥٢)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٥٦٤).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٣٤٢).

قال: الشعر.

قال: فما كتابه؟

قال: الوشم.

قال: فما طعامه؟

قال: كل ميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه.

قال: فما شرابه؟

قال: كل مسكر.

قال: فأين مسكنه؟

قال: الحمام.

قال: فأين مجلسه؟

قال: الأسواق.

قال: فما صوته؟

قال: المزمار.

قال: فما مصائده؟

قال: النساء[1].

قال الخطابي: السحر من عمل الشيطان يفعله في الإنسان بنفثه ونفخه، وهمزه ووسوسته، ويتلقاه بتعليمه إياه ومعونته عليه، فإذا

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ٢٦٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٢٧٧).

تلقاه عنه استعمله في غيره بالقول والنفث في العُقَد، انتهى[1].

وروى النسائي، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان آصف كاتب سليمان عليه السلام وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل به، فأكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماؤهم، فلم يزل جهالهم يسبونه حتى أنزل الله تعالى على محمد ﷺ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾[البقرة: ١٠٢] الآية[2].

وفي هذا دليل على أن التزوير على العلماء والنقل عنهم خلاف ما قالوه ورأوه خُلُقٌ شيطاني.

روى سعيد بن منصور، والمفسرون، والحاكم وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن الشياطين كانوا يسترقون السمع، وكان أحدهم يجيء بكلمة حق قد سمعها فيكذب معها سبعين كذبة، فيشربها قلوب الناس، فأطلع الله تعالى على ذلك سليمان بن داود عليهما السلام، فأخذها ودفنها تحت الكرسي، فلما مات سليمان عليه السلام قام شيطان بالطريق قال: ألا أدلكم على كنز سليمان الذي لا كنز لأحد مثل كنزه الممتنع؟

---

(١) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٢/ ١٨٨).

(٢) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٩٩٤).

قالوا: نعم.

فأخرجوه فإذا هو سحر، فتناسخها الأمم.

قال: فأنزل الله تعالى عذر سليمان فيما قالوا إنه السحر: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾[البقرة: ١٠٢] الآية[1].

٦٨ ـ ومنها: النشرة.

روى البزار ورجاله رجال الصحيح، عن الحسن قال: سئل أنس ابن مالك رضي الله تعالى عنه عن النشرة، فقال: ذكر لي أن رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: «هِيَ مِنَ الشَّيْطانِ»[2].

وقال البغوي: روي عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن النشرة، فقال: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»[3].

قال: والنشرة ضرب من الرقية يعالج بها من كان يظن أن به مس الجن؛ سميت النشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء؛ يعني: في زعمهم.

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «السنن» (٢/ ٥٩٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٠٥٠). وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (١/ ٢٣٣).

(٢) رواه البزار في «المسند» (٦٧٠٩)، وكذا الحاكم في «المستدرك» (٨٢٩٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ١٦٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠٢): رواه البزار والطبراني، ورجال البزار رجال الصحيح.

(٣) رواه أبو داود (٣٨٦٨).

قال: وكرهها غير واحد؛ منهم إبراهيم.

وحكي عن الحسن أنه قال: النشرة من السحر.

وقال سعيد بن المسيب: لا بأس بها[1].

٦٩ ـ ومنها: سائر أنواع الرقى إلا الرقية بذكر الله تعالى وما يعرف معناه مما يسوغ، وكذلك الإشارة بالرقية إلا ما ذكر.

روى أبو داود، وغيره عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قالت: كان عبدالله إذا جاء من حاجته فأراد أن يدخل المنزل تنحنح وبزق ليعلمنا أن يهجم منا على شيء يكرهه، وإنه جاء ذات يوم وعندي عجوز ترقى من الحموة، قالت: فلما جاء عبدالله تنحنح قالت: فأدخلتها تحت السرير، قالت: فجاء حتى جلس معي على السرير فرأى في عنقي خيطاً، فقال: ما هذا الخيط؟

فقلت: خيط رقى رقية.

قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: أنتم آلَ عبدالله أغنياءُ عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ».

فقلت له: فلم تقول هكذا؟ لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي فإذا رقاها سكنت.

فقال عبدالله: إن ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده فإذا رقى فيها كف عنها، إنما يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ أن يقول:

---

(١) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٢/ ١٥٩).

«أَذْهِبِ البَأْسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَماً»[1].

قال البغوي: والمنهي عنه من الرقى ما كان فيه شرك، أو كان يذكر مردة الشياطين، أو ما كان منها بغير لسان العرب لا يدري ما هو، وأما ما كان بالقرآن أو بذكر الله تعالى فإنه جائز مستحب، انتهى[2].

والتمائم ـ جمع تميمة ـ: خرزات كانت العرب تعلقها على أولادها، ويزعمون أنها تدفع العين عنهم.

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى: كل شيء يعلق على صغير أو كبير ـ أي: ليدفع بلاء، أو يرد قضاء ـ فهو تميمة.

لكن قال عطاء: لا يعد من التمائم ما يكتب من القرآن[3].

والتولة ـ بكسر التاء ـ: ضرب من السحر، وهو ما يحبب المرأة إلى زوجها، وإنما كان مذموماً لأنه من باب الاعتماد على غير الله تعالى، فإن كان فيه صد له عن زوجته الأخرى كان أشد لأنه مع كونه سحراً إضرار وتفريق بين الزوجين، فإن كان تحبباً لامرأة أجنبية أو لأمرد جميل للتوصل إلى الفاحشة فإنه أشد؛ لأنه قيادة، مع كونه سحراً، وعمل السحر مطلقاً حرام، فإن انضم إليه حرام آخر باء بتعاطيه بإثمهما.

---

(١) رواه أبو داود (٣٨٨٣) مختصراً، وكذا ابن ماجه (٣٥٣٠).

(٢) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٢/ ١٥٩).

(٣) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٢/ ١٥٨).

وروى النسائي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيْهَا فَقَد سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فقد أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً فَقَد وُكِلَ إِلَيْهِ»[1].

وروى عبد الرزاق عن صفوان بن سليم ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ شَيْئاً مِنَ السِّحْرِ ـ قَلِيْلاً أَوْ كَثِيْراً ـ كانَ آخِرَ عَهْدِهِ مِنَ اللهِ»[2].

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في تفسير النفث: هو خلط السحر بالرقى.

وقال مجاهد رحمه الله تعالى: هو الرقى في عقد الخيط. رواهما ابن جرير[3].

وكأنه إنما كان سحراً لأنه جمع بين رقية وفعل، والسحر فعل الساحر أو فعل مع أقوال يعتادونها ويعتقدونها مؤثرة في جلب الأزواج وتسخير الشياطين.

* تَنْبِيْهٌ:

لا ينبغي أن يغتر بما يتفق من مصادفة فعل السحرة والكهان لما في النفس، كأن يكون من عادة المرء أن لا يعيش له ولد، فيعلق التميمة على

---

(١) رواه النسائي (٤٠٧٩).

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٨٧٥٣).

(٣) رواهما الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٣٥٣).

بعض أولاده فيعيش، أو يكون به ألم فيرقى بما لا يجوز الرقية به فيسكن، أو يكون من عادة المرأة أن لا تحمل، أو من عادتها أن تجهض الجنين فيعلق عليها تميمة فتحمل أو يتماسك حملها، أو يكون الشيطان مفسداً بين المرأة وبعلها فإذا عملت لها التِّولة تركها؛ فإن ذلك من عمل الشيطان كما قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه.

ولا بِدْع أن ينخس الشيطان موضع الألم فإذا رقي ترك النخس، أو يعتري الشيطان الجنين فيجهضه فإذا علق على الحامل ترك جنينها، أو يفسد النطفة في رحم المرأة فلا تنعقد فإذا علق عليها تركها بعد ذلك خصوصاً إذا ترك الزوجان التسمية والتعوذ عند الجماع.

وفي الحديث عن [حَمْنَة] بنت جحش رضي الله تعالى عنها ما يشهد لذلك، حيث قال لها النبي ﷺ: «إِنَّمَا هَذِهِ ـ يَعْنِي: الاسْتِحَاضَةَ ـ رَكْضَةٌ مِن رَكَضَاتِ الشَّيْطَانِ»؛ وحديثها في «مسند الإمام أحمد»، والسنن الأربعة[1].

وهذا من أفعال الشيطان يشبه ما رواه الإمام أحمد، والترمذي، والحاكم وصححه، عن سمرة بن جندب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا حَمَلَت حَوَّاءُ طافَ بِهَا إِبْلِيسُ، فَكَانَ لا يَعِيْشُ لَهَا وَلَدٌ، فَقالَ: سَمِّيهِ عَبْدَ الْحَرْثِ فَإِنَّهُ يَعِيْشُ، فَسَمَّتْهُ عَبْدَ الْحَرثِ

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٤٣٨)، وأبو داود (٢٨٧) واللفظ لهما، والترمذي (١٢٨) وصححه، وابن ماجه (٦٢٧).

فَعَاشَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ»[1].

وروى البزار، والطبراني في «الكبير» عن معاوية بن قرة، عن أبيه رضي الله تعالى عنهما قال: ذهبت لأسلم حين بعث النبي ﷺ، فأردت أن أدخل معي رجلين أو ثلاثة في الإسلام، فأتيت الماء حيث مجتمع الناس فإذا أنا براعي القرية الذي يرعى أغنامهم، فقال: لا أرعى لكم أغنامكم.

قالوا: لِمَ؟

قال: يجيء الذئب كل ليلة فيأخذ شاة، وصنمنا هذا قائم لا يضر ولا ينفع، ولا يغير ولا ينكر.

قال: فرجعوا وأنا أرجو أن يسلموا، فلما أصبحنا جاء الراعي يشتد يقول لهم: البشرى قد جيء بالذئب فهو بين يدي الغنم مقموطاً، فذهبت معهم.

وفي رواية البزار: ألا ترون الذئب مربوطاً بين يدي الغنم بغير وثاق، فجاؤوا وجئنا معهم إلى الصنم، فقبلوه وسجدوا له، وقالوا: هكذا فاصنع.

قال: فدخلت على النبي ﷺ فحدثته بهذا الحديث، فقال: «عَبَثَ بِهِمُ الشَّيْطَانُ».

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١١)، والترمذي (٣٠٧٧) وحسنه، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٠٣).

وفي رواية البزار: «يَتَلَعَّبُ بِهِمُ الشَّيْطَانُ»[1].

٧٠ ـ ومن أعمال الشيطان: تصوير ما فيه روح، والأمر بذلك؛ وهو من الكبائر.

روى أبو الشيخ في كتاب «العظمة»، والثعلبي عن محمد بن كعب القرظي رحمه الله تعالى قال: كان لآدم عليه السلام خمسة بنين؛ ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، وكانوا عُبَّاداً، فمات رجل منهم فحزنوا عليه حزناً شديداً، فجاءهم الشيطان فقال: هل لكم في أن أصور لكم في قبلتكم مثله؛ إذا نظرتم إليه ذكرتموه؟

فقالوا: نكره أن نجعل في قبلتنا شيئاً نصلي إليه.

قال: فاجعلوه في مؤخر المسجد.

قالوا: نعم.

فصور لهم، ثم مات آخَرُ فصوره لهم، قال: فتنقصت الأشياء كما تنتقصون اليوم، وأقاموا على ذلك ما شاء الله، ثم تركوا عبادة الله ﷻ، فأتاهم الشيطان فقال: ما لكم لا تعبدون شيئاً؟

قالوا: من نعبد؟

قال: هؤلاء آلهتكم وآلهة آبائكم، ألا ترون أنها مصورة في مصلاكم؟

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٣١). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١١٥): رواه البزار ـ والطبراني ـ ومداره على أزهر بن سنان، ضعفه ابن معين، وقال ابن عدي: أحاديثه صالحة ليست بالمنكرة جداً.

قال: فعبدوها من دون الله تعالى حتى بعث الله تعالى نوحاً عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله ﷻ، فقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح: ٢٣][١].

وروى عبد بن حميد عن أبي جعفر بن يزيد بن المهلب رحمه الله تعالى قال: كان ود رجلاً مسلماً، وكان محبباً في قومه، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل، وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان، ثم قال: أرى جزعكم على هذا فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم، فتذكرونه به؟

قالوا: نعم.

فصور لهم مثله، فوضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه، فلما رأى ما بهم من ذكره قال لهم: هل لكم أن أجعل لكم في منزل كل رجل منكم تمثالاً مثله، فيكون في بيته فيذكر به؟

قال: وأدرك أبناؤهم، فجعلوا يرون ما يصنعون به، وتناسلوا، ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلهاً يعبدونه من دون الله.

قال: وكان أول ما عبد غير الله في الأرض ودّاً الصنمَ الذي سموا بود[٢].

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٥٩٠)، والثعلبي في «التفسير» (١٠/ ٤٦).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٢٩٤).

وروى البخاري، وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب:

أمَّا ود فكانت لكلب بدُومة الجندل.

وأما سواع فكانت لهذيل.

وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف عند سبأ.

وأما يعوق فكانت لهمذان.

وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع؛ أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً ويسمونها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت[1].

٧١ ـ ومن أخلاق الشيطان: إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، والنميمة، وإتيان هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾[المائدة: ٩١].

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾[الإسراء: ٥٣]؛ أي: يفسد ويحرش بينهم.

وروى الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطانَ قَد يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ،

---

(١) رواه البخاري (٤٦٣٦).

وَلَكِن فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُم»[1]؛ أي: ولكن طمع في التحريش بينهم، وهو إيقاع الخصومة والخشونة بينهم.

* تَنْبِيهانِ:

الأَوَّلُ: قال الله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾[يوسف: ١٠٠].

قال القرطبي: نسب ذنبهم إلى الشيطان تكرمة لهم[2].

قلت: وهذا من لطائف الفهم، ولا يلزم منه أن لا يكون للشيطان ذنب، بل هو نزغ بينهم حقيقة، وهم ساغ فيهم نزغ الشيطان حتى كادوا ليوسف وذلك قبل أن يكونوا أنبياء.

ويدل عليه قول يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يوسف: ٥].

فذنب الشيطان النزغ بينهم، وذنبهم قبول نزغه وكيدهم لأخيهم، فلم يذكر يوسف لأبيه بحضرة إخوته حين وقع الصفاء بينهم ذنبهم، وإنما ذكر نزغ الشيطان بينهم وسكت عما صدر من إخوته في حقه؛ تكرماً منه؛ لأن ذكر الجفاء في وقت الصفاء عين الجفاء.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣١٣)، ومسلم (٢٨١٢)، والترمذي (١٩٣٧) واللفظ له.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٩/ ٢٦٧).

التَّنْبِيهُ الثَّانِي: روى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن عون رحمه الله تعالى قال: ما اجتمع رجلان فتفرقا حتى يعقد الشيطان في قلب كل واحد عقدة؛ فإن لقي أخاه فسلم عليه انحلت العقدة، وإلا كانت كما هي[1].

قلت: مثل ذلك لا يقال من قبل الرأي، فهو محمول على أن عوناً بلغه ذلك عن نبينا ﷺ أو عن غيره من الأنبياء عليهم السلام.

ثم العقدة عبارة عما يقع في قلب أحدهما من نظره فيما يبدو من حال الآخر، فإن كلاًّ منهما يرى الآخر إما فوقه فيحسده، أو دونه فيحتقره ويرى نفسه فوقه، ويراه إما في طاعة وخير فينقبض ويتمنى أن لو كان أخلَّ بشيء من كمالها أو أدبها، وإما في معصية وشر فينسرَّ لذلك لما يراه من كمال نفسه بالنسبة إلى نقص الآخر.

ولو كان أحدهما حسن الاعتقاد في الآخر فقد يغلو في اعتقاده وينزله فوق منزلته، وقد يعتقد من هو [فوقه] دونه، ولو فرض أنه سلم من ذلك لم يسلم من التصنع له ومراءاته.

ومن ثم كان يرى بعضهم العزلة حتى عن الأخيار.

وهذه العقدة يتولد منها خواطر السوء والغيبة وغيرها من الأمور التي هي غير مرضية، فإذا لقي أحدهما صاحبه فسلم عليه انحلت تلك العقدة، وذهبت تلك الخواطر وتلاشت الغيبة وما تولد منها، وتحقق

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٥٢).

كل منهما بحال الآخر، فذهب اعتقاد السوء، وسلم كل واحد من الإطراء على الآخر، ومن هنا شرع السلام عند اللقاء، والمصافحة، والسؤال عن حال الإخوان؛ فافهم!

٧٢ ـ ومنها: اعتياد الشر والأذى.

فلا ينبغي للإنسان أن يتعود أذية الناس حتى يخافوا من شره، ويتوقوا أذيته كما يتوقون من أذية الشيطان ويتعوذون منه، وقد أمر الله تعالى بالتعوذ من شيطان الإنس، وهو المتشبه بالشيطان في الشره والتمرد، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[الناس: ١] إلى آخر السورة.

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «ذم الغيبة» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «شَرُّ النَّاسِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يُخَافُ إِسَاءَتُهُ(١)، أَوْ يُخَافُ شَرُّهُ»(٢).

وروى أبو يعلى عنه، والإمام أحمد، والترمذي عن أبي هريرة

---

(١) في «ذم الغيبة والنميمة»: «لسانه» بدل «إساءته».

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الغيبة والنميمة» (ص: ٨٧). وفيه عثمان بن مطر عن ثابت، قال ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٦٣): أحاديثه عن ثابت خاصة مناكير، وسائر أحاديثه فيها مشاهير وفيها مناكير، والضعف بين على حديثه.

لكن روى البخاري (٥٧٨٠)، ومسلم (٢٥٩١) بمعناه عن عائشة رضي الله عنها، ولفظهما: «إن شر الناس منزلة عند الله من تركه أو ودعه الناس اتقاء فحشه».

قالا رضي الله تعالى عنهما: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَن يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ، وَشَرُّكُم مَنْ لا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلا يُؤْمَنُ شَرُّهُ»[1].

٧٣ ـ ومنها: التشاتم والتساب.

روى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عياض بن حمار رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «الْمُسْتَبَّانِ شَيْطانانِ يَتَهاتَرانِ وَيَتَكاذَبانِ»[2].

وإنما سميا شيطانين لتشبههما بالشيطان في السب والهتر، وهو تمزيق العرض والوقوع فيه، فإذا سكت أحدهما عن ذلك لم يكن شيطاناً.

وقد قلت: [من السريع]

يا أَيُّها السَّبَّابُ ما أَنْتَ في ... سَبِّكَ لِلْمُسْلِمِ إِنْسانُ

بَلْ أَنْتَ شَيْطانٌ وَإِنْ زادَ في ... جَوابِكَ السَّبُّ فَشَيْطانُ

*** فائِدَةٌ:**

روى البيهقي في «الشعب» عن أبي عمرو بن العلاء رحمه الله

---

(١) رواه أبو يعلى في «المسند» (٣٩١٠) عن أنس رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩٠): فيه مبارك بن سحيم، وهو متروك.
ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٨)، والترمذي (٢٢٦٣) وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٦٦)، وكذا الطيالسي في «مسنده» (١٠٨٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٢٦).

تعالى قال: ما تشاتم رجلان قط إلا غلب ألأمهما[1].

٧٤ ـ ومنها: عدم المبالاة بما قال، وما قيل له.

روى الخلال عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة أنه قال: كان يقال: من لم يبال ما قال وما قيل له فهو ولد شيطان[2].

بل روى الطبراني في «الكبير» عن عبدالله بن عمرو بن شويفع، عن أبيه، عن جده شويفع رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْتَحْيِ مِمَّا قالَ أَو قِيْلَ فَهُوَ لِغَيْرِ رشدة[3]، حَمَلَت بِهِ أُمُّهُ عَلى غَيْرِ طُهْرٍ»[4].

قلت: ومن هنا ذهب الحياء من الناس إلا قليلاً نادراً لكثرة الحلف بالطلاق، ثم الرجوع إلى الزوجة بعد البينونة بغير مراجعة صحيحة، أو بعد الطلقات الثلاث، أو من غير سؤال عما وقع منه، فكانت أكثر أولادهم لغير رشدة، فغلبت عليهم الوقاحة، فلا يبالون ما قالوا وما قيل لهم من صغرهم إلى كبرهم.

وسئل بعض العلماء عن السفلة فقال: الذي لا يبالي ما قال

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٤٨٠).

(٢) ورواه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ١٢٧).

(٣) رشدة: صحيح النسب، أو من نكاح صحيح.

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٢٣٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٨٤): فيه من لم أعرفهم.

ولا ما قيل له[1].

٧٥ ـ **ومنها: حضور مجالس أهل الجور من القضاة والولاة.**

روى مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: قلت: يا رسول الله! إنا كنا بشرٍ فجاء الله بخير فنحن فيه، فهل وراء ذلك الخير شر؟

قال: «نعَمْ».

قلت: كيف؟

قال: «يَكُوْنُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لا يَهْتَدُونَ بِهُدايَ، وَلا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُوْمُ فِيْهِم رِجَالٌ قُلُوْبُهُم قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِيْ جُثمانِ إِنْسٍ».

قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟

قال: «تَسْمَعُ وَتُطِيْعُ لِلأَمِيْرِ؛ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»[2].

وهذا الحديث نص في أن أتباع الولاة الظلمة متشبهون بالشياطين، توافقت قلوبهم وقلوبهم.

والولاة الآن والقضاة لا يكادون ينفكون عن الظلم، وجلساؤهم موافقون لهم، ومن خالفهم أو أنكر عليهم فهو مطرود عنهم.

ولقد قلت: [من الخفيف]

---

(١) هو جعفر بن محمد، كما رواه عنه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٥٦).

(٢) رواه مسلم (١٨٤٧).

جُلَساءُ الْقُضاةِ وَالْحُكّامِ   بِنِفاقٍ فِي النَّقْضِ وَالإِبْرامِ
هُمْ شَياطِيْنُ فِي الْقُلُوْبِ وَإِنْ كا   نُوا أُناساً فِي الشَّكْلِ وَالأَجْسامِ
فَتَجَنَّبْ عَنْ عِشْرَةِ الْقَوْمِ إِلاَّ   لاضْطِرارٍ فِي عِشْرَةِ الأَقْوامِ
وَأَطِعْ ما اسْتَطَعْتَ وَاصْبِرْ لِظُلْمٍ   فِي زَمانٍ مُسْتَحْكِمِ الإِظْلامِ
إِنَّما الصَّبْرُ لَوْ تَعَرَّفْتَ خَيْرٌ   مِنْ نُزُولِ الْبَلاءِ وَالآثامِ

وروى الترمذي وقال: حسن، وابن ماجه، والبيهقي، وصححه ابن حبان، عن ابن أبي أوفى رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تَعالَى مَعَ الْقاضِي ما لَمْ يَجُرْ، فَإِذا جارَ تَخَلَّى اللهُ عَنْهُ، وَلَزِمَهُ الشَّيْطَانُ».

وفي رواية: «فَإِذَا جَارَ تَبَرَّأَ اللهُ مِنْهُ، وَأَلْزَمَهُ الشَّيْطَانَ»(١).

فجليس القاضي الجائر على جوره راضياً به شيطان، فكيف بمن يعاونه على جوره ويفتح له أبواب الظلم، ويحسِّن له أكل أموال الناس [بالباطل]، واستدلاء أموالهم إليه.

وأقول: إن من كان الآن على ضد ذلك في معاشرة القضاة والولاة لأشبه الناس بالملائكة.

وقد سبقت إشارة إلى ذلك في التشبه بالملائكة عليهم السلام.

---

(١) رواه الترمذي (١٣٣٠) وحسنه، وابن ماجه (٢٣١٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٨٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٠٦٢).

وما أرفع مقام هذا الرجل لو كان له في زماننا وجود.

وعلى ذلك درج السلف الصالحون كما روى الدينوري عن صالح المري رحمه الله تعالى قال: قام رجل من العُبَّاد إلى يزيد بن المهلب، فقال: والله إنك أيها الأمير ما استدمت تتابع النعم بمثل اصطناع المعروف، ولا كايدت إبليس بمثل إضمار النصيحة لمن ولاك الله أمره، فإذا كنت كذلك أصلح الله لك ما تخشى فساده، وجمع لك ما تخشى شتاته، وإني والله أيها الأمير لأحب صلاحك، والذي يصل إلي من ذلك أكثر[1].

٧٦ ـ ومنها: حضور مجالس الغضب والخصومات التي لا خير فيها.

روى الإمام أحمد، والطبراني ورجالهما ثقات، عن عطية السعدي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اسْتَشَاطَ السُّلْطَانُ تَسَلَّطَ الشَّيْطَانُ»[2].

وروى البغوي في «شرح السنة» بإسناد صحيح، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً سب أبا بكر رضي الله تعالى عنه عند النبي ﷺ والنبي ﷺ جالس لا يقول شيئاً، فلما سكت ذهب أبو بكر

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٤٤٥).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٢٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ١٦٧).

رضي الله تعالى عنه يتكلم، فقام رسول الله ﷺ واتبعه أبو بكر، فقال: يا رسول الله! كان يسبني وأنت جالس، فلما ذهبت أتكلم قمت؟

قال: «إِنَّ الْمَلَكَ كانَ يَرُدُّ عَنْكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمْتَ ذَهَبَ الْمَلَكُ وَوَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَجْلِسَ»(١).

وفي رواية البيهقي في «الشعب»: فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: أَوَجَدْت عليَّ يا رسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ: «نزَلَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ لِيُكَذِّبَهُ بِمَا قالَ لَكَ، فَلَمَّا انْتَصَرْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَم أَكُنْ لأَجْلِسَ إِذْ وَقَعَ الشَّيْطَانُ»(٢).

٧٧ ـ ومنها: الدخول على الملوك والسلاطين والأمراء بغير ضرورة، والتأويل في ذلك، والإشارة بذلك.

روى أبو القاسم البغوي ـ وهو غير أبي محمد البغوي المذكور قريباً، وهو صاحب «التفسير»، و«شرح السنة»، والفقيه المشهور أحد أصحاب الشافعي، وهذا المحدث متقدم عليه وهو صاحب «المعجم» ـ وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيَكُوْنُ قَوْمٌ بَعْدِي مِنْ أُمَّتِي يَقْرَؤُوْنَ الْقُرْآنَ وَيَتَفَقَّهُونَ فِيْ الدُّنْيَا، يَأْتِيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُوْلُ لَهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمُ السُّلْطَانَ فَأَصْلَحَ مِنْ دُنْيَاكُمْ وَاعْتَزَلْتُمُوهُمْ

---

(١) رواه البغوي في «شرح السنة» (١٣/ ١٦٤).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٦٦٩) عن سعيد بن المسيب مرسلاً، وكذا رواه أبو داود (٤٨٩٦) مرسلاً، و(٤٨٩٦) متصلاً.

بِدِيْنِكُمْ، وَلا يَكُوْنُ ذَلِكَ؛ كَمَا لا يُجْتَنَى مِنَ الْقَتَادِ إِلاَّ الشَّوْكُ، كَذَلِكَ لا يُجْتَنَى مِن قُرْبِهِم إِلاَّ الْخَطَايَا»[1].

وقلت في «أرجوزتي» التي نظمت فيها «ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين» للحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى: [من الرجز]

وَمَنْ يَقُلْ نَأْتِي إِلى الْعُمَّالِ ... نُصِيْبُ دُنْياهُمْ بِالاعْتِزالِ
بِدِيْنِنا عَنْهُمْ فَهَذا لا يَكُوْنْ ... غَيْرَ الْخَطايا مِنْهُمُ لا يَجْتَنُوْنْ
إِذْ لَيْسَ غَيْرَ الشِّرْكِ وَالْفَسادِ ... يُقْطَفُ يا هَذا مِنَ الْقَتادِ
وَإِنَّما مَنْشَأُ هَذا الْهاجِسِ ... مِنْ هَوَسِ الشَّيْطانِ وَالْوَساوِسِ

٧٨ ـ ومنها: دلالة أعداء المسلمين على عوراتهم، والسعي في أذيتهم؛ وكل ذلك من الكبائر.

روى البيهقي في «الشعب» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت فأرة فأخذت تجرُّ الفتيلة، فذهبت الجارية تزجرها، فقال نبي الله ﷺ: «دَعِيهَا»، فجاءت بها فألقتها على الخمرة التي كان قاعداً عليها، فأحرقت منها مثل موضع الدرهم، فقال رسول الله ﷺ: «إِذَا نِمْتُم فَأَطْفِئُوا سُرُجَكُم؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدُلُّ مِثْلَ هَذِهِ على هَذَا فَيُحْرِقَكُم»[2].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٤/ ٣١٤)، وكذا ابن ماجه (٢٥٥).
(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٠٦٣)، وكذا أبو داود (٥٢٤٧).

وذكر الثعلبي، وغيره عن كعب رحمه الله تعالى: أن زكريا عليه السلام لما بلغه أن ابنه يحيى عليه السلام قتل ولّى هارباً حتى أتى بستاناً من بساتين بيت المقدس، وقد بعث الملك الذي قتل يحيى في طلب زكريا رجالاً من قومه، فمر زكريا بشجرة فنادته: يا نبي الله! هلم إليَّ، فلمَّا أتاها انفرجت له، فدخل زكريا في وسطها، فانطلق إبليس ـ لعنه الله ـ فأخذ بطرف ردائه فأخرجه من الشجرة، ثم استقبل إبليس الطلب، وقال لهم: إن زكريا عليه السلام دخل في هذه الشجرة، فلم يصدقوه، فأراهم طرف الرداء خارجاً من الشجرة، فذهبوا عنه مسرعين، ثم عادوا إليه بالمنشار، فركبوا المنشار على أصل الشجرة ونشروه في وسطها[1].

وروى ابن عساكر من طريق إسحاق بن بشر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به رأى زكريا في السماء فسلم عليه، فقال: «أَبَا يَحْيَى! أَخْبِرْنِي عَنْ قَتْلِكَ كَيْفَ كَانَ، وَلِمَ قَتَلَكَ بَنُو إِسْرَائِيْلَ؟»

قال: يا محمد! إن يحيى كان خير أهل زمانه، وكان أجملهم وأصبحهم وجهاً، وكان كما قال الله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]، وكان لا يحتاج إلى النساء، فهويته امرأة ملك بني إسرائيل وكانت بغياً، فأرسلت إليه، وعصمه الله، وامتنع وأبى عليها، وأجمعت على قتل يحيى عليه السلام، ولهم عيد يجتمعون في كل عام، وكانت سنة الملك أن يوعد ولا يخلف ولا يكذب، فخرج

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ٧٥).

الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيعته ـ وكان بها معجباً ولم تفعله فيما مضى ـ فلما أن شيعته قال الملك: سليني فما تسأليني شيئاً إلا أعطيتك، قالت: أريد دم يحيى بن زكريا عليهما السلام.

قال لها: سليني غيره.

قالت: هو ذاك.

قال: هو لك، فبعثت جلاوزتها إلى يحيى وهو في محرابه يصلي وأنا إلى جانبه، فذبح في طست، وحمل رأسه ودمه إليها.

فقال النبي ﷺ: «فَمَا بَلَغَ مَنْ صَبرَكَ؟»

قال: ما انفتلت من صلاتي، فلما حمل رأسه إليها وضع بين يديها، فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل: غضب الله لزكريا، فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكرياء، فخرجوا في طلبي ليقتلوني فجاءني النذير، فهربت منهم وإبليس أمامهم يدلهم عليَّ، فلما أني تخوفت أن لا أعجزهم عرضت لي شجرة فنادتني: إليَّ، إليَّ، وانصدعت، فدخلت فيها، وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائي، والتأمت الشجرة وبقي طرف ردائي خارجاً من الشجرة، وجاء بنو إسرائيل، فقال إبليس: أما رأيتموه دخل هذه الشجرة؟ هذا طرف ردائه، دخلها بسحره.

فقالوا: نحرق هذه الشجرة.

فقال إبليس: شقوه بالمنشار شقاً.

قال: فشققت مع الشجرة بالمنشار.

فقال له النبي ﷺ: «يا زَكَرِيَاءُ! هَلْ وَجَدْتَ لَهُ أَلَماً أَوْ وَجَعاً؟»

قال: إنما وجدت ذلك الشجرة، جعل الله روحي فيها[1].

٧٩ ـ ومنها: تثبيت أعداء المسلمين على قتالهم واستثارتهم لذلك.

ثم من شأن اللعين خذلان أوليائه وعدم ثباته معهم، والجبن والفرار.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الأنفال: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[الفرقان: ٢٩].

قال القاضي ناصر الدين البيضاوي: يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك، ثم يتركه ولا ينفعه[2].

قلت: وهكذا فعل الشيطان بقريش في وقعة بدر كما في الآية التي تقدمت.

وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أمد الله تعالى نبيه ﷺ ـ يعني: يوم بدر ـ بألف من الملائكة عليهم السلام فكان جبريل في

---

(١) رواه ابن عساكر «تاريخ دمشق» (١٩/ ٥٥).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢١٥).

خمس مئة من الملائكة مجنبة، وميكائيل في خمس مئة من الملائكة مجنبة، وجاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مدلج، والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾[الأنفال: ٤٨]، فلما اختلف القوم قال أبو جهل: اللهم أولانا بالحق فانصره، ورفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «يَا رَبِّ! إِنَّكَ إِن تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ فَلَنْ تُعْبَدَ فِيْ الأَرْضِ أَبَداً».

فقال جبريل عليه السلام: خذ قبضة من تراب، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه وفمه، فولوا مدبرين، فأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس لعنه الله، فلما رآه إبليس كانت يده في يد رجل من المشركين، فانتزع إبليس يده، ثم ولى مدبراً وشيعتُه، فقال الرجل: يا سراقة! ألم تزعم أنك جار لنا؟ قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾[الأنفال: ٤٨][١].

وقال الكلبي رحمه الله تعالى: لما التقوا كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقة آخذاً بيد الحارث بن هشام، فنكص على عقبيه، فقال له الحارث: أفراراً من غير قتال؟ وجعل يمسكه، فدفع في صدره وانطلق، وانهزم الناس، فلما قدموا مكة قالوا: هزم الناس سراقة، فبلغ ذلك سراقة فقال: بلغني أنكم تقولون: إني هزمت الناس؛ فو الله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم، فقالوا:

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٧٩).

ما أتيتنا يوم كذا؟ فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان[1].

وقال حسان بن ثابت في ذلك رضي الله تعالى عنه: [من البسيط]

سِرْنا وَسارُوا إِلى بَدْرٍ لِحَيْنِهِمُ ... لَوْ يَعْلَمُوْنَ يَقِيْنَ الأَمْرِ ما سارُوا
دَلاَّهُمُ بِغُرُورٍ ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ ... إِنَّ الْخَبِيْثَ لِمَنْ والاهُ غَرَّارُ
وَقالَ إِنِّي لَكُمْ جارٌ فَأَوْرَدَهُمْ ... شَرَّ الْمَوارِدِ فِيْهِ الْخِزْيُ وَالْعارُ
ثُمَّ الْتَقَيْنا فَوَلَّوْا عَنْ سَراتِهِمُ ... مِنْ مُنْجِدِيْنَ وَمِنْهُمْ فِرْقَةٌ غارُوا

وروى أبو نعيم في «دلائل النبوة» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هتف هاتف من الجن على أبي قبيس بمكة فقال: [من الخفيف]

قَبَّحَ اللهُ رَأْيَ كَعْبِ بْنِ فِهْرِ ... ما أَرَقَّ الْعُقُولَ وَالأَحْلامِ
دِيْنُها أَنَّها يُعَنَّفُ فِيْها ... دِيْنُ آبائِها الْحُماةِ الْكِرام
حالَفَ الْجِنَّ جِنَّ بُصْرى عَلَيْكُمْ ... وَرِجالَ النَّخِيْلِ وَالآكام
يُوْشِكُ الْخَيْلُ أَنْ تَرَوْها تَهادى ... تَقْتُلُ الْقَوْمَ فِي الْبِلادِ الْحَرام
هَلْ كَرِيْمٌ مِنْكُمْ لَهُ نَفْسُ حُـ ... ـرٌّ ماجِدِ الْوالِدَيْنِ وَالأَقْوام
ضاوِياً حَرْبَةً تَكُوْنُ نَكالاً ... وَرَواحاً مِنْ كُرْبَةٍ وَاغْتِمام

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٦٥).

فأصبح هذا الحديث قد شاع بمكة، وأصبح المشركون يتناشدونه بينهم، وهموا بالمؤمنين، فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا شَيْطَانٌ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الأَوْثَانِ يُقَالُ لَهُ مسعرٌ، وَاللهُ يُخْزِيهِ».

فمكثوا ثلاثة أيام فإذا هاتف على الجبل: [من الرجز]

نَحْـــنُ قَتَلْنــا مــسْعَرا ... لَمَّـا طَغَـى وَاسْـتَكْبَرا

وَسَـفَّهَ الْحَـقَّ وَسَـنَّ الْمُنْكَـرا ... قَنَّعْتُـهُ سَـيفاً حَروفـاً مُبْـتَرا

لِــشتمه نَبِــيِّنا الْمُطَهَّــرا

فقال رسول الله ﷺ: «ذَلِكُمْ عِفْرِيتٌ يُقَالُ لَهُ: سَمْحِجُ، سَمَّيْتُهُ: عَبْدَاللهِ؛ آمَنَ بِي، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ فِي طَلَبِهِ مُنْذُ أَيَّامٍ»(١).

٨٠ ـ ومن أعمال الرجيم: تخبيب الولد على أبيه، والعبد على سيده، والمرأة على سيدها، والرجل على زوجته؛ وكل ذلك حرام.

روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَبَّبَ زَوْجَةَ امْرِىءٍ أَوْ مَمْلُوكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا»(٢).

وقال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[البقرة: ١٠٢].

---

(١) ورواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٤/ ١٣)، وانظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (١/ ١٧٥).

(٢) رواه أبو داود (٥١٧٠).

وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ؛ فَأَقْرَبُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ فِتْنَةً، يَجِيْءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُوْلُ: مَا زِلْتُ بِفُلانٍ حَتَّى تَرَكْتُهُ وَهُوَ يَقُوْلُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُوْلُ إِبْلِيْسُ: لا وَاللهِ مَا صَنَعْتَ شَيْئاً، وَيَجِيْءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُوْلُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، فَيُقَرِّبُهُ وَيُدْنِيْهِ، وَيَلْتَزِمُهُ وَيَقُوْلُ: نَعَمْ أَنْتَ»[١].

روى أبو الفرج الأصبهاني في «الأغاني» عن عمرو بن دينار رحمه الله تعالى قال: قال الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه وعن أبيه ـ لذريح أبي قيس: أحل لك أن فرقت بين قيس ولبنى؟ أما سمعت عمر بن الخطاب يقول: ما أبالي أفرقت بين الرجل وامرأته، أم مشيت إليهما بالسيف[٢].

وروى المفسرون، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الشعب» عن كعب الأحبار رحمه الله تعالى: أنه قال لأبي هريرة رضي الله تعالى عنه: ألا أخبرك عن إسحاق؟

قال: بلى.

قال: أري إبراهيم أن يذبح إسحاق عليهما السلام فقال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذه آل إبراهيم لا أفتن أحداً منهم أبداً، فتمثل لهم الشيطان رجلاً يعرفونه، فأقبل حتى إذا خرج إبرهيم

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٣).

(٢) رواه أبو الفرج الأصبهاني في «الأغاني» (٩/ ٢١٥).

بإسحاق عليهما السلام ليذبحه دخل على سارة، فقال لها : أين أصبح إبراهيم غادياً بإسحاق؟

قالت : لبعض حاجته .

قال : لا والله .

قالت : فلِمَ غدا؟

قال : ليذبحه .

قالت : لم يكن ليذبح ابنه .

قال : بلى والله .

قالت سارة : فلِمَ يذبحه؟

قال : زعم أن ربه أمره بذلك .

قالت : قد أحسن أن يطيع ربه إن كان أمره بذلك .

فخرج الشيطان فأدرك إسحاق وهو يمشي على إثر أبيه، فقال : أين أصبح أبوك غادياً؟

قال : لبعض حاجته .

قال : لا والله، بل غدا بك ليذبحك .

قال : ما كان ليذبحني .

قال : بلى .

قال : لِمَ؟

قال : زعم أن الله أمره بذلك .

قال إسحاق عليه السلام: فو الله لئن أمره ليطيعنه.

فتركه الشيطان، وأسرع إلى إبراهيم عليه السلام، فقال: أين أصبحت غادياً بابنك؟

قال: لبعض حاجتي.

قال: لا والله، ما غدوت به إلا لتذبحه.

قال: ولِمَ أذبحه؟

قال: زعمت أن الله أمرك بذلك.

قال: فوالله لئن كان الله أمرني لأفعلن.

قال: فتركه ويئس أن يطاع.

فلما أخذ إبراهيم إسحاق عليهما السلام ليذبحه، وسلم إسحاق، عافاه الله وفداه بذبح عظيم، فقال: قم أيْ بنيَّ؛ فإن الله قد أعفاك، فأوحى الله تعالى إلى إسحاق: إني قد أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها.

قال: فإني أدعوك أن تستجيب لي: أيما عبد لقيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئاً فأدخله الجنة[1].

قلت: وهذا أحد القولين أن الذبيح إسحاق، والثاني أنه

---

(1) رواه الطبري في «التفسير» (٢٣/ ٨٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٤٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٣٢٧).

إسماعيل عليهما السلام.

ولكل من القولين أدلة تدل على صحته، ولا يبعد أن يكون الامتحان وقع لإبراهيم عليه السلام في ولديه ولهما في قصتين، وهذا أحسن ما يقال(١).

٨١ ـ ومن أعمال الرجيم وأخلاقه: مصادقة من أصر على مصارمة أخيه المسلم وهجره بغير حق، ورد التحية على من لم يستحقها.

روى الإمام أحمد ـ ورجاله رجال الصحيح ـ وأبو يعلى، والطبراني عن هشام بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ مُسْلِماً فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ؛ فَإِنَّهُمَا نَاكِبَانِ عَنِ الْحَقِّ مَا دَامَا عَلَى صِرَامِهِمَا، وَأَوَّلُهُمَا فَيْئاً ـ أَي: رُجُوْعَاً ـ إِلَى الْمُصَافَاةِ يَكُوْنُ سَبْقُهُ بِالْفَيْءِ كَفَّارَةً لَهُ وَإِنْ سَلَّمَ فَلَمْ يَقْبَلْ، وَرَدَّ عَلَيْهِ سَلامَهُ رَدَّتْ عَلَيْهِ الْمَلائِكَةُ، وَرَدَّ عَلَى الآخَرِ الشَّيْطَانُ، وَإِنْ مَاتَا عَلَى صِرَامِهِمَا لَمْ يَدْخُلا الْجَنَّةَ جَمِيْعَاً أَبَدَاً»(٢).

---

(١) قال ابن القيم في «زاد المعاد» (١/ ٧١): إسماعيل هو الذبيح على القول الصواب، عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق؛ فباطل بأكثر من عشرين وجهاً. وذكرها.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٠)، وأبو يعلى في «المسند» (١٥٥٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ١٧٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٦٦): ورجال أحمد رجال الصحيح.

٨٢ ـ ومنها: التجسس والاستماع إلى حديث قوم يكرهون سماعه.

روى البخاري عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْمَلائِكَةَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ تَنْزِلُ فِيْ الْعَنَانِ ـ وَهُوَ السَّحَابُ ـ فَتَذْكُرُ الأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِيْنُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ، فَتُوْحِيْهِ إِلَى الْكُهَّانِ، فَيَكْذِبُوْنَ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ مِن عِنْدِ أَنْفُسِهِم»(١).

وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيْثِ، وَلا تَجَسَّسُوا، وَلا تَنَافَسُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَكُوْنُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً»(٢).

٨٣ ـ ومنها: إيقاع الناس في التهمة وسوء الظن فيمن لا يساء به الظن.

روى الشيخان عن صفية بنت حيي رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا؛ إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ».

---

(١) رواه البخاري (٣٠٣٨).

(٢) رواه البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٥٦٣).

فقالا: سبحان الله يا رسول الله!

قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيْتُ أَنْ يَقْذِفَ فِيْ قُلُوْبِكُمَا سُوْءاً ـ أو قال: شَيْئاً ـ»[1].

٨٤ ـ ومنها: إساءة الظن بالله تعالى، وبأوليائه ومن لا يساء به الظن.

فإن إبليس لما عرض الله تعالى على الملائكة أنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[البقرة: ٣٠]، فيروى أن الذي قال ذلك هو إبليس[2]، فأساء الظن بربه أن يخلق ما لا حكمة في خلقه، وبآدم حيث ظن فيه الإفساد.

وقال إبليس لآدم وحواء: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾[الأعراف: ٢٠] الآية، فأساء الظن بربه.

فتلك كلها أخلاق شيطانية.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾[الحجرات: ١٢].

وروى البخاري عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَسَاءَ بِأَخِيْهِ الظَّنَّ فَقَدْ أَسَاءَ بِرَبِّهِ ﷻ؛ إِنَّ اللهَ تَعَالَى

---

(١) رواه البخاري (٣١٠٧)، ومسلم (٢١٧٥).

(٢) انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٧/ ٣٩٨).

يَقُوْلُ: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾[الحجرات: ١٢]»[١].

وفي «أدبه المفرد» عن أبي العالية رحمه الله تعالى قال: كنا نؤمر أن نختم على الخادم ونكيل ونعد؛ كراهية أن يتعودوا خلق سوء أو يظن أحدنا ظن سوء[٢].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً[٣].

٨٥ ـ ومنها: حمل الإنسان على الأشر والبطر، والفخر والخيلاء، والكبر واتباع الهوى.

روى ابن عساكر عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ مَصَالِي[٤] وَفُخُوْخاً، وَمِنْ مَصَالِيْهِ وَفُخُوْخِهِ البَطَرُ بِنِعَمِ اللهِ، وَالْفَخْرُ بِعَطَاءِ اللهِ، وَالْكِبْرُ عَلَى عِبَادِ اللهِ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى فِي

---

(١) لم أقف عليه عند البخاري، ولكن رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٨٢٥)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٥٦٥) إلى ابن مردويه، وعزاه (٧/ ٥٦٦) إلى ابن النجار.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٦٧)، وكذا المروزي في «البر والصلة» (ص: ١٨١).

(٣) ورواه ابن أبي الدنيا في «مدارة الناس» (ص: ٥٠)، ورواه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص: ٩٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣٥٩).

(٤) المصالي: شبيهة بالشرك، تنصب للطير وغيرها.

غَيْرِ ذَاتِ اللهِ»[1].

٨٦ ـ ومنها: تمنية الإنسان بما لا يليق به، أو ما يليق به ولا يستطيعه خصوصاً من أمور الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾[النساء: ١٢٠].

روى الطبراني بإسناد رجاله رجال الصحيح، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إذا ركب الرجل الدابة فلم يذكر الله ردفه الشيطان، فقال له: تغَنَّ، فإن لم يحسن قال له: تمَنَّ[2].

٨٧ ـ ومنها: تحزين المؤمن، وإدخال الهم والغم عليه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة: ١٠].

وروى الشيخان عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلاثَةً فَلا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُوْنَ الثَّالِثِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»[3].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ١٢٤)، وكذا البخاري في «الأدب المفرد» (٥٥٣).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٧٨١)، وكذا عبد الرزاق في «المصنف» (١٩٤٨١). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٣١): رواه الطبراني موقوفاً، ورجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه البخاري (٥٩٣٠)، ومسلم (٢١٨٣).

ورويا والإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلاثَةً فَلا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُوْنَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»(١).

وروى ابن ماجه عن عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرُّؤْيَا ثَلاثَةٌ: مِنْهَا تَهَاوِيْلُ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيُحْزِنَ ابْنَ آدَمَ، وَمِنْهَا مَا يُهِمُّ الرَّجُلُ فِيْ يَقظَتِهِ، وَمِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِيْنَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ»(٢).

وروى الشيخان، وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَقَارَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِبُ، وَأَصْدَقُهُمْ رُؤْيَاً أَصْدَقُهُمْ حَدِيْثاً.

وَالرُّؤْيَا ثَلاثَةٌ: رُؤْيَا بُشْرَى مِنَ اللهِ عز وجل.

وَرُؤْيَا بِمَا يُحَدِّثُ بِهِ الرَّجُلُ نَفْسَهُ؛ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَه فَلا يُحَدِّثْ بِهِ، وَلْيَقُمْ وَلْيُصَلِّ.

وَرُؤْيَاً مِنْ تَحْزِيْنِ الشَّيْطَانِ»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٥٩٣٢)، ومسلم (٢١٨٤)، والإمام أحمد في «المسند» (١/ ٤٣١)، والترمذي (٢٨٢٥)، وابن ماجه (٣٧٧٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٩٠٧)، وكذا ابن حبان في «صحيحه» (٦٠٤٢).

(٣) رواه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٢٦٣).

ويؤخذ من هذا الحديث: أن تبشير المؤمن خلق رباني، وتحزينه خلق شيطاني؛ وهو ظاهر.

وروى الستة عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «الرُّؤْيَا مِنَ اللهِ، وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ شَيْئاً يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ لِيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا؛ فَإِنَّهَا لا تَضُرُّهُ»(١).

وروى الإمام أحمد، والبخاري، والترمذي عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ الرُّؤْيَا يُحِبُّهَا فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَيْهَا وَلْيُحَدِّثْ بِهَا، وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ شَرِّهَا وَلا يَذْكُرْهَا لأَحَدٍ؛ فَإِنَّهَا لا تَضُرُّهُ»(٢).

وروى مسلم، وأبو داود، وابن ماجه عن جابر رضي الله تعالى عنه، وابن أبي شيبة عن الزبير رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ الرُّؤْيَا يَكْرَهُهَا فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلاثاً، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ثَلاثاً، وَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٣١١٨)، ومسلم (٢٢٦١)، وأبو داود (٥٠٢١)، والترمذي (٢٢٧٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٦٥٥)، وابن ماجه (٣٩٠٩).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٨)، والبخاري (٦٥٨٤)، والترمذي (٣٤٥٣).

(٣) رواه مسلم (٢٢٦٢)، وأبو داود (٥٠٢٢)، وابن ماجه (٣٩٠٨)، وكذا رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٥٤٥) كلهم عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه.

روى ابن السني عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَى أَحَدُ مِنْكُم رُؤْيَاً يَكْرَهُهَا فَلْيَتْفلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَسَيِّئَاتِ الأَحْلامِ؛ فَإِنَّهَا لا تَكُوْنُ شَيْئَاً»(١).

وروى مسلم عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ، وَالرُّؤْيَا السُّوْءُ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَمَنْ رَأَى رُؤْيَا فَكَرِهَ مِنْهَا شَيْئَاً فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ، وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهَا لا تَضُرُّهُ، وَلا يُخْبِرْ بِهَا أَحَدَاً، فَإِنْ رَأَى رُؤْيَا حَسَنَةً فَلْيُبْشِرْ بِهَا، وَلا يُخْبِرْ بِهَا إِلاَّ مَنْ يُحِبُّ»(٢)؛ أي: من كان حبيباً له أو محباً له؛ فإنه إذا كان غير صفة المحبة حسده على تلك الرؤيا، أو احتقره منها، أو تهكم بها عليه، أو نسبه إلى الكذب.

وروى الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقَصَّ الرُّؤْيَا إِلاَّ عَلَى عَالِمٍ أَوْ نَاصِحٍ»(٣).

وروى ابن ماجه عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اعْتَبِرُوْهَا ـ يَعْنِي: الرُّؤْيَا ـ بِأَسْمَائِهَا وَكَنُّوهَا بِكُنَاهَا؛ فَإِنَّ الرُّؤْيَا لأَوَّلِ عَابِرٍ»(٤).

---

(١) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص: ٦٩٣).

(٢) رواه مسلم (٢٢٦١) بهذا اللفظ، وقد تقدم الحديث قريباً من رواية الستة.

(٣) رواه الترمذي (٢٢٨٠) وصححه.

(٤) رواه ابن ماجه (٣٩١٥). وضعف ابن حجر إسناده في «فتح الباري» (١٢/ ٤٣٢).

وروى هو وأبو داود عن أبي رزين رضي الله تعالى عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ يُفَسَّرْ؛ فَإِذَا عُبِرَتْ وَقَعَتْ».

قال: وأحسبه قال: «لا تَقُصَّهَا إلاَّ عَلَى وَادٍّ، أَوْ ذِي رَأْيٍ»(١).

هكذا وجدت لفظ الحديث، واشتهر بلفظ: «الرُّؤْيَا عَلَى جَنَاحِ طَائِرٍ، مَتَى قُصَّتْ وَقَعَتْ».

والظاهر أن له أصلاً بهذا اللفظ؛ لأن شيخ الإسلام والدي رضي الله تعالى عنه ـ وكان إمام الحديث في عصره ـ عنده بهذا اللفظ، فقال: [من مجزوء الرجز]

رُؤْيَا الْمَنَامِ مِثْلَمَا ... لَنَا النَّبِيُّ قَدْ نَعَتْ
عَلَى جَنَاحِ طَائِرٍ ... فَحَيْثُ قُصَّتْ وَقَعَتْ

وقد استوفينا هنا أكثر آداب الرؤيا، ولذلك أوردت هذه الأحاديث فيها، ولها مناسبة تامة بهذا المحل.

*** فَائِدَةٌ:**

روى القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا في كتاب «الجليس والأنيس» عن أبي الأصبع قال: كان رجل من همذان في الكوفة يذكر بعبادة، فلزم بيته وترك الناس، فكان لا يخرج من بيته إلا لصلاة

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٩١٤)، وأبو داود (٥٠٢٠)، وكذا الترمذي (٢٢٧٩) وصححه.

مكتوبة، أو حق يلزمه لا يجد منه بداً، وكان صديقاً للربيع بن خُثيم، وكانا لا يأتيان أحداً إلا أحدهما لصاحبه، وكان الهمذاني لا ينام من الليل إلا قليلاً، فنام ساعته التي كان ينام فيها، فأتاه آتٍ في منامه فمغثه مغثاً شديداً، ثم قال له: ائت الربيع بن خُثيم فقل له: إنك من أهل النار، ثم تنحى، فانتبه الهمذاني، فتعاظمه ذلك، وقال الربيع بن خُثيم: فلم يأته وأبطأ عنه، قال: ثم أتاه في الليلة الأخرى وهو نائم فمغثه مغثاً، فقال له: ألم أقل لك أن تأتي الربيع بن خُثيم وتقول له: إنك من أهل النار، لئن لم تفعل لأفعلن بك، ثم تنحى عنه، فانتبه الهمذاني وقد تعاظم ذلك، وقال الربيع بن خُثيم: فلم يأته، فجاءه في الليلة الثالثة وفعل به كذلك، فلما أصبح ورأى الربيع أنه قد أبطأ عنه أتاه، فدخل عليه فسلم عليه، فرآه متثاقلاً عنه، فقال: يا أخي! ما لك؟ أخبرني، فأخبره بما لقي تلك الليالي الثلاث وبما أمره، قال: فقال الربيع: إنا لله وإنا إليه راجعون، يا أخي! إنما هذا الشيطان فأعيذك بالله ونفسي من الشيطان، وتفل الربيع عن يساره ثلاث تفلات، وتعوذ بالله من الشيطان، ثم رجع إلى منزله، فلما كانت الليلة المقبلة نام الهمذاني في ساعته التي كان ينام فيها وقد قرأ بعض البقرة مما سمع من الربيع، فإذا هو قد أتاه آت في منامه بيده ساجور كلب أسود في وجه الكلب ثلاث جراحات، قال له: أتدري ما أنا؟

قال: لا.

قال: فهل تدري ما هذا الكلب؟

قال: لا.

قــال: هذا الشيطان الذي دخل بينك وبين الربيع بن خُثيم، قد وكلت بكما وبهذا إلى أن تموتا لا يفلت من هذا الساجور.

تدري ما هذه الجراحات التي بوجه الكلب؟

قال: لا.

قال: تفلات الربيع بن خُثيم على يساره.

قال: فانتبه الهمذاني فلما أصبح غدا على الربيع فأخبره بما رأى، فحمد الله تعالى، فقال: قد أخبرتك أنه من عمل الشيطان[1].

قلت: إنما فهم الربيع أنه الشيطان من تحزينه للهمـذاني بــسبب ما قال له عن أخيه.

وفي الحديث السابق: أن من الرؤيا تهاويل من الشيطان ليحزن ابن آدم، فاستظهر الربيع أمره بالعلم، وإن شئت فقل: هو من باب الكرامة والكشف.

وفي هذه القصة أن من أفعال الشيطان إدخال الحزن والغيظ على العبد الصالح، والتفريق بين المتواخيين بأي ممكن، وإزالة المؤمن عن حسن الاعتقاد في الصالحين، والكذب على الله، والخوض في علم الغيب.

---

(١) رواه المعافى بن زكريا في «الجليس الصالح والأنيس الناصح» (ص: ٣٣٩).

٨٨ ـ ومن أعماله قبحه الله: تخويف المؤمن وازعاجه وترويعه؛ وكل ذلك حرام.

وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَوَّعَ مُؤْمِناً لَمْ يُؤَمِّنِ اللهُ رَوْعَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَعَى بِمُؤْمِنٍ أَقَامَهُ اللهُ مَقَامَ ذُلٍّ وَخِزيٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه البيهقي في «الشعب» عن أنس رضي الله تعالى عنه[1].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٧٥].

قيل: أصله: يخوفكم من أوليائه، ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾[2].

ومقتضى الآية: أن الإنسان مهما راعه من قبل الشيطان أو من قبل أولياء الشيطان فلا يلتفت إليه؛ فإنه لا يضره، بل يتمثل عظمة الله تعالى وسطوته ليمنعه الخوف من الله تعالى من طاعة الشيطان وطاعة أوليائه ليذهب عنه خوفه منهم، فلا يحمل ذلك على طاعتهم.

وأيضاً فإن العبد إذا خاف من الله تعالى خاف منه الشيطان

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١١١١٧) وقال: تفرد به مبارك بن سحيم عن عبد العزيز.

قال ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٢١): قال البخاري والنسائي: مبارك ابن سحيم منكر الحديث.

(٢) انظر: «زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٥٠٦).

وأولياؤه؛ لما رواه العقيلي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَافَ الْعَبْدُ اللهَ أَخَافَ اللهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِذَا لَمْ يَخَفِ الْعَبْدُ اللهَ أَخَافَهُ اللهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[1].

وروى أبو الشيخ بن حيان بإسناد ضعيف، عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَافَ اللهَ خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَمَنْ خَافَ غَيْرَ اللهِ خَافَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[2].

وبمقتضى هذين الحديثين فمن خاف الله تعالى فلا يخاف الشيطان؛ أي: ولا يخاف بطشه ولا ضرره؛ نعم يخاف أن يسلطه الله عليه، فمن خاف من تسلط الشيطان عنه لم يخف في الحقيقة إلا من الله تعالى؛ [لأنه] لا يتسلط إلا بتسليطه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[المجادلة: ١٠].

وهذا الخوف من جمل الخوف من الله تعالى الذي يدفع الخوف من الشيطان عن الإنسان.

والحاصل أنك مهما خفت أن يسلط الله عليك الشيطان فقد كفيته؛ فإن ذلك يدعوك إلى الاستعاذة بالله تعالى منه، كما قال الله تعالى:

---

(١) رواه العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٢٧٤) عن عمرو بن زياد، ونقل عن أبي زرعة: أنه كذاب.

(٢) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٠٦٥): رواه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب «الثواب» من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جداً، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الخائفين» بإسناد ضعيف معضل.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ﴾[الأعراف: ٢٠٠].

ومهما خفت من الشيطان لذاته فهو لوهن في خوفك من الله تعالى وفي إيمانك؛ لأن الله تعالى شجعك، وعرفك أن الخوف منه يدفع عنك الخوف من الشيطان لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[آل عمران: ١٧٥]؛ لأن الضمير يعود إلى الشيطان وأوليائه معاً، وهو أحسن من أن يعود إلى الأولياء فحسب.

وقال مجاهد رحمه الله تعالى: كنت ألقى من رزية[١] الغول والشياطين بلاء وأرى خيالاً، فسألت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، فقال: اجترىء على ما رأيت، ولا تفْرَقْ منه؛ فإنه يفرق منك كما تفرق منه، ولا تكن أجبن السوادين.

قال مجاهد: فرأيته، فشددت عليه بعصا حتى سمعت وقعته[٢].

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله تعالى: إذا أحس أحدكم بالشيطان فلينظر إلى الأرض، وليتعوذ ـ أي: بالله تعالى ـ منه[٣]. رواهما ابن أبي شيبة.

وروى الإمام عبدالله بن المبارك في كتاب «الزهد والرقائق»، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال: كان رجل عابد من السياح أراده الشيطان من قبل الشهوة والرغبة

---

(١) في «المصنف»: «رؤية» بدل «رزية».

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٣٦٠٢).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٣٦٠٥).

والغضب، فلم يستطع له شيئاً، فتمثل له بحية وهو يصلي، فالتوى بقدميه وجسده حتى طلع عند رأسه، فلم يلتفت من صلاته ولا استأخر منها، فلما أراد أن يسجد التوى في موضع سجوده، فلما وضع رأسه للسجود فتح فاه ليلتقم رأسه، فجعل يفرك لحيته يستمكن من الأرض بسجدته، فقال له الشيطان: إني أنا صاحبك الذي كنت أخوفك وأتيتك من قبل الشهوة والرغبة والغضب، وأنا الذي كنت أتمثل لك بالسباع أو بالحية فلم أستطع لك شيئاً، وقد بدا لي أن أصادقك ولا أريد ضلالتك بعد اليوم.

فقال له: لا يومَ خوفتني بحمد الله خفتك، ولا لي اليوم حاجة في مصادقتك.

قال: سلني عما شئت أخبرْك.

قال: وما عسيت أن أسألك عنه؟

قال: لا تسألني عن مالك ما فعل بعدك؟

قال: لو أردت ذلك لم أفارقه.

قال: فلا تسألني عن أهلك من مات منهم بعدك؟

قال: أنا ميت بعدهم أو قبلهم.

قال: فلا تسألني عما أضل به بني آدم؟

قال: بلى.

قال: فأخبرني ما أوثق في نفسك أن تضلهم به؟

قال: ثلاثة أخلاق من لم يستطع بشيء منها غلبنا الشح والحدة والسكر؛ فإن الرجل إذا كان شحيحاً قلَّلنا ماله في عينه، ورغبناه في أموال الناس، فإذا كان حديداً أدرناه بيننا كما يتداول الصبيان الكورة[1]، ولو كان يحيي الموتى بدعوته لم نيأس منه فإنما نبني ونهدمه بما نكمله[2]، وإذا سكر اقتدناه كما يقتاد من أخذ العنز بأذنها حيث يشاء[3].

وقد حكي عن الشيخ عبد القادر الكيلاني نظير هذه القصة في تصور الشيطان له في صورة الحية وهو في الصلاة، وفي قصته: إن الشيطان قال له: فتنت بذلك قبلك سبعين صدِّيقاً، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

وأشرت إلى الثلاثة الأخلاق المشار إليها في أثر وهب بقولي:

[من السريع]

بِالشُّحِّ وَالْحِدَّةِ وَالسُّكْرِ ... يَسْتَمْكِنُ الشَّيْطانُ فِيْ الْمَكْرِ
فَمَنْ خَلا مِنْها فَشَيْطانُهُ ... فِي غايَةِ الذِّلَّةِ وَالْقَهْرِ

---

(١) في «حلية الأولياء»: «الكرة» بدل «الكورة».

(٢) في «حلية الأولياء»: «فإن ما يبني يهدمه لنا بكلمة».

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٥١٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٥٢).

لَـيْسَ لَـهُ فِـي خَمْـرِهِ طاقَـةٌ وَلا عَلَيْـهِ الـدَّهْرَ يَـسْتَجْرِي
بِأَحْـسَنِ الأَخْـلاقِ مِنْـهُ احْتَجِـزْ وَاشْـهَرْ عَلَيْـهِ عُـدَّةَ الـذِّكْرِ
دارَتْ عَلى الشَّيْطانِ مِنْ ذِكْرِ مَنْ عَـلا اسْـمُهُ قاصِـمَةُ الظَّهْـرِ

٨٩ ـ ومن أعمال اللعين وأخلاقه: إيذاء المؤمن في بدنه وأهله وولده وماله، والتصرف في ملك الغير بغير إذنه خصوصاً بالإتلاف والإفساد، وقسوة القلب على خلق الله تعالى، وعدم الرحمة والشفقة.

وكل هذه الأخلاق شيطانية، وقد نهى الله تعالى عنها، وأرشد إلى أضدادها.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[البقرة: ٢٧٥].

الآية نص في أن الشيطان يتخبط الإنسان، وهو مذهب أهل السنة.

وذهب المعتزلة إلى إنكار ذلك، وتأولوا الآية بأنَّ الكلام فيها جار على اعتقادهم أن الشيطان يمس.

وهذا التأويل مكابرة في منطوق الآية.

وتخبط الإنسان ومسه إيذاء له في جسده، وفكره، وقلبه، وعقله، وحواسه.

وروى ابن سعد في «طبقاته»، والبيهقي في «الدلائل» عن عائشة

رضي الله تعالى عنها: أنه قيل للنبي ﷺ ـ تعني: في مرضه ـ: إنا نتخوف أن يكون بك ذات الجنب.

قال: «إِنَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُسَلِّطَهُ عَلَيَّ»[1].

وروى ابن سعد عنها أيضاً قال: دخلت أم بشر بن البراء رضي الله عنها على رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه وهو محموم فمسته، فقالت: ما وجدت مثل وعك عليك على أحد.

فقال: «كَمَا يُضَاعَفُ لَنَا الأَجْرُ كَذَلِكَ يُضَاعَفُ عَلَيْنَا الْبَلاءُ، مَا يَقُوْلُ النَّاسُ؟»

قالت: يزعمون أن بك ذات الجنب.

قال: «مَا كَانَ اللهُ لِيُسَلِّطَهَا عَلَيَّ، إِنَّمَا هِيَ هَمْزَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَكِنَّهُ مِنَ الأَكْلَةِ الَّتِي أَكَلْتُ أَنَا وَابْنُكِ يَوْمَ خَيْبَرَ، مَا زَالَ يُصِيبُنِي مِنْهَا عداءٌ حَتَّىْ كَانَ هَذَا أَوَانَ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي».

فمات رسول الله ﷺ شهيداً[2].

وقد تقدم أن رسول الله ﷺ قال لحمنة بنت جحش رضي الله تعالى عنها في الاستحاضة: «إِنَّهَا رَكْضَةٌ مِنَ الشَّيْطانِ»[3].

وقال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ

---

(1) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٢٣٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ١٦٩).

(2) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ٣١٤).

(3) تقدم تخريجه.

﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[ص: ٤١]؛ أي: تعب وألم، كما قال البيضاوي[١].

وقال صاحب «القاموس»: النصب ـ وبضمة وبضمتين ـ: الداء والبلاء[٢].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: عرج الشيطان فقال: أي رب! سلطني على أيوب عليه السلام.

قال: قد سلطتك على ماله وولده، ولم أسلطك على جسده.

قال: فنزل فجمع جنوده، فقال: إني سلطت على أيوب فأروني سلطانكم.

قال: فصاروا نيراناً، ثم صاروا ماء، وبينما هم بالمغرب إذ هم بالمشرق، فأرسل طائفة إلى زرعه، وطائفة إلى إبله، وطائفة إلى بقره، وطائفة إلى غنمه، وقال: اعلموا أنه لا يعتصم منكم إلا بمعرفة، فأتوه بالمصائب بعضها على بعض.

قال: فجاء صاحب الزرع فقال: يا أيوب! ألم تر إلى ربك ﷻ أرسل على زَرْعَك ناراً فأحرقه؟ فحمد الله.

وجاء راعي الإبل فقال: يا أيوب! ألم تر ربك ﷻ أرسل إلى إبلك عدواً فذهب بها؟

وجاء راعي البقر فقال مثل ذلك، وجاء صاحب الغنم فقال مثل

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٤٨).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٧٦) (مادة: نصب).

ذلك، وتفرد هو لبنيه فجمعهم في بيت أكبرهم، فبينما هم يأكلون ويشربون، فجمع أركان البيت فهدم عليهم البيت، قال: فجاء إلى أيوب عليه السلام في هيئة الغلام وفي أذنه قرطان، قال: يا أيوب! ألم تر إلى بنيك اجتمعوا في بيت أكبرهم يأكلون ويشربون فبينما هم كذلك إذ جاءت ريح فأخذت بأركان البيت فألقته عليهم؟ فلو رأيتهم حين اختلطت دماؤهم ولحومهم بطعامهم وشرابهم!

فقال له أيوب: فأين كنت أنت؟

قال: كنت معهم.

قال: وكيف انفلتت؟

قال: انفلت.

قال: أنت الشيطان.

قال عليه السلام: أنا الآن مثل يوم خرجت من بطن أمي، فقام فحلق رأسه، ثم قام يصلي، فأنَّ الشيطان أنَّةً سمعها أهل السماوات وأهل الأرض، ثم عرج فقال: أي رب! قد اعتصم، وإني لا أستطيعه إلاَّ بتسليطك؛ فسلطني عليه.

قال: قد سلطتك على جسده، ولم أسلطك على قلبه.

قال: فنزل فنفخ تحت قدمه، فقرح من قرنه إلى قدمه حتى بدا حجاب بطنه، وألقى عليه الرماد، قال: فقالت امرأته ذات يوم: يا أيوب! قد والله نزل بي من الجهد والفاقة ما بعت قرناً من قروني برغيف فأطعمتك، فادع ربك ﷻ فليشفك.

قال: ويحك! كنا في النعماء سبعين عاماً، فاصبري حتى نكون في الضراء سبعين عاماً.

قال: وكان ذلك البلاء سبع سنين.

قال: وقعد الشيطان في الطريق فأخذ تابوتاً يتطبب، فأتته امرأة أيوب فقالت: يا عبدالله! إن ههنا إنساناً مبتلى فهل لك أن تداويه؟

قال: إن شاء الله فعلت على أن يقول لي كلمة واحدة إذا برأ؛ يقول: أنت شفيتني.

قال: فأتته فقالت: يا أيوب! إن ههنا رجلاً يزعم أنه يداويك على أنك تقول كلمة واحدة: أنت شفيتني.

قال: ويلك! ذلك الشيطان، لله علي إن شفاني الله تعالى أن أجلدك مئة جلدة، فبينما هم كذلك إذ جاء جبريل عليه السلام، فأخذ بيده فقال: قم، فقام فقال له: اركض برجلك، فركض برجله، فنبعت عين، فقال: اشرب، فشرب، قال: يقول الله ﷻ: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[ص: ٤٢].

ثم ألبسه حلة من الجنة، وجاءت امرأته فقالت: يا عبدالله! أين المبتلى الذي كان ههنا، لعل الذئاب ذهبت به أو الكلاب.

قال: ويحك! أنا أيوب، قد رد الله ﷻ إلي نفسي.

قال: فقالت يا عبدالله! اتق الله ﷻ، ولا تسخر بي.

قال: ويحك! أنا أيوب.

قال: ورد الله إليه ماله وولده عياناً، ومثلهم معهم، وأمطر عليه جراداً من ذهب، قال: فجعل يأخذ الجراد بيده ثم يجعله في ثوبه، وينشر أثناءه، فيأخذ فيجعله فيه، فأوحى الله ﷻ إليه: يا أيوب! أما شبعت؟

قال أيوب عليه السلام: من ذا الذي يشبع من فضلك ورحمتك؟

قال: فأخذ ضِغثاً بيده فجلدها، قال: وكان الضغث مئة شمراخ، فجلدها به جلدة واحدة[1].

* **فائِدَةٌ:**

قال الثعلبي في «تفسيره»: واختلفوا في سبب ابتلاء أيوب عليه السلام، فقال وهب: استعان رجل أيوب عليه السلام على ظالم يدرأه عنه فلم يمنعه عنه، فابتلي.

وروى حبان عن الكلبي: أن أيوب عليه السلام كان يغزو ملكاً كافراً، وكانت مواشي أيوب في ناحية ذلك الملك، فداهنه فلم يغزه، فابتلي.

وقيل: كان أيوب عليه السلام كثير المال فأعجبه ماله، فابتلي، انتهى[2].

قلت: والقولان الأخيران بعيدان عن حال الأنبياء عليهم السلام؛

---

(١) ورواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٤٤).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٢١١).

لأن المداهنة والعجب كبيرتان، والأنبياء عليهم السلام معصومون.

وروى الإمامُ ابنُ الإمامِ عبدُالله بن أحمد في «زوائد الزهد» عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى قال: لما أصاب أيوب الذي أصابه أرسل إلى أصحابه فقال: أتدرون لأي شيء أصابني هذا؟

قالوا: أما نحن فلم يظهر لنا منك شيء نعرفه إلا أن تكون أسررت شيئاً لم يكن لنا به علم.

فقاموا من عنده، فذهبوا فلقوا إنساناً يتكلم في العلم، فقال: لأي شيء دعاكم نبي الله؟ فأخبروه، قال: فأنا أخبره بما أصابه هذا، فأتاه فسأله، فقال: إنك شربت شربة لم تحمد الله عليها، ولم تشكر النعمة، ولعلك استظللت في ظل ولم تشكر النعمة[1].

قلت: وفي هذا إشارة إلى أن شكر النعمة يحفظها من التغير والتحول، بل ينميها ويزكيها، والإعراض عن الشكر ـ ولو عن قليل النعم ـ تعرض لزوالها والابتلاء فيها.

وقلت في المعنى: [من السريع]

لا تَحْتَقِرْ أَصْغَرَ ما تُعْطَى ... فَتَتْرُكَ الشُّكْرَ عَلى الْمُعْطَى
مَنْ يَشْكُرِ اللهَ فَقَدْ قَيَّدَ ... النَّعْماءَ وَاسْتَوْثَقَها رَبْطا
هَلاَّ شَكَرْتَ اللهَ مَنْ يَقْبِضُ الـ ... أَرْزاقَ أَوْ يَبْسُطُها بَسْطا

---

(١) انظر: «الزهد» (ص: ٤٣).

قَدْ نَبُلَ الشَّاكِرُ فِي شُكْرِهِ ... وَتارِكُ الشُّكْرِ قَدِ انْحَطَّا
مَنْ قَصُرَتْ نعمتُه دُونَه ... فلْيَلُمِ التقصيرَ والفَرْطَا

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن نوف البكالي قال: مر نفر من بني إسرائيل على أيوب عليه السلام، فقالوا: ما أصابه ما أصابَه إلا بذنب عظيم أصابه.

قال: فسمعها أيوب فقال عند ذلك: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣]، قال: وكان قبل ذلك لا يدعو[١].

وعن عبدالله بن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب عليه السلام أخوان، فأتياه ذات يوم فوجدا ريحاً، فقالا: لو كان الله ﷻ علم من أيوب خيراً ما بلغ به كل هذا.

وفي رواية: لو كان لأيوب عند الله خير ما بلغ به كل هذا.

قال: فما سمع شيئاً كان أشد عليه من ذلك، فقال: اللهم إن كنت تعلم أني لا أبيت شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدقني، قال: فصدق وهما يسمعان.

ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أني لم ألبس قميصاً قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني، قال: فصدق وهما يسمعان.

ثم خر ساجداً ثم قال: اللهم إني لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي.

---

(١) تقدم تخريجه.

قال: فكشف الله ﷻ ما به[1].

فعد أيوب عليه السـلام كلام الناس فيه أشـد مما ابتلي به من السقم، وفقد الولد والمال.

وأقول: [من السريع]

وَأَشَدُّ مِنْ سُقْمٍ وَمِنْ فاقَة ... وَمِنْ بَلِيَّاتٍ لِمَنْبُوذِ
قَوْلُ خِلٍّ أَيُّ ذَنْبٍ أَتى ... أَوِ اسْتَحَقَّ الْعَبْدُ ما أُوذِي
اللَّوْمُ لِلْحُرِّ كَوَقْعِ الْقَنا ... وَمَوْتُ ذِي اللَّوْمِ كَفالُوذِ

*** فائِدَةٌ أُخْرَى:**

روى الإمام أحمد في «الزهد» عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى: أنه سئل: ما كان شريعة أيوب عليه السلام؟

قال: التوحيد وصلاح ذات البين، وإذا أراد أحدهم حاجة إلى الله خر ساجداً ثم طلب حاجته.

قيل: فما كان ماله؟

قال: كان له ثلاثة آلاف فدان، مع كل فدان عبد، مع كل عبد وليدة، مع كل وليدة أتان وأربع عشرة ألف شاة، ولم يبت ليلة له ضيف وراء بابه ولم يأكل طعاماً إلا ومعه مسكين[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٤٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٤٢).

قلت: خطر لي أن البلاء إنما كان يكثر في الأمم الماضية ويعظم ـ ما لا تراه بحمد الله تعالى هذه الأمة ـ بسبب قلة تكاليفهم، وأن هذه الأمة لما كثرت تكاليفها وتشعبت شريعتها وهم يسمعون ويطيعون خف بلاؤها، فلم تعم بعذاب ولم تصب بجهد البلاء إلا من تعرض له بترك الطاعات، وكانت بلاياها رحمة وكفارة وتمحيصاً، ولا يقاربها تكاليف بني إسرائيل وإن كثرت، بل ما كان أكثر تكاليفهم إلا عقوبة لهم حيث كانوا يؤمرون ويبخلون، فيخالفون ويتعنتون، فشدد عليهم كما قال رسول الله ﷺ: «شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِم»(١).

* **تَنْبِيهانِ:**

الأَوَّلُ: يستحق أن يلحق بالشيطان ويوصف بالتشبه به، فكما فعله بأيوب عليه السلام من سقى أحداً سماً أو سحر أحداً حتى سقم أو أخذه الرعاف، أو سحر امرأة حتى أخذها النزيف، أو نحو ذلك؛ وكل هذه من الكبائر.

التَّنْبِيهُ الثَّانِي: علم مما رويناه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قصة أيوب عليه السلام: أن الشيطان أخذ تابوتاً وقعد في الطريق

---

(١) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (١/ ١٩٢) عن أبي قلابة يرفعه، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٨٩) عن أبي هريرة ﷺ، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه.

يتطبب حتى مرت عليه امرأة أيوب عليه السلام أن من أعمال إبليس اللعين القعود على الطريق لغير حاجة، بل لمجرد العبث بالناس، والسخرية بهم، والأذية لهم، وهذا حال من يقعد الآن على أبواب بيوت القهوات في عصرنا هذا، وهو عمل شيطاني كما علمت.

وقد روى الشيخان، وغيرهما عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُم وَالْجُلُوْسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيْقَ حَقَّهَا؛ غَضَّ الْبَصَرِ، وَكَفَّ الأَذَى، وَرَدَّ السَّلامِ، وَالأَمْرَ بِالْمَعْرُوْفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ»[1].

وعُلم أن من أخلاقه التطبب بغير علم، والتشبع بما لم يملك.

وقد روى أبو داود، وابن السني، وأبو نعيم كلاهما في «الطب»، والحاكم وصححه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ قَبْلَ ذَلِكَ فَهُوَ ضَامِنٌ»[2].

وروى مسلم عن عائشة، وهو والإمام أحمد، والبخاري، وأبو داود عن أختها أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَيْ زُوْرٍ»[3].

---

(١) رواه البخاري (٢٣٣٣)، ومسلم (٢١٢١).

(٢) رواه أبو داود (٤٥٨٦) وتوقف في صحته، والحاكم في «المستدرك» (٧٤٨٤)، وكذا النسائي (٤٨٣٠)، وابن ماجه (٣٤٦٦).

(٣) رواه مسلم (٢١٢٩) عن عائشة رضي الله عنها. =

٩٠ ـ ومن أخلاق اللعين: الظلم والجور والعسف كما يدل عليه فعله بأيوب عليه السلام.

ومن ثم شبَّه الحسنُ الحجاجَ بالشيطان فيما رواه أبو نعيم من طريق الطبراني عن ابن شوذب عن الحسن رحمه الله تعالى قال: دعا الحجاج أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، فقال له: ما أعظمُ عقوبةٍ عاقب بها النبي ﷺ؟ فحدثه بالذين قطع النبي ﷺ أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، ولم يحسمهم، وألقاهم بالحرة، ولم يطعمهم ولم يسقهم حتى ماتوا.

قال الحجاج: أين هؤلاء الذين يعيبون علينا والنبي ﷺ قد عاقب بهذا؟

فبلغ ذلك الحسن فقال: إن أنساً حميق؛ يعمد إلى شيطان يلتهب فيحدثه بهذا[1].

وإنما فعل ﷺ بأولئك ما فعل لأنهم كانوا مرتدين، وفعلوا ذلك الذي فعل بهم برعاء إبل الصدقة لما بعثهم ﷺ إلى الإبل ليشربوا من ألبانها وأبوالها لداء كان بهم، ثم نهى ﷺ عن المُثلة.

وظهر بذلك أن احتجاج الحجاج بالحديث غير صحيح، وكان

= ورواه مسلم (٢١٣٠)، والإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٣٤٥)، والبخاري (٤٩٢١)، وأبو داود (٤٩٩٧) عن أسماء رضي الله عنها.

(١) تقدم تخريجه.

ينبغي لأنس رضي الله تعالى عنه أن يحدثه بذنبهم، وأن ذلك كان قصاصهم، بل كان الأولى الإعراض عن هذا الحديث ولا يحدث به الحجاج أصلاً، ومن ثم عاب الحسن عليه ذلك، واعتذر عنه بالغفلة التي عبر عنها بالحماقة.

وحاصله أن أنساً رضي الله تعالى عنه لسلامة فطرته عزب عنه أن الحجاج إنما سأله ليحتج بحديثه على جوره وظلمه، وكان هذا السؤال وما رتبه على جوابه من جملة شيطانيَّةِ الحجاج، ألا ترى أن احتجاجه من قبيل احتجاج إبليس على إبائه عن السجود بما احتج به؟

٩١ ـ ومن أخلاق الشيطان لعنه الله تعالى: السعي في أذى المسلم والسعاية به، والمعاونة عليه في باطل.

روى أبو داود عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاءت فأرة فأخذت تجر الفتيلة، فجاءت بها فألقتها بين يدي رسول الله ﷺ على الخمرة التي كان قاعداً عليها، فاحترق منها مثل موضع درهم، فقال: «إِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوا سُرُجَكُمْ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدُلُّ مِثْلَ هَذِهِ عَلَى هَذَا فَتُحْرِقَكُمْ»(١).

٩٢ ـ ومنها: التزوير كما تقدم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في تزوير الشيطان على سليمان عليه السلام علم السحر.

ومن تزويراته التحلُّم بما لم يره، والكذب في المنام.

---

(١) تقدم تخريجه.

فقد حكى بعض العلماء أن إبليس لما عرض لإبراهيم عليه السلام ليثبطه عن ذبح ولده ظهر له في صورة شيخ كبير وهو يبكي ويحثو التراب على رأسه، فقال له إبراهيم عليه السلام: ما خطبك يا هذا؟

فقال له: كان لي ولد قد علق بقلبي حبه، فأتاني آت في منامي وقال لي: إن ربك يأمرك أن تذبح ولدك، فلما ذبحته عرض لي الشيطان وقال لي: أنا الذي غريتك حتى ذبحت ولدك، ولم يكن ذاك من قبل ربك.

قال: فأنا الآن أقرع سني ندماً لما فعلت بولدي، وقد ركبتني الأحزان وصرت كما ترى.

فعلم إبراهيم عليه السلام أنه الشيطان، فحصبه ومضى إلى أمر الله تعالى.

وقد روى ابن ماجه، والترمذي وصححه، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَحَلَّمَ كَاذِباً كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَيْسَ عَاقِداً بَيْنَهُمَا»(١).

٩٣ ـ ومنها: تغليط العلماء، والتزوير عليهم، ونسبة الاعتقاد السيىء إليهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٩١٦)، والترمذي (٢٢٨٣)، وكذا البخاري (٦٣٣٥).

ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الحج: ٥٢ ـ ٥٤].

٩٤ ـ ومنها: التزوير على ولاية القضاء والحكم، والحكم بين الناس بالباطل؛ وذلك كله من الكبائر.

روى الحاكم وصححه، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾[ص: ٣٤]؛ قال: هو الشيطان الذي كان على كرسيه يقضي بين الناس أربعين يوماً.

قال: وكان لسليمان عليه السلام جارية يقال لها: جرادة، وكان بين بعض أهلها وبين قومه خصومة، فقضى بينهم بالحق إلا أنه ود أن الحق لأهلها، فأوحى الله تعالى إليه: أن سيصيبك بلاء[1].

وروي أن سليمان عليه السلام كان ملكه في خاتمه، وكان نقشه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وكان يكره أن يدخل الخلاء والخاتم في يده، وكان يدع الخاتم عند بعض نسائه ـ قيل: كان اسمها أمينة، وقيل: جرادة ـ فإذا خرج أخذ الخاتم، فتركه عندها ذات يوم، فجاء في غيبته شيطان على صورته، فطلب الخاتم من المرأة، فدفعته إليه، فجلس على كرسي سليمان أربعين يوماً يحكم بين الناس، ولم يسلط

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٢٣).

على نساء سليمان ولا على فراشه، فأنكرت بنو إسرائيل أحكامه وأقضيته، ففزع منهم الشيطان وخافهم، فطار من الكرسي وألقى الخاتم في البحر، وكان من أمر سليمان عليه السلام أن عاد إلى طلب الخاتم، فقالت المرأة: إن سليمان أخذه، فقال: أنا سليمان، فأنكروه وطردوه، فجاء يلتمس رزقه من البحر، ففتح عليه بسمكتين، فقعد ناحية ليصلح شأنهما، فشق بطن الواحدة فإذا هي التقطت الخاتم، فوجده في جوفها، فأخذه وسجد لله تعالى، وعادت إليه هيبته وملكه بإذن الله تعالى(١).

٩٥ ـ ومنها: استحلال الحرام وتحريم الحلال.

وقد فسر بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[البقرة: ١٦٨] كما تقدم.

وروى الحاكم وصححه، عن مسروق قال: أتى عبدالله ـ يعني: ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ـ بضرع، فقال للقوم: ادنوا، فأخذوا يطعمون، وكان رجل منهم في ناحية فقال عبدالله: ادن.

فقال: إني لا أريده.

فقال عبدالله: لِمَ؟

قال: لأني قد حرمت الضرع.

فقال عبدالله: هذا من خطوات الشيطان.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٥٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٤٧).

قال عبدالله: قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]؛ ادنُ وكُلْ وكَفِّر عن يمينك؛ فإن هذا من خطوات الشيطان[١].

وللشيخ عبد القادر الكيلاني رضي الله تعالى عنه مع الشيطان قصة في هذا الباب ستأتي.

٩٦ ـ ومنها: أكل الحرام.

أما ترى أنه يستبيح طعام من لم يذكر اسم الله عليه فيأكله كما في الحديث.

ومن اللطائف: ما رواه أبو الحسن بن جهضم في كتاب «بهجة الأسرار» عن بشر الحافي رحمه الله تعالى قال: إذا تعبد الشاب يقول إبليس لأعوانه: انظروا من أين مطعمه؛ فإن كان مطعمه مطعم سوء قال: دعوه ولا تشتغلوا به، يجهد وينصب، فقد كفاكم نفسه[٢].

٩٧ ـ ومنها: غصب أثواب الناس وأمتعتهم؛ وهو من الكبائر.

روى ابن عساكر عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشَّيَاطِيْنُ يَسْتَمْتِعُوْنَ بِثِيَابِكُم، فَإِذَا نزَعَ أَحَدُكُمْ ثَوْبَهُ فَلْيَطْوِهَا حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهَا أَنْفَاسُهَا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَلْبِسُ ثَوْباً مَطْوِيّاً»[٣].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٢٢٣).

(٢) ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٧٧٤) عن بشر عن يوسف بن أسباط.

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٣٣٨)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٣٦٩٥).

وروى ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» عن قيس بن أبي حازم قال: ما من فراش يكون في بيت مفروشاً لا ينام عليه أحد إلا نام عليه الشيطان[1].

٩٨ ـ ومنها: السرقة؛ وهي كبيرة.

وروى الطبراني في «الكبير» عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُرْسِلُوا الإِبِلَ هَمْلاً، صرُّوْهَا صَرّاً؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَرْضَعُهَا»[2].

وروى هو والبيهقي، وأبو نعيم ـ ورجال سنده موثقون ـ عن معاذ رضي الله تعالى عنه قال: ضم رسول الله ﷺ إليَّ تمر الصدقة فجعلته في غرفة لي، وكنت أجد فيه كل يوم نقصاناً، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال لي: «هُوَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ فَارْصُدْهُ»، فرصدته ليلاً، فلما ذهب هوي الليل أقبل على صورة الفيل، فلما انتهى إلى الباب دخل من خلل الباب على غير صورته، فدنا من التمر فجعل يلتقمه، فشددت علي ثيابي فتوسطته، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، يا عدو الله! وثبت إلى تمر الصدقة فأخذته وكانوا أحق به منك؟ لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، فعاهدني أن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» (ص: ٢٦).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦٢٧٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١٠٩): وفيه عمر بن موسى الأنصاري، وهو متروك.

لا يعود، فغدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «إِنَّهُ عَائِدٌ»، فرصدته الثانية والثالثة فصنع بي مثل ذلك، فقلت: يا عدو الله! عاهدتني مرتين وهذه الثالثة، فقال: إني ذو عيال، وما أتيتك إلا من نصيبين، ولو أصبت شيئاً دونه ما أتيتك، ولقد كنا في مدينتكم هذه حتى بعث صاحبكم، فلما نزلت عليه آيتان نفرنا منهما فوقعنا بنصيبين، ولا يقرآن في بيت إلا لم يلج فيه شيطان ثلاثاً، فإن خليت سبيلي علمتكهما، قلت: نعم، قال: آية الكرسي، وآخر سورة البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾[البقرة: ٢٨٥] إلى آخرها.

قال: فخليت سبيله، ثم غدوت إلى رسول الله ﷺ، فقال: «صَدَقَ وَهُوَ كَذُوْبٌ»(١).

ولأبي هريرة رضي الله تعالى عنه قصة مثل هذه القصة في حفظه لزكاة رمضان، وليس فيها ذكر آخر البقرة، وهي في «صحيح البخاري»، وغيره، وستأتي قريباً.

وفي الحديث دليل على أن من أخلاق الشيطان نقضَ العهود وكثرةَ الكذب، وهما من أخلاق المنافقين، وكيف لا وهو رأسهم.

٩٩ ـ ومنها: الاعتذار بكثرة العيال وغلبة الدَّين عن الدخول في الحرام والشبهات.

وإذا كان المتشبه بالشيطان في ذلك كاذباً في دعوى الدَّين

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٥١). وانظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (٢/ ١٦٢).

والحاجة كان أقبح.

والاعتذار بمثل ذلك من أهل العلم والديانة أسمج، وهو دليل أنهم ممكور بهم، ولا يخلص من هذا المكر إلا من عصمه الله تعالى بقوة الإيمان وحسن التوكل، ولذلك حذره الأكابر حتى قال بشر الحافي رضي الله عنه: لو كنت أعول ديكاً خشيت أن أصبح شرطياً على جسر بغداد[1].

ولا تكاد في هذه الأزمنة تجد سالماً من هذه المحنة؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

روى البخاري، وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: وكَّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعليَّ دَيْنٌ وعيال، ولي حاجة شديدة، فخليت عنه، فأصبحت فقال النبي ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيْرُكَ الْبَارِحَةَ؟»

قال: قلت: يا رسول الله! شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته فخليت سبيله.

قال: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُوْدُ».

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ١٠٢). وانظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (٢/ ٣٩٦)، و«إحياء علوم الدين» للغزالي (٢/ ٣٤).

فذكر الحديث في عوده ثلاث مرات، وقوله في الثانية: دعني أكلمْك كلمات ينفعك الله بهن.

قلت: ما هن؟

قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[البقرة: ٢٥٥] حتى تختم الآية؛ فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح.

وذكر الحديث، وفيه قول النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوْبٌ؛ تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاثِ لَيَالٍ أَبَا هُرَيْرَةَ؟» قال: لا، قال: «ذَاكَ الشَّيْطَانُ»[1].

وفي قوله ﷺ: «قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُوْدُ» إشارةٌ إلى أن الشيطان كان كاذباً في دعوى الدَّين والحاجة، وهذا لا شك أنه خلق شيطاني، والاعتذار به في تناول الحرام أقبح كما يعتذر القضاة والولاة والشُّرَط عن تولية ذلك بكثرة العيال، ثم هم يتمرسون في محصول ذلك والاستكثار منه تمرس البعير بالشجرة، ويتوسعون في السُّحت توسع البَطِر في مال أبيه.

وفي قوله ﷺ في آخر الحديث: «قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوْبٌ» تقريرٌ لما أجراه الله تعالى على لسان الشيطان لأبي هريرة من بيان فضل قراءة آية الكرسي كل ليلة، وفرار الشيطان منها، وحفظ قارئها ورعايته.

---

(١) رواه البخاري (٢١٨٧).

وفي الحديث إشارة إلى أن الحكمة قد يتكلم بها غير الحكيم، والصدق قد يجري على لسان الكذوب، وأن الحق يذعن له وإن جاء من غير أهله.

١٠٠ ـ ومن أخلاق الشيطان قبحه الله: منع فضل الماء عن ابن السبيل؛ وهو كبيرة أيضاً.

روى أبو الشيخ في كتاب «العظمة»، وأبو نعيم في «الدلائل» عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقال لعمار: «انْطَلِقْ فَاسْتَقِ لَنا مِنَ الْماءِ»، فانطلق فعرض له شيطان في صورة عبد أسود، فحال بينه وبين الماء، فصرعه عمار، فقال: دعني وأخلي بينك وبين الماء، ففعل، ثم أبى فأخذه عمار رضي الله تعالى عنه الثانية فصرعه، فقال: دعني وأخلي بينك وبين الماء، ففعل، ثم أبى فأخذه عمار رضي الله تعالى عنه الثالثة، فصرعه، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنَ عَمَّارٍ وَبَيْنَ الْمَاءِ فِيْ صُوْرَةِ عَبْدٍ أَسْوَدَ، وَإِنَّ اللهَ أَظْفَرَ عَمَّاراً بِهِ».

قال علي رضي الله تعالى عنه: فتلقينا عماراً رضي الله تعالى عنه، فأخبرناه بقول رسول الله ﷺ، فقال: أنا والله لو شعرت أنه شيطان لقتلته[1].

وروى أبو نعيم، والبيهقي وصححه، عن عمار رضي الله تعالى

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٤٧).

عنه قال: أرسلني النبي ﷺ إلى بئر، فلقيت الشيطان في صورة الإنس، فقاتلني، فصرعته، ثم جعلت أدقه بفهر معي، فقال النبي ﷺ: «لَقِيَ عَمَّارٌ الشَّيْطَانَ فَقَاتَلَهُ».

قال: فما عدا أن رجعت فأخبرته، فقال: «ذَاكَ الشَّيْطَانُ»(١).

وفي «صحيح البخاري» عن علقمة رحمه الله قال: قدمت الشام فقلت: من ههنا؟

قالوا: أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه.

قال: أفيكم الذي أجاره الله تعالى من الشيطان على لسان نبيه ﷺ؟ يعني: عماراً رضي الله تعالى عنه(٢).

فهذا تلميح من أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه بالعصمة المذكورة هنا.

١٠١ ـ ومنها: قطع الطريق، وإضلال المسافرين في طاعة الله تعالى.

قال الله تعالى ـ حكاية عن الشيطان ـ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

قيل: إنه طريق مكة يقعد الشيطان عليها ليمنع الناس منها؛

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ١٢٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٣٨٤).

(٢) رواه البخاري (٣١١٣).

نقله في «الإحياء»[1].

قلت: أخرجه عبد بن حميد عن ابن عباس، وأبو الشيخ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنهم[2].

وروى أبو القاسم البغوي عن أنس، والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهم قالا: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لإِبْلِيْسَ مَرَدَةً مِنَ الشَّيَاطِيْنَ يَقُوْلُ لَهُم: عَلَيْكُمْ بِالْحُجَّاجِ وَالْمُجَاهِدِيْنَ؛ فَأَضِلُّوْهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ»[3].

وروى ابن أبي حاتم، وابن المنذر عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عددهم[4].

١٠٢ ـ ومنها: السفر وحده أو مع ثان.

روى أبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، والحاكم وصححه، عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «الرَّاكِبُ

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (١/ ٢٣٩). ورواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٤/ ١٣٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) ورواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٤/ ١٣٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٢٦).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٣٦٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢١٥): فيه نافع بن هرمز أبو هرمز، وهو ضعيف.

ورواه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٤٩). وفيه أيضاً نافع بن هرمز.

(٤) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٢٦).

شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلاثَةُ رَكْبٌ»[1].

قال الخطابي: معناه ـ والله تعالى أعلم ـ: أن التفرد والذهاب وحده في الأرض من فعل الشيطان، أو هو شيء يحمله عليه الشيطان، فقيل على هذا: إن فاعله شيطان[2].

وذكر الحافظ زين الدين العراقي في هذا الحديث احتمالين:

الأول: أن يكون المراد أن الراكب وحده أو مع آخر يقرب الشيطان منه، فأطلق عليه اسم الشيطان لقربه منه.

والثاني: أن المراد تشبيهه بالشيطان؛ لأن عادة الشياطين الانفراد في الأماكن الخالية كالأودية والحشوش ونحو ذلك.

قلت: والثاني أقرب، ولهذا بعينه جاء النهي أن ينام الإنسان في بيت وحده.

*** تَنْبِيهٌ:**

يكره سفر الاثنين وحدهما لهذا الحديث، وسفر الواحد وحده أشد كراهية، وإنما تزول الكراهة بالثالث لقوله ﷺ: «وَالثَّلاثَةُ رَكْبٌ».

وإنما كره سفر الاثنين وحدهما لأنه يلزم منه الوحدة التي هي أصل الكراهة؛ فإن المسافر لا بد له من حال انبعاث لطلب ماء أو

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٧)، والترمذي (١٦٧٤) وصححه، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٨٤٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢٤٩٥).

(٢) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١١/ ٢٢).

قوت، أو قضاء حاجة، فيبقى الثاني وحده، فإذا كانوا وذهب أحدهم في حاجة بقي الاثنان مجتمعين.

ومع ذلك فلا بد في الثلاثة من نقص إذ أحدهم ينفرد بمفارقة الباقيين، فلذلك قال النبي ﷺ: «خَيْرُ الرُّفَقَاءِ أَرْبَعَةٌ». رواه ابن ماجه عن أنس رضي الله تعالى عنه[1].

وهو عند الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ـ مرفوعاً ـ بلفظ: «خَيْرُ الأَصْحَابِ أَرْبَعَةٌ»[2].

١٠٣ ـ ومنها: تلبية الجاهلية؛ وهي كفر صراح.

روى البزار ـ ورجاله رجال الصحيح ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان الناس بعد إسماعيل عليه السلام على الإسلام، وكان الشيطان يحدث الناس بالشيء يريد أن يردهم عن الإسلام حتى أدخل عليهم في التلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

قال: فما زال حتى أخرجهم إلى الشرك[3].

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٨٢٧).

(٢) رواه الترمذي (١٥٥٥) وحسنه، والحاكم في «المستدرك» (١٦٢١)، وكذا أبو داود (٢٦١١).

(٣) رواه البزار في «المسند» (٧١٨٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٢٣): رجاله رجال الصحيح.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف: ١٠٦]: إنه نزل في هذه التلبية.

١٠٤ ـ ومنها: استيطان الشيطان الأماكن المستقذرة كالكُنُف، والحمامات، والمزابل، والحانات ـ بالمهملة ـ وفي معناها بيوت القهوة المتخذة من البن ـ وإن كانت القهوة في نفسها مباحة ـ فإن بيوتها مأوى الشياطين.

روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي في كتاب «العلل»، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه، عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: إن هذه الحشوش محتضرة؛ فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث[1].

والحشوش ـ بضم المهملة ـ جمع حش ـ بفتحها ـ: وهو البستان، ثم أطلق على محل قضاء الحاجة لأنهم كانوا يقضون الحاجة قبل أن تبنى المناضح.

والخُبث: ذكران الشياطين، جمع خبيث.

والخبائث: إناثها، جمع خبيثة.

قال ابن سيد الناس في «شرح الترمذي»: ومعنى محتضرة في

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤ / ٣٧٣)، وأبو داود (٦)، والترمذي في «العلل» (ص: ٢٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٩٠٣)، وابن ماجه (٢٩٦)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤٠٦)، والحاكم في «المستدرك» (٦٦٨).

قوله: «إن هذه الحشوش»: يأوي إليها الشياطين[1].

وروى ابن عدي في «الكامل» عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُم إِلَى حُجْرَتِهِ لِيَدْخُلَ فَلْيُسَمِّ اللهَ؛ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ قَرِيْنُهُ مِنَ الشَّيَاطِيْنِ الَّذِي مَعَهُ وَلا يَدْخُلُ، فَإِذَا دَخَلْتُم فَسَلِّمُوا؛ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ سَاكِنُهُ مَعَهُمْ، وَإِذَا وُضِعَ الطَّعَامُ فَسَمُّوا؛ فَإِنَّكُم تَدْحرُونَ الْخَبِيْثَ إِبْلِيسَ عَنْ أَرْزَاقِكُمْ وَلا يُشْرِكَكُمْ فِيْهَا، وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ دَابَّةً فَسَمُّوا اللهَ حِيْنَ تَضَعُوْنَ أَوَّلَ حِلْسٍ؛ فَإِنَّ كُلَّ دَابَّةٍ مُقْتَعِدَةٌ، وَإِنَّكُمْ إِذَا سَمَّيْتُمْ حَطَّمْتُموهُ عَنْ ظُهُوْرِهِ، وَإِذَا نَسِيْتُمْ ذَلِكَ شَرِكَكُمْ فِي مَرَاكِبِكُمْ، وَلا تَبِيتُوا منديلَ الْغَمْرِ - أَي: الزَّفر - مَعَكُم فِيْ الْبَيْتِ؛ فَإِنَّهُ مَبِيْتُ الشَّيْطَانِ وَمَضْجَعُهُ، وَلا تَتْرُكُوا القُمَامَةَ مُمْسِيةً إِذَا وُضِعَت فِيْ جَانِبِ الْحُجْرَةِ؛ فَإِنَّهَا مَقْعَدُ الشَّيْطَانِ، وَلا تَسْكُنُوا بُيُوتاً غَيْرَ مُغْلَقَةٍ، وَلا تَفْتَرِشُوا الْوَلايَا الَّتِي تُفْضِي إِلى ظُهُوْرِ الدَّوَابِّ، وَلا تَبِيْتُوا عَلَى سَطْحٍ لَيْسَ بِمَحْجُورٍ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَبِيْحَ الْكِلابِ أَوْ نَهِيْقَ الْحِمَارِ فَاسْتَعِيْذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهُمَا لا يَرَيَانِ الشَّيْطَانَ إِلاَّ نَبَحَ الْكَلْبُ وَنَهقَ الْحِمَارُ»[2].

وروى الخطيب، وابن عساكر عن جابر رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «خَلِّلُوا لِحَاكُم، وَقُصُّوا أَظْفَارَكُم؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي

---

(١) وانظر: «شرح السنة» للبغوي (١/ ٣٧٨)، و«غريب الحديث» لابن الجوزي (١/ ٢٢٠).

(٢) رواه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٤٤٧) عن حرام بن عثمان، وقال: عامة أحاديثه مناكير. وكذا رواه عبد بن حميد في «المسند» (١١٠٨).

مَا بَيْنَ اللَّحْمِ وَالظُّفْرِ»[1].

وإنما كان ما بين اللحم والظفر مجرى الشيطان لاستقذاره في الغالب، ومن ثم ندب قلم الأظفار لما في ذلك من إجلاء الشيطان عن هذه المواضع وإخلائها منه.

١٠٥ ـ ومنها: إطالة المكث في الحمام لغير ضرورة، بل لمجرد التلهي والبطالة، وهو مضر من جهة الطب.

وتقدم في حديث أبي أمامة رضي الله تعالى عنه: أن الشيطان قال لله تعالى: اجعل لي بيتاً، قال: الحمام[2].

وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ إِبْلِيْسُ لِرَبِّهِ ﷻ: يَا رَبِّ! أَهْبَطْتَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ سَيَكُوْنُ كِتَابٌ وَرُسُلٌ، فَمَا كِتَابُهُمْ وَرُسُلُهُم؟

قَالَ: رُسُلُهُمْ الْمَلائِكَةُ، وَالنَّبِيُّوْنَ مِنْهُمْ، وَكُتُبُهُمْ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيْلُ وَالزَّبُوْرُ وَالْفُرْقَانُ.

قَالَ: فَمَا كِتَابِي؟

قَالَ: كِتَابُكَ الْوَشْمُ، وَقُرْآنُكَ الشِّعْرُ، وَرُسُلُكَ الْكَهَنَةُ، وَطَعَامُكَ مَا لا يُذْكَرُ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، وَشَرَابُكَ كُلُّ مُسْكِرٍ، وَحَدِيْثُكَ الْكَذِبُ،

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٣٧٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٣/ ٢٤٧).

(٢) تقدم تخريجه.

وَبَيْتُـكَ الْحَمَّـامُ، وَمَصَائِدُكَ النِّسَاءُ، وَمُؤَذِّنُـكَ الْمِزْمَـارُ، وَمَسْـجِدُكَ الأَسْوَاقُ»[1].

١٠٦ ـ ومنها: القعود في الأسواق لغير غرض صحيح.

وقد جعل الله تعالى السوق مسجد إبليس بشهادة حديث ابن عباس، وأبي أمامة رضي الله تعالى عنهم.

ومعنى كونه مسجد إبليس: أنه يسجد فيها للشيطان كما يسجد المخلصون لله تعالى في المساجد.

والمراد بالسجود هنا كمال الانقياد، وذلك لأن السوق يطاع فيها الشيطان بالكذب واليمين الكاذبة، والغش والخديعة، واللغط، ولذلك يكون أكثر مكث الشيطان في الأسواق كما أن أكثر مكث الملائكة في المساجد، فمن لازم المسجد فجلساؤه الملائكة عليهم السلام، ومن لازم السوق فقد جالس الشياطين.

وإن شئت قلت: من دخل المسجد للطاعة فقد زار الله تعالى ونال جواره، ومن دخل السوق لغير حاجة فقد زار الشيطان وصار جاره.

فقد روى الحسن بن محمد الخلال في كتاب «فضل المساجد» بإسناد جيد، عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال: قال

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١١٨١)، وكذا أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٧٨).

رسول الله ﷺ: «إِذَا تَوَضَّأَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَهُوَ زَائِرُ اللهِ عَجَلَّ؛ وَحَقٌّ عَلَى الْمَزُوْرِ أَنْ يُكْرِمَ زَائِرَهُ»[١].

وروى أبو نعيم بإسناد ضعيف، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يَقُوْلُ اللهُ عَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ جِيْرَانِي؟ فَتَقُوْلُ الْمَلائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلامُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُجَاوِرَكَ؟ فَيَقُوْلُ: أَيْنَ قُرَّاءُ الْقُرْآنِ وَعُمَّارُ الْمَسَاجِدِ؟»[٢].

* **تَنْبِيهانِ:**

الأَوَّلُ: كما يحضر الشيطان السوق يحضر كل موضع يقع فيه البيع والمعاملة رجاءَ أن يقع فيه عقد باطل، أو كذب أو غش، أو غبن لأحد المتعاقدين، فيشمت ويفرح بخطيئة ابن آدم.

وروى الترمذي وصححه، عن قيس بن أبي غرزة رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نُسمَّى السماسرة فقال: «يا مَعْشَرَ التُّجَّارِ! إِنَّ الشَّيْطانَ وَالإِثْمَ يَحْضُرانِ الْبَيْعَ، فَشَوِّبُوا بَيْعَكُمْ بِالصَّدَقَةِ»[٣].

---

(١) ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٦١٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦١٣٩).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٢١٣). وضعف العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١٠٧).

(٣) رواه الترمذي (١٢٠٨) وصححه، وكذا النسائي (٣٧٩٧).

ومن هنا جاء النهي عن البيع في المسجد.

وروى الترمذي، والحاكم وصححاه، عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ فَقُوْلُوْا: لا أَرْبَحَ اللهُ تِجَارَتَكَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ فِيْهِ ضَالَّةً فَقُولُوا: لا رَدَّ اللهُ عَلَيْكَ»[1].

التَّنْبِيْهُ الثَّانِي: بيت القهوة مأوى الشيطان لأنه سوق في معنى البيت، أو بيت في معنى السوق، بل هو أقبح الأسواق؛ لأن اللغط والمعاصي التي تصدر فيه أكثر مما يصدر في غيره من الأسواق، ولأنه محل مستقذر، ويدخل إليه بالرجل اليسرى ويخرج منه باليمنى، وقد علمت أن كل محل مستقذر فهو مأوى الشيطان، واستقذاره من جهة المنكرات المتتابعة من إدارة القهوة البنية كما تدار القهوة المسكرة، ولذلك تنقلب محرمة بعد ما كانت مباحة، ومن الإصرار على النظر إلى المرد المتبعلين بأحسن من تبعل النساء، وعلى غمز أيديهم وأعضائهم، وطلب زمزمة الفناجين منهم، وأكل الحشيشة والأفيون وجوزة الطيب وغير ذلك من المسكرات والمخدرات، والإكباب على ضرب آلات اللهو واستماعها، واللعب بالنرد والطاب وغيرهما، واللغو والرفث، والخوض في الباطل، والغيبة والنميمة، والكذب

---

(١) رواه الترمذي (١٣٢١) وحسنه، والحاكم في «المستدرك» (٢٣٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والأكاذيب، والمضحكات، والمواعدة على السوء، وغير ذلك مما لا يشك مسلم في أنه من أعظم الحرام إلا أن يكون مغموراً في الجهل.

وقد أجبت عن سؤال صورته: [من الخفيف]

أَيُّها الْفاضِلُ الَّذِي جَمَعَ الْعِلْـ ... ـمَ وَحازَ التُّقَى فَأَصْبَحَ قُدْوَة
أَفْتِنا أَنْتَ هَلْ تَقُوْلُ حَلالٌ ... أَمْ حَرامٌ عَلَى الْوَرَى شُرْبُ قَهْوَة

فقلت: [من الخفيف]

أَيُّها السَّائِلُ الَّذِي جاءَ يَرْجُو ... عِنْدَنا أَنْ نُبِيْحَهُ شُرْبَ قَهْوَة
قَهْوَةُ الْبُنِّ لا تَكُوْنُ حَراماً ... إِنَّها لا تُفِيْدُ فِي النَّفْسِ نَشْوَة
غَيْرَ أَنَّ الَّذِي يجَيءُ بُيُوتاً ... هِيَ فِيها تُدارُ عادِمُ نَخْوَة
إِذْ يَرَى الْمُرْدَ وَالْمَعازِفَ وَالنَّرْ ... دَ وَكُلٌّ يَلْهُو وَيَتْبَعُ لَهْوَه
ثُمَّ لَمْ يَقْوَ أَنْ يُغَيِّرَ نُكْراً ... خَشْيَةَ أَنْ يُعَدَّ ذَلِكَ هَفْوَة
إِذْ يَقْتَحِمُوْنَ الإِهانَةَ وَالسُّو ... ءَ وَيَجْفُونَهُ بِأَعْظَمِ جَفْوَة
أَوْ يُحَلِّي شَيْطانُه لِهَواهُ ... لَهْوَهُ فِي تِلْكَ الْبُيُوتِ وَلَغْوَه
مُعْرِضاً عَنْ رَشادِهِ وَتُقاهُ ... سالِياً عَنْ صَلاتِهِ أَيَّ سَلْوَة
كُلُّ هَذا مُخالِفٌ لِطَرِيْقٍ ... خَطَّهُ الْمُصْطَفَى وَعَرَّجَ نَحْوَه
فَاجْتَنِبْهُ وَدَعْ طَوائِفَ تَدْعُو ... كَ إِلَيْهِ وَلَوْ بِآكَدِ دَعْوَة
لا تُطِعْهُمْ وَلَو رَضُوا مِنْكَ ... فَتُطِيْعَ الرَّجِيْمَ فِي كُلِّ خَطْوَة

وَإِذا شِـئْتَ شُـرْبَ قَهْـوَةِ بُـنٍّ حَسْوَةً قَدْ أَرَدْتَ أَوْ أَلْفَ حَسْوَة
فَلْيَكُنْ ذاكَ وَسْـطَ بَيْتِـكَ مَهْمـا لَمْ تَشُبْ صَفْوَها بِمُوْجِبِ صَـبْوَه
قالَهُ ابْنُ الْغَـزِّيِّ نَجْـمُ بْـنُ بَـدْرِ يَرْتَجِـي مِـنْ رَبِّ الْبَرِيَّـةِ عَفْـوَه

١٠٧ ـ ومن أخلاق الشيطان وأعماله: التبكير إلى الأسواق، والتأخر في الانصراف منها.

وقد تقرر لك أن بيوت القهوة من أخبث الأسواق.

روى ابن ماجه، والطبراني في «الكبير» عن سلمان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ غَدَا إِلَى صَلاةِ الصُّبْحِ غَدَا بِرَايَةِ الإِيْمَانِ، وَمَنْ غَدَا إِلَى السُّوْقِ غَدَا بِرَايَةِ إِبْلِيْسَ»(١).

وروى الطبراني عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَكُنْ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ إِلَى السُّوْقِ، وَلا آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا؛ فَفِيْهَا بَاضَ الشَّيْطَانُ وَفَرَّخَ»(٢).

وفي رواية: «فَإِنَّهَا مَعْرَكَةُ الشَّيْطَانِ».

أو قال: «مَرْبضُ الشَّيْطَانِ، وَبِـهَا يَنْصِبُ رَايَتَهُ»(٣).

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٣٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦١٤٦). قال الإمام أحمد: حديث منكر. انظر: «العلل ومعرفة الرجال» (٣/ ٤٥٨) لعبد الله ابن الإمام أحمد.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦١١٨). وكذا رواه مسلم (٢٤٥١) لكنه قال: «فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته».

(٣) بهذا اللفظ رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦١٣١).

وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الشَّيَاطِيْنَ تَنْحَدِرُ بِرَايَاتِهَا إِلَى الأَسْوَاقِ، فَيَدْخُلُونَ مَعَ أَوَّلِ دَاخِلٍ وَيَخْرُجُوْنَ مَعَ آخِرِ خَارِجٍ»(١).

وقال عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما: لا تكن أول داخل في السوق ولا آخر خارج؛ فإنها رياض الشيطان وفُرَجُه(٢).

وقال هو ومعاذ رضي الله تعالى عنهما: إن إبليس يقول لولده زَلْنبُور: سِرْ بكتابك فأت أصحاب الأسواق؛ زَيِّنِ الكذب والحلف، والخديعة والمكر والخيانة، وكن مع أول داخل وآخر خارج(٣).

وروى أبو نعيم في كتاب «حرمة المساجد» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الْبِقَاعِ إِلَى اللهِ الْمَسَاجِدُ، وَأَحَبُّ أَهْلِهَا أَوَّلُهُم دُخُوْلاً وَآخِرُهُمْ خُرُوْجاً، وَأَبْغَضُ البِقَاعِ إِلَى اللهِ الأَسْوَاقُ، وَأَبْغَضُ أَهْلِهَا إِلَى اللهِ أَوَّلُهُمْ دُخُوْلاً وَآخِرُهُمْ خُرُوْجاً»(٤).

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٦١٨). -قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٧٧): وفيه عبد الوهاب بن الضحاك، وهو متروك.

(٢) في مصدر التخريج: «فإن بها باض الشيطان وفرخ» بدل «فإنها رياض الشيطان وفُرَجُه».

(٣) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (٢/ ٤٤٨)، و«إحياء علوم الدين» للغزالي (٢/ ٨٦).

(٤) تقدم تخريجه.

* **تَنْبِيْهٌ:**

لو بكَّر العبد إلى السوق أو تأخر فيها بقصد قضاء حاجة مسلم أو بقصد إرغام الشيطان بالذكر من غير أن يلزم من ذلك فوت صلاة عن أول وقتها أو فوت جماعة، كان ذلك حسناً لأن الأعمال بالنيات، وأصل دخول السوق على الإباحة، فإذا اقترن بالنية كان طاعة.

وقد روى ابن أبي الدنيا في كتاب «الذكر» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أنه قال: اغدوا بنا إلى السوق، ولنذكر الله ﷻ؛ فإن إبليس قد غدا ونصب رايته، ووضع كرسيه وبث ذريته.

قال: فإذا غدا الرجل إلى السوق فليقل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير؛ فإن له بكل كلمة من هذه الكلمات حسنة تكتب، وخطيئة تمحى، ودرجة ترفع، وعدل رقبة من بني إسماعيل، وشجرة تغرس، ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم.

وروى هو والترمذي، والحاكم عن عمر رضي الله تعالى عنه، وابن ماجه، والحاكم عن ابنه رضي الله تعالى عنه؛ كلاهما عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ فِيْ سُوْقٍ مِنَ الأَسْوَاقِ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيي وَيُمِيْتُ وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوْتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٍ، كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ

سَيِّئَةٍ، وَبُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ»[1].

ورواه ابن السني عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بلفظ: «مَنْ قالَ حِيْنَ يَدْخُلُ السُّوْقَ»، وزاد فيه بعد قوله: «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ»: «لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ».

ثم قال: «كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَيْ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَيْ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، وَبُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ»[2].

وروى ابن أبي الدنيا عن أبي رفاعة رضي الله تعالى عنه: أنه كان يأتي السوق يقول: أريد أن أذكر الله حيث لا يذكر[3].

١٠٨ ـ ومن أخلاق الشيطان: ترك القيلولة؛ وهي النوم وسط النهار، وهي مستحبة لقيام الليل.

روى الطبراني في «الأوسط»، والبزار، وأبو نعيم في «الطب» عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قِيْلُوا؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِيْنَ لا تَقِيْلُ»[4].

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٢٩)، والحاكم في «المستدرك» (١٩٧٤) عن عمر رضي الله عنه. قال ابن القيم في «المنار المنيف» (ص: ٤١): الحديث معلول أعله أئمة الحديث. ورواه الحاكم في «المستدرك» (١٩٧٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص: ١٥١).

(٣) ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٥٠٢).

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٨)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٣/ ٧٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٧٠): رواه الطبراني وفيه كثير بن مروان، وهو كذاب.

وروى ابن أبي شيبة، ومحمد بن نصر في كتاب «الصلاة» عن مجاهد قال: بلغ عمر رضي الله تعالى عنه أن عاملاً له لا يقيل، فكتب إليه: أما بعد: فَقِلْ؛ فإن الشيطان لا يقيل.

قال مجاهد: إن الشياطين لا يقيلون[1].

وقال الحسن رضي الله تعالى عنه: إذا دخل السوق وسمع لغطهم ولغوهم يقول: أظن ليل هؤلاء ليل سوء؛ فإنهم لا يقيلون[2].

١٠٩ ـ ومنها: الانتشار من غروب الشمس إلى أن تذهب فحمة العشا ـ أي: ظلمتها ـ من غير ضرورة.

روى الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُرْسِلُوْا فَوَاشِيَكُمْ وَصِبْيَانَكُمْ إِذَا غَابَتْ الشَّمْسُ حَتَّى تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ»[3].

وروى هؤلاء، والبخاري، والنسائي عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ وَأَمْسَيْتُمْ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُم؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْتَشِرُ حِيْنَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ ساعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَخَلُّوْهُمْ، وَأَغْلِقُوا

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٣٣٩)، ومحمد بن نصر في «قيام الليل» (ص: ١١٩).

(٢) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (١/ ٧٥)، و«إحياء علوم الدين» للغزالي (١/ ٣٥٦).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣١٢)، ومسلم (١٤٣٨١)، وأبو داود (٢٦٠٤).

الأَبْوَابَ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَفْتَحُ بَاباً مُغْلَقاً، وَأَوْكُوا قِرَبَكُم، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ، وَخَمِّرُوا آنِيَتَكُم وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ وَلَوْ أَنْ تَعْرِضُوا عَلَيْهَا شَيْئاً»[1].

والفواشي في الحديث الأول ـ بالفاء ـ: جمع فاشية، وأراد كل شيء منتشر من المال كالإبل، والغنم، وسائر البهائم وغيرها لأنها تفشوا؛ أي: تنتشر في الأرض.

وجنح الليل ـ بضم الجيم، وكسرها ـ: ظلامه.

وفي رواية: «إذا استجنح الليل»؛ أي: أظلم.

١١٠ ـ ومنها: السهر في غير فائدة.

روى ابن أبي الدنيا في «المكائد»، والسمعاني في «تاريخه» عن سلام بن مسكين قال: قال رجل للحسن رحمه الله تعالى: يا أبا سعيد! أينام إبليس؟ قال: فتبسم، قال: لو نام إبليس لوجدنا راحة[2].

وروى ابن السني، والحاكم عن جابر رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ ابْتَدَرَهُ مَلَكٌ وَشَيْطَانٌ، فَقَالَ الْمَلَكُ: اللَّهُمَّ اخْتِمْ بِخَيْرٍ، وَقَالَ الشَّيْطَانُ: اخْتِمْ بِشَرٍّ؛ فَإِنْ ذَكَرَ اللهَ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣١٩)، ومسلم (٢٠١٢)، وأبو داود (٣٧٣١)، والبخاري (٣١٠٦) واللفظ له، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٥٨١).

(٢) تقدم تخريجه.

تَعَالَى ثُمَّ نَامَ بَاتَ الْمَلَكُ يَكْلَؤُهُ»[1]؛ أي: يحرسه ويحفظه.

وأمَّا قوله ﷺ: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُم مِنْ مَنَامِهِ فَتَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيْتُ عَلَى خَيَاشِيْمِهِ» كما رواه الشيخان[2] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، فلا يلزم من بيات الشيطان على الخياشيم أن ينام؛ فإن معنى بات: حل في المساء ـ سواء نام، أم لا ـ بل إنما يبيت الشيطان على الخياشيم ليكون قريباً من الفم حتى متى استيقظ ابن آدم فعسى أن يلقنه ما فيه شر.

ويؤيده ما في الحديث[3] أنه: «إذا استيقظ قال الملك: افتح [بخير، وقال الشيطان: افتح] بشر».

١١١ ـ ومنها: تسهير أهل المعصية والغفلة، وكراهية نومهم.

روى ابن أبي الدنيا في «المكائد» عن فضيل بن عياض رحمه الله تعالى قال: ما من شيء أبغض إلى إبليس من أن يرى ابن آدم نائماً، يقول: متى يقوم هذا حتى يعصي الله تعالى.

وهذا محمول على إرادة من عادته الغفلة والمعصية بدليلٍ ما.

*** تَنْبِيْهٌ:**

قد يريد الشيطان تسهير أهل الطاعة بأن يحسن لهم الحديث

---

(١) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص: ١٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢٠١١)، وكذا ابن حبان في «صحيحه» (٥٥٣٣).

(٢) رواه البخاري (٣١٢١)، ومسلم (٢٣٨) واللفظ له.

(٣) تتمة حديث جابر السابق الذي رواه ابن السني والحاكم.

والسمر أول الليل ليغلبهم النوم عن القيام آخر الليل، أو ليغلب عليهم حتى يخرج وقت صلاة الفجر كما هو حال كثير من الناس ممن غلب عليهم حب الدنيا ونسوا الآخرة.

قال حميد رحمه الله تعالى: أطلنا الحديث ذات ليلة ثم دخلنا على أنس رضي الله تعالى عنه، فقال: أطلتم الحديث البارحة؟ أما إن حديث أول الليل يضر بآخره. رواه ابن أبي شيبة[1].

ومن هنا كره الشافعي رحمه الله تعالى وغيره الحديث بعد صلاة العشاء إلا في خير للنهي؛ عن ذلك[2].

١١٢ ـ ومنها: تنويم أهل الطاعة عن الطاعة.

روى ابن أبي الدنيا في «المكائد»، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «الشعب» عن سمرة بن جندب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ للشَّيْطَانِ كُحْلاً وَلَعُوْقاً؛ فَإِذَا كَحَّلَ الإِنْسَانُ مِنْ كُحْلِهِ نَامَتْ عَيْنَاهُ عَنِ الذِّكْرِ، وَإِذَا أَلْعَقَهُ مِنْ لَعُوْقِهِ دَرَبَ لِسَانُهُ بِالشَّرِّ»[3].

وروى البيهقي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ للشَّيْطَانِ كُحْلاً وَلَعُوْقاً وَنَشُوْقاً؛ أَمَّا لَعُوْقُهُ فَالْكَذِبُ، وَأَمَّا نَشُوْقُهُ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٧٦٢).

(٢) انظر: «شرح مسلم» للنووي (٥/ ١٤٦).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» (ص: ٩٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٨٥٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٠٣). وكذا البزار في «المسند» (٤٥٨٣).

فَالْغَضَبُ، وَأَمَّا كُحْلُهُ فَالنَّوْمُ»[1].

والمعنى: أنـه يلقـن ابـن آدم بالكـذب، ويـستثير منه الغـضب، ويستجلب منه النوم.

وقال ابن العماد فيما قرأته بخطه نقلاً عن شيخه البلقيني: شيطان النوم يسمى الوسنان، يأتي الإنسان فينومه كما ينوم الصغير.

قال: وإنما ينومه عن الطاعة، فأما عن المعاصي فلا، انتهى.

وروى الطبراني في «الكبير» عن جندب رضي الله تعالى عنه قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ سفراً فأتاه قوم، فقالوا: سهرنا عن الصلاة فلم نصل حتى طلعت الشمس.

فقال رسول الله ﷺ: «تَوَضَّؤُوا وَصَلُّوا».

ثم قال: «إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِالسَّهَرِ، إِنَّ هَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِذَا أَخَذَ أَحَدُكُمْ مَضْجَعَهُ فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ، أَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ»[2].

وروى أبو داود، والنسائي ـ وصححه النووي ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «خصْلَتَانِ ـ أَو خلَّتَانِ ـ لا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُمَا يَسِيْرَانِ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيْلٌ؛ يُسَبِّحُ اللهَ تَعَالَى فِيْ دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ عَشْراً، وَيَحْمَدُ عَشْراً، وَيُكَبِّرُ

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨١٩)، وفي إسناده ضعف.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧٢٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٢٣): فيه سهل بن فلان الفزاري عن أبيه وهو مجهول.

عَشْرَاً، فَذَلِكَ خَمْسُوْنَ وَمئَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُ مئَةٍ فِيْ الْمِيْزَانِ، وَيُكَبِّرُ أَرْبَعَاً وَثَلاثِيْنَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ، وَيَحْمَدُ ثَلاثَاً وَثَلاثِيْنَ، وَيُسَبِّحُ ثَلاثَاً وَثَلاثِيْنَ، فَذَلِكَ مِئَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ فِيْ الْمِيْزَانِ».

قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده.

قالوا: يا رسول الله! كيف هما يسير، ومن يعمل بهما قليل؟

قال: «يَأْتِيْ أَحَدَكُم ـ يَعْنِي: الشَّيْطَان ـ فِي مَنَامِهِ فَيُنَوِّمُهُ قَبْلَ أَنْ يَقُوْلَهَا»(١).

وروى الإمام أحمد، والشيخان، وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيْلٌ فَارْقُدْ؛ فَإِنِ اسْتَيْقَظَ وَذَكَرَ اللهَ تَعَالَى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا، فَأَصْبَحَ نَشِيْطَاً طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيْثَ النَّفْسِ كَسْلانَ»(٢).

ورواه ابن خزيمة من حديث جابر ـ رضي الله تعالى عنه ـ وزاد

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٦٥)، والنسائي (١٣٤٨)، وكذا الترمذي (٣٤١٠) وصححه، وابن ماجه (٩٢٦) كلهم عن عبد الله بن عمرو. قال النووي في «الأذكار» (ص: ٦٠): إسناده صحيح، إلا أن فيه عطاء بن السائب، وفيه اختلاف بسبب اختلاطه، وقد أشار أيوب السختياني إلى صحة حديثه هذا.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٣)، والبخاري (١٠٩١)، ومسلم (٧٧٦).

فيه في رواية: «فَحُلُّوْا عُقَدَ الشَّيْطَانِ وَلَوْ بِرَكْعَةٍ»[1].

وروى الشيخان عن ابن مسعود ﷺ قال: ذكر عند النبي ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح فقال: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِيْ أُذُنَيهِ ـ أَو قَالَ: فِيْ أُذُنِهِ ـ»[2].

أراد بذلك أن الشيطان قد بلغ من استيلائه عليه وتنويمه إياه عن طاعة الله تعالى ما لو بال في أذنيه لما أحس به أو استذله كاستذلال من بال في أذنيه.

وروى الترمذي عن عبدالله بن ثابت، عن أبيه، عن جده ـ واسم جده دينار رضي الله تعالى عنه: ـ أن النبي ﷺ قال: «الْعُطَاسُ وَالنُّعَاسُ وَالتَّثَاؤُبُ فِيْ الصَّلاةِ، وَالْحَيْضُ وَالْقَيْءُ وَالرُّعَافُ مِنَ الشَّيْطَانِ»[3].

وروى عبد الرزاق بسند صحيح عن علي ﷺ أنه قال: سبع من الشيطان: الرعاف، والقيء، وشدة العطاس، والتثاؤب، والنعاس عند الموعظة، والنجوى[4].

---

(١) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (١١٣٢) عن أبي هريرة ﷺ. وعنده: «بركعتين» بدل «بركعة».

(٢) رواه البخاري (١٠٩٣)، ومسلم (٧٧٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٧٤٨) وقال: غريب. وضعف ابن حجر إسناده في «فتح الباري» (١٠/ ٦٠٧).

(٤) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٣١٩)، وكذا ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧٩٨٤).

وروى ابن أبي شيبة عن الحسن مرسلاً ـ رحمه الله تعالى ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «النَّوْمُ وَالنُّعَاسُ فِيْ الْجُمُعَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَحَوَّلْ»[1].

وروى عبد الرزاق عن عمرو بن دينار رحمه الله تعالى قال: كان يقال: إذا نعس الرجل في يوم الجمعة والإمام يخطب فإنه مجلس الشيطان، فليتحول عنه[2].

وروى الطبراني عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: النعاس عند القتال أمنة من الله تعالى، والنعاس في الصلاة من الشيطان[3]. متأولاً بذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾[آل عمران: ١٥٤].

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن ثابت البناني عن أبي ثامر ـ وكان عابداً ـ قال: فرأى في المنام كأن رجلين أو ملكين أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رأسه للذي عند رجليه: إن الصلاة قبل النوم تُرضي الرحمن وتسخط الشيطان، وقال الذي عند رجليه: إن النوم قبل الصلاة يسخط الرحمن ويرضي الشيطان[4].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٢٥٢).

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٥٥٤٧)

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٤٥١).

(٤) ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٥١٥).

* **فائِدَةٌ لَها مُناسَبَةٌ تامَّةٌ بِهَذا الْمَحَلِّ:**

قد علم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وحديث ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ المتقدمين: أن نوم جميع الليل مما يعجب الشيطان من العبد الطائع، ومن ثم كره العلماء أن يخلو الليل من القيام.

وقال رسول الله ﷺ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُاللهِ ـ يعني: ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ـ لَوْ كَانَ يَقُوْمُ مِنَ اللَّيْلِ». رواه الشيخان من حديث حفصة بنت عمر رضي الله عنهما[1].

وروى أبو يعلى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «صَلِّ مِنَ اللَّيْلِ نِصْفَهُ، ثُلُثَهُ، رُبُعَهُ، فواقَ حَلْبِ[2] نَاقَةٍ، فواقَ حَلْبِ شَاةٍ»[3].

وروى أبو الوليد بن مغيث في كتاب «الصلاة» عن إياس بن معاوية ـ رحمه الله تعالى ـ مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لا بُدَّ مِنْ صَلاةِ اللَّيْلِ وَلَوْ حَلْبَ نَاقَةٍ، وَلَوْ حَلْبَ شَاةٍ»[4].

وروى محمد بن نصر في كتاب «الصلاة» أيضاً، والطبراني في

---

(1) رواه البخاري (١٠٧٠)، ومسلم (٢٤٧٩)، وعنده: «يصلي» بدل «يقوم».

(2) فواق حلْب: أي قدر ما بين رفع يديك عن الضرع وقت الحلب وضمهما.

(3) رواه أبو يعلى في «المسند» (٢٦٧٧). قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٢٤٣): رجاله محتج بهم في الصحيح.

(4) كذا عزاه العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣٤٢) إلى أبي الوليد ابن المغيث، ورواه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (ص: ٢٧٦).

«الكبير» عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِصَلاةِ اللَّيْلِ وَلَوْ رَكْعَةً وَاحِدَةً»[1].

وروى ابن أبي شيبة، ومحمد بن نصر، والبيهقي في «الشعب» عن الحسن ـ رضي الله تعالى عنه ـ مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلُّوا مِنَ اللَّيْلِ، صَلُّوا وَلَوْ أَرْبَعاً، صَلُّوا وَلَوْ رَكْعَتَيْنِ، مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ تُعْرَفُ لَهُمْ صَلاةٌ إِلاَّ نَادَاهُمْ مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْبَيْتِ! قُومُوا لِصَلاتِكُمْ»[2].

وهذا المنادي أقرب ما يكون ملكاً من الملائكة عليهم السلام، ولا يلزم من ندائه أن يسمع كل من في البيت، فقد يكشف لبعضهم فيسمعه، وقد لا يسمعه أحد.

ونظير هذا حديث أنس المتقدم في التشبه بالملائكة: أن لله ملكاً ينادي عند كل صلاة: يا بني آدم! قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على أنفسكم فأطفئوها[3].

---

(١) رواه محمد بن نصر في «قيام الليل» (ص: ٣١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٥٣٠)، وكذا الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٢): رواه الطبراني، وفيه حسين بن عبد الله، وهو ضعيف.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦٦٠٦)، ومحمد بن نصر في «قيام الليل» (ص: ١٢١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٢١٥).

(٣) تقدم تخريجه.

وفائدة هذا النداء حصول الاستيقاظ وإن لم يفهم النائم النداء.

ومثل ذلك قد يتفق في الحس بحيث ينادي بعض الإنس نائماً منهم ويذهب، فينتبه النائم ولا يعرف من ناداه.

وقد سمعت في بعض الليالي منادياً ينادي فاستيقظت، فلم أر أحداً.

وقد علم بذلك أن إيقاظ النائمين للصلاة من أخلاق الملائكة ـ عليهم السلام ـ كما أن تنويم المصلين من أخلاق الشياطين اللئام.

ومن المجربات للاستيقاظ متى شاء العبد: ما ذكره الثعلبي في «تفسيره» عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أن رجلاً قال له: إني أهم أن أقوم ساعة من الليل فيغلبني النوم.

فقال: إذا أردت أن تقوم أي ساعة شئت من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾[الكهف: ١٠٩] الآية؛ فإن الله يوقظك متى شئت من الليل(١).

وقال الدارمي في «مسنده»: أنبأ محمد بن كثير عن الأوزاعي، عن عبدة، عن رَزين قال: من قرأ آخر سورة الكهف لساعة من الليل قامها؛ قال عبدة: فجربناه فوجدناه كذلك(٢).

وروى ابن الضـرِّيس في «فضائل القرآن» عن إسماعيل بن أبي

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١١/ ٧٢).

(٢) رواه الدارمي في «السنن» (٣٤٠٦).

رافع ـ رحمه الله تعالى ـ بلاغاً عن النبي ﷺ: أن من قرأ الخمس آيات من خاتمة سورة الكهف حين يأخذ مضجعه من فراشه حُفظ، وبعث من أي الليل شاء[1].

وأفادني بعض مشايخي أنه يقال بعد القراءة: يا ملائكة ربي! أيقظوني في وقت كذا.

قلت: هذا لا بأس به، لكن الذي يظهر أنه ليس شرط، بل يكفيه أن يحضر في قلبه الساعة التي يريد القيام فيها حال قراءة الآية، وهكذا جربته فرأيته صحيحاً.

وروى الإمام أبو سعد أحمد بن محمد الماليني في «أربعين الصوفية»، وابن الجوزي في كتاب «ترجمة معروف الكرخي رضي الله تعالى عنه»؛ كلاهما عن معروف قال: ثنا بكر بن خنيس: قال: ثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ: «مَنْ قالَ عِنْدَ مَنَامِهِ: اللَّهُمَّ لا تُؤْمِنَّا مَكْرَكَ، وَلا تُنْسِنَا ذِكْرَكَ، وَلا تَهْتِكْ عَنَّا سِتْرَكَ، وَلا تَجْعَلْنَا مِنَ الْغَافِلِيْنَ، اللَّهُمَّ ابْعَثْنَا فِيْ أَحَبِّ السَّاعَاتِ إِلَيْكَ حَتَّى نَذْكُرَكَ فَتَذْكُرَنَا، وَنَسْأَلَكَ فَتُعْطِيَنَا، وَنَدْعُوْكَ فَتَسْتَجِيْبَ لَنَا، وَنَسْتَغْفِرَكَ فَتَغْفِرَ لَنَا إِلاَّ بَعَثَ اللهُ تَعَالَى مَلَكاً فِيْ أَحَبِّ السَّاعَاتِ إِلَيْهِ فَيُوْقِظُهُ؛ فَإِنْ قَامَ وَإِلاَّ صَعِدَ الْمَلَكُ فَيَعْبُدُ اللهَ فِيْ السَّمَاءِ، وَيُعْرُجُ إِلَيْهِ مَلَكٌ آخَرُ فَيُوْقِظُهُ؛ فَإِنْ قَامَ وَإِلاَّ صَعِدَ الْمَلَكُ فَقَامَ مَعَ

---

(١) رواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص: ٢١٤).

صَاحِبِهِ، فَإِنْ قَامَ بَعْدَ ذَلِكَ وَدَعَا اسْتُجِيْبَ لَهُ، فَإِنْ لَمْ يَقُمْ كَتَبَ اللهُ تَعَالَى لَهُ ثَوَابَ أُوْلَئِكَ مِنَ الْمَلائِكَةِ»[1].

* **تَنْبِيْهٌ:**

إذا أنعم الله على العبد بإيقاظه في ساعة من الليل فلينهض إلى الوضوء والصلاة لقوله ﷺ: «فَحُلُّوْا عُقَدَ الشَّيْطَانِ وَلَوْ بِرَكْعَةٍ»[2]، فإن أبى إلا العود إلى النوم فلا أقل من أن يذكر الله تعالى ولو بتهليلة أو تسبيحة، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾[البقرة: ٢٦٥].

ولا بأس بالجهر بالذكر أو بالقرآن، وهو أفضل وأبلغ ليكون أشد في طرد الشيطان، ولا بتسميع يحذر فيه لكن من غير مبالغة في الجهر.

روى الإمام أحمد ورجاله ثقات عن علي رضي الله تعالى عنه قال: كان أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ يخافت بصوته إذا قرأ، وكان عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ يجهر بقراءته، وكان عمار ـ رضي الله تعالى عنه ـ إذا قرأ يأخذ من هذه السورة وهذه، فذكر للنبي ﷺ، فقال لأبي بكر رضي الله تعالى عنه: «لِمَ تُخَافِتُ بِقِرَاءَتِكَ؟»

قال: إني لأسمع من أناجي.

وقال لعمر رضي الله تعالى عنه: «لِمَ تَجْهَرُ بِقِرَاءَتِكَ؟»

---

(١) ورواه ابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد» (١٦/ ٣٨٥).

(٢) تقدم تخريجه.

قال: أفزع الشيطان، وأوقظ الوسنان.

وقال لعمار رضي الله تعالى عنه: «لِمَ تَأْخُذُ مِنْ هَذِهِ السُّوْرَةِ وَهَذِهِ؟»

قال: أتسمعني أخلط فيه ما ليس منه؟

قال: «لا».

قال: فكله طيب[1].

وروى أبو داود، والترمذي عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال لأبي بكر رضي الله تعالى عنه: «إِنِّيْ مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تَقَرَأُ وَأَنْتَ تَخْفِضُ مِنْ صَوْتِكَ؟»

فقال: إني أسمعت من ناجيت.

قالَ: «ارْفَعْ قَلَيْلاً».

وقال لعمرَ رضي الله تعالى عنه: «إِنِّيْ مَررتُ بِكَ وَأَنْتَ تَقرَأُ وَأَنْتَ تَرْفَعُ صَوْتَكَ؟»

فقال: إني أوقِظُ الوَسنَانَ وَأَطْرد الشَّيطانَ.

قالَ: «اخْفِضْ قَلَيْلاً»[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١٠٩)، وكذا الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٧٨٧).

(٢) رواه أبو داود (١٣٢٩)، والترمذي (٤٤٧) واللفظ له، وقال: وأكثر الناس إنما رووا هذا الحديث عن ثابت عن عبد الله بن رباح مرسلاً.

وروى أبو داود نحوه عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ إلا أنه لم يذكر قوله لأبي بكر: «ارْفَعْ قَلِيْلاً»، ولا قوله لعمر: «اخْفِضْ قَلِيْلاً».

زاد: «وَقَدْ سَمِعْتُكَ يَا بِلالُ تَقْرَأُ مِنْ هَذِهِ السُّوْرَةِ وَمِنْ هَذِهِ السُّوْرَةِ؟»

قال: كلام طيب يجمعه الله بعضه إلى بعض.

فقال النبي ﷺ: «كُلُّكُمْ قَدْ أَصَابَ»(١).

قلت: ولعلهما واقعتان، وإنما أراد النبي ﷺ بقوله في حديث أبي قتادة لأبي بكر رضي الله تعالى عنهما: «ارْفَعْ قَلِيْلاً»، وقوله لعمر رضي الله تعالى عنه: «اِخْفِضْ قَلِيْلاً» مع شهادته لهما بأن فعل كل منهما صواب كما في حديث أبي هريرة ﷺ؛ ليخرجهما بذلك عن إرادتهما إلى إرادة الله تعالى ورسوله ﷺ، كما نبه على ذلك السهروردي في «عوارفه» رحمه الله تعالى.

ويستحب لمن له ورد من قيام أو تلاوة أن لا يدعه كما روى الإمام أحمد، والشيخان، والنسائي، وابن ماجه عن ابن عمرو ـ رضي الله تعالى عنهما؛ أن النبي ﷺ قال له: «يَا عَبْدَاللهِ بْنَ عَمْرٍو! لا تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ؛ كَانَ يَقُوْمُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»(٢)، فنهى عن التشبه

---

(١) رواه أبو داود (١٣٣٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ١٧٠)، والبخاري (١١٠١)، ومسلم (١١٥٩)، والنسائي (١٧٦٣)، وابن ماجه (١٣٣١)، وعندهم: «يقوم الليل» بدل «يقوم من الليل».

بمن ترك عادته من قيام الليل.

١١٣ ـ ومن أعمال الشيطان وأخلاقه: افتتاح المجالس والأمور وختمها بالشر، ومحبة ذلك من غيره.

روى ابن السني، والحاكم عن جابر رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ وَآوَى إِلَى فِرَاشِهِ ابْتَدَرَهُ مَلَكُهُ وَشَيْطَانُهُ، فَيَقُوْلُ شَيْطَانُهُ: اخْتِمْ بِشَرٍّ، وَيَقُوْلُ الْمَلَكُ: اخْتِمْ بِخَيْرٍ؛ فَإِنْ ذَكَرَ اللهَ وَحَمِدَهُ طَرَدَ الْمَلَكُ الشَّيْطَانَ وَبَاتَ يَكْلَؤُهُ، وَإِنْ هُوَ انْتَبَهَ مِنْ مَنَامِهِ ابْتَدَرَهُ مَلَكُهُ وَشَيْطَانُهُ، فَيَقُوْلُ لَهُ الشَّيْطَانُ: افْتَحْ بِشَرٍّ، وَيَقُوْلُ الْمَلَكُ: افْتَحْ بِخَيْرٍ؛ فَإِنْ هُوَ قَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِيْ رَدَّ إِلَيَّ نَفْسِيْ بَعْدَ مَوْتِهَا وَلَمْ يُمِتْهَا فِيْ مَنَامِهَا، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُوْلا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيْماً غَفُوْراً، وَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوْفٌ رَحِيْمٌ، فَإِن خَرَّ مِنْ فِرَاشِهِ فَمَاتَ كَانَ شَهِيْداً، وَإِنْ قَامَ لِيُصَلِّيَ صَلَّى [في فضائل]»(١).

وإنما أحب الشيطان من ابن آدم أن يفتح بالشر لأن المجالس والأمور إذا تكدرت من أوائلها قل أن يصفو أثانيها، وهذا فيه مراد الشيطان وقرة عينه، وأحب أن يختم بالشر لأن الأعمال بالخواتيم.

---

(١) تقدم تخريجه.

١١٤ ـ ومن أخلاقه لعنه الله: بغض العلماء والصالحين.

روى الترمذي، وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ»(١).

ونحوه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه(٢).

وقد جاء بيان وجه شدة الفقيه على الشيطان فيما رواه الأصبهاني في «الترغيب» عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ سَبْعُوْنَ دَرَجَةً، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ حَضْرُ الْفَرَسِ ـ أَيْ: عَدْوُهُ ـ سَبْعِيْنَ عَامَاً، وذلك لأن الشيطان يضع البدعَة للناس فيبصرها العالم فينهى عنها، والعابد مقبل على عبادته لا يتوجه لها ولا يعرفها»(٣).

وروى الديلمي عن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَقْطَعُ لِظَهْرِ إِبْلِيْسَ مِنْ عَالِمٍ يَخْرُجُ فِيْ قَبِـيْلَةٍ»(٤).

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨١) وقال: غريب، وكذا ابن ماجه (٢٢٢). وضعف العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١٤).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦١٦٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٧١٢). وفيه يزيد بن عياض، وهو كذاب.

(٣) ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٣٤٥). قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٥٧): رواه الأصبهاني، وعجز الحديث يشبه المدرج.

(٤) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٦١٥٠).

وروى ابن أبي الدنيا في «المكائد» عن علي بن عاصم، عن بعض البصريين قال: كان عالم وعابد متواخيين في الله تعالى، فقالت الشياطين: إنا لا نقدر على أن نفرق بينهما، فقال إبليس: أنا لهما، فجلس بطريق إذ أقبل العابد حتى إذا دنا من إبليس قام إليه في مثال شيخ كبير بين عينيه أثر السجود فقال للعابد: إنه قد جال في صدري شيء أحببت أن أسألك عنه.

قال له العابد: سل؛ فإن يكن عندي علم أخبرتك.

فقال له إبليس: هل يستطيع الله ﷻ أن يجعل السماوات والأرض والجبال والشجر والماء في بيضة من غير أن يزيد في البيضة شيئاً، ومن غير أن ينقص من هذا شيئاً؟

فقال له العابد: من غير أن ينقص من هذا شيئاً، ومن غير أن يزيد في هذا شيئاً؟! ـ كالمتعجب ـ، ووقف العابد.

فقال له إبليس: امض، ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما هذا فقد أهلكته، جعلته شاكاً في الله.

ثم جلس على طريق العالم فإذا هو مقبل حتى دنَا من إبليس قام إليه، فقال له: يا عبدالله! قد جال في صدري شيء أحببت أن أسألك عنه.

قال له العالم: سل؛ فإن يكن عندي علم أخبرتك.

فقال له إبليس ما قاله للعابد، فقال له العالم: نعم.

قال: فرد عليه إبليس كالمنكر من غير أن يزيد في هذا شيئاً.

فقال العالم: نعم ـ بالانتهار ـ أما سمعت قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فقال إبليس لأصحابه: من هذا أُتِيْتم[١].

قلت: وبلغني في مثل هذه الحكاية أنه جاء في وقت القائلة إلى بيت العابد، فسأله فشككه في وقته، وجاء إلى العالم فطرق عليه الباب، فقال العالم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، مَنِ الطارق في هذا الوقت؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيَاطِيْنَ لا تَقِيْلُ»، ففر الشيطان حين سمع ذكر الله تعالى، فلم يثبت، وقال: قد علم أني شيطان.

وينسب للإمام محمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة ـ رضي الله تعالى عنهما ـ مضمناً للحديث المتقدم: [من الطويل]

تَعَلَّمْ فَإِنَّ الْعِلْمَ زَيْنٌ لأَهْلِهِ
وَفَضْلٌ وَعُنْوانٌ لأَهْلِ الْمَحامِدِ
وَكُنْ مُسْتَفِيْداً كُلَّ يَوْمٍ زِيادَةً
مِنَ الْعِلْمِ وَاسْبَحْ فِي بِحارِ الْفَوائِدِ
تَفَقَّهْ فَإِنَّ الْفِقْهَ أَفْضَلُ قائِدٍ
إِلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى وَأَعْدَلُ قاصِدِ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» (ص: ٥٠).

هُـوَ الْعَلَـمُ الْهـادِي إِلَـى سُـنَنِ الْهُـدى
هُـوَ الْحِـصْنُ يُنْجِـي مِـنْ جَمِيْـعِ الـشَّدائِدِ

وَإِنَّ فَقِيْهـــاً واحِـــداً مُتَوَرِّعـــاً
أَشَـدُّ عَلَـى الـشَّيْطانِ مِـنْ أَلْـفِ عابِـدِ

١١٥ ـ ومن أخلاقه لعنه الله تعالى: تطويل أمل العالم حتى يدع العمل معتذراً عنه بطلب العلم، وهذا من جملة أغلاط العلماء.

وإنما يحمد الأمل من العالم إذا كان باعثاً له على الاستزادة من العلم من غير أن يشتغل عن فرض العمل ومهمه.

روى الخطيب في «الجامع» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيسبعَنَّكُم بِالْعِلْمِ».

قالوا: كيف يسبعنا يا رسول الله؟

قال: «لا يَزَالُ الْعَبْدُ لِلْعِلْمِ طَالِباً وَلِلْعَمَلِ كَارِهاً حَتَّى يَأْتِيَهِ الْمَوْتُ»(١).

وفي لفظ آخر: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يسبعكُمْ بِالْعِلْمِ».

فقيل: يا رسول الله! وكيف ذلك؟

قال: «يَقُوْلُ: اطْلُبِ الْعِلْمَ وَلا تَعْمَلْ حَتَّى تَعْلَمَ، فَلا يَزَالُ فِيْ

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٨٩).

الْعِلْمِ قَائِلاً وَلِلْعَمَلِ مُسَوِّفاً حَتَّى يَمُوْتَ وَمَا عَمِلَ»[1].

وما أحسن قول بعضهم : [من المتقارب]

إذا كُنْـتُمُ تَطْلُبُـونَ الْحَـدِيْثَ ... نَهـاراً وَفِـي لَـيْلِكُمْ تَدْرُسُـونَ
فَقَـدْ صـارَ عُمْـرُكُمْ ضـائِعاً ... مَتَـى تَعْمَلُـونَ بِمـا تَعْلَمُـونَ

وقوله في الحديث: «لَيَسْبَعَنَّكُمْ» ـ بفتح الموحدة ـ وكذلك قوله: «سبعكم» ـ هو بالسين المهملة، والباء الموحدة، والعين المهملة ـ من قولهم: سبع الذئب الشاة: إذا أكلها، وسبعت البقرة: إذا أكل السبع ولدها، ومضارعه: يسبَع ـ بفتح الموحدة ـ.

ووقع لبعض العلماء تصحيف اللفظ الثاني: «ربما سبقكم» فاشتبهت عليه العين المهملة بالقاف، وهو غلط فاحذره.

١١٦ ـ ومنها: الفرح بموت العلماء العاملين، والفقهاء الزاهدين، والصلحاء العابدين، ولكن فرحه بموت العلماء والفقهاء أشد، وهذا مِنْ لازم بغضهم.

قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر ﷺ: والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت سبعين عابداً. رواه أبو نعيم[2].

وسبب ذلك أن العلماء والفقهاء المتقين يوضحون للناس الطرق

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (١/ ٢٢٨).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٨٣).

إلى الخير، ويرشدونهم وينصحونهم من غير ميل، والشيطان إنما يريد من الناس غيهم وضلالهم عن الخير وغشهم، ومن ثم يغتم لموت علماء الضلالة، ويفرح ببقاء أهل الهوى، ويسر بكثرة المتعبدين من أهل الجهل، ويحب أن يظهر أهل الباطل على أهل الحق، وأهل الهوى على أهل الهدى، وكل هذه أخلاق شيطانية قبح الله المتشبه به فيها.

١١٧ ـ ومنها: إطالة الأمل للعاصي حتى يسوف بالتوبة والطاعة، وللغني حتى يسوف بالحج، والصدقة، والإنفاق في وجوه الخير.

وهذا كما يقول بعض الفسقة لمن يراه مصراً على الصلاة حريصاً على النسك: أنت الآن في أول عمرك ونحو ذلك؛ وهو خلق شيطاني.

وفي بعض الكتب: إن (سَوْفَ) جندٌ من جنود إبليس. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «قصر الأمل»(١).

وروى الديلمي عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «التَّسْوِيْفُ شِعَارُ الشَّيْطَانِ يُلْقِيْهِ فِيْ قُلُوْبِ الْمُؤْمِنِيْنَ»(٢).

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (ص: ١٤٠) عن أبي الجلد.

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٢٤٢٠). قال ابن طاهر المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (٢/ ١١٧٦): باطل.

وله عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالتَّسْوِيفَ بِالتَّوْبَةِ، إِيَّاكَ وَالْغِرَّةَ بِحِلْمِ اللهِ عَلَيْكَ»[1].

وقد قلت في المعنى: [من مجزوء الرمل]

لا تَقُـــلْ سَــوْفَ أَتُـــوْبُ　　　فَعَـــسَى خَطْـــبٌ يَنُـــوْبُ
إِنَّ تَـــسْوِيْفَكَ هَـــذا　　　يـــا أَخِـــي إِثْـــمٌ وَحُـــوبُ

١١٨ ـ ومنها: تنديم العبد على ما فات.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَاللَّوْ؛ فَإِنَّ اللَّوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[2].

والمراد بعمل الشيطان الذي يفتحه لو: الشرك والغفلة عن القضاء والقدر، وذلك كقول القائل: لو فعلت كذا ما كان كذا.

ومنه قول المنافقين عن إخوانهم الذين قتلوا في سبيل الله: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ﴾[آل عمران: ١٥٦] الآية.

وقال الشيخ رضي الدين جدي رضي الله تعالى عنه: [من مجزوء الرجز]

إِيَّـــاكَ لَـــوْ فَـــلا تَقُـــلْ　　　فِـــي حـــادِثٍ لَـــوْ كـــانَ لَيْـــتَ
وَلَيْـــتَ لا تَنْطِـــقْ بِهـــا　　　فَقَلَّمـــا يَنْفَـــعُ لَيْـــتَ

---

(١) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (١٥٦٤).

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٤١٦٨) واللفظ له.

١١٩ ـ ومنها: تعيير المؤمن بذنبه، أو شيء أصيب به في الدنيا من فقر أو مرض أو غيرهما.

روى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن أبي عمران الجوني رحمه الله تعالى قال: قال داود عليه السلام: إلهي! أصبح الشيطان عدوك اليوم يعيرني؛ يقول: يا داود! أين كان ربك منك حين واقعت الخطيئة[(١)]؟

١٢٠ ـ ومنها: إظهار الشماتة بالمؤمن.

وحقيقة الشماتة السُّرور عند مصيبة المشموت به.

قال أبو عبدالله الحكيم الترمذي رحمه الله تعالى: إنَّ آدم ـ عليه السلام ـ لما أهبط إلى الأرض شمت به العدو؛ يعني: إبليس. نقله القرطبي في تفسير سورة الأعراف[(٢)].

وروى أبو عيسى الترمذي عن واثلة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيْكَ فَيَرْحَمُهُ اللهُ وَيَبْتَلِيَكَ»[(٣)].

وفي معناه قال أبو العتاهية: [من مجزوء الكامل]

وَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الشُّمَا ... تُ فَحَلَّ بِالْقَوْمِ الشُّمُت[(٤)]

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣١٣).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ٣٢٣).

(٣) رواه الترمذي (٢٥٠٦) وقال: حسن غريب.

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ٤٥٩) عن أبي نواس.

وقلت: [من المتقارب]

أَتَشْمَتُ بِالْمُؤْمِنِ الْمُسْلِمِ فَتَرْجِعَ بِالْخِزْيِ وَالْمَأْثَمِ
وَيَرْحَمُهُ اللهُ سُبْحانَهُ وَتُبْلى بِذاك وَلَمْ تُرْحَمِ
فَإِنْ رُمْتَ مِصْداقَ ذا فَاعْتَبِرْ شَماتَةَ إِبْلِيسَ فِي آدَمِ
فَزادَ دُحُوراً وَآدَمُ سَمَتْ بِهِ الْمَكْرُماتُ بِلا سُلَّمِ
وَإِصْرارُ إِبْلِيسَ أَسْلَمَهُ فِي الْـ ـحَضِيْضِ إِلى النَّارِ وَالْمَغْرَمِ
وَما نالَ آدَمُ بِالإِسْتِكا نَةِ إِلاَّ الْحُصولَ عَلى الْمَغْنَمِ

١٢١ ـ ومنها: الوقاحة، وقلة الأدب، وعدم الحياء من الله تعالى، ومن خلقه.

وفي قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[ص: ٧٦] الآية، وقوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[الإسراء: ٦١] من ذلك ما لا يخفى.

وقد روى أبو الحسن بن جهضم عن الجنيد رحمه الله تعالى قال: رأيت إبليس في السوق عرياناً ولا يستحيي من الناس، فقال: يا أبا القاسم! وهل بقي على وجه الأرض أحد يستحى منه، من كان يستحيى منه فتَحْتَ الترابِ أَكَلَهُم الثَّرى[1].

١٢٢ ـ ومنها: الاستهزاء بالناس والسخرية بهم، ولا سيما أهل العلم والولاية؛ وهو من أشد الحرام.

روى الخطابي في «غريبه» عن كعب الأحبار رحمه الله تعالى

---

(١) تقدم تخريجه.

قال: أول من لبس القباء سليمان بن داود عليهما السلام، فكان إذا أدخل رأسه في الثياب كَنَصت الشياطين[1].

ومعنى كنصت ـ مشدداً، ومخففاً ـ: حركت أنوفها استهزاء به.

١٢٣ ـ ومنها: الوسوسة، وهي أشد أعمال الشيطان.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[الناس: ١ ـ ٦].

جعل بعض المفسرين من﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بياناً للناس من قوله: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، ويلزم على ذلك أن يسمى الجن ناساً.

والمحققون أن قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان لقوله: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾.

حَكى الأستاذ أبو القاسم القشيري عن أبي الهيثم السجزي: أن بعضهم كان يثبت الوسواس من الإنسان كالوسوسة من الشيطان.

وبيان ذلك أن الوسواس أو الوسوسة في الأصل: هو الصوت الخفي والحركة، ومنه وسواس الحلي، ثم استعير لما ينزغه الشيطان في القلب ويلقيه في الصدر من الغرور والأماني والتهويلات.

قال عروة بن رُويم كما تقدم: إن عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ دعا ربه ﷻ أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم، فجلى له فإذا رأسه

---

(١) انظر: «غريب الحديث» للخطابي (٣/ ٨).

رأس الحية واضعاً رأسه على ثمرة القلب فمنَّاه وحدثه[1].

وقد قدمنا أيضاً عن بعض المكاشفين أنه وجده في صورة ضفدع.

وقال مقاتل رحمه الله تعالى: إنه في صورة خنزير يجري في جسد العبد مجرى الدم في صورة العروق[2].

قلت: ورأيته في المنام مرة في صورة خنزير، ومرات في صورة كلب، وكنت لا أقاتله إلا بالذكر وآية الكرسي فيذوب منها.

وحاصل وسواس الشيطان يرجع إلى قصد إيذاء من يوسوس إليه؛ إمَّا بتحريش بينه وبين أحد من خلق الله تعالى.

وإما بإفساد عبادته عليه.

وإما بإفساد ولده، أو زوجه، أو خادمه، أو جاره، أو رفيقه عليه.

وإما بتخريب بيته، أو بإفساد بدنه أو ماله.

وكل فعل فعله الإنسان بإنسان مثله أو قول قاله له فأدى إلى ذلك أو إلى شيء منه فهو في معنى الوسواس، وفاعله شيطان في صورة إنسان.

واعلم أن التوسوس مذموم، وهو إما ناشيء عن جهل أو عن قلة عقل، وقد جاء الشرع بدفع الوسواس عن الإنسان في الأحوال المذكورة، ففي الحديث: «إِذَا ظَنَنْتُمْ فَلَا تحققوا». رواه ابن ماجه[3].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦٣).

(٣) تتمة الحديث كما أثبته السيوطي وغيره: «إذا ظننتم فلا تحققوا، وإذا حسدتم فلا تبغوا، وإذا تطيرتم فامضوا، وعلى الله فتوكلوا، وإذا وزنتم فأرجحوا» رواه ابن عدي في «الكامل» (٤/ ٣١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه دون =

وهذا يدفع الوسواس عنك فيما لو نقل لك عن أخيك، أو توهمت منه ما تعلم منه خلافه، وفيما لو توهمت من أهلك وأنت تعلم منها خلافه.

ونهى رسول الله ﷺ أن تطلب عورات النِّساء. رواه مسلم.

وهذا يدفع عنك الوسواس في أهلك مهما علمت منهم الصيانة.

وكان رسول الله ﷺ إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فنضح به فرجه. رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وغيرهما[1].

وفيه دفع الوسواس فيما قد يجده الإنسان في ثوبه من الرشاش.

وأمر رسول الله ﷺ من ظن الحدث أن لا يخرج من المسجد حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً، وعرفنا أن ذلك من الشيطان كما تقدم.

وقال ﷺ: «إِنَّ لِلْوُضُوءِ شَيْطَاناً يُقَالُ لَهُ الْوَلْهَانُ؛ فَاتَّقُوْا وَسْوَاسَ الْمَاءِ». رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم عن أُبَي رضي الله تعالى عنه[2].

= الفقرة الأخيرة، والذي رواه ابن ماجه (٢٢٢٢) الفقرة الأخيرة منه فقط عن جابر رضي الله عنه.

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤١٠)، وأبو داود (١٦٦) عن أبي الحكم أو الحكم بن سفيان.

(٢) رواه الترمذي (٥٧) وضعفه، وابن ماجه (٤٢١)، والحاكم في «المستدرك» (٥٧٨).

وروى ابن أبي شيبة، والثعلبي عن إبراهيم؛ يعني: النخعي رحمه الله تعالى قال: أول ما يبدأ الوسواس من قبل الوضوء[1].

وروى مسلم عن عثمان بن [أبي] العاص أنه قال: يا رسول الله! حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي.

فقال: «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خَنْزَب، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفُلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلاثاً»[2].

وخنزب: بمعجمة مفتوحة، ونون ساكنة، وزاي مفتوحة، وموحدة.

وقال عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما: إنَّ الشيطان يأتي الإنسان من قبل الوضوء، والشعر، والظفر[3].

وقال الشعبي رحمه الله تعالى: إن للشيطان بزقة؛ يعني: بلة طرف الإحليل[4]. رواهما ابن أبي شيبة.

وقال مجاهد: لأَنْ أُصلِّي وقد خرج مني شيء أحب إلي من أطيع الشيطان[5].

وروى ابن المنذر عن عكرمة رحمه الله تعالى قال: الوسواس

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧٢٥) لكن عن إبراهيم التيمي.

(٢) رواه مسلم (٢٢٠٣).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٠٥٦).

(٤) ورواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ١٤٢).

(٥) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٣/ ١٣٨).

محله على فؤاد الإنسان، وعينه، وفي ذكره، ومحله من المرأة عينها، وفي فرجها إذا أقبلت، وفي دبرها إذا أدبرت؛ هذه مجالسه[1].

وعن ابن جريج - رحمه الله تعالى - في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[الناس: ٦]؛ قال: هما وسواسان؛ فوسواس من الجنة، ووسواس من نفس الإنسان، فهو قوله: ﴿وَٱلنَّاسِ﴾[2].

وروى ابن أبي الدنيا عن يحيى بن أبي كثير رحمه الله تعالى قال: إن الوسواس له باب في صدر ابن آدم يوسوس منه[3].

وروى الحافظ أبو بكر بن أبي داود في كتاب «ذم الوسوسة» عن معاوية بن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه قال: كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ عَمِّرْ قَلْبِي مِن وَسْوَاسِ ذِكْرِكَ، وَاطْرُدْ عَنِّي وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ»[4].

والمراد بوسواس ذكر الله: تردده في الخاطر، ومروره في الهاجس كما قال القائل: [من البسيط]

وَاللهِ ما طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلا رَبَتْ ... إِلاَّ وَأَنْتَ مُنى قَلْبِي وَوَسْواسِي[5]

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٦٩٤).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٦٩٥).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» (ص: ٩١)، وكذا الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤/ ٣١).

(٤) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٦٩٣).

(٥) انظر: «المدهش» لابن الجوزي (ص: ٢٢٢).

* **تَنْبِيهٌ:**

روى عبد الرزاق عن شعبة مولى ابن عباس: أن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه قال لابن عباس رضي الله عنهما: هل لك في عبيد بن عمير ـ رحمه الله تعالى ـ إذا سمع النداء خرج فتوضأ؟

فقال ابن عباس: هكذا يصنع الشيطان؛ إذا جاء فأخبروني.

فلما جاء أخبروه، فقال: ما حملك على ما تصنع؟

فقال: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾[المائدة: ٦].

فقال ابن عباس: ليس هكذا، إذا توضأت فأنت طاهر ما لم تحدث؛ هكذا يصنع الشيطان(١).

أي: هكذا يصنع بالإنسان يوسوس له حتى يرى الأمر على خلاف ما هو عليه، ولا يريد أن الوضوء لكل صلاة من صنع الشيطان لأن اللعين لا يتوضأ ولا يصلي على وجه التعبد، بل قد يفعل ما هو على صورة العبادة لأجل التغرير والاستزلال؛ قبحه الله تعالى.

١٢٤ ـ ومن أخلاق الشيطان وأعمَاله: الشعوثة بغير نية صالحة ولا قصد جميل.

روى أبو داود، والنسائي، وابن حبان بإسناد جيد، عن جابر رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً دخل على النبي ﷺ ثائر الرأس أشعث اللحية

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٦٧).

فقال: «أَمَا كَانَ لِهَذَا دُهْنٌ يُسَكِّنُ شَعْرَهُ؟» ثم قال: «يَدْخُلُ أَحَدُكُمْ كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ؟»[1].

١٢٥ ـ ومنها: ترك السواك وكراهيته من غيره.

روى الدارقطني عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: في السواك عشر خصال: مرضاة للرب، ومسخطة للشيطان، مفرحة للملائكة، جيد للثة، ويذهب بالحَفر، ويجلو البصر، ويطيب الفم، ويقل البلغم، وهو من السنة، ويزيد في الحسنات[2].

فأمّا ما يقال: إن من وضع سواكه قبل أن يغسله أخذه الشيطان فتسوك به؛ فإن كان هذا ثابتاً فإن استياك الشيطان من باب تقذير السواك على صاحبه وعبثه به لا من باب التنظف والعمل بالسنة.

والظاهر أنَّ ما ذكرناه في السواك لا يختص به، بل كذلك سائر خصال الفطرة المتقدمة لا يفعلها الشيطان أصلاً ولا يحبها، فمن أعرض

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٦٢)، والنسائي (٥٢٦٣)، وابن حبان (٥٤٨٣). دون قوله: «يدخل أحدكم كأنه شيطان».
ولعلها مدرجة من حديث آخر رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٢٤٣) مرسلاً عن عطاء بن يسار قال: كان رسول الله ﷺ في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده أن اخرج، كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته، ففعل الرجل، ثم رجع، فقال رسول الله ﷺ: «أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان».

(٢) رواه الدارقطني في «السنن» (١/ ٥٨) وقال: معلى بن ميمون ضعيف متروك.

عنها فقد وافق الشيطان، كما أن من حافظ عليها كان موافقاً للأنبياء عليهم السلام ـ كما تقدم ـ محبباً إلى الملائكة عليهم السلام، وكذلك سائر التنظيفات.

وقد روى ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن يزيد رحمه الله تعالى قال: إن للشيطان قارورة فيها مفوح، فإذا قاموا إلى الصلاة أنشقهموها فأمروا عند ذلك بالاستنشاق[1].

وله عن عكرمة رحمه الله تعالى قال: إذا توضأت ابدأ بأصابعك فخللها؛ فإنه كان يقال: هو مقيل الشيطان[2].

وروى عبد الرزاق، والطبراني في «الكبير» عن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ قال: «حَبَّذَا الْمُتَخَلِّلُونَ مِنْ أُمَّتِي».

قيل: من المتخللون يا رسول الله؟

قال: «الْمُتَخَلِّلُوْنَ بِالْوُضُوْءِ، وَالْمُتَخَلِّلُوْنَ بِالطَّعَامِ؛ أَمَّا تَخْلِيْلُ الْوُضُوْءِ فَالْمَضْمَضَةُ وَالاسْتِنْشَاقُ وَبَيْنَ الأَصَابِعِ، وَأَمَّا تَخْلِيْلُ الطَّعَامِ مِنَ الطَّعَامِ إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَى الْمَلَكَيْنِ مِنْ أَنْ يَرَيَا بَيْنَ أَسْنَانِ صَاحِبِهَا طَعَاماً وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّيْ»[3].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧٩٩١) وعنده: «نفوخ» بدل «مفوح»، و«بالاستنثار» بدل «الاستنشاق».

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٩٣).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٠٦١)، وكذا ابن أبي شيبة في =

وإنما كان ذلك أشد شيء على الملكين ـ يعني: الحافظين على ابن آدم أعماله ـ لأن فمه محل إقامتهما كما في حديث معاذ رضي الله عنه: أنَّ الله تعالى لطف الملكين الحافظين حتى أجلسهما على الناجذين، وجعل لسانه قلمهما، وريقه مدادهما. رواه الديلمي(١).

وكان من حق الملكين أن لا يكونا حيث يكون القذر كسائر الملائكة عليهم السلام؛ فإنهم يتأذون بما يتأذى به بنو آدم كما في الحديث السابق في محله، ولكنهما ملزمان بالحفظ والمراقبة عليه وخصوصاً في لسانه؛ فإنه أسرع الأعضاء حركة، ودليلها الثاني بعد القلب، فلزم إقامتهما لذلك بالفم، واحتملا أذية القذر خشية من التفريط، ولذلك كان السواك مفرحة للملائكة عليهم السَّلام.

وروى البزار ورواته ثقات، عن علي رضي الله تعالى عنه: أنه أمر بالسواك قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَسَوَّكَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي قَامَ الْمَلَكُ خَلْفَهُ فَيَسْمَعُ لِقِرَاءَتِهِ فَيَدْنُوْ مِنْهُ ـ أَو كَلِمَةً نَحوَهَا ـ حَتَّى يَضَعَ فَاهُ عَلَى فِيْهِ، فَمَا يَخْرُجُ مِنْ فِيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلاَّ صَارَ فِي جَوْفِ الْمَلَكِ؛ فَطَهِّرُوا أَفْوَاهَكُمْ لِلْقُرْآنِ»(٢).

= «المصنف» (١٣). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٣٥): واصل الرقاشي وهو ضعيف.

(١) كذا عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٥٩٣) إلى الديلمي، ورواه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ٤٢٥) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) رواه البزار في «المسند» (٦٠٣) وقال: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن علي رضي الله عنه بإسناد أحسن من هذا الإسناد، وقد رواه غير واحد عن علي رضي الله عنه موقوفاً.

فإذا علمت أن الملائكة تتنزه عن محال القذر، تعين عليك أن تبالغ في النظافة؛ فتصحبك الملائكة فتفر عنك الشياطين، ومهما أقمت على قذر في بدنك أو ثوبك أو محلك فقد استدعيت الشياطين ورضيت بمفارقة الملائكة المقربين إلا الحافظين من الكرام الكاتبين.

وكذلك لا تدخل الملائكة بيتاً فيه شيء من مألوفات الشياطين كالتصاوير، والأجراس، والنحاسات، والروائح الكريهة.

وروى الطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن عن عبدالله بن يزيد رضي الله تعالى عنه قال: لا ينقع بول في طست في البيت؛ فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه بول مستنقع، ولا تبولن في مغتسلك[1].

والحكمة في النهي عن البول في المغتسل واستنقاع البول كراهية البيت مفارقة الملائكة[2]، وإذا فارقته الملائكة جاء الشيطان إليه ووسوس، فربما أطاعه في وسوسَته، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لا يَبُوْلَنَّ أَحَدُكُمْ فِيْ مُسْتَحَمِّهِ ثُمَّ يَتَوَضَّأَ فِيْهِ؛ فَإِنَّ عَامَّةَ الْوَسْوَاسِ مِنْهُ». رواه الإمام أحمد، وأصحاب «السنن»، وصححه ابن حبان،

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٠٧٧). وحسن المنذري إسناده في «الترغيب والترهيب» (١/ ٨٢).

(٢) في «أ» و«ت»: «واستنقاع البول في البيت كراهية مفارقة الملائكة» بدل «واستنقاع البول كراهية البيت مفارقة الملائكة».

والحاكم، عن عبدالله بن مغفل رضي الله تعالى عنه[1].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه قيل لرسول الله ﷺ: لقد أبطأ عنك جبريل عليه السلام؟

فقال: «وَلِمَ لا يُبَطِّئُ عَنِّي وَأَنْتُمْ لا تَسْتَنُّوْنَ، وَلا تُقَلِّمُوْنَ أَظْفَارَكُمْ، وَلا تَقُصُّوْنَ شَوَارِبَكُمْ، وَلا تُنَقُّونَ رَوَاجِبَكُمْ»[2].

وروى الطبراني في «الأوسط» بسند جيد، عن جابر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْخُضْرَاوَاتِ؛ الْفُوْمِ، وَالْبَصَلِ، وَالْكُرَّاثِ، وَالْفِجْلِ فَلا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا؛ فَإِنَّ الْمَلائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ»[3].

وقد ذكرنا هذا الحديث في التشبه بالملائكة من رواية مسلم، وليس فيه ذكر الفجل.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٥٦)، وأبو داود (٢٠٥٨٢)، والترمذي (٢١) وقال: غريب، والنسائي (٣٦)، وابن ماجه (٣٠٤)، والحاكم في «المستدرك» (٦٦٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٣)، وكذا الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٢٢٤). وفي إسناده إسماعيل بن عياش ضعيف، وأبو كعب مولى ابن عباس مجهول.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٩١). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٧): هو في الصحيح، خلا قوله: والفجل، رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» وفيه يحيى بن راشد البراء البصري، وهو ضعيف، ووثقه ابن حبان، وقال: يخطيء ويخالف، وبقية رجاله ثقات.

وروى الطبراني في «الكبير» عن أبي غالب، عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه ـ قال: لا أحسب إلا رفعه ـ قال: الثوم والبصل والكراث من سَكِّ[1] إبليس[2].

١٢٦ ـ ومن أخلاق اللعين: كراهية الرخصة والمنع منها؛ وهو خلاف ما يحبه الله تعالى من العبد.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصَهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ»[3].

وروى الطبراني في «الكبير» عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه، وواثلة بن الأسقع، وأبي أمامة، وأنس رضي الله تعالى عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُقْبَلَ رُخَصُهُ كَمَا يُحِبُّ الْعَبْدُ مَغْفِرَةَ رَبِّهِ»[4].

وروى ابن أبي شيبة عن إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى قال: مسح أصحاب النبي ﷺ على الخفين؛ فمن ترك ذلك رغبة عنه فإنما

---

(١) السك: طيب معروف، يعنى طيبه الذي يحب ريحه ويميل إليه.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٠٨٣). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٨): فيه رجل يقال له: أبو سعيد روى عن أبي غالب، وروى عنه عبد العزيز بن عبد الصمد، ولم أجد من ترجمه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

هو من الشيطان[1].

ومن هنا قال العلماء: من وجد في نفسه كراهة الرخص فأخذه بالرخصة أفضل من أخذه بالعزيمة، ومهما أخذ بالرخصة فلا بد أن لا يفضي به الأخذ بها إلى تتبُّع الرخص بأن يأخذ بالأهون من كل مذهب؛ فإن هذا حرام، وهو من خطوات الشيطان.

وقد تكلم شيخ الإسلام الجد في كتاب «الجوهر الفريد» على آداب كل رخصة يحتاج إلى الأخذ بها السائر إلى الله تعالى في طريقه، وبيَّنها أحسن البيان، وقد أوضحت كلامه في «منبر التوحيد».

١٢٧ ـ ومنها: تثبيط الناس عن التبكير إلى الجمعة.

روى الإمام أحمد، وأبو داود عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ غَدَتِ الشَّيَاطِيْنُ بِرَايَاتِهَا إِلَى الأَسْوَاقِ، فَيَرْمُوْنَ النَّاسَ بِالتَّرَابِيْثِ أَوْ بِالرَّبَائِثِ، وَيُثَبِّطُوْنَهُمْ عَنِ الْجُمُعَةِ، وَتَغْدُوا الْمَلائِكَةُ فَتَجْلِسُ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ». الحديث[2].

والترابيث جمع تربيثة ـ بالتاء المثناة فوق، فالراء، فالموحدة، فالمثناة تحت، فالمثلثة ـ: المرة من التربيث، وهو التثبيط.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٨٨٥).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٧١٩)، وأبو داود (١٠٥١) كلاهما موقوفاً عن علي رضي الله عنه.

والربائث جمع ربيثة ـ بالراء، فالموحدة، فالتحتانية، فالمثلثة ـ: الأمر الذي يثبط به عن الشيء.

١٢٨ ـ ومنها: كراهية شهر الصوم، وترك الصيام فيه لغير عذر؛ وكلاهما حرام.

روى الإمام أحمد، والشيخان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِيْنُ»[١].

واعلم أن من كره رمضان لمشقة جوع وامتناع عن شهوة ـ ولاسيما إن كانت حراماً ـ فهو أشبه الناس بالشياطين المغلولة في رمضان، ومن حسَّن ذلك له ورضيه منه فهو شريكه، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا رَضِيَ هَدْيَ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ فَهُوَ مِثْلُهُ». رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه[٢].

ومن ذلك ما وقع للصلاح الصفدي في «شرح لامية العجم» ـ عفا الله عنه ـ من استحسان قول [ابن] بسام: [من البسيط]

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٨١)، والبخاري (١٨٠٠)، ومسلم (١٠٧٩).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٣٣٤). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩٠): فيه عبد الوهاب بن الضحاك، وهو متروك.

قَدْ قَرَّبَ اللهُ مِنَّا كُـلَّ مـا شَـسَعا كَأَنَّني بِهِـلالِ الْفِطْـرِ قَـدْ طَلَعـا
فَخُذْ لِلَهْـوِكَ فِـي شَـوَّالَ أُهْبَتَـهُ فَإِنَّ شَهْرَكَ فِي الْواواتِ قَدْ وَقَعا

قلت: والله لقد أساء، وجرَّأ الفسقة هو وأمثاله على أمور.

وما أحسنه لو قال: [من البسيط]

قَـرَّبَ اللهُ مِنَّـا كُـلَّ مـا شَـسَعا كَـأَنَّني بِهِـلالِ الـصَّوْمِ قَـدْ طَلَعـا
فَخُذْ لِجِـدِّكِ فِـي تَقْـواكَ أُهْبَتَـهُ فَإِنَّ شَعْبانَ فِي الْـواواتِ قَـدْ وَقَعـا

وأقبح من مقالته المذكورة قول الآخر: [من الوافر]

إِذا الْعِشْرُونَ مِنْ شَعْبانَ وافَـتْ فَواصِـلْ شُـرْبَ لَيْلِـكَ بِالنَّهـارِ
وَلا تَـشْرَبْ بِأَقْـداحٍ صِـغارٍ فَإِنَّ الْوَقْتَ ضاقَ عَنِ الصِّغارِ[1]

وهذا وأمثاله ـ وإن فهم منه بعض أهل الإشارات معاني لطيفة[2]، واستثاروا منه حالات شريفة ـ فإنه بالنسبة إلى عامة الناس من وحي الشيطان.

وقد خاض جماعة من الشعراء وأهل الإنشاء من ذلك في أودية مَسْبعة، وأشفوا بسبب مزاحمة البلغاء على المهالك من غير منفعة.

ولعل هذا وأمثاله من المحسِّنات اللفظية غايةَ مقصود أهل الزمان

---

(١) البيتان لأحمد بن علي الموصلي. انظر: «خريدة القصر وجريدة العصر» للعماد الأصبهاني (٩/ ٢٤٨).

(٢) انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (١/ ١٣).

من العلوم العقلية والنقلية، ولقد خلطوا بذلك بين الخاثر والزباد، ولم يفرقوا بين غَي ورشاد، ولم يلذ لهم إلا خطاب أبناء فنِّهم في خطبة بَنات أفكارهم لتحصيل هذا المراد، ولو كان فيهم من دعاهم إلى ما تجول فيه بنات أفكار الأخيار من وصال أبكار المعاني الجاذبة لقلوب الأبرار إلى دار القرار، وزجرهم عما هم فيه من الغي، وقال: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾[هود: ٧٨] لقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[هود: ٧٩]، ولو كان فيهم شعيب لجادلوه ليستميلوه إلى ما تشعبت بهم فيه شعب الترديد، ولقال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٨٩].

كم نتقلب في عصر خؤون ليس لنا فيه مساعدون؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

١٢٩ ـ ومن أخلاق الشيطان اللعين: محبة سماع ما كان من هذا القبيل من الأشعار.

فقد روى الطبراني بإسناد حسن، عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ رَاكِبٍ يَخْلُو فِيْ مَسِيْرِهِ بِاللهِ وَذِكْرِهِ إِلاَّ رَدِفَهُ مَلَكٌ، وَلا يَخْلُو بِشِعْرٍ وَنَحْوِهِ إِلا رَدِفَهُ شَيْطَانٌ»[1].

وتقدم في حديث أبي أمامة رضي الله تعالى عنه: أن إبليس قال

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٣٢٤). وحسن الهيثمي إسناده في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٣١).

لله تعالى: اجعل لي قرآناً، قال: الشعر.

وهذا محمول على الشعر المكروه والمحرم دون المستحسن والمباح كالأشعار المشتملة على ذكر الله تعالى، أو مدح نبيه ﷺ أو الأنبياء عليهم السلام، أو الصحابة، أو العلماء، أو بيان حكم شرعي، أو حكمة مرعية، وكالحداء.

وقد علمت مما سبق أن الشعر كلام؛ فحسَنه كحسنه، وقبيحُه كقبيحِه، كما في الحديث[1]، وما كان منه قبيحاً فهو قرآن الشيطان.

وحكي عن الفراء قال: أنشدني صبي من الأعراب أرجوزة أعجبتني، فقلت: لمن هذه؟ فقال: لي، فأنكرته، فأنشدني ارتجَالاً:

[من الرجز]

إِنِّـي وَإِنْ كُنْـتُ صَـغِيْرَ الـسِّنِّ ... وَكَـانَ فِـيْ الْعَـيْنِ نُبُـوٌّ عَنِّـي

فَـإِنَّ شَـيْطَانِي أَمِيْـرُ الْجِـنِّ ... يَذْهَبُ بِي فِي الشِّعْرِ كُلَّ فَـنِّ[2]

وقد تقدم الشعر الذي أنشده الشيطان على أبي قبيس يحرض

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٦٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٦٩٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
ورواه الإمام الشافعي في «المسند» (ص: ٣٣٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥/ ٦٨) عن هشام بن عروة عن أبيه، وقال: هذا منقطع.
ورواه أبو يعلى في «المسند» (٤٧٦٠)، والدارقطني في «السنن» (٤/ ١٥٥) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: «ربيع الأبرار» للزمخشري (١/ ٢١٦).

المشركين به على قتال رسول الله ﷺ، وفيه إشارة إلى أنه من أفعال الشياطين وأخلاقهم إنشاء الشعر المذموم.

وقال ابن كثير: قال نظام الملك: لقد رأيت ليلة في المنام إبليس فقلت: ويحك! خلقك الله وأمرك بالسجود [مشافهة] فلم تفعل، [وأنا لم يأمرني بالسجود له مشافهة] وأنا أسجد له كل يوم مرات، فأنشأ يقول: [من المنسرح]

مَـنْ لَـمْ يَكُـنْ لِلْوِصـالِ أَهْـلاً فَكُـلُّ إِحْـسانِهِ ذُنُـوبُ[1]

قلت: وهذا الشعر - وإن كان لا يخلو من عبرة - فإن الشيطان - لعنه الله - أنشده طاعناً على الحضرة الإلهية - تقدست - وذلك لأنه أشار إلى تسمية امتناعه من السجود إحساناً، وهو من أقبح السيئات.

وقلت: [من المتقارب]

لَقَدْ ضَلَّ مَنْ يَزْعُمُ السُّوءَ حُسْناً وَيَجْعَلُ مِنْ جَهْلِهِ الظُّلْمَ عَدْلاً
وَمَنْ كـانَ طَوْعـاً لِمَـوْلاهُ فِيمـا أَرادَ كَفَتْـهُ الإِطاعَـةُ فَـضْلاً

١٣٠ - ومنهَا: كثرة الكلام، والتشدق به، والتعمق فيه، والبيان كل البيان.

روى ابن باكويه في «الألقاب» عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِقِلَّةِ الْكَلامِ، لا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ؛ فَإِنَّ تَشْقِيقَ

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٢/ ١٤١).

الْكَلامِ مِنْ شَقَائِقِ[1] الشَّيْطَانِ»[2].

وروى ابن أبي شيبة عن عبد الملك بن عمير رحمه الله تعالى قال: قام رجل يتكلم بين يدي النبي ﷺ حتى أزبد شدقاه، فقال النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَشَقَائِقَ[3] الْكَلامِ؛ فَإِنَّ شَقَائِقَ الْكَلامِ مِنْ شَقَائِقِ الشَّيْطَانِ»[4].

وروى الطبراني في «الأوسط» عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْبَيَانَ كُلَّ الْبَيَانِ شُعْبَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ»[5].

١٣١ ـ ومنها: الصمت عن ذكر الله تعالى في محله، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير ضرر يلحقه.

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق

---

(١) في «الإصابة»: «شقاشق» بدل «شقائق».

(٢) ورواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢/ ٥٤٤)، وعزاه ابن حجر في «الإصابة في تمييز الصحابة» (١/ ٤٣٢) إلى الشيرازي في «الألقاب» عن جابر بن طارق، وقد ينسب إلى جده فيقال: جابر بن عوف.

(٣) في «المصنف»: «شقاشق» بدل «شقائق» في المواضع الثلاثة.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٢٩٨).

(٥) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٤)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٢٢٠٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١١٦): فيه أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة، وهو ضعيف.

يقول: من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس[1].

والسكوت عن المنكر من غير خوف ضرر مِنْ أوجب الأمور للعقوبة، ألا ترى قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[المائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

قال ابن زيد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[المائدة: ٧٨]: ماذا كانت معصيتهم؟ قال: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[المائدة: ٧٩]. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم[2].

وروى الخطيب في «رواة مالك» من طريق أبي سلمة، عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «وَالَّذِيْ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيَخْرُجَنَّ مِنْ أُمَّتِي نَاسٌ مِنْ قُبُوْرِهِمْ فِي صُوْرَةِ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيْرِ بِمَا دَاهَنُوا أَهْلَ الْمَعَاصِي، وَكَفُّوْا عَنْ نَهْيِهِم وَهُمْ يَسْتَطِيْعُوْنَ»[3].

وروى أبو الشيخ عن أبي عمرو بن جاس: أن ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال لكعب: هل لله من علامة في العباد إذا سخط؟

---

(١) انظر: «الرسالة القشيرية» (ص: ١٥٦).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١١٨٢).

(٣) ورواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤/ ١٨١١)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ١٢٧).

قال: نعم، يذلهم فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر[1].

وفي القرآن: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[المائدة: 78] الآية.

ولعل من تكلم بالسوء وفي السوء، وأمر بالسوء، وسكت عن الخير وعن الأمر بالخير والنهي عن السوء شيطانٌ رجيم مستكملٌ لكل شر عظيم.

١٣٢ ـ ومنها: الغناء، والنَّوح والصياح، وحضور تلك المجالس، واستماع ذلك والأمر به.

وأول من ناح وغنَّى إبليس.

وروى ابن أبي الدنيا في «المكائد» عن عبد الملك بن عمير رحمه الله تعالى قال: لما أهبط الله تعالى آدم ـ عليه السلام ـ وإبليس ـ لعنه الله تعالى ـ ناح إبليس حتى بكى آدم، ثم حدا حتى ضحك[2].

وفي «ذم الملاهي» عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا نُهِيتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ: صَوْتٍ عِنْدَ نِعْمَةٍ؛ لَهْوٍ وَلَعِبٍ، وَمَزَامِيرِ شَيْطَانٍ، وَصَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ؛ خَمْشِ وُجُوْهٍ، وَشَقِّ جُيُوْبٍ، وَرَنَّةِ شَيْطَانٍ»[3].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ١٢٦).

(٢) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٣٨).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (٢٧)، وكذا رواه الترمذي (١٠٠٥) عن جابر عن عبد الرحمن رضي الله عنهما، وحسنه.

وفيه عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَا رَفَعَ أَحَدٌ صَوْتَهُ بِغِنَاءٍ إِلاَّ بَعَثَ اللهُ ﷻ إِلَيْهِ شَيْطَانَيْنِ يَجْلُسَانِ عَلَى مَنْكِبَيْهِ يَضْرِبَانِ بِأَيْدِيهِما عَلَى صَدْرِهِ حَتَّى يُمْسِكَ»[1].

والمعنى: أن الشيطانين يستحثان المغني على الغناء بأيديهما إلى أن يمسك عن الغناء.

وروى ابن سعد في «طبقاته» عن محارب بن دثار رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال عن امرأة رنَّت: «فَعَلْتِ فِعْلَ الشَّيْطَانِ حِيْنَ أُهْبِطَ إِلَى الأَرْضِ؛ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ يَرِنُّ، وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَلَقَ وَلا مَنْ خَرَقَ وَلا مَنْ سَلَقَ»[2].

وروى الأصبهاني في «الترغيب» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما فتح النبي ﷺ مكة - شرفها الله تعالى - رنَّ إبليس رنة اجتمعت إليه ذريته، فقال: ايئسوا أن ترتد أمة محمد ﷺ إلى الشرك بعد يومهم هذا، ولكن افتنوهم في دينهم، وأفشوا فيهم النوح والشعر[3].

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن مجاهد رحمه الله تعالى قال:

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (١٦)، وكذا رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٨٢٥).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ١٨).

(٣) ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٣١٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٦٢) وليس عندهما: «والشعر».

إن إبليس رنَّ أربع رنات؛ حين لعن، وحين أهبط من الجنة، وحين بعث محمد ﷺ، وحين نزلت فاتحة الكتاب؛ قال: ونزلت بالمدينة[1].

وروى ابن أبي الدنيا عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أنه مر بجارية تغني فقال: لو ترك الشيطان أحداً ترك هذه[2].

وروى مسلم عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: لما مات أبو سلمة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قلت: غريبة وفي أرض غربة، لأبكينه بكاءً يتحدث عنه، فكنت قد تهيأت للبكاء عليه إذا أقبلت امرأة من الصعيد تريد أن تسعدني[3]، فاستقبلها رسول الله ﷺ فقال: «أَتُرِيْدِيْنَ أَنْ تُدْخِلِي الشَّيْطَانَ بَيْتَاً أَخْرَجَهُ اللهُ مِنْهُ ـ مرتين ـ» فكففت عن البكاء، فلم أبك[4].

والظاهر أنها أرادت أن تبكي بكاء مقروناً بالنوح ونحوه من عمل الجاهلية، فأشار إليه قولها: «لأَبْكِيَنَّهُ بُكَاءً يُتَحَدَّثُ عَنْهُ، فَكُنْتُ قَدْ تَهَيَّأْتُ لِلْبُكَاءِ»، أو البكاء الطبيعي لا يحتاج إلى تهيؤ ولا إلى إسعاد، وهو غير منهي عنه.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٩٩).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (١٧)، وكذا البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٤).

(٣) أي: تساعدني في البكاء والنوح.

(٤) رواه مسلم (٩٢٢).

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال في حديث: «دَعْهُنَّ يَبْكِيْنَ وَإِيَّاهُنَّ وَنَعِيْقَ الشَّيْطَانِ؛ إِنَّهُ مَهْمَا كَانَ مِنَ الْعَيْنِ وَالْقَلْبِ فَمِنَ اللهِ، وَمَهْمَا كَانَ مِنَ الْيَدِ وَاللِّسَانِ فَمِنَ الشَّيْطَانِ»(١).

وروى ابن سعد في «طبقاته» عن بكير بن عبدالله بن الأشج رضي الله تعالى عنه ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبُكَاءُ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَالصُّرَاخُ مِنَ الشَّيْطَانِ»(٢).

وروى ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» عن الحسن رضي الله تعالى عنه قال: صوتان قبيحان فاحشان؛ صوت عند نعمة إن حدثت، وصوت عند مصيبة إن نزلت، ذكر الله ﷻ المؤمنين فقال: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[الذاريات: ١٩]، وجعلتم في أموالكم حقاً معلوماً للمغنية عند النعمة، وللنائحة عند المصيبة؛ يتزوج منكم المتزوج فتحملون نساءكم، معهنَّ هذه الصنوج والمعازف، ويقول الرجل منكم لامرأته: تحفلي تحفلي، تحملي، ويحملها على حصان، ويسير معها عِلجان معهما قصيا شيطان، ومعهما من لعنة الله تعالى ورسوله ﷺ ما يعود ذلك على زوجها وذوي قرابتها؛ فإن رسول الله ﷺ لعن مخنثي الرجال ومذكرات النساء، وكان حذيفة

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٣٧).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٣٩).

ـ رضي الله تعالى عنه ـ يحدث عن رسول الله ﷺ: «لا يَتَشَبَّهِ الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ وَلا الْمَرْأَةُ بِالرَّجُلِ»، وأنتم تخرجون النِّساء في ثياب الرِّجال والرِّجال في ثياب النِّساء، ثم يمر بها على المساجد والمجالس فيقال: من هذه؟ فيقال: امرأة فلان بن فلان، ومرة تنسب إلى زوجها، ومرة إلى أبيها؛ لا برَّ ولا تقوى، ولا غيرةَ ولا حَياءَ، فيقال: ما هذه الجموع؟ فيقال: رجل لم يكن له زوجة فأفاده الله زوجة، فاستقبل نعمة الله تعالى بما ترون من الشُّكر.

هذا في هذه النِّعمة؛ فإن كانت المصيبة فإن مات منكم الميت وعليه دين، وعنده الأمانة، ويوصي بالوصية، فيأتي الشَّيطان أهله فيقول لأهله وورثته: والله لا ننفذ تركته، ولا نؤدِّي أمانته، ولا نمضي وصيَّته حتى تبدؤوا بحقي في ماله قبل كل حق، فيشترون ثياباً جدداً، ثم تشق عمداً، يجيئون بها بيضاً ثم تصبغ سوداً، ثمَّ يمدُّها أحيمق سرادقاً في داره، فيأتون بأمة مستأجرةٍ تبكي بغير شجوهم، وتبيع عبرتها بدراهمهم، تفتن أحياءهم في دورهم، وتؤذي موتاهم في قبورهم، تمنعهم أجرهم في الآخرة بما يعطونها من الأجرة في الدُّنيا، وما عسى أن تقولَ النَّائحة؟ تقول: أيُّها النَّاس! آمركم بما نهاكمُ اللهُ ﷻ عنه، وأنهاكم عمَّا أمركم اللهُ به، ألا إنَّ الله أمركم بالصَّبر فأنا أنهاكم أن تصبروا، ألا إنَّ اللهَ نهاكم عن الجزع فأنا آمركم أنْ تجزعوا، فيقال: اعرفوا لها حقَّها، فيبرد لها الشَّراب، وتكسى الثِّياب، وتحمل على الدَّواب؛ إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ما كنت أرى

أن أخلف في أمَّة يكون هذا فيهم[1].

قلت: وما ذكره الحسن في المأثم وضده ليس مجموعه المنكر، بل كل أفراده منكرات، وتختلف عوائد البلاد في ذلك، ففي بعضها يفعل ذلك كله ويزاد عليه إما بالهيئة التي ذكرها الحسن وهي عادة أهل العراق، ومن ثم طلع قرن الشيطان، وإمَّا على هيئة أخرى كما أخبرنا عن أهل مصر وفيها باض الشيطان وفرخ، وفي بعض البلاد يفعل بعض ما ذكره.

وقد تجاوز الناس إلى أشياء لم تكن في الزمن الأول.

فمما ضموه إلى ذلك في المأثم قطع أغصان عظيمة من الأشجار، وتعليق الخرق من الحرير وغيره فيها بين يدي الجنائز، وشد سرج الدابة منكَّساً، واستئجار نساء أهل الذمة للنوح، وربما قلن ما يوافق عقائدهن المردودة.

وممَّا ضموه إلى ما ذكره في الأفراح والولائم أنواع السخرية، وتشبه الرجال بالنساء، وإلباس العروس ملابس الرجال، وتحميلها السلاح، وإلباسها زي المُرْدِ، وما يقع في الولائم والمجامع من تزيين المُرْدِ الحسان، وإلباسهم زي النسوان، وأمرهم بإدارة القهوة على

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (٢٨) شطراً منه، ورواه بطوله الحارث بن أبي أسامة كما في «مسنده» في روايتين الأولى برقم (٢٦٥) والثانية (٨٨٩).

الرجال كما يدار الخمر، وغير ذلك؛ وكل هذه أخلاق شيطانية فاعلها متعرض بها للمقت والخذلان.

١٣٣ ـ ومنها: الزفن لهواً ولعباً، وهو الرقص.

روى ابن أبي الدنيا في كتاب «الزهد» عن الحريري: أنَّ يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ سأل ربه أن يريه إبليس في صورته، فرآه وعلى رأسه خطاطيف، وفي حجزته أكوزة معلقة، وفي قدميه أجراس، فقال يحيى عليه السلام: ما هذا الذي على رأسك؟

قال: أختطف به قلوب العباد.

قال: فما هذا الذي في حجزتك؟

قال: فيها الشهوات.

قال: فما هذه الأجراس؟

قال: إذا طرب ابن آدم زفنت بها حوله.

قال: فمتى أقرب ما تكون من ابن آدم؟

قال: إذا شبع.

قال يحيى عليه السلام: لا جرم؛ إني لا شبعت من طعام حتى ألقى الله عزّ وجلّ.

١٣٤ ـ ومنها: اتخاذ آلات اللهو وسماعها.

ولا يباح منها في مذهب الشافعي ـ رضي الله تعالى عنه ـ إلا الدف لعرس ونحوه، وطبل الجهاد والحجيج خالياً عن المزمار

العراقي والصنج، وسواء في الدف كان بجلاجل أم لا، [لا] يباح.

وقاس على ذلك الشيخ شمس الدين أبو حامد الصفدي، والشيخ تقي الدين بن قاضي عجلون، والوالد طبول الصمادية.

وأما اليراع فصحح الرافعي إباحته، والنووي تبعاً للبغوي تحريمه، وعليه الفتوى[1].

وذكر الثعلبي في «العرائس»: أن إبليس ـ لعنه الله تعالى ـ حسد داود ـ عليه السلام ـ على تلاوته وحسن لغوته، فأقبل على شياطينه وعفاريته فقال: ألا ترون ما دهاكم من داود؟

فقالوا: مرنا بما شئت.

فقال: إنه لا يصد عن تلاوة داود إلا ما يضاده في الحانة.

فهيأ لهم المزامير، والأعواد، والأوتار، والملاهي على ألحان داود عليه السلام، وأمر شياطينه أن يتفرقوا بها في بني إسرائيل، فلما سمع سفهاء بني إسرائيل لذلك مالوا إليها.

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «ذم الملاهي» عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾؛ قال: بالمزامير ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[الإسراء: ٦٤]؛ قال: كل راكب ركب في معصية الله فهو في خيل إبليس، وكل رجل سبقت في معصية الله فهي

---

(١) انظر: «روضة الطالبين» للنووي (١١/ ٢٢٨)، و«فتح الوهاب» لزكريا الأنصاري (٢/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥).

من رجل إبليس[1].

وفيه عن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه: أنه كتب إلى مؤدب ولده: خذهم بالجفاء؛ فهو أمضى لإقدامهم، وترك الصبحة؛ فإن عادتها تكسب الغفلة، وقلة الضحك؛ فإن كثرته تميت القلب، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي الذي بَدْؤها من الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن، وإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم أن حضور المعازف واستماع الأغاني واللهج بها، ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشبَ الماء، وليفتتح كل غلام منه بحزبه من القرآن يتثبت في قراءته، فإذا فرغ منه تناول قوسه ونبله وخرج إلى الغرض حافياً قدر[2] سبعة أرشاق، ثم انصرف إلى القائلة؛ فإن ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ كان يقول: قيلوا؛ فإن الشياطين لا تقيل[3].

قلت: هذا الأثر من لطائف الفوائد، وطرائف الفرائد.

وروى الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْجَرَسُ مَزَامِيْرُ الشَّيْطَانِ»[4].

وروى أبو داود عن عامر بن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهم: أن مولاة لهم ذهبت بابنة الزبير إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (٣٤).

(٢) في مصدري التخريج: «فرمى» بدل «قدر».

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (٢٢).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٧٢)، ومسلم (٢١١٤)، وأبو داود (٢٥٥٦).

تعالى عنه ـ وفي رجلها أجراس، فقطعها عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ مَعَ كُلِّ جَرَسٍ شَيْطَاناً»[1].

* تَنْبِيهٌ:

لما كان الركب الذي يصحبه جرس أو المجلس الذي فيه جرس، أو صورة، أو دف، أو غير ذلك من آلات اللهو محل الشياطين تنزهت الملائكة ـ عليهم السلام ـ عن هذه الأماكن.

فروى الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَصْحَبُ الْمَلائِكَةُ رُفْقَةً فِيْهَا كَلْبٌ وَلا جَرَسٌ»[2].

وروى أبو داود عن بنانة مولاة عبد الرحمن بن حبان الأنصاري، عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: بينما هي عندها إذ دخل عليها بجارية وعليها جلاجل يصوتن، فقالت: لا تدخلنَّها علي إلا أن تقطعوا بجلاجلها، وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تَدْخُلُ الْمَلائِكَةُ بَيْتاً فِيْهِ جَرَسٌ»[3].

وروى الإمام أحمد، والأئمة الستة إلا أبا داود عن أبي طلحة

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٣٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٤٤٤)، ومسلم (٢١١٣)، وأبو داود (٢٥٥٥)، والترمذي (١٧٠٣).

(٣) رواه أبو داود (٤٢٣١)، وعنده: «جلاجلها».

رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا تَدْخُلُ الْمَلائِكَةُ بَيْتاً فِيْهِ كَلْبٌ وَلا صُورَةٌ»[1].

وروى ابن أبي شيبة عن شريح: أنه سمع صوت دف فقال: إن الملائكة ـ عليهم السلام ـ لا يدخلون بيتاً فيه دف[2].

وروى هو وابن أبي الدنيا عن عمران بن مسلم قال: قال لي خيثمة: أما سمعت سويداً يقول: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه دف[3]؟

* **فائِدَةٌ:**

روى عبدالله بن المبارك في «الزهد والرقائق»، وابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي»، وأبو نعيم في «الحلية»، والأصبهاني في «الترغيب»، وغيرهم عن محمد بن المنكدر رحمه الله تعالى قال: يقال يوم القيامة: أين الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومرابض الشيطان؟ اجعلوهم في رياض المسك، ثم يقول للملائكة: أسمعوهم حمدي وثناء عليَّ، وأخبروهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٨)، والبخاري (٣٠٥٣)، ومسلم (٢١٠٦)، والترمذي (٢٨٠٤)، والنسائي (٤٢٨٢)، وابن ماجه (٣٦٤٩). وكذا أبو داود (٤١٥٥).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٦٤١٠).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (٣٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٦٤١١)، وعنده: «أنا سمعت سويداً...».

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٢/ ١٢)، وابن أبي الدنيا في «الورع» (ص: ٧١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٥١).

وروى الدينوري عن مجاهد نحوه[1].

وروى الثعلبي في «تفسيره»، والأصبهاني في «الترغيب» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رجل: يا رسول الله! إني رجل حبب إلي الصوت، فهل في الجنة صوت حسن؟

قال: «إِيْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ اللهَ ﷻ لَيُوْحِي إِلَى شَجَرَةٍ فِي الجَنَّةِ أَنْ أَسْمِعِي عِبَادِيَ الَّذِيْنَ اشْتَغَلُوْا بِعِبَادَتِي وَذِكْرِي عَنْ عَزْفِ الْبَرَابِطِ[2] وَالْمَزَامِيْرِ، فَتَرْفَعُ صَوْتاً لَمْ تَسْمَعِ الْخَلائِقُ مِثْلَهُ قَطُّ مِنْ تَسْبِيْحِ الرَّبِّ ﷻ وَتَقْدِيْسِهِ»[3].

وروى ابن أبي الدنيا، والضياء في «المختارة» بسند صحيح، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: في الجنة شجرة على ساق قدر ما يسير الراكب المُجد في ظلها مئة عام، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في ظلها، فليشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا، فيرسل الله ـ تعالى ـ ريحاً من مسك، فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا[4].

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٥٥٩).

(٢) البرابط: جمع بَرْبَط ـ بفتح الباءين الموحدتين ـ وهو العود، معرب. انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٨٥٠) (مادة: بربط).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٦).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (ص: ٤٧)، وانظر: «الترغيب والترهيب» للمنذري (٤/ ٢٨٨).

وروى الثعلبي عن الأوزاعي رحمه الله تعالى قال: ليس أحد من خلق الله تعالى أحسن صوتاً من إسرافيل ـ عليه السلام ـ فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سماوات صلاتهم وتسبيحهم[1].

وروى الإمام أحمد في «الزهد»، والبيهقي عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: يقام داود ـ عليه السلام ـ عند ساق العرش، فيقول الله تعالى: يا داود! مجِّدني بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا، فيقول: كيف وقد سلبتنيه؟ فيقول: إني سأرده عليك اليوم، فيندفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنة[2].

وروى الطبراني، والبيهقي عن أبي أمامة ـ رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلاَّ يَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ اثْنَتَانِ مِنَ الْحُوْرِ الْعِيْنِ يُغَنِّيَانِهِ بِأَحْسَنِ صَوْتٍ سَمِعَهُ الإِنْسُ وَالْجِنُّ، لَيْسَ بِمِزْمَارِ الشَّيْطَانِ وَلَكِنْ بِتَحْمِيْدِ اللهِ وَتَقْدِيْسِهِ»[3].

وروى هنَّاد بن السَّري عن يحيى بن أبي كثير ـ رحمه الله

---

(1) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٦)، وكذا أبو الشيخ في «العظمة» (٣/ ٨٥٦).

(2) رواه البيهقي في «البعث والنشور» (ص: ٣٤٩)، وكذا ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (١/ ٣٩٧).

(3) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٤٧٨). وحسن العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٢٦٧).

تعالى ـ في قوله تعالى: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾[الروم: ١٥]؛ قال: السماع[1].

وهذا الفصل الذي ذكرته هنا في سماع أهل الجنة فصل عزيز لطيف، وقد علمت أنه يكون ثواباً لأهلها وجزاء لتنزيه أسماعهم عن مزامير الشيطان واتباع الهوى في السماعات الدنيوية اللهوية، وكذلك سائر نعيم الجنة إنما هو جزاء عن نهي النفس عن الهوى، ومنعها منه في لباس وطعام وشراب، وغير ذلك.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[الحاقة: ٢٤]؟

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[النازعات: ٣٥ـ ٤١]؟

١٣٥ ـ ومن أخلاق الشيطان: كراهية الديك والتحرُّج عن سماع صوته، ولاسيما الأبيض.

والسبب في ذلك أن الديك يوقظ للصلاة ويدعو إليها في أوقاتها كالمؤذن، ويذكر الله تعالى، وكان مذكراً لآدم ـ عليه السلام ـ وأنيساً له، وصديقاً لمحمد ﷺ، وهو على صورة بعض الملائكة، ولا يصيح

---

(١) رواه هناد بن السري في «الزهد» (١/ ٥٠).

حتى يرى ملكاً، وصوته من أحب الأصوات إلى الله تعالى.

وذلك كله قاصم لظهر الشيطان، مُرغِم لأنفه، ولذلك كان عدواً للشيطان الرجيم.

روى الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه بإسناد جيد، عن زيد ابن خالد الجهني رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «لاتَسُبُّوْا الدِّيْكَ؛ فَإِنَّهُ يُوْقِظُ لِلصَّلاةِ»[1].

وروى أبو الشيخ في كتاب «العظمة» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن ديكاً صرخ عند رسول الله ﷺ فسبَّه رجل ولعنه، فقال رسول الله ﷺ: «لا تَلْعَنْهُ وَلا تَسُبَّهُ؛ فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الصَّلاةِ»[2].

وروى البيهقي في «الشعب» عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «الدِّيْكُ يُؤَذِّنُ بِالصَّلاةِ، مَنِ اتَّخَذَ دِيْكاً أَبْيَضَ حُفِظَ مِنْ ثَلاثَةٍ؛ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْطَانٍ، وَسَاحِرٍ، وَكَاهِنٍ»[3].

وروى أبو نعيم في «فضل الديك[4]» عن عائشة رضي الله تعالى

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١٩٢)، وأبو داود (٥١٠١).

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٦٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٧٧): رواه البزار، وفيه عباد بن منصور، وثقه يحيى القطان وغيره، وضعفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٧٧).

(٤) في «الدر المنثور»: «فضل الذكر» بدل «فضل الديك». لكن لأبي نعيم جزء في أخبار الديك.

عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «صَوْتُ الدِّيْكِ صَلاتُهُ، وَضَرْبُهُ [بجناحيه] رُكُوْعُهُ وَسُجُوْدُهُ»، ثم تلا: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤][1].

وروى الثعلبي في «تفسيره» عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الدِّيْكُ إِذَا صَاحَ قَالَ: اذْكُرُوْا اللهَ يَا غَافِلِيْنَ»[2].

وذكر في «العرائس» عن وهب ـ رحمه الله تعالى ـ أن آدم عليه السلام قال: يا رب! شغلت بطلب الرزق والمعيشة عن التسبيح والعبادة، ولست أعرف ساعات التسبيح من أيام الدنيا.

فأهبط الله تعالى له ديكاً، وأسمعه أصوات الملائكة بالتسبيح، وكان الديك إذا سمع أصوات الملائكة بالتسبيح في السماء سبَّح في الأرض، فيسبح آدم إذا سمع صوت الديك، فكان آدم ـ عليه السلام ـ أول من اتخذ الديك لأوقات العبادة.

وروى أبو القاسم البغوي عن خالد بن معدان ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الدِّيْكُ الأَبْيَضُ صَدِيْقِي وَعَدُوٌّ عَدُوِّ اللهِ؛ يَحْرُسُ

---

(١) كذا عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٨٩) إلى أبي نعيم، ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٣٧٧٥).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١٩٥)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٣١٢٩) وقال: عن الحسن، وربما هو ابن علي رضي الله عنهما.

دَارَ صَاحِبِهِ وَسَبْعَ آدُرٍ»[1]، وله شواهد.

واعترض ابن حجر على ابن الجوزي في عده في الموضوعات؛ قال: ولم يتبين لي الحكم على هذا المتن بالوضع[2].

وروى الطبراني، وأبو الشيخ، وغيرهما عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ للهِ دِيْكاً أَبْيَضَ جَنَاحَاهُ مُوشَّيَانِ بِالزَّبَرْجَدِ وَالْيَاقُوْتِ وَاللُّؤْلُؤِ، جَنَاحٌ لَهُ بِالْمَشْرِقِ وَجَنَاحٌ لَهُ بِالْمَغْرِبِ، وَرَأْسُهُ مَثْنِيٌّ تَحْتَ الْعَرْشِ وَقَوَائِمُهُ فِيْ الْهَوَاءِ - وفي رواية: فِي الأَرْضِ السُّفْلَى - يُؤَذِّنُ فِي كُلِّ سَحَرٍ، فَإِذَا كَانَ فِي السَّحَرِ الأَعْلَى خَفَقَ بِجَنَاحَيِهِ، ثُمَّ قَالَ: سُبُّوْحٌ قُدُّوْسٌ رَبُّنَا لا غَيْرُهُ، فَيَسْمَعُ تِلْكَ الصَيْحَةَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَأَهْلُ الأَرْضِ إِلاَّ الثَّقَلَينِ الْجِنُّ وَالإِنْسُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُجِيْبُهُ دُيُوْكُ أَهْلِ الأَرْضِ، فَإِذَا كانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قالَ اللهُ تَعَالَى: ضُمَّ جَنَاحَكَ، وَغُضَّ صَوْتَكَ، فَيَعْلَمُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّ السَّاعَةَ قَدْ اقْتَرَبَتْ»[3].

وروى الأئمة الستة إلا ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى

---

(١) ورواه ابن قانع في «معجم الصحابة» (١/ ٥٩) عن أثوب بن عتبة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة» للكناني (٢/ ٢٥٠)، و«المقاصد الحسنة» للسخاوي (١/ ٣٥٣) وقال: لكن في أكثر ألفاظه ركة لا رونق لها.

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٣/ ١٠٠٨)، وكذا أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢/ ٢٨٨).

عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيْكِ فَاسْأَلُوْا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكاً، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نهاقَ الْحِمَارِ فَتَعَوَّذُوْا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَاناً»(١).

وروى الديلمي عن أم محمد بنت زيد بن ثابت رضي الله عنها وعن أبيها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَةُ أَصْوَاتٍ يُحِبُّهَا اللهُ؛ صَوْتُ الدِّيكَةِ، وَصَوْتُ الَّذِيْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَصَوْتُ الْمُسْتَغْفِرِيْنَ بِالأَسْحَارِ»(٢).

١٣٦ ـ ومن أخلاق الشيطان: الاستماع إلى نهيق الحمار ونباح الكلب، وحمل الحمير على النهيق كما يفعل بعض الجهلة من التصويت بصوت إذا سمعه الحمار نهق.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[لقمان: ١٩].

وقال رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة المذكور آنفاً: «وَإِذَا سَمِعْتُمْ نهاقَ الْحِمَارِ فَتَعَوَّذُوْا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَاناً»(٣).

وقال ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ نُبَاحَ الْكَلْبِ وَنَهِيْقَ الْحِمَارِ بِاللَّيْلِ فَتَعَوَّذُوْا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَرَيْنَ مَا لا تَرَوْنَ». الحديث رواه

---

(١) رواه البخاري (٣١٢٧)، ومسلم (٢٧٢٩)، وأبو داود (٥١٠٢)، والترمذي (٣٤٥٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٩١).

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٢٥٣٨) لكن عن أم سعد بنت زيد بن ثابت.

(٣) تقدم تخريجه.

الإمام أحمد، وغيره، وصححه ابن حبان، والحاكم، عن جابر[1].

وله في الباب حديث آخر أخرجه ابن عدي، وتقدم.

١٣٧ ـ ومنها: إشلاء الكلاب ونحوها على الناس.

ذكر القرطبي في تفسير سورة الأعراف عن الحكيم الترمذي: أن آدم ـ عليه السلام ـ لمَّا أهبط إلى الأرض ذهب إبليس إلى السباع فأشلاها على آدم عليه السلام، وكان الكلب من أشدها كَلَباً عليه، فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ بالعصا التي صرفت إلى موسى ـ عليه السلام ـ بمَدْين، وجعلها آية له إلى فرعون وملئه، وجعل فيها سلطاناً عظيماً، وكانت من آس الجنة، فأعطاها آدم يومئذ ليطرد بها السباع عن نفسه، وأمره ـ فيما روي ـ أن يدنو من الكلب فمات الفؤاد منه بسلطان العصا، وأَلِفَ به وبولده إلى يومنا هذا، وصار حارساً من حرَّاس ولده، وإذا أدب وعلم الاصطياد تأدب وقبل التعليم، وذلك قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾[المائدة: ٤][2].

١٣٨ ـ ومنهَا: اللعب بالحَمَام الطيارة.

روى أبو داود ـ وإسناده صحيح ـ عن أبي هريرة، وابن ماجه عنه، وعن أنس، وعن عائشة رضي الله تعالى عنهم: أن النبي ﷺ رأى

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٠٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٥١٧)، والحاكم في «المستدرك» (٧٧٦٢)، وكذا أبو داود (٥١٠٣).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ٣٢٣).

شخصاً يتبع حمامة فقال: «شَيْطَانٌ يَتْبَعُ شَيْطَانَةً»(١).

١٣٩ ـ ومنها: لباس الحُمرة والملونات.

روى الطبراني عن رجل من بني سليم قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْحُمْرَةَ؛ فَإِنَّهَا أَحَبُّ الزِّينَةِ إِلَى الشَّيْطَانِ»(٢).

وروى البيهقي في «الشعب» عن الحسن رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْحُمْرَةُ زِينَةُ الشَّيْطَانِ»(٣).

وروى هو وابن عدي، والحاكم في كتاب «الكنى»، وابن قانع في «معجم الصحابة» عن رافع بن يزيد الثقفي رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يُحِبُّ الْحُمْرَةَ؛ فَإِيَّاكُمْ وَالْحُمْرَ وَكُلَّ ثَوْبٍ ذِي شُهْرَةٍ»(٤).

وقال ابن جهضم: حدثني أحمد بن عبد السلام قال: سمعت أبا

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٤٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وروواه ابن ماجه (٣٧٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، و(٣٧٦٧) عن أنس رضي الله عنه، و(٣٧٦٤) عن عائشة رضي الله عنها، و(٣٧٦٦) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ١٤٨) عن عمران بن حصين رضي الله عنه.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٣٠): رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما يعقوب بن خالد بن نجيح البكري العبدي، ولم أعرفه، وفي الآخر بكر بن محمد يروي عن سعيد عن شعبة، وبقية رجالهما ثقات.

(٣) ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٩٩٧٥).

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٣٢٧)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٢٥). وفي سنده أبو بكر سلمى بن عبد الله الهذلي، ضعيف.

سليمان المغربي: ما أحب أن أرى على أصحابنا الملونات.

فقيل له: لِمَ؟

فقال: لأني رأيت إبليس عليه الملونات، وبينا أنا قائم أصلي يوم جمعة رأيته قد دخل المسجد بيده باقة ريحان، فمر بين الصفوف يشمه واحداً واحداً إلى أن قرب مني، فلما دنا مني نظرت إليه بقرب فتأملت مَنْ شَمَّ ريحانه، فمن كان قائماً جلس ومن كان جالساً نعس.

١٤٠ ـ ومنها: تشبيك الأصابع في أمكنةٍ وأوقاتٍ تُطلب فيها الطاعة وحضور القلب عبثاً وتلهياً عن ذكر الله تعالى.

وروى الإمام أحمد بإسناد حسن، عن مولى لأبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنهما قال: بينما أنا مع أبي سعيد وهو مع رسول الله ﷺ، فإذا رجل جالس في وسط المجلس محتبياً مشبكاً أصابعه بعضها في بعض، فأشار إليه رسول الله ﷺ، فلم يفطن الرجل لإشارة رسول الله ﷺ، فالتفت إلى أبي سعيد فقال: «إِذَا كانَ أَحَدُكُم فِي الْمَجْلِسِ فَلا يُشْبِكَنَّ؛ فَإِنَّ التَّشْبِيْكَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لا يَزَالُ فِيْ صَلاةٍ مَا كَانَ فِيْ الْمَسْجِدِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهُ»(١).

وهذا الحديث فيه إشارة إلى كراهية التشبيك بين الأصابع في

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٢). وضعف ابن حجر إسناده في «فتح الباري» (١/ ٥٦٦).

المسجد[1] ـ سواء كان في صلاة، أو لا ـ وكذلك لو خرج إلى المسجد وهو في الطريق كما جزم به البغوي في التحقيق؛ لما رواه أبو داود، وغيره عن كعب بن عجرة رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلا يُشَبِّكَنَّ بَيْنَ أَصَابِعِهِ؛ فَإِنَّهُ فِي صَلاةٍ»[2].

قال الحافظ العراقي: الحكمة في النهي عن التشبيك في الصلاة أو في المسجد إمَّا لما فيه من العبث، أو لما فيه من التشبه بالشيطان، أو لدلالة الشيطان على ذلك كما في حديث مولى أبي سعيد رضي الله تعالى عنهما، انتهى[3].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١/ ٥٦٦ ـ ٥٦٧): وجمع الإسماعيلي بأن النهي مقيد بما إذا كان في الصلاة أو قاصداً لها؛ إذ منتظر الصلاة في حكم المصلي، وأحاديث الباب الدالة على الجواز خالية عن ذلك، أما الأولان فظاهران، وأما حديث أبي هريرة فلأن تشبيكه إنما وقع بعد انقضاء الصلاة في ظنه، فهو في حكم المنصرف من الصلاة، والرواية التي فيها النهي عن ذلك ما دام في المسجد ضعيفة كما قدمنا، فهي غير معارضة لحديث أبي هريرة كما قال ابن بطال، انتهى.
ويفهم من هذا الكلام أن تشبيك الأصابع لغير المصلي أو قاصد الصلاة مباحة، سواء في المسجد أو خارجه، خلافاً لما أثبته المصنف أن تشبيك الأصابع مكروه مطلقاً في المسجد، والله أعلم.

(٢) رواه أبو داود (٥٦٢)، والترمذي (٣٨٦).

(٣) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٥٦٧).

ولا يعارض ما ذكرناه حديثَ «الصحيحين»: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ»، وشبك بين أصابعه[1]؛ لأنه ﷺ منزه عن التلهي والعبث، وإنما أراد تمثيل تعاضد المؤمنين بعضهم ببعض بالبنيان المتعاضد، ثم حكى التعاضد بيديه ﷺ ليجمع بين القول والفعل؛ فافهم!

ومثل هذا العرض لا شبهة في جوازه بل في استحبابه؛ فاعلم.

١٤١ ـ ومنها: رفع البصر إلى السماء في محل يطلب فيه الخضوع والاتِّضاع.

ومن هنا كره رفع البصر إلى السماء في الصلاة.

فأما رفع البصر للتفكر في خلق السماء والاعتبار، فليس من هذا القبيل، بل هو مطلب مستحب.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

روى ابن أبي حاتم عن رجاء بن أبي سلمة رحمه الله تعالى قال: أهبط آدم ـ عليه السلام ـ يديه على ركبتيه مطأطئاً رأسه، وأهبط إبليس مشبكاً بين أصابعه رافعاً رأسه إلى السماء[2].

١٤٢ ـ ومنها: الاختصار؛ بمعنى وضع اليد على الخاصرة.

قال الترمذي بعد أن أسند حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو في بقية

---

(١) رواه البخاري (٢٣١٤)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٨٨).

الكتب الستة: إن النبي ﷺ نهى أن يصلي الرجل مختصراً[1]: ويروى أن إبليس إذا مشى مشى مختصراً، انتهى[2].

وروى ابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أَنَّهُ كره التخصر في الصلاة أَنَّ إبليس أُهبِطَ مختصِراً[3].

وروى عبد الرزاق عن مجاهد رضي الله تعالى عنه قال: وضع اليد في الخاصرة استراحة أهل النار.

قال: وقال في حديث آخر: إنها مشية الشيطان[4].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنه قال: إذا قام أحدكم إلى صلاة فلا يجعل يده في خاصرته؛ فإن الشيطان يحضر ذلك[5].

وقيل: إن سبب الكراهة أنه من فعل اليهود، كما سيأتي.

وروى ابن أبي شيبة عن خالد بن معدان رحمه الله تعالى: أن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ رأت رجلاً واضعاً يده على خاصرته،

---

(١) رواه البخاري (١١٦٢)، ومسلم (٤٥٤)، وأبو داود (٩٤٧)، والترمذي (٣٨٣)، والنسائي (٨٩٠).

(٢) انظر: «سنن الترمذي» (٣٨٣).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٥٩٥) بهذا اللفظ عن حميد بن هلال، وأما ما رواه عن ابن عباس (٤٥٩٣) فلفظه: «أنه كرهه في الصلاة، وقال: إن الشيطان يحضر ذلك».

(٤) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٣٤٢).

(٥) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٣٣٩).

فقالت: هكذا أهل النار في النار[1].

وعن مجاهد أنه قال: وضع اليدين على الحقو استراحة أهل النار[2].

وسبق من رواية عبد الرزاق بلفظ آخر.

١٤٣ ـ ومنها: التبختر في المشية، والمبالغة في الإسراع بها.

بل ينبغي للمؤمن أن يكون منتصباً في مشيته كما قال الله تعالى حكاية عن لقمان: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾[لقمان: ١٩]، فلا تبالغ في التماوت ولا تمش متشبهاً كالمخنثين، ولا تشتد في العَدْو فتكون متشبهاً بالشيطان فيهما.

وقد روي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أنه رأى رجلاً يخطر في مشيته فقال: إن للشياطين إخواناً[3].

وقال القرطبي في تفسير الآية: القصد ما بين الإسراع والبطء؛ أي: لا يدب دَبيب المتماوتين، ولا يثب وثب الشياطين. انتهى[4].

١٤٤ ـ ومنها: العسف بالدابة، وعدم الرفق بها والمبادرة إلى راحتها في المنازل.

روى الدارقطني في «الأفراد» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٥٩٢).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٥٩٥).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤١).

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (١٤/ ٧١).

قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَكِبْتُمْ هَذِهِ الدَّوَابَّ فَأَعْطُوْهَا حَظَّهَا مِنَ الْمَنَازِلِ، وَلا تَكُوْنُوْا عَلَيْهَا شَيَاطِيْنَ»(١).

١٤٥ ـ ومنها: المشي في نعل واحدة.

فقد صح النهي عنه، وهو مكروه.

قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى: والسبب في ذلك ما قيل: إنها مشية الشيطان(٢).

وحكى النووي ـ رحمه الله تعالى ـ عن العلماء أن سبب ذلك أنه تشويه، ومُثْلَة، ومخالف للوقار، ولأن المنتعلة تصير أرفع من الأخرى فتتغير مشيته، وربما كان سبباً للعثار(٣).

قلت: والتشويه ومخالفة الوقار من جملة أوصاف الشيطان لعنه الله تعالى.

ثم رأيت في «الفردوس» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال له: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! لا تَمْشِ فِيْ نَعْلٍ وَاحِدَةٍ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَمْشِي فِي نَعْلٍ وَاحِدَةٍ»(٤).

١٤٦ ـ ومنها: اشتمال الصَّمَّاء.

قال الثعلبي: أهبط إبليس إلى الأرض مشتملَ الصماء، أعورَ،

---

(١) رواه الدارقطني فى «الأفراد» كما في «أطراف الغرائب والأفراد» لابن طاهر (٥/ ٢١٧).

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١٠/ ٣١٠).

(٣) انظر: «شرح مسلم» للنووي (١٤/ ٧٥).

(٤) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٣٩٨).

في إحدى رجليه نعل[1].

وروى أبو داود عن جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ نهى عن الصماء والاحتباء في ثوب واحد[2].

واشتمال الصماء: أن تجلل جسدك بثوبك بأن يرد الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر، ثم يرده ثانية من خلف على يده اليمنى وعاتقه الأيمن، فيغطيهما جميعاً؛ هذا ما في «الصحاح».

وذكر أبو عبيد أن الفقهاء يقولون: هو أن يشتمل بثوب واحد ليس عليه غيره، ثم يرفعه من أحد جانبيه فيضعه على منكبه، فيبدو منه فرجه[3].

قال النووي في «الروضة»: ويكره أن يشتمل الصماء، وأن يشتمل اشتمال اليهود:

فالصماء أن يجلل يديه بالثوب ثم يرفع طرفيه على عاتقه الأيسر.

واشتمال اليهود كذلك إلا أنه لا يرفع طرفيه.

وقيل: هما بمعنى، والمراد بهما الثاني، انتهى[4].

---

(١) وذكره ابن الأثير في «الكامل في التاريخ» (١/ ٢٨) عن الشعبي.

(٢) رواه أبو داود (٤٠٨١)، وكذا مسلم (٢٠٩٩) بلفظ قريب، والترمذي (٢٧٦٧)، والنسائي (٥٣٤٢).

(٣) انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٢/ ١١٨).

(٤) انظر: «روضة الطالبين» للنووي (١/ ٢٨٩).

وإنما كُرها للنهي عنهما، ولأنَّه إذا أتاه من يتوقاه لا يمكنه إخراج يديه بسرعة، فإذا أخرج يده فربما انكشفت عورته.

وفي «النهاية» تفسير الصماء بما فسر به في «الروضة» اشتمال اليهود، فإنه ذكر أنه التجلل بالثوب وإسباله من غير أن يرفع طرفه، لأنه يسد على يديه ورجليه المنافذ كلها كالصخرة الصماء التي ليس فيها خرق[1].

١٤٧ ـ ومنها: الإقعاء.

روى ابن أبي شيبة عن علي رضي الله تعالى عنه: أنه كره الإقعاء في الصلاة، وقال: عقبة الشيطان[2].

وروى عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وغيرهما، وصححه البغوي في «شرح السنة»، عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبي ﷺ ينهى عن عقبة الشيطان[3]؛ يعني: الإقعاء.

قال البغوي: تفسير أصحاب الحديث في عقبة الشيطان وفي الإقعاء واحد: وهو أن يضع ألييه على عقبيه، ويقعد مستوفزاً غير مطمئن إلى الأرض، انتهى[4].

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٥٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٣٣).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٣٩)، وكذا رواه مسلم (٤٩٨).

(٤) انظر: «شرح السنة» للبغوي (٣/ ١٥٥).

وسيأتي ذكر الإقعاء في التشبه بالبهائم والسباع.

١٤٨ ـ ومنها: القعود بين الظل والشمس.

وروى الإمام أحمد بسند حسن، عن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم: ـ أن النبي ﷺ قال: «بينَ الظِّلِّ والشَّمسِ مَجْلِسُ الشَّيْطَانِ»(١).

وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: حرف الظل مقعد الشيطان(٢).

وقال عبيد بن عمير رحمه الله تعالى: حد الظل والشمس مقاعد الشيطان(٣).

وقال سعيد بن المسيب: حرف الظل مقيل الشيطان(٤).

روى هذه الآثار ابن أبي شيبة.

١٤٩ ـ ومنها: الانبطاح على الوجه.

وهو مكروه للرجل كما يكره الاستلقاء للمرأة.

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: كنت من أهل الصفة، وكنَّا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله ﷺ، فيأمر كل رجل فينصرف برجل، فيبقى من يبقى من أهل الصفة عشرة أو أكثر

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤١٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٩٥٩).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٩٦١).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٩٦٠).

أو أقل، فيأتي النبي ﷺ فنتعشَّى معه، فإذا فرغنا قال رسول الله ﷺ: «نَامُوا فِيْ الْمَسْجِدِ».

قال: فمر رسول الله ﷺ وأنا نائم على وجهي، فغمزني برجله، وقال: «يَا جُنْدُبُ! مَا هَذِهِ الضَّجْعَةُ؟ فَإِنَّهَا ضَجْعَةُ الشَّيْطَانِ»[1].

قال العلماء: نوم الإنسان منبطحاً نوم الشياطين، ومضطجعاً على الشمال نوم السلاطين، وعلى اليمين نوم العلماء والصالحين، ومستلقياً نوم الأنبياء والمرسلين، فيتفكرون في خلق السماوات والأرضين.

١٥٠ ـ ومنها: ضحك القهقهة، واستدعاؤها من غيره.

وروى الطبراني في «الأوسط» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْقَهْقَهَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَالتَّبَسُّمُ مِنَ اللهِ تَعَالَى»[2].

١٥١ ـ ومنها: استحباب رفع الصَّوت بالجُشاء والعطاس، وفتح الفم بالتثاؤب.

روى البيهقي في «الشعب» عن واثلة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَجَشَّأَ أَحَدُكُمْ أَوْ عَطَسَ فَلا يَرْفَعَنَّ بِهِمَا الصَّوْتَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُحِبُّ

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٥٢).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (١٠٥٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٩٦): فيه من لم أعرفهم.

أَنْ يَرْفَعَ بِهِمَا الصَّوْتَ»[1].

وإنما قيدنا العطاس بالشدة إشارة إلى أن لا تعارض بين ذلك وبين حديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «الْعُطَاسُ مِنَ اللهِ، وَالتَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ»[2].

وروى البيهقي في «سننه» عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكره العطسة الشديدة[3].

والمعنى في ذلك أن شدة العطاس فيه ما في التثاؤب من اعوجاج الخلقة عن اعتدال الهيئة، ولذلك استحب للعاطس أن يميل برأسه ويخمر وجهه ليستر تلك الحالة الخارجة عن الاعتدال، كما استحب للمتثاوب أن يكظمه على كل حال.

وروى البخاري، وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «التَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاوَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدَّهُ

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٣٥٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٥/ ٣٧٢) عن عبادة بن الصامت وشداد بن أوس وواثلة بن الأسقع رضي الله عنهم.

ورواه أبو داود في «المراسيل» (١/ ٣٥٣) عن يزيد بن مرثد.

(٢) رواه البخاري (٥٨٦٩) بلفظ قريب، ورواه بلفظ الأصل الترمذي (٢٧٤٦).

(٣) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٩٠). قال ابن طاهر المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (٢/ ٨٥٥): رواه يحيى بن يزيد بن عبد الملك النوفلي، وهو ضعيف.

مَا اسْتَطَاعَ؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَالَ: هَاه، ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ»[1].

* تَنْبِيهٌ:

لكون التثاؤب من الشيطان كان النبي ﷺ وسائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ محفوظين منه.

روى ابن أبي شيبة، والبخاري في «التاريخ» عن يزيد بن الأصم ـ مرسلاً ـ قال: ما تثاوب ﷺ في صلاة قط[2].

وروى ابن أبي شيبة عن مسلمة بن عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى قال: ما تثاوب نبي قط[3].

وهذا نظير حفظ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من الاحتلام.

* فَائِدَةٌ:

روى الطبراني في «الأوسط» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَصْدَقُ الْحَدِيْثِ مَا عُطِسَ عِنْدَهُ»[4].

وهو وأبو يعلى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال

---

(١) رواه البخاري (٥٨٦٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧٩٨٢).

(٣) ورواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١٨٨).

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٣٦٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٥٩): رواه الطبراني عن شيخه جعفر بن محمد بن ماجد، ولم أعرفه، وعمارة بن زاذان وثقه أبو زرعة وجماعة، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

رسول الله ﷺ: «مَنْ حَدَّثَ بِحَدِيْثٍ فَعُطِسَ عِنْدَهُ فَهُوَ حَقٌّ»[1].

وروى أبو نعيم في «الحلية» عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْعُطَاسُ عِنْدَ الدُّعَاءِ شَاهِدُ صِدْقٍ».

١٥٢ ـ ومنها: تلهية العاطس عن الحمد، واستحباب تركه.

وروى ابن أبي شيبة عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: عطس رجل عند ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، فقال: أشهب، فقال ابن عمر: أشهب اسم شيطان وضعه إبليس بين العطسة والحمد ليترك[2].

١٥٣ ـ ومنها: الضحك من ابن آدم إذا صدر منه ما هو من ضروريات البشرية من نعاس، أو عطاس، أو تثاؤب، أو ضراط، أو غير ذلك.

ومن الأدلة على ذلك: قوله ﷺ في حديث التثاؤب المتقدم: «فَإِنَّ أَحَدَكُم إِذَا قَالَ هَاه، ضَحِكَ الشَّيْطَانُ مِنْهُ»[3].

وقد نهى رسول الله ﷺ عن الضحك من الضرطة كما رواه الطبراني، وغيره[4].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٥٠٩). قال أبو حاتم: حديث كذب. انظر: «علل الحديث» لابن أبي حاتم (٢/ ٣٤٢).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٩٩٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (٦٤٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. ورواه البخاري (٤٦٥٨)، ومسلم (٢٨٥٥) عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه.

١٥٤ ـ ومنها: وضع الثوب على الأنف.

روى الطبـراني في «معجمـه الكبيـر»، و«الأوسـط» عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسـول الله ﷺ: «لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُمْ وَثَوْبُهُ عَلَى أَنْفِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ حَظُّ الشَّيْطَانِ»[1].

قلت: ولعل المعنى فيه أن وضع الثوب على الأنف ربما أدى إلى تقذيره وتوسيخه، ومن هنا قال النبي ﷺ: «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَضَعْ كَفَّيْهِ عَلَى وَجْهِهِ وَلْيَخْفِضْ صَوْتَهُ» كما صححه الحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه[2].

فأمر بوضع الكفين على الوجه دون الثوب لئلا يتقذر، وتنظيف اليد أقرب من تنظيف الثوب مع أنهما آلة لذلك وغيره.

والحكمـة في وضـع الكفيـن على الوجـه وخفـض الصوت: أن العطاس ربما غيَّر سَمْتَ الوجه فيظهر منه للحاضرين كالمثلة، فذلك يستره ويمنعه.

وأيضاً فإنه يتناثر من الأنف ما يقذر الثياب والفراش، وربما وصل منه شيء إلى الجليس، ففي وضع الكفين على الوجه منع ذلك.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩٣٥٤) لكن عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٨٣): وفيه ابن لهيعة وفيه كلام.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٦٨٤)، وكذا البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٣٥٣).

١٥٥ ـ ومنها: تسمية العشاء عتمة.

روى ابن أبي شيبة عن ميمون بن مهران رحمه الله تعالى قال: قلت لابن عمر رضي الله تعالى عنهما: من أول من سماها العتمة؟

قال: الشيطان[١].

١٥٦ ـ ومنها: أكل الميتة في غير حالة الاضطرار؛ وهو من أشد الحرام.

روى الإمام أحمد، والشيخان عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: صبح رسول الله ﷺ خيبر وقد خرجوا بالمَسَاحي، فلما نظروا إليه قالوا: محمد والخميس؟

فقال ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا سَاحَةَ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِيْنَ».

فأصبنا حمراً خارجة من القرية فاطبخنا، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَرَسُوْلَهُ يَنْهَاكُمْ عَنْ لُحُوْمِ الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ؛ فَإِنَّهَا رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»[٢].

١٥٧ ـ ومنها: ترك التسمية على الطعام والشراب، وعند الدخول إلى الأماكن، وعند الخروج منها، وفي سائر الأمور المهمة، وأكل

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨٠٨٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١١١)، والبخاري (٥٨٥)، ومسلم (١٣٦٥).

وشرب ما لم يذكر اسم الله عليه.

روى مسلم، والأربعة عن جابر رضي الله تعالى عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُوْلِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ - يَعْنِي: لِجُنُوْدِهِ -: لا مَبِيْتَ لَكُمْ وَلا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُوْلِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيْتَ وَالْعَشَاءَ»(١).

ولهُ في الباب حديث آخر أخرجه ابن عدي - وتقدم -، وفي الباب أحاديث كثيرة.

وقد تقدم أيضاً: أن الرجل إذا جامع أهله ولم يسم جامع معه الشيطان، وأنزل معه.

وروى ابن السني عن دويد بن نافع القرشي رحمه الله - مرسلاً - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ ادَّهَنَ وَلَمْ يُسَمِّ ادَّهَنَ مَعَهُ سَبْعُوْنَ شَيْطَاناً»(٢).

ومن شأن المؤمن ذكر الله تعالى على كل حال، وذكر اسمه على كل أمر ذي بال؛ لقوله ﷺ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْتَدَأُ بِاسْمِ اللهِ فَهُوَ أَجْذَمُ». رواه أبو داود، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٠١٨)، وأبو داود (٣٧٦٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦٧٥٧)، وابن ماجه (٣٨٨٧).

(٢) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص: ١٤٣). قال أبو حاتم: هذا الحديث كذب. انظر: «علل الحديث» له (٢/ ٣٠٥).

(٣) رواه أبو داود (٤٨٤٠).

وروى الطبراني بسند صحيح، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إن شيطان المؤمن يلقى شيطان الكافر فيرى شيطان المؤمن شاحباً أغبر مهزولاً، فيقول له شيطان الكافر: ما لك قد هلكت؟

فيقول شيطان المؤمن: لا والله لا أصل معه إلى شيء؛ إذا طَعِمَ ذكر اسم الله، وإذا شرب ذكر اسم الله، وإذا دخل بيته ذكر اسم الله.

فيقول الآخر: آكل من طعامه، وأشرب من شرابه، وأنام على فراشه.

فهذا ساحٌّ، وهذا مهزول[1].

الشاحب ـ بالشين المعجمة، والحاء المهملة بعدها موحدة ـ: المتغير اللون لجوع، أو هزال.

والساح ـ بالسين المهملة، والحاء المهملة المشددة ـ: هو السمين المنتهي في السمن.

١٥٨ ـ ومنها: تناول المآكل الخبيثة، والميل إليها.

روى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «الثُّوْمُ وَالْبَصَلُ وَالْكُرَّاثُ مِنْ سُكِّ إِبْلِيْسَ»[2].

والسك ـ بضم السين المهملة ـ: نوع من الطيب؛ أي: من طيبه.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٧٨٢).

(٢) تقدم تخريجه.

ومن هنا علم أن استعمال التُّتُن[1] خلق شيطاني، وهو مضر مخدر للبدن، فينبغي أن يحرم، والاستكثار منه حرام بلا شك، ولا ضرورة في استعماله، وما يخيله الشيطان إلى مستعمليه من الضرورة غلط منهم، والدخان من حيث هو مضر باتفاق الأطباء.

١٥٩ ـ ومنها: الأكل بالشمال والشرب بالشمال، والأخذ والإعطاء بها.

فينبغي للإنسان أن يخالف الشيطان في ذلك كله فيفعله باليمين إلا أن يتعذر عليه ذلك.

روى مسلم، والترمذي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «لا يَأْكُلْ أَحَدُكُمْ بِشِمالِهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطانَ يَأْكُلُ بِشِمالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمالِهِ»[2].

وروى ابن ماجه بإسناد حسن، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيَأْكُلْ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ وَيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ، وَلْيَأْخُذْ بِيَمِينِهِ وَلْيُعْطِ بِيَمِينِهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ، وَيَأْخُذُ بِشِمَالِهِ وَيُعْطِي بِشِمَالِهِ»[3].

*** تَنْبِيهٌ:**

فعل هذه الأمور بالشمال صرَّح أكثر العلماء أنه مكروه.

---

(١) التتن: التبغ، تركية معربة.

(٢) رواه مسلم (٢٠٢٠)، والترمذي (١٧٧٩). وكذا أبو داود (٣٧٧٦).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٢٦٦).

وقال أهل الظاهر: إنه حرام.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي من المالكية: إنه مكروه، بل يأثم فاعله؛ فإن كل فعل ينسب إلى الشيطان فهو حرام شر لا خير فيه ولا جائز، انتهى(١).

قلت: والذي يظهر لي التحريم إذا فُعل ذلك مصادمة للأمر الشرعي لحديث سلمة بن الأكوع ﷺ: أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: «كُلْ بِيَمِينِكِ»، فقال: لا أستطيع، فقال: «لا اسْتَطَعْتَ، ما منعهُ إلا الكِبْرُ».

قال: فما رفعها بعد إلى فيه. رواه مسلم(٢).

وأين هذا من جَرْهد ـ رضي الله تعالى عنه ـ حين أتى النبي ﷺ وبين يديه طعام، فأدنى جرهد يده الشمال ليأكل وكانت اليمين مصابة، فنفث عليها رسول الله ﷺ، فما شكا حتى مات. رواه الطبراني(٣).

وروى هو والإمام أحمد ـ ورجاله ثقات ـ عن عبدالله بن محمد ابن عبدالله بن زيد، عن امرأة منهم قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وأنا آكل بشمالي ـ وكنت امرأة عسرى ـ فضرب بيده فسقطت اللقمة،

---

(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٩/ ٥٢٣).

(٢) رواه مسلم (٢٠٢١).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢١٥١). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٦): رواه الطبراني من طريق سفيان بن فروة عن بعض بني جرهد، وكلاهما لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

فقال: «لا تَأْكُلِيْ بِشِمَالِكِ وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَكِ يَمِيْنَاً»، أو قال: «قَدْ أَطْلَقَ اللهُ يَمِيْنَكِ»؛ قالت: فتحولت شمالي يميناً، فما أكلت بها بعد(١).

وهذه معجزات للنبي ﷺ.

* تَنْبِـيْهٌ آخَرُ:

ذكر الشيخ برهان الدين الناجي في «قلائد العقيان فيما يورث الفقر والنسيان»: أن مما يورث النسيان الأكل بالشمال.

وقد روى ابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لا تأكلوا بشمالكم ولا تشربوا بشمالكم؛ فإن آدم ـ عليه السلام ـ أكل بشماله فأورثه ذلك النسيان(٢).

أي: أكل بشماله مرة أو مرات؛ فإن حمل أكثر أحواله على الكمال أولى.

ويحتمل أن ذلك لم يكن مكروهاً في شريعته، وإنما كان ترك أدب.

١٦٠ ـ ومنها: الأكل مع من يأكل بشماله والشرب مع من يشرب بشماله، وعدم إنكار ذلك عليه.

روى الإمام أحمد، والطبراني ـ وسنده حسن ـ عن عائشة رضي

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٦٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٦): رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٤٤٤٠).

الله تعالى عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَكَلَ بِشِمَالِهِ أَكَلَ مَعَهُ الشَّيْطَانُ، وَمَنْ شَرِبَ بِشِمَالِهِ شَرِبَ مَعَهُ الشَّيْطَانُ»(١).

وفيه إشارة إلى أن الشيطان يستبيح طعام من يفعل ذلك وشرابه كما يستبيح طعام من لم يذكر اسم الله عليه وشرابه.

ولو قيل: إن الشيطان يستبيح طعام من يخل بأدب من آداب الطعام والشراب لم يبعُد.

١٦١ ـ ومنها: الأكل بأصبع واحدة أو بأصبعين، والسنة الأكل بالثلاث.

روى ابن النجار في «تاريخه»، وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الأَكْلُ بِأُصْبُعٍ وَاحِدَةٍ أَكْلُ الشَّيْطَانِ، وَبِاثْنَتَيْنِ أَكْلُ الْجَبَابِرَةِ، وَبِالثَّلاثِ أَكْلُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ»(٢).

وروى الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن، عن ابن عباس رضي

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٧٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٩٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٥): وفي إسناد أحمد رشدين بن سعد، وهو ضعيف، وقد وثق، وفي الآخر ابن لهيعة.

(٢) ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٣٦). فيه رشدين بن سعد، وهو ضعيف.

الله تعالى عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ حائطاً لبعض الأنصار فجعل يتناول من الرطب، ويأكل ويمشي، وأنا معه؛ قال: فالتفت إلي فقال: «يَا ابْنَ عَبَّاسٍ! لا تَأْكُلْ بِأُصْبُعَيْنِ؛ فَإِنَّهَا أُكْلَةُ الشَّيْطَانِ، وَكُلْ بِثَلاثِ أَصَابِعَ»(١).

* **فائِدَةٌ:**

في هذا الحديث دليل على أنه لا كراهة في أكل الماشي، ولكن الجلوس للطعام أولى إلا التنقل ونحوه، كما لو كان الإنسان في عمل يحتاج إلى التردد، أو في تنزه في فَلاة أو بستان، أو في مسير فلا بأس بالأكل ماشياً.

١٦٢ ـ ومنها: الأكل من جوانب القصعة، والامتناع من الأكل مما يليه.

وهو السنة إلا أن يكون فاكهة.

روى الطبراني بسند فيه ضعف، عن جعفر بن عبدالله قال: رآني الحكم الغفاري ـ رضي الله تعالى عنه ـ وأنا آكل وأنا غلام من هاهنا وهاهنا، فقال: يا بني! لا تأكل هكذا، هكذا يأكل الشيطان؛ إن رسول الله ﷺ كان إذا وضع يده في القصعة أو في الإناء لم تجاوز

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٢٥١). وفيه ابن لهيعة. وعزاه العراقي إلى «أفراد الدارقطني» وضعف إسناده. انظر «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٦٤٧).

أصابعه موضع كفه[1].

وفي «الصحيح»: «كُلْ مِمَّا يَلِيْكَ»[2].

١٦٣ ـ ومنها: الأنفة عن مؤاكلة اليتيم.

روى الطبراني في «الأوسط»، والأصبهاني في «الترغيب» عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَا قَعَدَ يَتِيْمٌ مَعَ قَوْمٍ عَلَى قَصْعَتِهِمْ فَيَقْرَبُ قَصْعَتَهُمْ شَيْطَانٌ»[3].

وفي لفظ أخرجه الأصبهاني، وابن النجار في «تاريخه»: «مَا أَكَلَ يَتِيْمٌ مَعَ قَوْمٍ فِي صَحْفَتِهِمْ فَيَقْرَبُ صَحْفَتَهُمُ الشَّيْطَانُ»[4]. إسناده ضعيف لكن لا يبلغ رتبة الوضع؛ وإن أورده ابن الجوزي في «الموضوعات»[5].

قلت: وله وجهان:

الأول: ما ذكرته أن بُعْدَ الشيطان عن القصعة التي عليها اليتيم

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣١٦٣). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٧): فيه النعمان بن شبيل، وهو ضعيف.

(٢) رواه البخاري (٥٠٦١)، ومسلم (٢٠٢٢) عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧١٦٥). وحسن المنذري إسناده في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٣٦).

(٤) رواه ابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد» (١٧/ ٢٤١)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٦٢٠٢).

(٥) انظر: «الموضوعات» لابن الجوزي (٢/ ٨٦)، و«اللآلىء المصنوعة» للسيوطي (٢/ ٧٢).

إنما هو أنفة من مؤاكلته، واحتقار له.

والثاني: أن يكون سبب بعده أن القصعة التي يأكل عليها اليتيم تنزل فيها البركة والرحمة، والشيطان ليس من أهلها.

١٦٤ ـ ومنها: الأكل في الظلمة ما لم يضطر إليه.

فينبغي للإنسان أن لا يأكل في الظلمة ما أمكنه النور؛ فإنه من عمل الشيطان لا يدري حال الطعام، فلعل فيه شيء، أو وقع فيه شيء يضر أو مستقذر.

روى أبو نعيم عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى: أنه قال في كلام له: ولا تأكل في الظلمة؛ فإن الشيطان يأكل في الظلمة[١].

١٦٥ ـ ومنها: الأكل والشرب من الإناء الذي يبيت مكشوفاً.

روى عبد الرزاق عن منصور، عن أبي جعفر عن زادان رحمه الله قال: إذا بات الإناء مكشوفاً ليس عليه غطاء بصق فيه إبليس، أو تفل فيه إبليس.

قال منصور: فذكرت ذلك لإبراهيم، فقال: أو شرب منه[٢].

ورواه ابن أبي شيبة عن محمد بن أبي جعفر، عن عبد الرحمن ابن يزيد، عن زادان قال: إذا بات إناء مكشوفاً تفل فيه إبليس، فذكرت ذلك لإبراهيم، فقال: أو شرب منه[٣].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٦١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٧٢٦).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٤٢٢٣).

وفيه أن من أعمال الخبيث تقذير الطعام، والبصق فيه إيذاءً لآكليه.

١٦٦ ـ ومنها: عَبُّ الماء في نَفَس واحد.

وقد ورد أنه يورث الكُبَاد[١].

وروى ابن أبي شيبة، والبيهقي عن عكرمة رحمه الله تعالى قال: لا تشربوا نفساً واحداً؛ فإنه شرب الشيطان[٢].

وروى البيهقي عن ابن شهاب ـ وهو الزهري رحمه الله تعالى ـ مرسلاً قال: نهى رسول الله ﷺ عن العب نفساً واحداً، وقال: «ذَلِكَ شُرْبُ الشَّيْطَانِ»[٣].

١٦٧ ـ ومنها: الشرب من ثُلمة القدح ومن ناحية أذنه.

روى الإمام أحمد، وأبو داود، والحاكم وصححه، عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ نهى عن الشرب من ثُلمة القدح، وأن ينفخ في الشراب[٤].

وروى الطبراني بإسناد صحيح، عن أبي هريرة رضي الله تعالى

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن القيم (٤/ ٢٣١).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٠١٤)، وكذا عبد الرزاق في «المصنف» (١٩٥٨٥).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٠١١).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٨٠)، وأبو داود (٣٧٢٢).

عنه قال: نهي أن يشرب من كسر القدح[1].

وله بإسناد صحيح ـ أيضاً ـ عن ابن عمر، وابن عباس رضي الله تعالى عنهم قالا: يكره أن يشرب من ثُلمة القدح، وأُذُنِ القدح[2].

قال ابن الحاج في «المدخل»: وينبغي له أن لا يشرب من ناحية أُذن الكُوز لما ورد أن الشيطان يشرب منها، انتهى[3].

وذكر الشيخ شمس الدين العلقمي المصري ـ وهو أحد رفقاء الوالد وتلاميذه ـ في «حاشية الجامع الصغير» أنه ورد في الحديث أن موضع كسر القدح مقعد الشيطان، وهو من إيذاء الشيطان وملاعبه، انتهى.

قلت: والذي رأيته في الحديث عن عمرو بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَشْرَبُوا مِنَ الثُّلْمَةِ الَّتِيْ تَكُوْنُ فِيْ القدحِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَشْرَبُ مِنْهَا». رواه أبو نعيم[4].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٨٣٣)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٧٨): ورجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٠٥٥)، وكذا ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ١٠٥).

(٣) انظر: «المدخل» لابن الحاج (١/ ٢٣٥).

(٤) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤/ ٢٠١٥)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٧٣٦٨).

١٦٨ ـ ومنها: الشرب قائماً.

روى الإمام أحمد ـ ورجاله ثقات ـ والبزار عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: أنه رأى رجلاً يشرب قائماً فقال له: «أَيَسُرُّكَ أَنْ يَشْرَبَ مَعَكَ الْهِرُّ؟»

قال: لا.

قال: «فَإِنَّهُ قَدْ شَرِبَ مَعَكَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُ؛ الشَّيْطَانُ»[١].

واعلم أن الشرب والشارب قائم ثبت عن النبي ﷺ فعله والنهي عنه؛ فالأول دليل الجواز، والثاني محمول على الكراهة كما حرره النووي، وغيره[٢].

وللحافظ أبي الفضل ابن حجر العسقلاني، ونرويه عن الوالد، عن مشايخه، عنه: [من المتقارب]

إِذا رُمْتَ تَشْرَبْ فَاقْعُدْ تَفُزْ   بِسُنَّةِ صَفْوَةِ أَهْلِ الْحِجازِ
وَقَدْ صَحَّحُوا شُرْبَهُ قائِماً   وَلَكِنَّهُ لِبَيانِ الْجَوازِ

١٦٩ ـ ومنها: إتيان البهائم؛ وهو من أخبث الحرام.

روى الثعلبي في «العرائس» عن محمد بن إسحاق قال: بلغني أن إبليس تزوج الحية التي دخل في جوفها حين ظلم آدم على آدم السلام، فمنها ذريته.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٠١)، والبزار في «المسند» (٨٨٢٣).

(٢) انظر: «روضة الطالبين» للإمام النووي (٧/ ٣٤٠).

وقد قدمنا لك أن اللعين أخس من أن يكون له نكاح بعقد، ولا يتحقق العقد على الهامَّة والبهيمة، فأراد ابن إسحاق بتزوج إبليس بالحية اقترانه بها وانضيافه إليها.

وقد تقدم الكلام على عداوة الحية لآدم عليه السَّلام.

١٧٠ ـ ومنها: استحباب كشف العورة.

قال الله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾[الأعراف: ٢٠].

وإنما يستحب الشيطان كشف عورة ابن آدم لغير ضرورة؛ لأن الملائكة لا تحضر حيث تكشف العورات، كما تقدم.

وروى ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، فقال: إني نذرت أن أقوم على قعيقعان عرياناً إلى الليل، فقال: أراد الشيطان أن يبدي عورتك، وأن يضحك الناس بك؛ البس ثيابك، وصلِّ عند الحِجْر ركعتين[1].

١٧١ ـ ومنها: استحباب أن يكون الإنسان ضُحَكَةً للناس يسخرون به؛ لأثر ابن عباس المذكور.

وهذا من أخلاق الشياطين بلا شبهة؛ ألا ترى أن الأضحوكة يأثم بإضحاكه الناس، ويرتكب العظائم ليضحكهم، ومن يحضره ليضحك منه يقره على السخرية والغيبة، والرفث والمنكرات،

---

(١) تقدم تخريجه.

وكل ذلك محبوب للشيطان ومطلوب له، وكل ذلك من إضلاله واستزلاله.

والحاصل أن الضُّحَكَةَ والمجتمعين عليه للضحك كلهم متشبهون بالشياطين.

وقد روى أبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي عن بَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جده رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «وَيْلٌ لِلَّذِيْ يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ»(1).

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لا يُرِيْدُ بِهَا بَأْساً لِيُضْحِكَ بِهَا القَوْمَ، وَإِنَّهُ لَيَقَعُ بِهَا أَبْعَدَ مِنَ السَّمَاءِ»(2).

١٧٢ ـ ومنها: الجماع بحضور أحد من الناس، وإفشاء أحد الزوجين سر الآخر.

روى الطبراني بإسناد حسن، عن أسماء بنت يزيد رضي الله تعالى عنها: أن النبي ﷺ قال: «عَسَى رَجُلٌ يُحَدِّثُ بِمَا يَكُوْنُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، أَوْ عَسَى امْرَأَةٌ تُحَدِّثُ بِمَا يَكُوْنُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا، فَلا تَفْعَلُوا؛

---

(1) رواه أبو داود (٤٩٩٠)، والترمذي (٢٣١٥) وحسنه، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٢٦).

(2) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩٥): فيه أبو إسرائيل إسماعيل بن خليفة، وهو ضعيف.

فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ شَيْطَانٍ لَقِيَ شَيْطَانَةً فِيْ ظَهْرِ الطَّرِيْقِ فَغَشِيَهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُوْنَ»[1].

أشار بذلك إلى أن من تحدث من الزوجين بما أسره الآخر إليه من الإفضاء ولوازمه كان كمن فعل ذلك بمحضر من الناس، وهو حرام، وذلك كله من أفعال الشياطين.

١٧٣ ـ ومنها: النظر إلى ما لا يحل له من امرأة أجنبية، أو غلام أمرد جميل، والفتنة به أشد من الفتنة بالمرأة، كما علمتَ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[الأعراف: ٢٧].

ومن الآية يؤخذ أن نظره لعله من قبيل الاختلاس وخائنة الأعين، فمن أوهم أن لا يرى وهو ينظر إلى ما لا يحل له النظر إليه تشبَّه بالشيطان في خائنة الأعين.

وروى الترمذي وصححه، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ»[2]؛ أي: نظرها وتراءى إليها؛ يقال: استشرف الشيء إذا رفع رأسه ينظر إليه، وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ١٦٢)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٤٥٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٩٤): رواه أحمد والطبراني، وفيه شهر بن حوشب، وحديثه حسن، وفيه ضعف.

(٢) رواه الترمذي (١١٧٣) وحسنه.

١٧٤ ـ ومنها: حمل الإنسان على النظر الحرام.

روى الحاكم وصححه، عن حذيفة رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «النَّظَرُ سَهْمٌ مَسْمُوْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيْسَ، مَنْ تَرَكَهُ خَوْفَاً مِنَ اللهِ تَعَالَى، أَعْطَاهُ اللهُ إِيْمَاناً يَجِدُ حَلاوَتَهُ فِيْ قَلْبِهِ»[١].

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «البكاء» عن السُّدِّي قال: إن الشيطان أتى داود ـ عليه السلام ـ في المحراب في صورة حمامة من ذهب لها جناحان من لؤلؤ حتى وقع على باب المحراب، فنظر إليها داود، فطارت حتى أشرف على تلك المرأة وهي في البستان تغتسل، فلما رأته أرخت شعرها فجللها، فسأل عنها، فأخبر أن زوجها غازٍ، فبعث داود ـ عليه السلام ـ إلى أمير ذلك الجيش أن ابعث أوريا في وجه كذا، فبعثه ففتح عليه، فكتب: ابعثه إلى التابوت ـ وكان من بعثه إلى ذلك الوجه قتل ولم يرجع ـ فقتل؛ أي: فتزوج داود المرأة من بعده[٢].

١٧٥ ـ ومنها: كراهته لطول عمر ابن آدم لئلا يزداد خيراً دون من لا يزداد إلا شراً؛ فإنه يحب طول عمره محبة لمعصية الله تعالى، وحزنه إذا بلغ ابن آدم زمان الربيع وزمان بلوغ الثمار وجَدادها حسداً وبغياً.

روى النسائي، وابن ماجه، وأبو يعلى، والحاكم وصححه، عن

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٨٧٥). وقال الذهبي: إسحاق بن عبد القرشي واه، وعبد الرحمن الواسطي ضعفوه.

(٢) ورواه الطبري في «التفسير» (٢٣/ ١٤٧)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٤١) بأطول من هذا.

عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «كُلُوْا الْبَلَحَ بِالتَّمْرِ، كُلِ الْخَلِقَ بالْجَدِيْدِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا رَآهُ غَضِبَ وَقَالَ: عَاشَ ابْنُ آدَمَ حَتَّى أَكَلَ الْخَلِقَ بِالْجَدِيْدِ»[1].

ومقتضى حال الشيطان في الحديث عن النبي ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، وَشَرُّهُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»[2] أن يكون الأول ممقوت الشيطان، والثاني محبوبه لأنه شبيه به، والشكل إلى الشكل أَمْيل، ولأنه لا يحب أن يكون بعده أحد بخير وإن تساوى هو والخلق في الشر.

وهذا أيضاً خلق شيطاني من تلبَّس به تخلق بأخلاق الشيطان؛ فافهم!

١٧٦ ـ ومنها: كراهية حصول الشهادة لابن آدم.

قال الثعلبي في «العرائس»: روي أن رجلاً كان يلعن إبليس في كل يوم مئة ألف لعنة، فبينما هو ذات يوم نائم تحت جدار إذ أتاه

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٦٧٢٤)، وابن ماجه (٣٣٣٠)، وأبو يعلى في «المسند» (٤٣٩٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧١٣٨). وقد ذكر الحديث ابن الصلاح في «مقدمته» (ص: ٨٠) مثالاً للحديث الفرد الذي ليس في راويه من الثقة والإتقان ما يحتمل معه تفرده، ثم قال: تفرد به أبو زكريا، وهو شيخ صالح أخرج عنه مسلم في كتابه، غير أنه لم يبلغ مبلغ من يحتمل تفرده.

(٢) تقدم تخريجه.

شخص فأيقظه، وقال: قم؛ فإن هذا الجدار يريد أن يسقط، فقام الرجل وإذا الجدار قد سقط، فقال الرجل: من أنت؟

قال: أنا إبليس.

فقال الرجل: وكيف هذا وأنا ألعنك في كل يوم مئة ألف لعنة؟

قال إبليس: إنما عملت هذا لما علمت فيه من الأجر لأن محل الشهداء عند الله عظيم، فخشيت أن تكون منهم فتنال من الله ما ينالون.

١٧٧ ـ ومنها: الإشارة بالتداوي بالخمر والمحرمات.

ذكر الثعلبي في «العرائس» أن إبليس عرض ذات يوم لرحمة زوجة أيوب ـ عليه السلام ـ وهو في زي طبيب، فقال لها: يا أمة الله! ما يكون منك هذا المبتلى؟

قالت: بعلي.

قال: أنا رجل حكيم قدمت إلى هذه البلاد، فلما رأيته عرفت داءه، ودواؤه عندي، وإني ماض في بعض أشغالي وأعود إليه، فمريه أن يشرب قدحاً من الخمر؛ فإن فيه الشفاء، فأتت رحمة مسرعة إلى أيوب عليه السلام، وقالت له ذلك، فقال: ويلك! ذلك الشيطان أتاك ليفتنني عن ديني.

وهذا لعله يدل على أن تحريم الخمر كان من شريعة أيوب، أو أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وإن حلت في شريعة بعضهم كانت محرمة عليهم، أو كانوا يتنزهون منها لأنها تخامر العقل فتحول بينهم وبين

تلقي الوحي وتبليغه[1].

روى مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه عن وائل بن حجر رضي الله تعالى عنه: أن سويد بن طارق ـ رضي الله تعالى عنه ـ سأل رسول الله ﷺ عن الخمر يجعل في الدواء، فقال: «إِنَّهَا دَاءٌ، وَلَيْسَتْ بِالدَّوَاءِ»[2].

وروى أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً؛ فَتَدَاوَوْا، وَلا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ»[3].

وروى البخاري عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم[4].

ورواه الطبراني، وابن حبان عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً إلى النبي ﷺ[5].

وقالت عائشة: من تداوى بخمر فلا شفاه الله[6].

---

(١) أو لعل الخبر باطل، فلا يصح لإثبات أي حكم منه.

(٢) رواه مسلم (١٩٨٤)، وأبو داود (٣٨٧٣)، والترمذي (٢٠٤٦).

(٣) رواه أبو داود (٣٨٧٤).

(٤) ذكره البخاري (٥/ ٢١٢٩) معلقاً.

(٥) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ٣٢٦)، وابن حبان في «صحيحه» (١٣٩١).

(٦) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٣٤٩٨).

١٧٨ ـ ومنها: الإشـارة بترك تغسـيل الميت غيـر الشـهيد في المعركة.

قيل: لمَّا وُضع رسول الله ﷺ على المغتسل هتف بهم هاتف من وراء البيت: لا تغسلوا محمداً؛ فإنه طاهر مطهر.

قال علي رضي الله تعالى عنه: فوقع في قلبي من ذلك شيء، فقلت: ويلك! من أنت؟ فإن النبي ﷺ أمرنا أن نغسله، وهذه سنة.

وإذا بهاتف آخر يهتف بأعلى صوته: غسلوه؛ فإن الهاتف الأول كان إبليس، حسد محمداً ﷺ أن يدخل قبره مغسلاً.

قيل له: فمن أنت؟

قال: أنا الخضر. نقله الثعلبي في «العرائس».

١٧٩ ـ ومنها: الرغبة في سكنى بلاد الأشرار، ومحال الفتن، والفرار من مساكن الأخيار، ومحالِّ إقامة السنن وظهور شعائر الإسلام، وحفظ حرمات الملك العلاَّم.

روى البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيْ شَامِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيْ يَمَنِنَا ـ قالها مِراراً ـ»، فلمَّا كان في الثَّالثة أو الرَّابعة قالوا: يارسول الله! وفي عراقنا[١]؟ قال: «بِهَا الزَّلازِلُ وَالفِتَنُ، وَبِـهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»[٢].

---

(١) عند البخاري: «نجدنا» بدل «عراقنا».

(٢) رواه البخاري (٩٩٠).

وروى الطبراني ـ قال صاحب «مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام»: وإسناده قوي ـ أن النبي ﷺ قال: «دَخَلَ إِبْلِيْسُ الْعِرَاقَ فَقَضَى فِيْهِ حَاجَتَهُ، ثُمَّ دَخَلَ الشَّامَ فَطَرَدُوْهُ، ثُمَّ دَخَلَ مِصْرَ فَبَاضَ فِيْهَا وَفَرَّخَ وَبَسَطَ عَبْقَرِيَّتَهُ»[1]؛ أي: بساطه.

وروى الإمام أبو عثمان الصابوني ـ وذكره عنه ابن رجب في «لطائفه» ـ أن رجلاً كان أسيراً ببلاد الروم فهرب من بعض الحصون، فقال: كنت أسير بالليل وأكمن بالنهار، فبينا أنا ذات ليلة أمشي بين جبال وأشجار فراعني ذلك، فإذا راكب بعير فازددت رعباً، وذاك أنه لا يكون ببلاد الروم بعير، فقلت: سبحان الله! في بلاد الروم راكب بعير، إنَّ هذا لعجب، فلما انتهى إليَّ قلت: يا عبدالله! من أنت؟

قال: لا تسأل.

فآليت عليه، فقال: هو إبليس، وهذا وجهي من عرفات، وافقتهم عشية اليوم، اطلع الله عليهم فنزلت عليهم الرحمة ووهب بعضهم لبعض، فدخلني الهم والحزن والكآبة، وهذا وجهي إلى قسطنطينية، أفرح بها، أسمع الشرك بالله والادعاء أنَّ لله ولداً.

فقلت: أعوذ بالله منك، فلما قلت هذه الكلمات لم أر أحداً.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٢٩٠) عن ابن عمر. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٦٠): من رواية يعقوب بن عبدالله بن عتبة بن الأخنس عن ابن عمر ولم يسمع منه، ورجاله ثقات.

واعلم أن الشياطين لا تتقيد بمكان دون مكان، ولا ببلد دون بلد، بل هي حيث ترى بُغيتها من إضلال العباد، وربما قصدت الأماكن الخالية والمحال المنقطعة رجاء أن تظفر بآدمي تضله أو تؤذيه، ومهما أيست من موضع لعمارته بذكر أو طاعة فربما تحولت منه إلى غيره من محال الفتن وأماكن الشرور رغبة في تحصيل ما ترجوه من الخلق.

أمَّا استقرار الشيطان وذريته فروى ابن أبي حاتم، والحاكم عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الأَرَضِينَ بَيْنَ كُلِّ أَرْضٍ وَالَّتِيْ تَلِيْهَا خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ، فَالْعُلْيَا مِنْهَا عَلَى ظَهْرِ حُوْتٍ قَدْ الْتَقَى طَرَفَاهُ فِي السَّمَاءِ، وَالْحُوْتُ عَلَى صَخْرَةٍ، وَالصَّخْرَةُ بِيَدِ الْمَلَكِ، وَالثَّانِيَةُ مَسجَنُ الرِّيْحِ، وَالثَّالِثَةُ فِيْهَا حِجَارَةُ جَهَنَّمَ، وَالرَّابِعَةُ فِيْهَا كِبْرِيتُ جَهَنَّمَ، وَالْخَامِسَةُ فِيْهَا حَيَّاتُ جَهَنَّمَ، وَالسَّادِسَةُ فِيْهَا عَقَارِبُ جَهَنَّمَ، وَالسَّابِعَةُ فِيْهَا سَقَرٌ، وَفِيْهَا إِبْلِيْسُ مُصَفَّدٌ بِالْحَدِيْدِ يَدٌ أَمَامَهُ وَيَدٌ خَلْفَهُ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُسَلِّطَهُ لِمَا شَاءَ أَطْلَقَهُ»(١).

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: قال لابن صياد: «ما ترى؟»

قال: أرى عرشاً على البحر وحوله الحيات.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٣٦١)، والحاكم في «المستدرك» (٨٧٥٦). قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٤٣): وهذا حديث غريب جداً، ورفعه فيه نظر.

فقال رسول الله ﷺ: «رَأَى عَرْشَ إِبْلِيْسَ»[1].

وروى ابن أبي الدنيا عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «عَرْشُ الشَّيْطَانِ عَلَى الْبَحْرِ وَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ؛ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً»[2].

وروى الطبراني بإسناد جيد، عن أبي ريحانة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيْسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْبَحْرِ فَيَتَشَبَّهُ بِاللهِ ﷻ، وَدُوْنَهُ الْحُجُبُ، فَيَنْدِبُ جُنُوْدَهُ فَيَقُوْلُ: مَنْ لِفُلانٍ الآدَمِيِّ؟ فَيَقُوْمُ اثْنَانِ فَيَقُوْلُ: قد أَجَّلْتُكُمَا سَنَةً، فَإِنْ أَغْوَيْتُمَاهُ وَضَعْتُ عَنْكُمَا الْبَعْثَ، وَإِلاَّ صَلَّبْتُكُمَا».

قال: فكان يقال لأبي ريحانة: لقد صلب فيك كثير[3].

وقال الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى: اشتد علي الحر في بعض أسفاري يوماً حتى كدت أن أموت عطشاً، فأظلتني سحابة سوداء، وهبَّ عليَّ منها هواء بارد حتى دار ريقي في فمي، وإذا بصوت يناديني منها: يا عبد القادر! أنا ربك، وقد أحللت لك ما حرمت عليك.

قال: فقلت له: كذبت، بل أنت الشيطان.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٦٦)، وكذا مسلم (٢٩٢٥).

(٢) ورواه مسلم (٢٨١٣). ولفظه: «إن عرش إبليس على البحر، فيبعث سراياه فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة».

(٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١١٤): رواه الطبراني في «الكبير»، وفيه يحيى بن طلحة اليربوعي، ضعفه النسائي، وذكره ابن حبان في الثقات.

قال: فتمزقت تلك السحابة، وسمعت من ورائي قائلاً يقول: يا عبد القادر! نجوت مني بفقهك في دينك، لقد فَتنتُ بهذه الحيلة قبلك سبعين رجلاً.

وقيل للشيخ عبد القادر: كيف عرفت أنه الشيطان؟

قال: لما قال لي: أحللت لك، عرفته؛ لأنه بعد رسول الله ﷺ لا تحليل ولا تحريم.

١٨٠ ـ ومن أخلاق الشيطان: الجبن والوهن.

روى البيهقي في «سننه» عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحْرِيْكُ الأُصْبُعِ فِيْ الصَّلاةِ مَذْعَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ»(١).

ومن هنا سمي خناساً من: خنس عنه، يخنِس، ويخنُس، خنساً وخنوساً: إذا تأخر كانخنس، وذلك إذا ذكر الله العبد انخنس عن القلب جبناً وفزعاً من الذكر، فإذا ترك العبد الذكر التقم قلبه الشيطانُ.

١٨١ ـ ومنها: الغباوة، وطلب ما لا يمكن حصوله، والإلقاء باليد إلى التهلكة من غير فائدة معتبرة.

روى ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: والذي نفسي بيده ما طلعت شمس قط حتى ينخسها سبعون ألف ملك، فيقولون لها: اطلعي اطلعي، فتقول: لا أطلع على قوم يعبدونني من دون الله،

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ١٣٢) وقال: تفرد به محمد بن عمر الواقدي، وليس بالقوي.

فيأتيها ملك وتستقل لضياء بني آدم، فيأتيها الشيطان يريد أن يصدها عن الطلوع فتطلع بين قرنيه، فيحرقه الله تحتها، وذلك قول رسول الله ﷺ: «مَا طَلَعَتْ إِلاَّ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ»[1].

وَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ قَطُّ إِلاَّ خَرَّتْ للهِ سَاجِدَةً، فَيَأْتِيْهَا شَيْطَانٌ يُرِيْدُ أَنْ يَصُدَّهَا عَنِ السُّجُوْدِ، فَتَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْهِ، فَيُحْرِقُهُ اللهُ تَحْتَهَا، وذلك قول رسول الله ﷺ: «وَلا غَرَبَتْ إِلاَّ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ»[2].

١٨٢ ـ ومنها: أن يُسترضى فلا يرضى لما علمت سابقاً أنه رأس اللؤماء والخبثاء.

قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: من استرضي فلم يرض فهو شيطان، ومن استغضب ولم يغضب فهو حمار[3].

١٨٣ ـ ومنها: أن يستغضب فلا يغضب لا كرماً ولا حلماً، ولكن وقاحة أو بَلادة.

روى أبو نعيم عن الأوزاعي قال: حدثني حسان ـ يعني: ابن

---

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم (٨٣٢) عن أبي أمامة عن عمرو بن عبسة رضي الله عنهما، وفيه: «صَلِّ صلاة الصبح، ثم أَقْصِرْ عن الصلاة، حتى تطلع الشمس، حتى ترتفع، فإنها تطلع حين تطلُع بين قَرْنَي شيطان» و«حتى تصلِّيَ العصر، ثم أقصر عن الصلاة حتى تغربَ الشمس، فإنها تغرب بين قرني شيطان».

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٩/ ٢٧٢)، وكذا ابن عبد البر في «التمهيد» (٤/ ٨).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١٤٣).

عطية ـ قال: إن العبد إذا لعن الشيطان ضحك، فقال: إنَّك تلعن ملعَّناً، وإنما يُخذل إن تُعُوِّذ بالله منه(١).

١٨٤ ـ ومنها: اعتقاد أن له حولاً وقوة.

روى الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، والطبراني، وصححه الحاكم وغيره، عن أبي المليح بن سلامة، عن أبيه قال: كنت رديف رسول الله ﷺ، فعتر بعيرنا، فقلت: تعس الشيطان.

فقال رسول الله ﷺ: «لا تَقُلْ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ؛ فَإِنَّهُ يَعْظُمُ حَتَّى يَصِيْرَ مِثْلَ الْبَيْتِ، وَيَقُوْلُ: بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللهِ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيْرَ مِثْلَ الذُّبَابِ»(٢).

١٨٥ ـ ومنها: الإصرار على المعصية، كما تقدمت الإشارة إليه أول الباب.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٧٥). **قلت**: لكن ثبت عند مسلم (٥٤٢): أن النبي ﷺ لعنه وقال: «ألعنك بلعنة الله التامة».

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٥٩)، وأبو داود (٤٩٨٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٣٨٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٥١٦)، الحاكم في «المستدرك» (٧٧٩٣).

قال ابن القيم في «زاد المعاد» (٢/ ٣٥٥): ومثل هذا قول القائل: أخزى الله الشيطان، وقبح الله الشيطان، فإن ذلك كله يفرحه ويقول: علم ابن آدم أني قد نلته بقوتي، وذلك مما يعينه على إغوائه ولا يفيده شيئاً، فأرشد النبي ﷺ مَنْ مَسَّه شيء من الشيطان أن يذكر الله تعالى ويذكر اسمه، ويستعيذ بالله منه، فإن ذلك أنفع له، وأغيظ للشيطان.

روى ابن أبي الدنيا: أن إبليس قال: يا رب! أعفني من السجود لآدم أعبدْك عبادة ما عبدكها أحد من خلقك.

فقال الله تعالى: إنما أطاع من حيث عصيت.

وقد قدمنا عن حجة الإسلام أنه ذكر أثراً: أنَّ إبليس استشفع بموسى ـ عليه السلام ـ أن يتوب، فدعا موسى ربه، فقال الله تعالى له: قد قضيت حاجتك؛ فليسجد لقبر آدم على آدم السلام.

فلمَّا قال ذلك لإبليس استكبر وغضب، وقال: أنا لم أسجد له حياً، أأسجد له ميتاً؟

رواه ابن أبي الدنيا بلفظه المتقدم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما[1].

وروى ابن أبي الدنيا في «المكائد» أيضاً عن أبي العالية رحمه الله تعالى قال: لما رست السفينة رأى نوح ـ عليه السلام ـ إبليس على الكوثل، فقال نوح عليه السلام: أهلكت الناس غرقوا من أجلك.

قال: فما تأمرني؟

قال: تتوب.

قال: وهل لي من توبة؟ ادع ربك.

قال: فدعا نوح ـ عليه السلام ـ ربه، فأوحى الله تعالى إليه أن توبته أن يسجد لقبر آدم.

---

(١) تقدم تخريجه.

فقال له نوح عليه السلام: قد جعلت لك توبة.

قال: وما هي؟

قال: تسجد لقبر آدم.

قال: أنا لم أسجد له حياً، فكيف أسجد له ميتاً؟[1]

وروى ابن المنذر في «تفسيره» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إن نوحاً لما ركب السفينة أتاه إبليس، فقال له نوح عليه السلام: من أنت؟

قال: أنا إبليس.

قال: فما جاء بك؟

قال: جئت لتسأل لي ربي هل لي من توبة؟

فأوحى الله تعالى إليه أن توبته أن يأتي قبر آدم عليه السلام، فيسجد له.

قال: أنا لم أسجد له حياً، أسجد له ميتاً؟

قال: فاستكبر، وكان من الكافرين[2].

١٨٦ ـ ومنها: القعود على طريق المخلصين ليمنعهم من الإخلاص.

وبه فسر قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الأعراف: ١٦].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» (ص: ٦٦)، وكذا الثعلبي في «التفسير» (١/ ١٨١).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (١/ ١٢٥).

وعباد الله متى صدقوا في الإخلاص، ورسخوا في مقامه تسوَّروا منه بسُوره المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر: ٤٠]، وقُرِىءَ بكسر اللام وفتحها[1]، فمن استخلصه الله تعالى من يدي عدوه الشيطان بإقراره في مقام الإخلاص فقد نجا من الشيطان.

واعلم أنه لا يهتم بإضلال أحد ما يهتم بإضلال من توجَّه إلى جهة الإخلاص.

قال الإمام أبو طالب المكي في «قوت القلوب»: وقد حدثونا في الإسرائيليات: أن عابداً كان يعبد الله ـ تبارك وتعالى ـ دهراً طويلاً، فجاءه قوم فقالوا: إنَّ هاهنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله تعالى، فغضب لذلك، فأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ، فقال: أين تريد رحمك الله تعالى؟

قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله تعالى.

قال: وما أنت وذاك؟ تركت عبادتك والاشتغال بنفسك، وتفرغت لغير ذلك؟

فقال: إنَّ هذا من عبادتي.

قال: فإني لا أتركك تقطعها.

قال: فقاتله، فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض، وقعد إلى صدره.

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٣٤١).

فقال له إبليس: أفلتني حتى أكلمك.

فقام عنه، فقال له إبليس: يا هذا! إن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك، أنبيٌّ أنت؟

قال: لا.

قال: فلا عليك بمن كان يعبدها، فلو اشتغلت بعبادتك وتركتها، فإن لله عَجَّلَ في أرضه أنبياء لو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها.

قال العابد: لا بد لي من قطعها.

قال: فنابذه إبليس القتال، فغلبه العابد، فأخذه وصرعه، وقعد على صدره.

فلمَّا رأى إبليس أنه لا طاقة له به ولا سلطان له عليه قال: يا هذا! هل لك في أمر هو خير لك وأنفع من هذا الأمر التي جئت بطلبه؟

قال: وما هو؟

قال: أنت رجل فقير لا شيء لك، إنما أنت كَلٌّ على الناس.

قال: نعم.

قال: فارجع عن هذا الأمر ولك والله عليَّ أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين، إذا أصبحت أخذتهما وصنعت بهما ما شئت، وأنفقت على نفسك وعيالك، وتصدقت على إخوانك، فيكون ذلك أفضل وأنفع للمسلمين من قطع الشجرة التي يغرس مكانها، ولا يضرهم قطعها شيئاً، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطْعك لها.

قال: فتفكر العابد فيما قال له، فقال: صدق الشيخ، لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة، ولا أمرني الله تعالى أن أقطعها فأكون قد عصيت بتركها، وماذا يضر الموحِّدين من عبادتها، وهذا الذي ذكره أكثر منفعة.

قال: فعاهده على الوفاء بذلك، فحلف له، ورجع العابد إلى متعبده فبات، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه، وكذلك رأى في الغد، ثم أصبح في اليوم الثالث وما بعده ولم ير عند رأسه، فغضب، فأخذ الفأس على عاتقه وقصد الشجرة، فاستقبله إبليس في صورة الشيخ، فقال له: إلى أين؟

قال: أقطع تلك الشجرة.

قال: ما أنت بقادر على ذلك.

فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة، فقال إبليس: هيهات! فأخذه وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين رجليه، وقعد إبليس على صدره، وقال: لتنتهين عن قطع هذه الشجرة أو لأذبحنك، فنظر العابد فإذا لا طاقة له به، فقال: يا هذا! غلبتني فخلِّ عني، وأخبرني بأمرك.

قال: إنك غلبتني أول مرة لأنك غضبت لله فلم أقدر عليك، وهذه المرة غضبت لنفسك فصرعتك[1].

١٨٧ ـ قلت: وفي هذا الأمر إشارة إلى أن **من أعمال الشيطان الرجيم: الرشوة على منع الحق**، وهي تُعْوِرُ عينَ الحكيم، وتطمس

---

(١) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (٢/ ٢٧٢).

قلب العليم، وهي من أشد ما يحيل القلوب ويحولها عن الحق، وقد فشا الرشا الآن في الناس فأعمتهم عن الحق، وقرت لهم عين الشيطان؛ لا أقر الله عينه ولا أعين الراشين والمرتشين.

وليكن هذا آخر ما نذكره من أخلاق الشيطان.

واعلم أن مقصود الشيطان من كل أحد أن يكون شيطاناً مثله ليكون معه في النار كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[فاطر: ٦].

فأول ما يهون عليه صغائر الذنوب ومحقرها عنده، ويصغر عقابها في رأيه حتى يرتكبها، ثم يوسوس إليه بالتأويلات في ارتكابها مرة بعد أخرى حتى يُصِرَّ، ثم يستدرجه إلى ارتكاب الكبائر حتى ينزع عنه ثوب الحياء، ثم يلقي القسوة في قلبه حتى يكون صَلداً جُلموداً، ثم شيطاناً مَريداً.

كما روى الإمام الحافظ أبو القاسم زاهر بن طاهر في «خماسياته»، وغيره عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ مَا يَنْزِعُ اللهُ تَعالَى مِنَ الْعَبْدِ الْحَيَاءُ، فَيَصِيْرُ مَقَّاتاً مُمقتاً، ثُمَّ يَنْزِعُ مِنْهُ الأَمَانَةَ فَيَصِيْرُ خَائِناً مخوناً، ثُمَّ يَنْزِعُ مِنْهُ الرَّحْمَةَ فَيَصِيْرُ فَظَّاً غَلِيْظَاً، وَيَخْلَعُ دِيْنَ الإِسْلامِ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْهِ فَيَصِيْرُ شَيْطَاناً مَرِيْدَاً، لَعِيْناً مَلْعُوْناً مُلَعَّناً»(١).

---

(١) ورواه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٧٥)، وابن عبد البر في «الاستذكار» (٨/ ٢٨٥) وقال: هذا إسناد ضعيف، وخراش هذا مجهول، والحديث بهذا اللفظ لا يعرف إلا من هذا الوجه، والقطعة التي بهذا الإسـناد كلها لا يشتغل أهل العلم بها، منكرة عندهم موضوعة.

واعلم أن الصادق المصدوق رسول الله ﷺ قد أخبر أن من أمارات الساعة أن ينزع من الناس الخشوع والحياء والأمانة، وأخبر في هذا الحديث أن انتزاع هذه الأخلاق الكريمة من المرء تزيد الشيطنة والتمرد، فإذا نزعت هذه الأمور من الناس فإن أمرهم يؤول إلى أن يكونوا شياطين لتقوم عليهم الساعة؛ فإن الشياطين هم شرار الخلق، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق.

وقد روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيَجِيْءُ أَقْوَامٌ فِيْ آخِرِ الزَّمَانِ وُجُوْهُهُمْ وُجُوْهُ الآدَمِيِّيْنَ، وَقُلُوْبُهُمْ قُلُوْبُ الشَّيَاطِيْنِ، لا يَنْزِعُوْنَ عَنْ قَبِيْحٍ؛ إِنْ تَابَعْتَهُمْ وارَبُوْكَ، وَإِنْ تَوَارَيْتَ عَنْهُمُ اغْتابُوْكَ، وَإِنْ حَدَّثُوْكَ كَذَبُوْكَ، وَإِنِ ائْتَمَنْتَهُمْ خَانُوْكَ، صَبِيُّهُمْ عَارِمٌ، وَشَابُّهُمْ شَاطِرٌ، وَشَيْخُهُمْ لا يَأْمُرُ بِمَعْرُوْفٍ وَلا يَنْهَى عَنْ مُنْكَرٍ، الاعْتِزَازُ بِهِمْ ذُلٌّ، وَطَلَبُ مَا فِيْ أَيْدِيْهِمْ فَقْرٌ، الْحَكِيْمُ فِيْهِمْ حَيْرَانُ، وَالآمِرُ فِيْهِمْ بِالْمَعْرُوْفِ مُتَّهَمٌ، وَالْمُؤْمِنُ فِيْهِمْ مُسْتَضْعَفٌ، وَالْفَاسِقُ فِيْهِمْ مُشَرَّفٌ، السُّنَّةُ فِيْهِمْ بِدْعَةٌ، وَالْبِدْعَةُ فِيْهِمْ سُنَّةٌ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُسَلِّطُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ شِرَارَهُمْ، وَيَدْعُو خِيَارُهُم فَلا يُسْتَجَابُ لَهُمْ»(١).

وقوله: «إِنْ تابَعْتَهُمْ وارَبُوكَ» ـ بالراء، والموحدة ـ: من الموارَبة، وهي المداهاة والمحاتلة والتوريب.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١١٦٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٢٦): وفيه محمد بن معاوية النيسابوري، وهو متروك.

وقد يراد بالموارية معناه: أن توري عن الشيء بالمعارضات المباحات.

والعارم: من عرم الصبي علينا: أشر، أو: مرح، أو: بطر، أو: فسد.

والشاطر: الذي أعيى أهله خبثاً، وقد شَطرَ ـ كنَصَر وكَرُمَ ـ شطارةً فيهما.

وأخرج الأصبهاني هذا الحديث في «الترغيب»، ولفظه: «يَكُوْنُ فِيْ آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَكْثَرُ وُجُوْهِهِمْ وُجُوْهُ الآدَمِيِّيْنَ، وَقُلُوْبُهُمْ قُلُوْبُ الشَّيَاطِيْنِ، أَمْثَالُ الذِّئَابِ الضَّوَارِي، لَيْسَ فِي قُلُوْبِهِم شَيْءٌ مِنَ الرَّحْمَةِ، سَفَّاكِيْنَ لِلدِّمَاءِ، لا يَرْعَوُنَّ عَنْ قَبِيْحٍ، إِنْ تَابَعْتَهُمْ وارَبُوْكَ، وَإِنْ تَوَارَيْتَ عَنْهُمُ اغْتَابُوْكَ، وَإِنْ حَدَّثُوْكَ كَذَبُوْكَ، وَإِنِ ائْتَمَنْتَهُمْ خَانُوْكَ، صَبِيُّهُمْ عَارِمٌ، وَشَابُّهُمْ شَاطِرٌ، وَشَيْخُهُمْ لا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوْفِ وَلا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، الاعْتِزَازُ بِهِمْ ذُلٌّ، وَطَلَبُ مَا فِيْ أَيْدِيْهِمْ فَقْرٌ، الْحَكِيْمُ فِيْهِمْ غَاوٍ، وَالآمِرُ فِيْهِمْ بِالْمَعْرُوْفِ مُتَّهَمٌ، وَالْمُؤْمِنُ فِيْهِمْ مُسْتَضْعَفٌ، وَالسُّنَّةُ فِيْهِمْ بِدْعَةٌ، وَالْبِدْعَةُ فِيْهِمْ سُنَّةٌ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُسَلِّطُ اللهُ عَلَيْهِمْ شِرَارَهُمْ، فَيَدْعُو خِيَارُهُمْ فَلا يُسْتَجَابُ لَهُمْ».

وأخرجه الخطيب بنحوه من حديث ابن عباس، وقال: «وَذُو الأَمْرِ فِيْهِمْ غَاوٍ» موضعَ قوله: «الْحَكِيْمُ فِيْهِمْ غَاوٍ»[1].

والغاوي: الضال، أو الشيطان؛ ففي «القاموس»: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾[الشعراء: ٢٢٤]؛ أي: الشياطين[2].

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٢/ ٣٩٩). وفي إسناده أيضاً محمد بن معاوية النيسابوري.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٧٠١) (مادة: غوى).

وهذا التفسير أخرجه المفسرون عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة، ومجاهد[1].

وروى ابن سعد في «طبقاته» عن حذيفة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «سَيَكُوْنُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لا يَهْتَدُوْنَ بِهَدْيِي، وَلا يَسْتَنُّوْنَ بِسُنَّتِيْ، وَسَيَقُوْمُ رِجَالٌ قُلُوْبُهُمْ قُلُوْبُ شَيَاطِيْنٍ فِي صُوْرَةِ إِنْسَانٍ».

قال حذيفة: كيف أصنع إن أدركني ذلك؟

قال: «اسْمَعْ لِلأَمِيْرِ الأَعْظَمِ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ»[2].

وروى أبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ تُشَارِكُهُمُ الشَّيَاطِيْنُ فِيْ أَوْلادِهِمْ».

قيل: وكائنٌ ذلك يا رسول الله؟

قال: «نَعَمْ».

قالوا: وكيف نعرف أولادنا من أولادهم؟

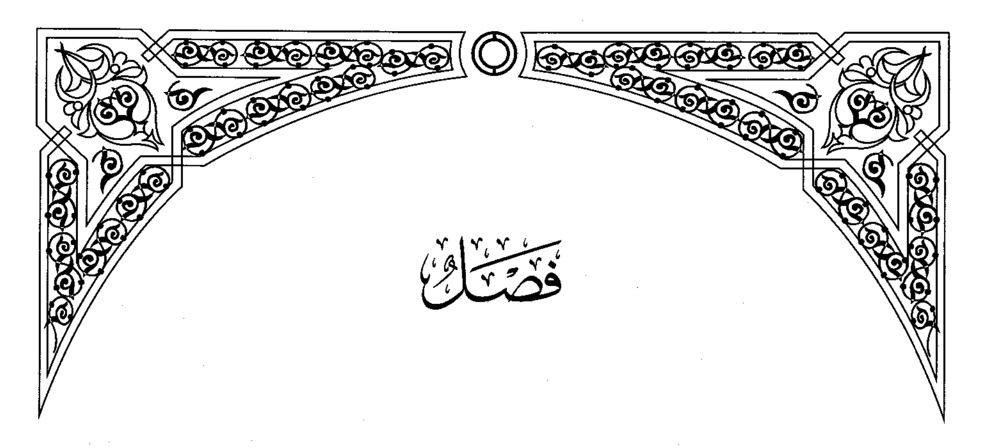
قال: «بِقِلَّةِ الْحَيَاءِ وَقِلَّةِ الرَّحْمَةِ»[3].

* * *

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ١٢٧) عن قتادة ومجاهد، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٨٣١) عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة بمعناه.

(٢) رواه مسلم (١٨٤٧) بلفظ قريب.

(٣) ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٦٧٥).



فصل

واعلم أنه لا سبيل للشيطان عليك إلا من قبل نفسك وهواك، فمهما لم تَتْبع هوى نفسك أنقذك الله من الشيطان.

ومن ثم قال مالك بن دينار: مَنْ غَلَب شهوات نفسه فذلك يَفْرَقُ الشيطان من ظله؛ كما رواه ابن الجوزي في كتاب «ذم الهوى»[1].

ومهما اتبعت هواك أخذك الشيطان بنفسك ودخل عليك بك.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[ص: ٢٦].

ولا شك أنَّ من ضلَّ عن سبيل الله وقع في أحد طرق الشيطان، كما بيَّناه لك فيما تقدم.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[القصص: ٥٠].

ومن ثم قال بعض العارفين: شيطانك نفسك؛ فإذا أفنيتها فلا

(١) رواه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص: ٢٢)، وكذا أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٦٥)، وعندهما: «شهوات الدنيا» بدل «شهوات نفسه».

شيطان لك، أو لا مدخل للشيطان عليك إلا بها.

وصدقَ؛ فإن الشيطان لو كان له مدخل على الإنسان من غير جهة نفسه لم يضره دخوله؛ لأن العبد لا يؤاخذ بذنب غيره ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الزمر: ٧]، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص: ٨٥]، ولم يقل: منك وممن أغويت؛ إشارة إلى أنَّ استحقاقهم للعذاب إنما هو سبب اتباعهم للشيطان واقترافهم للعصيان، لا بسبب الإغواء، بدليل أنه لو تجرد الإغواء عن التبعية منهم فإنه لا يضرهم، ولذلك يقول لهم يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾[إبراهيم: ٢٢].

روى ابن المبارك في «الزهد والرقائق»، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وغيرهم بسند ضعيف، عن عقبة بن عامر ـ رضي الله تعالى عنه ـ في حديث الشفاعة: أن الكفار يقولون يوم القيامة: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا؟

فيقولون: ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا، فيأتونه فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا؛ فإنك قد أضللتنا.

فيقوم، فيثور من مجلسه أنتن من ريح شمَّها أحدٌ، ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[إبراهيم: ٢٢][1].

وروى ابن المبارك في «رقائقه» عن يزيد بن قسيط رحمه الله تعالى قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم، فإذا أراد أحدهم شيئاً خرج فصلى في مسجده ما كتب الله له، ثم يسأل ما بدا له، فبينا نبي في مسجده إذ جاء عدو الله حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ فكان ذلك ثلاث مرات.

فقال له عدو الله: أخبرني بأي شيء تنجو مني؟

فقال له النبي عليه السلام: أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟

فأخذ كل منهما على صاحبه، فقال النبي عليه السلام: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

قال عدو الله: لقد سمعت هذا قبل أن تولد.

قال النبي: يقول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأعراف: ٢٠٠]؛ فإني والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك.

قال عدو الله: صدقت بهذا تنجو مني.

قال النبي: فأخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٢/ ١١١)، والطبري في «التفسير» (١٣/ ٢٠١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٣٢٠). وضعف السيوطي إسناده في «الدر المنثور» (٥/ ١٨).

قال: آخذه عند الغضب، وعند الهوى[1].

واعلم أن الإنسان مهما كان عقله حاكماً على مدينة إنسانيته، مَلَكَ نفسه عند الغضب والهوى فنجا من الشيطان، وإلا فإن استرسل به غضبه وتابع هواه تابع شيطانه ـ شاء ذلك أم كره ـ فمخالفة الشيطان لا تتم إلا بمخالفة النفس، ومهما خالفت النفس فقد خالفت الشيطان، ولذلك قدم البوصيري الأمر بمخالفة النفس على الأمر بمخالفة الشيطان في قوله:

[من البسيط]

وَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطانَ وَاعْصِهِما
وَإِنْ هُما مَحَّضاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ
وَلا تُطِعْ مِنْهُما خَصْماً وَلا حَكَماً
فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ

وأنشد حجة الإسلام الغزالي في «منهاج العابدين»: [من البسيط]

إِيَّاكَ نَفْسَكَ لا تَأْمَنْ غَوائِلَها
فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِيْنَ شَيْطانا

واعلم أنَّ النفس لا تكون نفساً مذمومة إلا باتباع الهوى، فبه تكون أمَّارة بالسوء، ومسؤولة، ومطوعة.

وإنما أطلق جماعةٌ من العلماء والعارفون من الصوفية في مقام

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٥١٧).

الذم والتحذير منها على الموصوفة بذلك، وما زال الصالحون على اتهام نفوسهم لهذه الأوصاف، وإنما كان الغالب عليهم الخير؛ لئلا يستحسنوا من أوصافها شيئاً فتميل إليه فتعبد نفسها من دون الله تعالى.

وقد تكلمنا على النفس والتحذير منها في «منبر التوحيد» ما ليس عليه مزيد.

وقد أحببت أن أورد في هذا المقام قصيدة حافلة رأيتها بخط بعض العلماء منسوبة إلى الإمام الغزالي حجة الإسلام رضي الله تعالى عنه، وهي غريبة في هذا الباب هي: [من المنسرح]

مـا بـالُ نَفْسِي تُطِيْـلُ شَـكْواها ... إِلَـى الْـوَرَى وَهْـيَ تَرْتَجِـي اللهَ

تَعُـــدُّ إِصْـــلاحَها شِـــكايَتَها ... ذاكَ الَّـــذِي رَابَهـــا وَأَرْداهـــا

لَـــوْ وَثِقَـــتْ بِالإِلَـــهِ أَنْقَـــذَها ... مِـنْ كُـلِّ مـا ساءَها وَنَجَّاهـا

لَـوْ أَنَّهـا مِـنْ مَلِيْكِهـا اقْتَرَبَـتْ ... وَأَخْلَـصَتْ وِدَّهـا لأَدْناهـا

لَكِنَّهـــا آثَـــرَتْ بَرِيَّتَـــهُ ... عَلَيْـهِ جَهْـلاً بِـهِ فَأَقْـصاها

أَفْقَرَهـا لِلْـوَرَى فَلَـوْ لَجَـأَتْ ... إِلَيْـهِ مِـنْ دُوْنِهِـمْ لأَغْناهـا

لَـوْ فَوَّضَـتْ أَمْرَهـا لِخالِقِهـا ... وَصَـحَّحَتْ صِـدْقَها وَتُكْلاهـا

عَوَّضَـها عَـنْ هُمُومِهـا فَرَجـاً ... وَلَـمْ يَـدَعْها لِطُـولِ غَيَّاهـا

تُـسَخِّطُهُ فِـي رِضَـى بَرِيَّتِـهِ ... تَبَّـاً لَهـا مـا أجـلَّ بلواهـا

لَـوْ أَنَّهـا لِلْعِبـادِ مُـسْخِطَةٌ ... مُرْضِـيَةٌ لِرَبِّـها لأَرْضـاها

لَــدَيَّ نَفْــسٌ أُحِــبُّ أَنْعَتُهــا لِتَعْلَمُــوا نَعْتَهـــا وَأَسْـــماها

اسْـمَعْ صِـفاتِي لَهـا لَعلَّـكَ أَنْ تَفْهَــمَ ذا اللُّــبِّ سِــرَّ مَعْناهــا

تَسْعَى إِلَـى الْغَيِّ وَهْـوَ غايَتُهـا يــا وَيْلَهــا مــا أَضَــلَّ مَـسْعاها

أَزْجُرُهــا وَهْــيَ لِـي مُخالِفَـةٌ كَــأَنَّنِي لَــسْتُ مَــنْ أوداهــا

قَــدْ ظَلَمَتْنِــي بِـسُوْءِ عِـشْرَتِها وَلَـمْ تَـدَعْ لِـي تُقَـىً وَلا جاهَـا

كَثَيْــرَةُ اللَّهْــوِ فِـي مَجالِـسِها قَلِيْلَــةُ الــذِّكْرِ فِــي مُـصَلاَّها

قَلِيْلَــةُ الــشُّكْرِ عِنْـدَ نِعْمَتِهــا ضَــعِيْفَةُ الــصَّبْرِ عِنْــدَ بَلْواهــا

كَثِيْــرَةُ الْمَــنِّ فِـي مَواعِـدِها كَذُوبَــةٌ فِــي جَمِيْــعِ دَعْواهــا

بَــصِيْرَةٌ بِالــدُّنا وَفِتْنَتِهــا عَمِيَّــةٌ عَــنْ أُمُــوْرِ أُخْراهــا

نَـشِيْطَةٌ عِنْـدَ وَقْـتِ لَـذَّتِها كَــسْلانَةٌ عِنْــدَ وَقْــتِ ذِكْراهــا

نَوَّامَــةُ الْعَــيْنِ عَـنْ عِبـادَةِ مَـنْ أَتْقَــنَ تَــصْوِيرَها وَسَــوَّاها

عَظِيْمَــةُ الْمَــنِّ وَالثَّنــاءِ لِمَــنْ رَفَــعَ مِقْــدارَها وَأَطْراهــا

مُطِيْلَــةُ الــذَّمِّ بِالْقَبِــيْحِ لِمَــنْ عَرَّفَهــا قَــدْرَها وَخُطْواهــا

ذاكِــرَةٌ لِلْــوَرَى مَــساوِيَهُمْ ناسِــيَةٌ مــا جَنَتْــهُ كَفَّاهــا

كَمْ بَيْنَ نَفْسِي وَنَفْسِ فَتَىً طَهَّرَهــا بِــالتُّقَى وَزَكَّاهــا

أَقامَهـا فِـي الـدُّجَى عَلـى قَـدَمٍ فَانْهَمَلَــتْ بِالــدُّمُوْعِ عَيْناهــا

إِذا اشْــتَهَتْ شَــهْوَةً تَوَعَّــدَها خَــوْفَ مَعْبُودِهــا فَــسَوَّاها

ذاكِــرَةً لِلإِلَــهِ شــاكِرَةً	مُخْلِـصَةً سِــرَّها وَنَجْواهـــا
شَـــرَّفَها رَبُّهــا وَكَرَّمَهَــا	وَمِــنْ مِيــاهِ الْيَقِــيْنِ رَوَّاهــا
سَـمَتْ إِلَيْـهِ بِحُسْنِ سِيْرَتِها	ثُـمَّ صَـفا وِدُّهــا فَـصافاها
تِلْـكَ الَّتِي إِنْ دَعَـتْ بِحاجَتِها	أَجابَهـــا مُــسْرِعاً وَلَبَّاهـــا
لَيْـسَتْ كَـنَفْسٍ لَـدَيَّ عاصِـيَةٍ	وَيْـلٌ لِمـا قَـدْ جَنَـتْ وَوَيْلاهـا
كَيْـفَ إِلَـى رَبِّـها تُنِيْـبُ وَقَـدْ	زَلَّـتْ لِـشَيْطانِها فَأَغْواهـــا
لَــوْ تَعْـرِفُ اللهَ حَـقَّ مَعْرِفَـةٍ	لَــصَحَّحَتْ بِرَّهــا وَتَقْواهـــا
لَكِنَّمـــا جَهْلُهـــا بِخالِقِهـــا	أَغْفَلَهـــا رُشْــدَها وَأَلْهاهـــا
صِرْتُ مَعَ النَّفْسِ فِي مُجاهَـدَةٍ	تَــأْمُرُنِي بِــالْهَوى وَأَنْهاهَـــا
أَصْــرَعُها تــارَةً وَتَــصْرَعُنِي	لَكِـنْ لَهـا الـسَّبْقُ عِنْـدَ لُقْياهـا
عَــدُوَّةٌ لا أُطِيْــقُ أُبْغِــضُها	يــا لَيْتَنِــي أَسْـتَطِيْعُ أَنْـساها
أَحْــسِبُها إِنْ أَبَــتْ مُــوافَقَتِي	خاسِــرَةً دِيْنَهـــا وَدُنْياهَـــا
يــا رَبِّ عَجِّـلْ لَهـا بِتَوْبَتِهـا	وَاغْـسِلْ بِمـا التُّقَـى خَطاياهـا
إِنْ تَـكُ يـا سَـيِّدِي مُعَـذِّبَها	مَنْ ذا الَّذِي يُرْتَجَى لِرُحْماهـا[1]

ـ روى الديلمي ـ قال الحافظ زين الدين العراقي، وإسناده جيد ـ عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ

(١) انظر: «معارج القدس في مدارج معرفة النفس» للغزالي (ص: ١٨٥).

بِعَبْدِهِ خَيْراً جَعَلَ لَهُ وَاعِظاً مِنْ قَلْبِهِ يَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ»[1].

وروى ابن أبي شيبة عن ابن سيرين رحمه الله تعالى قال: كنَّا نتحدث أن العبد إذا أراد الله به خيراً جعل له زاجراً من نفسه يأمره بالخير وينهاه عن المنكر[2].

وقال بعض العارفين: من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ.

وقال أبو مدين رحمه الله تعالى: كل قلب ليس له واعظ من نفسه فهو خراب.

وروى الحكيم الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ، وَعَصَمَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ: مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ حِيْنَ يَرْغَبُ، وَيَرْهَبُ، وَحِيْنَ يَشْتَهِي، وَحِيْنَ يَغْضَبُ»[3].

واعلم أن الشهوات في هذه الدنيا مؤذِنةٌ بما في الجنة من الملاذِّ والنعيم ليرغب فيها ويتطلب، وفاتنةٌ لمن أبعده الله تعالى حتى يخرج من دار القرب ـ أعني: الجنة ـ بطريق، ويحاد به عنها بحجة بينة، ولله الحجة البالغة.

---

(١) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٧١١): رواه الدارمي عن أم سلمة رضي الله عنها، وسنده جيد.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٣٢٤).

(٣) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤/ ٥٠).

فمن فهم هذا المعنى فمهما عرضت له شهوة من الدنيا اعتبر ما في الجنة من نوعها مع النزاهة والدوام، ثم تناول منها ما يزيل عنه ضرورة البشرية، وأمسك عن الاسترسال خشية من الفتنة والهلاك؛ إذ من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر ـ كما في الحديث المتقدم ـ واستحضر الخوف من أن يحال بينه وبين الشهوة في دار الآخرة بسبب الاسترسال في تناولها في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[سبأ: ٥٤].

وقد روى النسائي، والحاكم وصححه على شرطهما، عن عقبة ابن عامر رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ كان يمنع أهله الحلية والحرير، ويقول: «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ حِلْيَةَ الْجَنَّةِ وَحَرِيْرَهَا فَلا تَلْبَسُوهُمَا فِي الدُّنْيَا»(١).

وصحح على شرطهما أيضاً عن صفوان بن عبدالله بن صفوان قال: استأذن سعد ـ رضي الله تعالى عنه ـ على ابن عامر، وتحته مرافق من حرير، فأمر بها فرفعت، فدخل عليه وعليه مطرف من خز، فقال له: استأذنت وتحتي مرافق من حرير، فأمرت بها فرفعت.

فقال: نِعْمَ الرجل أنت يا ابن عامر، إن لم تكن ممن قال الله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[الأحقاف: ٢٠]، والله لأن اضطجع

---

(١) رواه النسائي (١٧٣٤٨)، والحاكم في «المستدرك» (٧٤٠٣)، وكذا ابن حبان في «صحيحه» (٥٤٨٦).

على جمر الغضا أحب إليَّ من أن أضطجع عليها[1].

وروى الإمام مالك رحمه الله تعالى عن يحيى بن سعيد: أن عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنهما جاء[2] ومعه حامل لحم، فقال عمر: أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه لجاره وابن عمه؟ فأين تذهب عنكم هذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[الأحقاف: ٢٠][3]؟

وهذه الآية ـ وإن كانت في الكفار ـ فقد يخشى ما فيها على المنهمكين في الطيبات من المسلمين كما فهمه عمر وسعد رضي الله تعالى عنهما بأن يسترسلوا في الشهوات المباحة، بحيث إنه كلما أجاب نفسه إلى واحدة دعته إلى أخرى، فيصير إلى أنه لا يمكنه عصيان نفسه في هوى، وينسد عنه باب العبادة التي ثوابها طيبات الجنة، وينفتح له باب المعصية التي عقابها حرمان الطيبات، والنزول من الدرجات إلى الدركات، فلا يبعد أن يقال له والعياذ بالله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾[الأحقاف: ٢٠].

وقد نبَّهَ على ذلك الحليمي في «منهاجه»، وغيره[4].

وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» عن أبي الأشعث رحمه الله تعالى قال: أوحى الله تعالى إلى داود ـ عليه السلام ـ أن القلوب

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٩٧).

(٢) في «ت» و«شعب الإيمان»: «أدرك جابر بن عبدالله» بدل «جاء».

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٦٧٢).

(٤) انظر كلام الحليمي في «شعب الإيمان» للبيهقي (٥٦٧٤).

المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة[1].

وقال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩].

قال ابن مسعود ﷺ في الآية: ليس إضاعتها تركها؛ قد يضيع الإنسان الشيء ولا يتركه، ولكن إضاعتها إذا لم يصلها لوقتها. أخرجه عبد بن حميد[2].

وروى الإمام أحمد، والحاكم وصححه، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سَيَهْلَكُ مِنْ أُمَّتِي أَهْلُ الْكِتَابِ وَاللِّيْنِ».

قلت: يا رسول الله! ما أهل الكتاب؟

قال: «قَوْمٌ يَتَعَلَّمُوْنَ الْكِتَابَ يُجَادِلُوْنَ بِهِ الَّذِيْنَ آمَنُوْا».

قلت: وما أهل اللين؟

قال: «قَوْمٌ يَتَّبِعُوْنَ الشَّهَوَاتِ، وَيُضَيِّعُوْنَ الصَّلَوَاتِ»[3].

وقوله: وأضاعوا الصلوات؛ أي: وغيرها من الطاعات، وإنما اقتصر على الصلاة لأنها عماد الدين، وإذا ضيَّعها العبد فهو لغيرها أكثر إضاعة.

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٥٢٦).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٥٢٦).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٤١٧)، وكذا الروياني في «المسند» (٢٤٠).

وقد روى الإمام أحمد، والطبراني، والحاكم، والبيهقي عن شدَّاد بن أوس رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ».

قلت: أتشرك أمتك من بعدك؟

قال: «نعَمْ، أَمَا إِنَّهُمْ لا يَعْبُدُونَ شَمْسَاً وَلا قَمَرَاً، وَلا حَجَراً وَلا وَثَناً، وَلَكِنْ يُرَاءُونَ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ».

قلت: يا رسول الله! فما الشهوة الخفية؟

فقال: «يُصْبِحُ أَحَدُهُمْ صَائِمَاً، فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِ، فَيَتْرُكُ صَوْمَهُ، وَيُوَاقِعُ شَهْوَتَهُ»[1].

وروى سعيد بن منصور، والطبراني، والحاكم وصححه، والمفسرون عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩]؛ قال: الغي: نهرٌ، أو وادٍ في جهنم من قيح، بعيدُ القعر، خبيثُ الطعم، يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات[2].

وقال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾[الأعراف: ١٦٩]؛ يعني: حطام الدنيا، وهو من الدنو أو من

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٧٩٤٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٨٣٠). وضعف المنذري إسناده في «الترغيب والترهيب» (١/ ٣٦).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩١٠٧)، والطبري في «التفسير» (١٦/ ١٠٠).

الدناءة، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾[الأعراف: ١٦٩].

ولعل هذه الآية في علماء السوء خاصة من أهل الكتاب وهذه الأمة؛ بدليل قوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأعراف: ١٦٩].

سئل ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ عن هذه الآية قال: أقوام يقبلون على الدنيا يتأكلونها، ويتبعون رخص القرآن، ويقولون: سيغفر لنا، ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه، وقالوا: سيغفر لنا. رواه أبو الشيخ[1].

وروى هو عن أبي الجَلْد رضي الله تعالى عنه قال: يأتي على الناس زمان تخرب صدورهم من القرآن، وتتهافت وتبلى كما تبلى ثيابهم، لا يجدون له حلاوة ولا لذاذة، إن قصَّروا عما أمروا به قالوا: إن الله غفور رحيم، وإن عملوا ما نهوا عنه قالوا: سيغفر لنا؛ إنا لا نشرك بالله شيئاً، أمرُهم كله طمع ليس فيه خوف، لبسوا جلود الضأن على قلوب الذئاب، أفضلهم في نفسه المُدهن[2].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[التغابن: ١٥]؛ أي: محنة ممتحنون بهما، أو مضلات لكم لا ينجيكم منها إلا ابتغاء ما عند الله

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥٩٣).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥٩٣)، ورواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٤٧٤) عن أبي العالية.

وإيثاره عليهم.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[التغابن: ١٥ ـ ١٦].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيۡرٌ أَمَلًا﴾[الكهف: ٤٦].

قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: إنما سمي المال لأنه يميل بالناس، وسميت الدنيا لأنها دنت. رواه ابن أبي حاتم، والخطيب(١).

قلت: ويحتمل أنه سمي مالاً لأنه يميل عن الناس كما يميل بهم.

وفي الحديث: «لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ». رواه ابن مردويه عن عبادة بن الصامت، وعن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنهم، وعن كعب بن عياض ﷺ، ولفظه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»(٢).

وفي نفس الأمر فالمال يجمع الفتنة، وبه تحصل كل زينة في الدنيا ومتاع؛ من مطعم أو مشرب، أو ملبس، أو مسكن، أو خادم، أو مركب، أو منكح، أو غير ذلك.

وروى الإمام أحمد في «الزهد»، والبيهقي في «الشعب» عن

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٧٨٣)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٤/ ٤٤).

(٢) ورواه الترمذي (٢٣٣٦) عن كعب بن عياض ﷺ، وصححه.

سفيان بن سعيد رحمه الله تعالى قال: كان عيسى عليه السلام يقول: حب الدنيا رأس كل خطيئة، والمال فيه داء كثير.

قالوا: وما داؤه؟

قال: لا يسلم صاحبه من الفخر والخيلاء.

قالوا: فإن سلم؟

قال: يشغله إصلاحه عن ذكر الله تعالى[1].

وروى ابن أبي الدنيا عن وهيب المكي رحمه الله تعالى قال: بلغني أن عيسى عليه السلام قال: أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً[2].

وروى ابن عساكر عن يحيى بن سعيد رحمه الله تعالى قال: كان عيسى عليه السلام يقول: اعبروا الدنيا ولا تعمروها، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، والنظر يزرع في القلب الشهوة[3].

وفي ذلك إشارة إلى أن الدنيا مفتنة ولو بمجرد النظر إليها من غير ملك لها ولا تمتع بها، ومن ثم كان عيسى عليه السلام يقول: جودة الثياب من خيلاء القلب. رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٩٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٥٨).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١/ ٣٤).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ٤٢٩).

الزهد» عن ابن شوذب[1].

وفي جودة الثياب نعيم الجسد ونعيم البصر، ومن هنا تعجب ابن آدم وهي على غيره كما تعجبه وهي عليه، فيتولد من النظر إليها على غيره الحسد، وعلى نفسه العجب.

وروى عبدالله في «زوائد الزهد» أيضاً عن عمران بن سليمان رحمه الله تعالى قال: بلغني أن عيسى بن مريم عليهما السلام قال: يا بني إسرائيل! تهاونوا بالدنيا تَهُنْ عليكم، وأهينوا الدنيا تكرمِ الآخرة عليكم، ولا تكرموا الدنيا فتهون الآخرة عليكم؛ لأن الدنيا ليست بأهل الكرامة، وكل يوم تدعو للفتنة والخسارة[2].

وحقيقة فتنة المال والولد أن يمنعا العبد من طاعة الله، أو يبعثاه على معصية الله تعالى، وهما معرضان إلى كل بلاء وعناء في الدنيا والآخرة.

وقد روى الإمام أحمد، وأصحاب «السنن الأربعة» عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ يخطب فأقبل الحسن والحسين - رضي الله تعالى عنهما - عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر، وحملهما واحداً من ذا الشق وواحداً من ذا الشق، ثم صعد المنبر، وقال «صَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٣٠).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٢٠٥).

فِتۡنَةٞۚ﴾[التغابن: ١٥]، إِنِّيْ لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى هَذِيْنِ الْغُلامَيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ لَمْ أَصْبِرْ أَنْ قَطَعْتُ كَلامِيَ وَنَزَلْتُ إِلَيْهِمَا»(١).

وفي رواية ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: إن رسول الله ﷺ قال: «قَاتَلَ اللهُ الشَّيْطَانَ؛ إِنَّ الْوَلَدَ لَفِتْنَةٌ، وَالَّذِي نَفْسِيْ بِيَدِهِ مَا دَرَيْتُ أَنِّي نَزَلْتُ عَنْ مِنْبَرِي»(٢).

وفي قولـه تعالى في الآية: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ تهييجٌ، وإرشاد إلى طلب ما عنده بالإعراض عما به الفتنة، ولذلك أعقبه بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾، وهذا من لطفه سبحانه وتعالى بالمؤمنين؛ إذ لم يكلفهم فوق استطاعتهم من تقواه؛ قال: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾؛ أي: الأمر والنهي، ﴿وَأَطِيعُواْ﴾؛ أي: بالائتمار والانتهاء، ﴿وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[التغابن: ١٦]؛ وفيه إشارة إلى أن الافتتان بالدنيا يكون من قِبَل شح النفس، فالفتنة من النفس في نفس الأمر.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾[طه: ١٣١]؛ أمر بالإعراض عن زهرة الدنيا وزينتها مخافة الفتنة.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾[الكهف: ٧].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٣٥٤)، وأبو داود (١١٠٩)، والترمذي (٣٧٧٤) وحسنه، والنسائي (١٥٨٥)، وابن ماجه (٣٦٠٠).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ١٨٦).

قال الحسن رحمه الله تعالى: أشد للدنيا تركاً[1].

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: أزهد في الدنيا[2]. رواهما ابن أبي حاتم.

وروى هو وابن جرير، والحاكم في «تاريخه» عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف: ٧]، فقلت: ما معنى ذلك يا رسول الله؟

قال: لنبلوهم أيهم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله[3].

وقال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[آل عمران: ١٤].

ولا شك أن قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ تحريضٌ على استبدال ما عنده ـ سبحانه وتعالى ـ من اللذات الحقيقية الأبدية

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٣٦١).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٢٠٠٦).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٢٠٠٦)، والطبري في «التفسير» (١٢/ ٥). قال ابن حجر في «المطالب العالية» (١٣/ ٧٢٥): هذه الأحاديث من كتاب «العقل» لداود بن المُحَبَّر، كلها موضوعة، ذكرها الحارث في «مسنده».

بالشهوات الفانية الدنيوية.

ثم قرر ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[آل عمران: ١٥].

قال قتادة رحمه الله تعالى: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ كان يقول: اللهم زينت لنا الدنيا، وأنبأتنا أن ما بعدها خير منها، فاجعل حظنا في الذي هو خير وأبقى. رواه ابن أبي حاتم، وغيره[1].

وفيه: أنَّ المزين هو الله تعالى.

وقال الحسن في الآية: زينها الشيطان. رواه ابن أبي حاتم[2].

ودليل الأول: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾[النمل: ٤].

ودليل الثاني: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾[العنكبوت: ٣٨].

والأول حقيقة، والثاني مجاز.

هذا مذهب أهل السنة، وعكس ذلك المعتزلة.

ومعنى تزيين الله تعالى أعمالهم لهم: أنه جعلها مشتهاة للطبع، محبوبة للنفس.

ومعنى تزيين الشيطان لهم أعمالهم: تحسينها في أعينهم، وتزيين رأيهم فيها بما يوسوسه في صدورهم.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٦١٢).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٧٩٦).

وقال الله تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧].

وكان ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ يقرؤها: بل تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة. كما رواه عبد بن حميد(١).

وروى ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في «الشعب» عن عرفجة الثقفي رحمه الله تعالى قال: استقرأت ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾[الأعلى: ١]، فلمّا بلغ ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾[الأعلى: ١٦] ترك القراءة، وأقبل على الصحابة، فقال: آثرنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا لأنا زاينا زينتها ونساءها، وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة، فاخترنا العاجل وتركنا الآجل(٢).

وروى البيهقي في «الشعب» عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تَمْنَعُ الْعِبَادَ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا لَمْ يُؤْثِرُوا دُنْيَاهُمْ عَلَى دِينِهِم، فَإِذَا آثَرُوْا دُنْيَاهُم ثُمَّ قَالُوا: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ قَالَ اللهُ: كَذَبْتُم»(٣)؛ أي: في دعواكم لأن قولكم خالف حالكم.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٨/ ٤٨٧).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٣٠/ ١٥٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٦٤١).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٩٧).

ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١].

والمراد نهي النفس عن الهوى المخالف للحق، فإذا كان موافقاً للحق كان حرياً بالاتباع لا من حيث إنه هوى، بل من حيث إنه مأمور به.

وقد روى الإمام الزاهد نصر المقدسي رحمه الله تعالى في «حجته» ـ بإسناد صحيح كما قال النووي رحمه الله تعالى ـ عن عبدالله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُوْنَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ»[1].

وحكي عن المأمون أنه كان يقول: أطيب الطيبات الحق إذا وافق الهوى.

ومن لطائف الآثار: ما رواه ابن الجوزي في «ذم الهوى» عن حسن الأسدي رحمه الله تعالى قال: كان عبدالله بن حسن بن حسين ـ رضي الله تعالى عنهم ـ يطوف بالبيت، فنظر إلى امرأة جميلة، فمشى إلى جانبها، ثم قال: [من البسيط]

أَهْـوَى هَـوَى الـدِّيْنِ وَاللَّـذَّاتُ تُعْجِبُنِـي
فَكَيْـفَ لِـي بِهَـوَى اللَّـذَّاتِ وَالـدِّيْنِ

فقالت له: دعْ أحدَهما تنلِ الآخر.

وفي رواية: لقي امرأة جميلة، فلما نظرت إليه وإلى جماله مالت

---

(١) تقدم تخريجه.

إليه، وطمعت فيه، فأقبل عليها وقال: [من البسيط]

أَهْـوَى هَـوَى الـدِّيْنِ وَاللَّـذَّاتُ فَكَيْفَ لِي بِهَوَى اللَّذَّاتِ وَالدِّيْنِ

نَفْسِي تُزَيِّنُ لِـي الـدُّنْيا وَزِيْنَتَهـا وَزاجِـرِي مِـنْ حَـذارِ الْمَـوْتِ

قال: فتركته، ومضت[1].

وقال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾[محمد: ١٤].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كل هوى ضلالة[2].

وقال طاوس رحمه الله تعالى: ما ذكر الله تعالى هوى في القرآن إلا ذمه[3]. رواهما ابن المنذر.

وقال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[الفرقان: ٤٣].

وقال الحسن في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: لا يهوى شيئاً إلا اتبعه. رواه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[4].

وقال: المنافق عبد هواه. رواه ابن حميد[5].

---

(١) رواه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص: ٢٥).

(٢) ورواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٣٠).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٤٦٤).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٧٠٠).

(٥) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٢٦١).

وروى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ مِنْ إِلَهٍ يُعْبَدُ مِنْ دُوْنِ اللهِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ هَوَىً مُتَّبَعٍ»[1].

وقال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: إذا ارتفع إليك الخصمان فكان لك في أحدهما هوى، فلا تشتهي في نفسك الحق له، فيفلج على صاحبه، فأمحو اسمك من نبوَّتي، ثم لا تكون خليفتي، ولا كرامة. رواه الحكيم الترمذي[2].

ولقد بيَّن الله تعالى أن بني إسرائيل لم يمنعهم من اتباع الحق، ويبعثهم على الظلم وقتل الأنبياء إلا متابعة الهوى، فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٥٠٢)، وكذا ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٨). قال ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٣٠١): وهذا إن كان البلاء فيه من الحسن ـ بن دينار ـ، وإلا من الخصيب بن جحدر، ولعله أضعف منه.

(٢) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ١٨٠).

﴿أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[المائدة: ٧٠ ـ ٧١]؛ أي: بسبب اتباع الهوى، أو بسبب التكذيب والقتل.

﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ٧٠ ـ ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[البقرة: ٨٧].

وفي هذه الآية أنَّ الاستكبار يكون من متابعة الهوى، وفيه الهلاك، وهو أول معصية عصى بها إبليس؛ ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٣٤] حتى حمله هوى نفسه على الامتناع من السجود، فأبلس من رحمة الله تعالى، وأيس منها.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[المائدة: ٧٧].

قيل: هم اليهود، وقيل: النصارى(١).

والأولى أن الخطاب لكل العلماء؛ إذ من الجائز أن يكون المراد بالكتاب جنس كتب الله تعالى؛ نهوا عن الغلو في الدين والابتداع فيه،

---

(١) أكثر التفاسير ذكرت أن الخطاب للنصارى، كما في «تفسير الطبري» (٦/ ٣١٦)، و«تفسير الثعلبي» (٣/ ٤١٨)، ومن الذين ذكروا أنه لليهود أو النصارى: الماوردي في «تفسيره» (١/ ٥٤٦).

واتباع مثل أهواء الضالين من أهواء أنفسهم، واتباع أهل الأهواء على أهوائهم.

وفيه إشارة إلى أنه كما أن اتباع هوى الإنسان منهي عنه، كذلك ينهى عن اتباع هوى غيره، فلا يقلد صاحب الهوى على هواه ورأيه.

وقد قال الله تعالى لنبيه الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[النجم: ٣]، وعَصَمه عن اتباع الهوى.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[المائدة: ٤٨].

وقـال تعـالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٤٩ ـ ٥٠].

وفيه إشارة إلى أن الحكم بالهوى، بل مجرد اتباع الهوى سنة جاهلية.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن العالم يتعين عليه أن يحذر ممن يحاكم إليه، أو يأتيه للمناظرة والمذاكرة أن يفتنه بما يزخرفه من كلام، أو يصوره من جدال عن دينه أو عن اعتقاده، ولا يتوهم من شَقْشقته في الكلام وتولِّيه عن الحق في صورة اتباعه له أنه على شيء، بل يكون ذلك لينفذ فيه أمر الله، ويقع به عقابه.

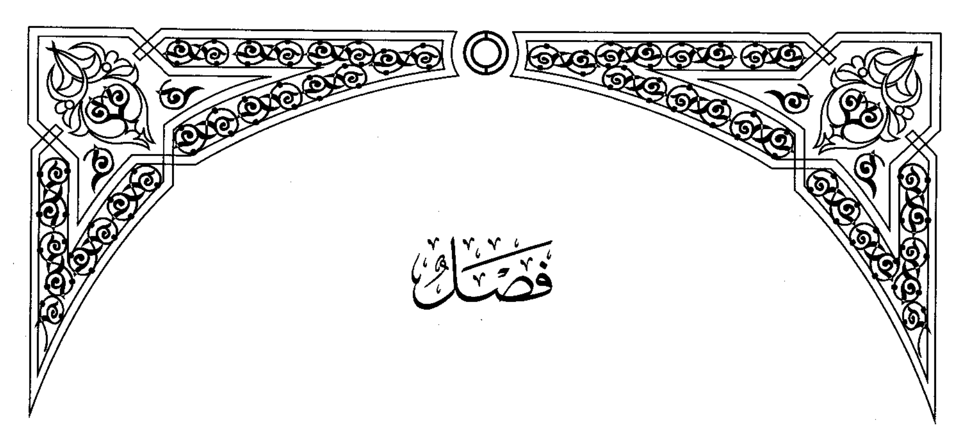
وفي قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾[المائدة: ٤٩] بيانٌ واضح أن هذا لا يختص بأهل الكتاب، بل يتفق لغيرهم من فاسقي هذه الأمة اتباع الأهواء.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٤٥].

فبيَّن سبحانه أنَّ متابعة أهل الأهواء من أهل الكتاب، وكذلك غيرهم سبب للخذلان والحرمان من ولاية الله ونصرته، ثم سجل على المتبع لأهوائهم من العلماء بالتوغل في الظلم، وعده في سلك الظالمين.

* * *



فصل

حقيقة الهوى شدة الميل إلى الشيء، والشهوة محبة الشيء والرغبة فيه.

شهيه كرضيه، وشهاه كدعاه، واشتهاه وشَهَّاه وتشهَّى: اقترح.

ولعل الهوى أبلغ من الشهوة؛ فالشهوة يمكن ردها، والهوى لا يمكن رده، أو يتعسر رده، وهو تلف وأيُّ تلف، ومن ثم قيل: [من مجزوء الكامل]

إِنَّ الْهَوى لَهُوَ الْهَوا نُ أُزِيلَ عَنْهُ النُّوْنُ

ومن هنا لم يذكر الهوى في القرآن العظيم، ولا في كلام الأنبياء والحكماء إلا مذموماً.

والشهوة قد تكون مذمومة إذا استرسل فيها الإنسان، أو أكثر منها وتناولها من غير حلها، وأمَّا إذا تناولها الإنسان من حلها على الوجه الذي أذن فيه الشرع فلا يصح إطلاق الذم عليها لأنها داعية إلى قوام الطاعة وعمارة الأرض؛ إذ بها تتناول المطعومات والمشروبات، وبها قوام الأبدان، وبقوام الأبدان واعتدالها قوام العبادة.

وفي الحديث: «إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً»[1].

وبها طلب النكاح والزواج، وبه يحصل التوالد وكثرة الخلق، وبهم عمارة الدنيا وقوام الدين.

ولما كان للشهوات وَقْعٌ في صلاح الأمور وإقامة الدين أبقيت في دار الآخرة، ووصف بالشهوة أهل الجنة بخلاف الهوى.

قال الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[الزخرف: 71].

وقال الله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾[الأنبياء: 102].

وقال تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾[الواقعة: 21].

فالشهوة نعمة في الدنيا والآخرة إلا أن الله تعالى أطلق التنعم بها في الدار الآخرة، ولم يأذن في دار الدنيا إلا في تناول قدر الحاجة منها، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾[الأعراف: 31].

وقال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: 223].

وقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[البقرة: 187].

فأذن في الاستمتاع بالنساء، وحجر علينا في الاستمتاع بغيرهن، وقبح قضاء الشهوة بغيرهن بقوله ـ مخاطباً لقوم لوط وقد كرر ذمهم في

---

(1) تقدم تخريجه.

كتابه العزيز ـ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾[النمل: ٥٥].

ثم تسمية الفاحشة ثم قيد الاستمتاع بالنساء بكون المرأة خاصة بالرجل؛ إما بعقد أو بملك بإضافية النساء إلى المخاطبين؛ ألا ترى إلى أنه قال: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٣]؛ أي: نساؤكم الخاصة بكم من الأزواج أو الإماء.

وإذا اعتبرت فإن الشهوة إذا تجردت لا تضر، لأنها تلم بالقلب إلماماً، فإن رضيها الشرع قبلها العقل، وإن لم يرضها الشرع ردها العقل، فإن جذبها الهوى من العقل ملكها من حيث لم يأذن الشرع.

فالشهوة لا تذم إلا إن قارنها الهوى، أو استحالت هوى، وعلى هذا يحمل ما جاء في ذم الشهوات كما في الحديث الصحيح: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَالنَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»[1]؛ فالشهوة لا تهوي بصاحبها في النار إلا إذا قارنها الهوى، أو صارت هوى.

وقال النبي ﷺ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي ثَلاثَةٌ: ضَلالَةُ الأَهْوَاءِ، وَاتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ فِي الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ، وَالْعُجْبُ». رواه الحكيم الترمذي عن أفلح رضي الله تعالى عنه[2].

واقتصر على الهوى في قوله ﷺ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٢٤٩).

الْهَوَى وَطُوْلُ الأَمَلِ». رواه ابن عدي في «الكامل» عن جابر رضي الله عنه[1].

واعلم أنَّ كل إنسان مشتمل على شهوة وغضب كامنين في نفسه، متى ملكهما بعقله كانا مسخَّرين للعقل في مصالح الإنسان، ومتى أغفل العقل تدبيرهما تعلق بهما الهوى والشيطان، والهوى أقوى سلطاناً من الشيطان، فإذا تعلق بالشهوة الخالية عن الهوى لا يكاد يبلغ مراده من العبد حتى يستعين بالهوى، ويتمكن منه عند الغضب، فإن لم يساعده الهوى لأن نار الغضب أقوى فالغضب خلق شيطاني في نفسه.

وقد سبق أنَّ إبليس ذكر لبعض الأنبياء أنه يأخذ ابن آدم عند الغضب والهوى[2]، ولم يقل: والشهوة.

نعم، يولع بالشهوة حتى يتعلق بها الهوى؛ أي: حتى يستحيل هوىً، وذلك أنه يجري من ابن آدم مجرى الدم كما صحَّ عن النبي ﷺ[3]، فإذا استعمل الإنسان الشهوة على قوانين الشرع لا تضره.

ومن قوانين الشرع ترك الإسراف في الشهوات كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنَ الإِسْرَافِ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ مَا اشْتَهَيْتَ». رواه ابن ماجه[4].

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٨٥)، وقال: هذه الأحاديث غير محفوظة، وكذا ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (ص: ٢٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه ابن ماجه (٣٣٥٢)، وكذا أبو يعلى في «المسند» (٢٧٦٥) عن أنس رضي الله عنه. وفيه نوح بن ذكوان، وحديثه غير محفوظ. كما قال ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٤٤).

وقال الحسن رحمه الله تعالى: دخل عمر على ابنه عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، وإذا عندهم لحم، فقال: ما هذا اللحم؟

قال: اشتهيته.

قال: وكلما اشتهيت شيئاً أكلته؟ كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كلما اشتهى. رواهما[1] الإمام أحمد في «الزهد»[2].

فالإسراف طريق لتعلق الشيطان بشهوة الإنسان.

ولقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[الإسراء: ٢٧].

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هم الذين ينفقون المال في غير حقه. رواه البخاري في «الأدب المفرد»، وغيره[3].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير، وما تصدقت فلك، وما أنفقت رياءً وسمعة فذلك حظ الشيطان. رواه البيهقي في «الشعب»[4].

وفي كلام الإمام علي إشارة إلى أن قضاء الشهوة من غيرك من

---

(١) في «ت»: «رواه».

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٢٣).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٤٤٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥٤٧).

(٤) تقدم تخريجه.

عيال بالنفقة عليهم، أو غيرهم بالصدقة خلقٌ كريم، فمراعاة الشهوة على ميزان الشرع منك ومن غيرك مندوب إليه.

وفي الحديث: «مَنْ أَطْعَمَ أَخَاهُ شَهْوَتَهُ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ». رواه البيهقي عن أبي هريرة[1].

وروى الطبراني في «الكبير» عن سلمان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَطْعَمَ مَرِيْضاً شَهْوَتَهُ أَطْعَمَهُ اللهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ»[2].

ومن قوانين الشرع أن لا تقضى الشهوة من مال غيرك ولو من طريق الاستدانة.

قال وهب بن منبه رحمه الله تعالى: من السرف أن يكتسي الإنسان، ويأكل ويشرب مما ليس عنده، وما جاوز الكفاية فهو تبذير[3].

وسبق قول عيسى عليه السلام: ورُبَّ شهوة أورثت حزناً طويلاً؛ أي: في الدنيا وفي الآخرة؛ في الدنيا: فيما لو أخذها بدين، فأعسر به، فقاسى حزن المطالبة، وعسر الوفاء، أو فيما تناول منها فوق الكفاية فتُخِم منها، أو مرض.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣٨٢) وقال: هو بهذا الإسناد منكر.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦١٠٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٩٧): فيه أبو خالد عمرو بن خالد، وهوكذاب متروك.

(٣) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٢٧٤).

وفي الآخرة: فيما لو أخذها من غير حلها، فأوردته النار، أو حبسته عن طيبات الجنة.

وروى أبو نعيم عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: إياكم والبطنة في الطعام والشراب؛ فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة.

وعليكم بالقصد فيهما؛ فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السرف، وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه(1).

* تَتِمَّةٌ:

اعلم أن في استعمال الشهوة على وجه الشرع تقلباً في نعم الله تعالى، وظهوراً فيها، وشكراً لله تعالى، ومسارعة إلى ما يحب سبحانه وتعالى كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[البقرة: ١٧٢].

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّباً، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِيْنَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[البقرة: ١٧٢].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٤٥)، ورواه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» (ص: ١٣٣).

ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيْلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَارَبِّ! يَارَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ». رواه مسلم، والترمذي، وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه[1].

فأشار إلى أن الطيب لا يكون طيباً حتى يكون حلالاً.

ومن هنا فسر كثيرٌ الطيبات بالحلالات.

وقال الله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[البقرة: ١٦٨] وخطوات الشيطان: طرائقه وأعماله التي يأمر بها؛ منها: الإساءة في تحصيل الرزق والكسب السيء.

ومنها: صرف الرزق وما أنعم الله به في المعاصي والشهوات المجردة عن إرادة الخير.

ولذلك قال بعد ذلك: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٦٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ١٤].

وأعم من ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة: ٢٩].

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾[إبراهيم: ٣٤].

ثم عدد مفردات ذلك في غير موضع من كتابه، وقال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾[إبراهيم: ٣٤].

والكفر منها نقيض الشكر، وكما أن الشكر مرضي الله وفيه رضاه، فالكفر مسخوطه وفيه سخطه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[الزمر: ٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾[المائدة: ٨٧ ـ ٨٨].

وروى أبو داود عن أبي الأحوص، عن أبيه رضي الله تعالى عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ في ثوب دونٍ، فقال: «أَلَكَ مالٌ؟»

قال: نعم.

قال: «مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟»

قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم، والخيل، والرقيق.

قال: «فَمَاذَا آتَاكَ اللهُ فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَيكَ وَكَرَامَتِهِ»(١).

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٣٦)، وكذا النسائي (٥٢٢٣).

وحسَّنَ الترمذي عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»(١).

فتناول النعمة من وجهها الشرعي، واستعمالها في وجهها الشرعي ليس من خطوات الشيطان، بل هو مما يرضاه الرحمن سبحانه وتعالى، وهو عين الشكر الذي وعد الله تعالى عليه المزيد.

وضده الكفر الذي أوعد الله عليه بالعذاب الشديد، وهذا هو خطوات الشيطان، ولا يبعث عليه إلا هوى الإنسان، وهو البطر الذي هو سبب الهلاك والضرر كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[القصص: ٥٨].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ

---

(١) رواه الترمذي (٢٨١٩) وحسنه.

شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾
وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى
شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾[سبأ: ١٥ ـ ٢١].

ذكر الله تعالى قصة سبأ بعد قوله تعالى في قصة داود عليه السلام: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣] إشارةً إلى أنهم إنما أُتوا من قلة الشكر.

وهم كما قال قتادة رحمه الله تعالى: قوم أعطاهم الله تعالى نعمة، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ ﴾؛ أي: عن الشكر؛ قال قتادة: ترك القوم أمر الله ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾.

قال قتادة: ذكر لنا أن العَرِم وادٍ في سبأ كانت تجتمع إليه مسايل من أودية شتى، فعمدوا فَسَدُّوا ما بين الجبلين بالقِير والحجارة، فجعلوا عليه أبواباً، وكانوا يأخذون من مائه ما احتاجوا إليه ويسدون عنهم، فلما ترك القوم أمر الله تعالى بعث الله عليهم جرذاً فنقبه من أسفله، فاتسع حتى غرَّق الله به حروثهم، وخرَّب به أرضهم عقوبةً لهم بأعمالهم.

قال الله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾؛ والخمط: الأراك، وأكله بريرة ﴿وَأَثْلٍ﴾ والأثل: الطرفاء ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهو شجر النبق.

وقال قتادة في قوله: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾: لا تخافون جوعاً ولا ظمأً، إنما تغدون فتقيلون في قرية، وتروحون فتبيتون في قرية أهل جنة ونَهَر.

حتى لقد ذكر لنا أن المرأة كانت تضع سلتها على رأسها فتمتلىء قبل أن ترجع إلى أهلها، وكان الرجل يسافر لا يحمل معه زاداً، فبطروا النعمة، فقالوا: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، فمُزقوا كل ممزَّق وجُعلوا أحاديث.

وما ذكرناه عن قتادة أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم(١).

وقال ابن زيد: لم يكن يرى في قريتهم بعوضة قط، ولا ذباب، ولا برغوث، ولا عقرب، ولا حيَّة، وإن الركب ليأتون في ثيابهم القمل والدواب، فما هو إلا أن ينظروا إلى بيوتها فتموت تلك الدواب، وإن كان الإنسان ليدخل الجنتين فيمسك القُفة على رأسه، ويخرج حين يخرج وقد امتلأت تلك القفة من أنواع الفاكهة، ولم يتناول منها شيئاً بيده. رواه ابن أبي حاتم(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾[سبأ: ٢٠] يحتمل

---

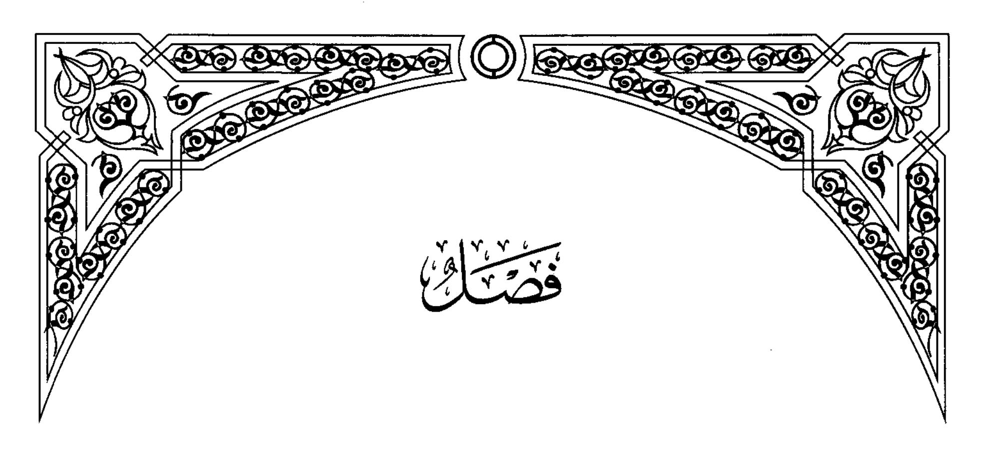
(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢٢/ ٧٨ ـ ٨٠)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣١٦٢ ـ ٣١٦٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣١٦٥)، وكذا الطبري في «التفسير» (٢٢/ ٧٨).

أنه أراد أهل سبأ، والأولى أنه أراد سائر أولاد آدم.

وظنه قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٦٢]، فمن بدَّلَ نعمة الله كفراً، واستعان بنعم الله على معاصيه، فقد ظفر إبليس فيه، وتابعه فيما فيه هلاكه، وتسخير العقل في طاعة الهوى واتباع الشهوات عين الكفران لنعمة العقل، بل لنعمة أصل الوجود الإنساني؛ فافهم!

* * *



فَصْلٌ

الشهوات كلها مصالي للشيطان يقتنص بها الإنسان.

قال عبد الصمد الزاهد كما نقله عنه ابن الجوزي: من لم يعلم أن الشهوات فُخُوْخٌ ـ أي: للشيطان ـ فهو لَعَّاب(١).

وأصول الشهوات ما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾[آل عمران: ١٤] الآية.

ومن ثم كان يحلف بعض العارفين أن الشهوات السبع المذكورة في الآية هي أبواب النار السبعة؛ لأنها أصول الشهوات كلها، وقد حُفَّت النار بالشهوات.

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية الأفتن فالأفتن، ولا شيء منها أعظم فتنة ولا أقرب إلى تسليط الشيطان على الإنسان من النسوان، ولذلك ذكرهن الله تعالى في أول الشهوات المذكورة في الآية.

وروى الأئمة الستة عن أسامة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ

---

(١) انظر: «ذم الهوى» لابن الجوزي (ص: ٣١).

قال: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»(١).

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال للنسوة: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَلا دِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ»(٢).

بل روى الإمام أحمد، والشيخان عن أبي سعيد الخدري، وابن ماجه عن ابن عمر، وابن حبان، والحاكم وصححاه، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنهم: أن النبي ﷺ قال: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ! تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ».

فقلن: وبم يا رسول الله؟

قال: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيْرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِيْنٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»(٣).

وتقدم في حديث أبي أمامة رضي الله تعالى عنه: أنَّ إبليس ـ لعنه الله ـ قال لله تعالى: اجعل لي حبائل.

قال: النساء(٤).

---

(١) رواه البخاري (٤٨٠٨)، ومسلم (٢٧٤٠)، والترمذي (٢٧٨٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩١٥٢)، وابن ماجه (٣٩٩٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٧٩)، وكذا مسلم (٧٩) كلاهما عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخريجه في الصحيحين، ورواه ابن ماجه (٤٠٠٣) عن ابن عمر رضي الله عنه. ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٣٣٢٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢٧٧٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) تقدم تخريجه.

وروى الخرائطي في كتاب «اعتلال القلوب»، وغيره عن زيد بن خالد الجُهَني رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «الشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجُنُوْنِ، وَالنِّسَاءُ حِبَالَةُ الشَّيْطَانِ»[1].

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن جعفر بن حرفاش: أنَّ عيسى بن مريم عليهما السلام كان يقول: رأس الخطيئة حب الدنيا، والخمر مفتاح كل شر، والنساء حبالة الشيطان[2].

وذكر التجاني في كتاب «تحفة العروس» عن أبي المحيا قال: رأيت امرأة من قومي بمكة، فجلست أحدثها وعبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما يصلي، فسمعني أقول لها: يا فلانة! استوحش لفراقك القلب، وجاورني من لا أهوى، وكنت كما قال الأول: [من الطويل]

أَيَسْعَدُ مَنْ أَهْوَى وَيُسْعِفُنِي الْهَوَى ... بِمَـنْ لا يُبَـالِي أَنْ يُفارِقَـهُ أَهْلِـي

قال: فأقبل عليَّ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وقال: ما هذه المرأة منك؟

قلت: من العشيرة وبنات العم.

فقال: قم، وإلا وقعتما في فتنة؛ إنَّ النساء حبائل الشيطان، وإياك أن تخلو بامرأة إلا أن تكون محرماً[3].

---

(١) رواه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (ص: ٢٠٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٥)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣٦٦٥).

(٢) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ٩٢).

(٣) انظر: «تحفة العروس ومتعة النفوس» للتجاني (ص: ٣٥).

ونقل التجاني أيضاً عن سعيد بن المسيب قال: ما يئس الشيطان من ولي إلا أتاه من قبل النساء[1].

ورواه أبو نعيم عن علي بن زيد، عنه، وزاد فيه: وقال لنا سعيد - وهو ابن أربع وثمانين سنة، وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى -: ما شيء أخوف عندي من النساء[2].

وروى الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود عن جابر رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِيْ صُوْرَةِ شَيْطَانٍ وَتُدْبِرُ فِيْ صُوْرَةِ شَيْطَانٍ، وَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِيْ نَفْسِهِ»[3].

وإنما شبهها بالشيطان في الإقبال لأنه محل استقبال وجهها والمأتي منها، وفي الإدبار لأنه محل بدو العجيزة، فلما كانت داعية إلى الفتنة بلسان حالها في إدبارها وإقبالها شبهت بالشيطان في الحالتين.

وقال الماوردي في كتاب «أدب الدين والدنيا»: قال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه: امش وراء الأسد، ولا تمش وراء المرأة[4].

---

(١) المرجع السابق (ص: ٣٢).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٦٦).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٣٠)، ومسلم (١٤٠٣)، وأبو داود (٢١٥١).

(٤) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ١٩٣)، ورواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٤٠).

قال: وسمع عمر بن الخطاب ﷺ امرأة تقول: [من البسيط]

إِنَّ النِّساءَ رَياحِيْنُ خُلِقْنَ لَكُمْ ... وَكُلُّكُمْ يَشْتَهِي شَمَّ الرَّياحِيْنِ

فقال عمر رضي الله تعالى عنه: [من البسيط]

إِنَّ النِّساءَ شَياطِيْنُ خُلِقْنَ لَنا ... نَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ الشَّياطِيْنِ[1]

وروى الخطيب في «تاريخه» عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سُئِلْتَ: أَيُّ الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوْسَى عَلَيْهِ السَّلامُ؟ فَقُلْ: خَيْرَهُمَا وَأَبَرَّهُمَا، وَإِنْ سُئِلْتَ: أَيُّ الْمَرْأَتَيْنِ تَزَوَّجَ؟ فَقُل: الصُّغْرى مِنْهُمَا، وَهِيَ الَّتِيْ جاءَت فقَالَت: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦]، فَقَالَ: مَا رأَيتِ مِنْ قُوَّتِهِ؟ قَالَت: أَخَذَ حَجَراً ثَقِيْلاً فَأَلْقَاهُ عَلَى الْبِئْرِ، قَالَ: وَمَا الَّذِي رَأَيْتِ مِنْ أَمَانَتِهِ؟ قَالَت: قَالَ لِي: امْشِي خَلْفِي، وَلا تَمْشِي أَمَامِي»[2].

وروى الطبراني عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أن أباها قال لها: وما رأيت من قوته؟

قالت: جاء إلى البئر وعليها صخرة لا يقلها كذا وكذا، فرفعها.

قال: وما رأيت من أمانته؟

قالت: كنت أمامه فجعلني خلفه[3].

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ١٩٣).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٢/ ١٢٨).

(٣) تقدم تخريجه.

وإذا كان هذا حذر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وهم معصومون، فكيف بغيرهم؟!

* لَطِيْفَةٌ:

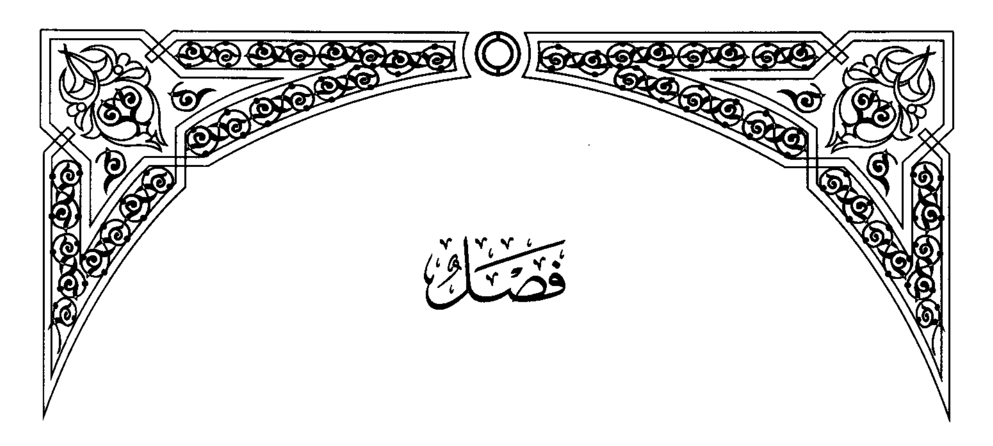
تقدم في الحديث: «أن الرجل لا يخرج الصدقة حتى يفك عنها لحي سبعين شيطاناً»[1].

يحكى في معناه: أن الشيطان يأتي الرجل بسبعين من جنوده، فيتعلقون بيديه ورجليه وقلبه، ويمنعونه من الصدقة، فسمع بذلك بعضهم فقال: أنا أقاتل هؤلاء السبعين، فخرج إلى منزله، وملأ ذيله من الحنطة ليتصدق به، فوثبت زوجته فنازعته حتى أخرجته من ذيله، فرجع الرجل خائباً، وقال: هزمت السبعين، فجاءت أمهم فهزمتني. ذكره البرهان بن مفلح في كتاب «الاستعاذة»[2].

* * *

(١) تقدم تخريجه.

(٢) وذكره الرازي في «التفسير الكبير» (١/ ٨٤).



كما يخشى على الرجل أن يدخل عليه الشيطان بالنساء، كذلك يخشى على المرأة أن يدخل عليها الشيطان بالرجال.

وقد أمر الله تعالى المؤمنات بما أمر الله به المؤمنين من غض الأبصار وحفظ الفروج، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[النور: ٣٠ ـ ٣١] الآية.

قال الأعمش: في هذه الآية نهيت المرأة أن تنظر إلى غير زوجها؛ أي: أن تنظر قصداً أو بشهوة، فأما نظرة الفجأة فلا تكليف فيها(١).

وروى البزار، والدارقطني بسند ضعيف، عن علي رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال لابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها: «أَيُّ شَيْءٍ خَيْرٌ لِلْمَرْأَةِ»؟

قالت: أن لا ترى رجلاً ولا يراها.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العيال» (٢/ ٧٣٦).

فضمها إليه، وقال: «﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٍ﴾[آل عمران: ٣٤]»[1].

ورواه ابن الجوزي في كتاب «النساء» على وجه آخر، ولفظه: سأل رسول الله ﷺ علياً وجماعة من الصحابة عما هو خير للنساء، فلم يدروا ما يقولون، فانصرف علي إلى فاطمة رضي الله تعالى عنهما، وذكر لها ذلك، فقالت: إن خير النساء اللائي لا يرين الرجال ولا يرونهن، فأخبر علي رضي الله تعالى عنه بذلك رسول الله ﷺ فقال: «إِنَّمَا فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّيْ»[2].

وفي «الصحيح» قوله ﷺ: «إِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوْسُفَ»[3] يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[يوسف: ٣٠] الآيات.

روى ابن أبي حاتم عن دريد بن مجاشع، عن بعض أشياخه قال: قالت ـ يعني: امرأة العزيز ـ للقيم: أدخله عليهنَّ وألبِسْه ثياباً بيضاء؛ فإن الجميل أحسن ما يكون في البياض، فأدخله عليهن وهن يحززن ما في أيديهن، فلما رأينه حززن أيديهن وهن لا يشعرن من النظر إليه، فنظرن إليه مقبلاً، ثم أومت إليه: أن ارجع، فنظرن إليه

---

(١) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣٩٨): رواه البزار والدارقطني في «الأفراد» من حديث علي ﷺ، بسند ضعيف.

(٢) ورواه ابن أبي الدنيا في «العيال» (٢/ ٥٩٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٧٥).

(٣) رواه البخاري (٦٣٣)، ومسلم (٤١٨).

مدبراً وهن يحززن أيديهن بالسكاكين لا يشعرن بالوجع من النظر إليه، فلما خرج نظرن إلى أيديهن، وجاء الوجع يُولْولن، فقالت لهن: أنتُنَّ من ساعة واحدة هكذا صنعتن، فكيف أصنع أنا؟ ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١][١].

واعلم أن الرجل كما يعجبه جمال المرأة فيطلبه ويرغب فيه، يعجب المرأة جمال الرجل فتطلبه وترغب فيه، فمن حيث يدخل الشيطان على الرجل بالمرأة يدخل على المرأة بالرجل، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «يَعْمَدُ أَحَدُكُمْ إِلَى ابْنَتِهِ فَيُزَوِّجهَا الشَّيْخَ الدَّمِيْمَ؛ إِنَّهُنَّ يُرِدْنَ مَا تُرِيْدُوْنَ». رواه أبو نعيم عن الزبير رضي الله تعالى عنه[٢].

وروى الديلمي، وغيره بسند ضعيف، عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثٌ مِنَ الْعَجْزِ فِي الرِّجَالِ: أَنْ يَلْقَى مَنْ يُحِبُّ مَعْرِفَتَهُ فَيُفَارِقَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ اسْمَهُ، وَأَنْ يُكْرِمَهُ أَخُوْهُ فَيرُدَّ كَرَامَتَهُ، وَأَنْ يُقَارِبَ الرَّجُلَ جَارِيْتَهُ فَيُصِيْبَهَا قَبْلَ أَنْ يُحَادِثَهَا وَيُؤَانِسَهَا وَيُضَاجِعَهَا، فَيَقْضِي حَاجَتَهُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ تَقْضِيَ حَاجَتَهَا مِنْهُ»[٣].

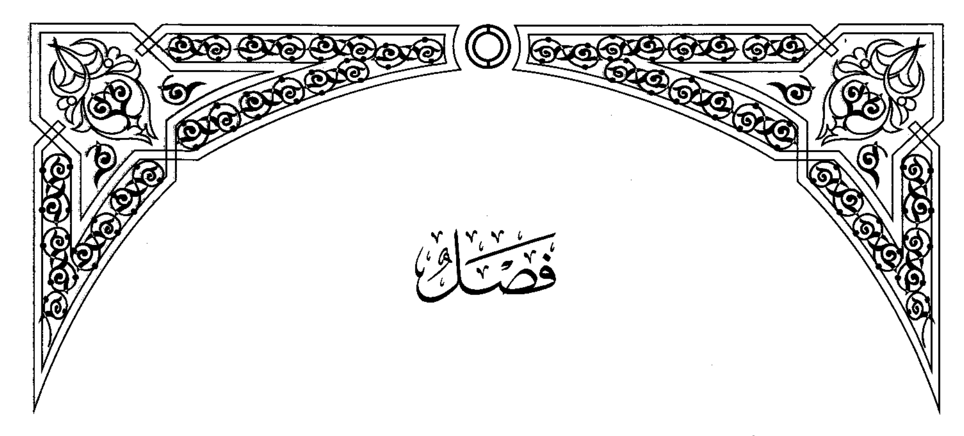
* * *

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢١٣٥).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ١٤٠)، وعنده: «القبيح الدميم» بدل «الشيخ الدميم».

(٣) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٢٠٤): رواه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث أنس، وهو منكر.



فصل

قد سبق أن الفتنة بالمُرد الحسان أشد من الفتنة بالنسوان.

وعن سفيان الثوري: إني أجد مع المرأة شيطاناً، ومع الغلام الأمرد بضعة عشر شيطاناً[(١)].

ولم ينبه الله تعالى على ذلك في آية الشهوات؛ لأنه إنما ذكر منها ما يباح دون ما يحرم، وإذا كان الإنسان يفتتن بالزينة المباحة فيضل، ففتنته بالزينة المحرمة أشد ضلالة.

وقد روى الترمذي وحسنه، وابن ماجه، والحاكم وصححه، عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِيْ عَمَلُ قَوْمِ لُوْطٍ»[(٢)].

والذي لا يَشُك فيه عارف بأحوال الناس في هذه الأزمنة أنه ليس للهوى طريق على عقولهم أقوى فتنة ولا أبلغ أخذاً لقلوبهم من مخالطة

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الترمذي (١٤٥٧) وحسنه، وابن ماجه (٢٥٦٣)، والحاكم في «المستدرك» (٨٠٥٧).

المرد الحسان، وما زينوهم به أبلغ من زينة النسوان، واسْتَرْوح فُسَّاقهم إليهم لسهولة معاشرتهم في الأسفار خصوصاً من كان منهم مَلَك أيمانهم بسبب أنهم استخفوا باللواط في ملك اليمين، ويزعموه شبهة، وربما احتج شياطينهم إلى تأويل الآية.

ولا شك أن حمل الآية على ذلك، أو إدخاله في عمومها كفرٌ يخرج به من يركن إليه عن رِبْقة الإسلام.

وقد روى البزار عن حذيفة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «وَيْلٌ لِلمَالِكِ مِنَ الْمَمْلُوْكِ، وَوَيْلٌ لِلْمَمْلُوْكِ مِنَ الْمَالِكِ»(١).

وهذا أعظم ما يكون بينهما من الويل.

وروى أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «شَرُّ الْمَالِ فِيْ آخِرِ الزَّمَانِ الْمَمَالِيْكُ»(٢).

وسيأتي مزيد بيان في التشبه بقوم لوط.

وكذلك من فتنة النساء أن يطلب بعضهن من بعضهن ما يطلب الرجل من المرأة، أو المرأة من الرجل، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالسُّحق.

---

(١) رواه البزار في «المسند» (٢٨٨٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٤٨): فيه من لم أعرفهم.

ورواه أبو يعلى في «المسند» (٤٠٠٩) عن أنس ﷺ.

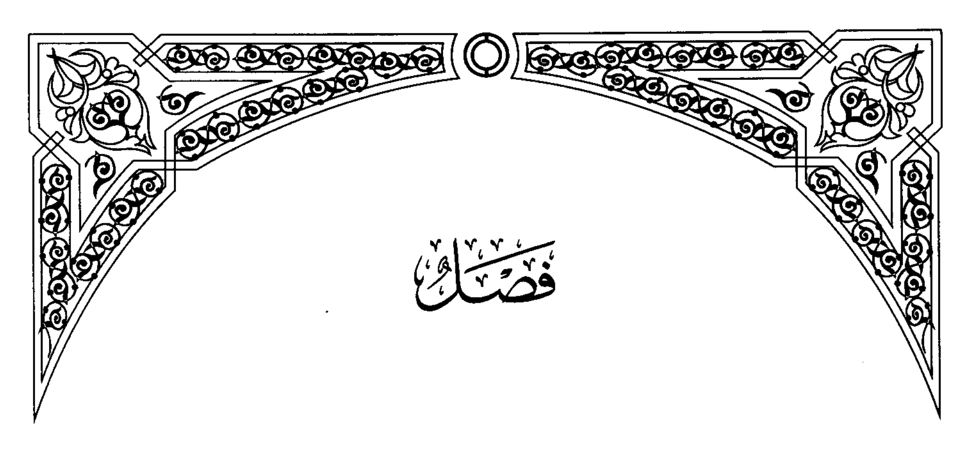
(٢) تقدم تخريجه.

وفي الحديث «سُحْقُ النِّسَاءِ زِنَا بَيْنَهُنَّ»[1].

وسبب ذلك أن الرجال اكتفوا بالرجال، فاكتفى النساء بالنساء، كما أخبر ﷺ به أنه يكون في آخر الزمان، وإذا استخفت المرأة بفعل ذلك مع مملوكتها كان كاستخفاف الرجل باللواط مع مملوكه، وهذا من مداخل الشيطان إلى النسوان كما أن ذلك من مداخله إلى الرجال، ويخشى على الرجل المعرض عن حليلته أن يبوء بإثمه وإثمها.

* * *

(١) رواه أبو يعلى في «المسند» (٧٤٩١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٦٣). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٥٦): رجاله ثقات.



ومن أصول الشهوات البنون؛ اقتصر عليهم لأن العرب ما كانوا يعدون البنات زينة، بل كان جهلاؤهم يعدونهنَّ عاراً وينبذونهن.

أو البنون شاملون للبنات؛ فإنه زينة أيضاً وبالخصوص لأمهاتهن.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الكهف: ٤٦].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[الأنفال: ٢٨].

وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة لأن الله تعالى يقول: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[الأنفال: ٢٨]؛ فمن استعاذ منكم فليستعذ من مضلات الفتن. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم[1].

وكذلك العشيرة من زينة الدنيا، وعشيرة الرجل بنو أبيه الأقربون،

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ٢٢٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٨٥).

أو قبيلته كما في «القاموس»[1].

وفي كتاب الله تعالى ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة: ٢٢].

ولعل اشتقاقه من العِشرة ـ بالكسر ـ وهي المخالطة، فإذا كان الولد أو الوالد أو العشيرة يدعون الرجل إلى معصيَة الله تعالى، أو يشغلونه عن طاعته، كانوا فتنة عليه، بل مودته لهم وهم على غير طاعة الله فتنة له.

وقد روى الديلمي عن معاذ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عِنْدِي يَداً وَلا نِعْمَةً فَيَوَدَّهُ قَلْبِي؛ فَإِنِّيْ وَجَدْتُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾[المجادلة: ٢٢] الآية[2].

وفي حديث آخر: «لِفاسِقٍ».

وإنما دعا بذلك لأن النعمة والإحسان تدعوان إلى محبة المحسن ومودة المنعم، وهما يدعوان إلى موافقة المحبوب والمودود، وفي ذلك قد يكون الهلاك فينقلب الحبيب عدواً.

ولقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٥٦٦) (مادة: عشر).

(٢) تقدم تخريجه.

﴿وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[التغابن: ١٤].

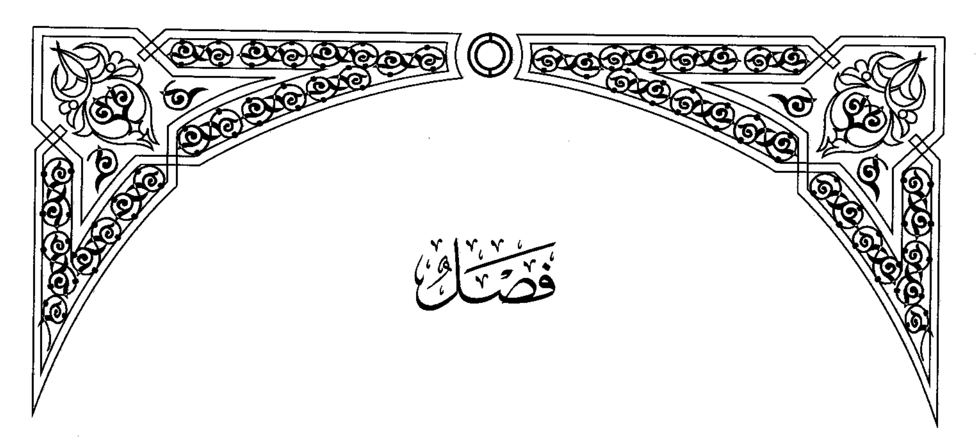
ومن عداوتهم شغله عن طاعة الله، وتكليفه ما لا يحصل إلا بمعصية كما روى أبو نعيم، والبيهقي، وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يَسْلَمُ لِذِي دِيْنٍ دِيْنُهُ إِلاَّ مَنْ فَرَّ مِنْ شَاهِقٍ إِلَى شَاهِقٍ، أَوْ مِنْ بَحْرٍ إِلَى بَحْرٍ كَالثَّعْلَبِ بِأَشْبَالِهِ»[1].

وذلك في آخرِ الزَّمانِ إذا لم تنل المعيشة إلاَّ بمعصيةِ اللهِ، فإذا كان كذلك حلتِ العزلة، يكون في ذلك الزَّمان هلاكُ الرَّجل على يدي أَبويهِ إن كان له أَبوان، فإن لم يكن له أبوان فعلى يدي زوجتهِ وولدهِ، فإن لم يكن له ولد فعلى يدي الأقاربِ والجيرانِ، يعيِّرونهُ بضيق المعيشة، ويكلِّفونه ما لا يطيق حتَّى يُورِدِ نفسه الموارد الَّتي يهلك فيها.

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١١٨)، وكذا الخطابي في «العزلة» (ص: ١٠) عن عبدالله بن مسعود ﷺ، وعندهما: «من جحر إلى جحر» بدل «من بحر إلى بحر».
ورواه البيهقي في «الزهد الكبير» (ص: ١٨٣) عن أبي هريرة ﷺ. وضعف العراقي إسناد الحديثين في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣٧١).



فَصْلٌ

ومن أصول الشهوات المال، وأُسُّه الأعظم وأصله الذي يبنى عليه الذهب والفضة، ولذلك قدمهما الله تعالى في الآية على غيرهما من الأموال.

روى البخاري، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيْصَةِ؛ إِنْ أُعْطِي رَضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانتُكَسَ، وَإِذَا شِيْكَ فَلا انتُقَشْ»(١).

وروى الترمذي وصححه، والنسائي عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِيْ غَنَمٍ بِأَكْثَرَ فَسَاداً لَهَا مِنْ حُبِّ الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي دِيْنِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ»(٢).

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٦) وصححه، وكذا ابن حبان في «صحيحه» (٣٢٢٨).

رسول الله ﷺ: «هَلَكَ الْمُكْثِرُوْنَ إِلاَّ مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا»[1].

وروى الشيخان عن أبي ذر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «هُمُ الأَخْسَرُوْنَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ».

قال أبو ذر: من هم يا رسول الله؟

قال: «الأَكْثَرُوْنَ مَالاً إِلاَّ مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا»[2].

وروى مسلم، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن عبدالله بن الشِّخِّير رضي الله تعالى عنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[التكاثر: ١] - وفي رواية: وقد أنزلت عليه ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ - وهو يقول: «يَقُوْلُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ»[3].

وأما **الخيل المسوَّمة** فليس عند ذوي الدنيا بعد النقدين أعز منهما خصوصاً عتاقها.

وفي الصحيح: «الْخَيْلُ لِثَلاثَةٍ: هِيَ لِرَجُلٍ وِزْرٌ، وَلِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ؛ فَأَمَّا الَّتِيْ هِيَ لَهُ وِزْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِيَاءً وَفَخْراً وَنواءً لأَهْلِ الإِسْلامِ فَهِيَ لَهُ وِزْرٌ»[4]. وذكر الحديث.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٢٦٢)، ومسلم (٩٩٠).

(٣) رواه مسلم (٢٩٥٨)، والترمذي (٣٣٥٤)، والنسائي (٣٦١٣).

(٤) رواه البخاري (٢٧٠٥)، ومسلم (٩٨٧).

وفي كتاب الله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[النحل: ٨].

ولا شك أن الحمير عند أهل الحراثة والأعمال مال شاغل، بل هي عند اللائقة به أعز من الخيل عند علية الناس وملوكها.

والبغال بين الجنسين، وتتخذ للقوة، والجَمال، وحمل الأثقال، وسرعة الوصول إلى المقاصد.

وأما الأنعام فهي ثلاثة: الإبل، والبقر، والغنم، ولكل جنس منها نوعان، وكلها أموال محبوبة إلى أهلها.

روى ابن ماجه عن عروة البارقي رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «الإِبِلُ عِزٌّ لأَهْلِهَا، وَالْغَنَمُ بَرَكَةٌ، وَالْخَيْرُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِي الْخَيْلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١).

والخير قد يشمل المال، وقد سمَّى الله تعالى المال خيراً في كتابه العزيز.

وروى أبو عبيد، وابن المنذر عن يحيى بن كثير رضي الله تعالى عنه ـ مرسلاً ـ: أن رسول الله ﷺ مر بإبل لحيٍّ يقال لهم: بنو الملوح، أو بنو المصطلق، قد عنست في أبوالها من السِّمَنِ، فتقنَّع بثوبه ومر، ولم ينظر إليها لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾[طه: ١٣١](٢).

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٣٠٥)، وكذا أبو يعلى في «المسند» (٦٨٢٨).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٩٧).

ووراء الخيل والأنعام أموال أخر، إلا أنه وقع ذكرها في الآية دون غيرها لأن هذه أصولها وغيرها كالتبع لها؛ كالفيلة فإنها مركوبة، وكالصيد والوز والدجاج والطير من المأكولات.

وهذه الأمور أموال بالنسبة إلى من يقتنيها أو من لا يقدر إلا على شيء منها، بل قد يقتنيها ويستكثر منها من له غنى عنها، ويكون ذلك أبلغ في الفتنة؛ لأن تحصيل هذه المزينات من البهائم بعد الاكتفاء من المواشي العظيمة دليل على استقصاء متخذها في طلب الدنيا والرغبة فيها، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «عِنْدَ اتِّخَاذِ الأَغْنِيَاءِ الدَّجَاجَ يَأْذَنُ اللهُ بِهَلاكِ القُرَى». رواه ابن ماجه، وغيره[1].

وأمَّا الحرث فإن المراد محله وهو الأرض، وما يطلب به بالاستنبات من ثمرة أو حب.

وقد روى الترمذي، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تَتَّخِذُوْا الضَّيْعَةَ فَتَرْغَبُوْا فِيْ الدُّنْيَا»[2].

قال في «القاموس»: والضيعة: العقار والأرض المغلة[3].

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٣٠٧) عن أبي هريرة ﷺ. وفيه علي بن عروة منكر الحديث. انظر: «الكامل» لابن عدي (٥/ ٢٠٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٨) وحسنه، والحاكم في «المستدرك» (٧٩١٠).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٩٦٠) (مادة: ضيع).

وروى أبو داود، وغيره بإسناد صحيح، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»(١).

وإنما لَّوح ﷺ إلى مفارقة الدين بذلك لأن من رغَّب عن الجهاد ـ ولعله الجهاد الشامل لجهاد النفس في طاعة الله تعالى، وعن معاصيه ـ ورغب فيما ذكر من الاستقصاء في تحصيل الدنيا بحيلة العينة، ومزاحمة أهل الحراثة في حراثتهم، والاستكثار بالزروع، فقد غفل عن الله تعالى، فأوقعته الغفلة في الذلة.

ولقد شاهدنا هذا في ملوك الناس ووجوههم حين تركوا ما هو المطلوب منهم من الجهاد وطلب العلم والدين كيف ذلُّوا؛ وأيُّ ذلٍّ أعظم من ذل الجهل والاشتغال بغير الله تعالى.

فإن قلت: فقد ذكر الله تعالى في الآية من زينة الدنيا منكوحاتها، ومركوباتها، ومطعوماتها، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[آل عمران: ١٤]، فما له لم يذكر ملبوساتها ومفروشاتها مع أنها من متاع الحياة الدنيا؟

قلت: بل هي مذكورة في الآية لأنها إما من جلود الأنعام

---

(١) رواه أبو داود (٣٤٦٢) وفي إسناده مقال. وصحح ابن القطان إسناده في «بيان الوهم والإيهام» (٥/ ٢٩٤).

وشعورها، وقد اشتملت عليها الأنعام.

وإمَّا من النباتات وهي داخلة في الحرث؛ لأن القطن والكتان من النبات.

وأما الحرير فإنه ـ وإن كان من دود القَز ـ فإنه إنما يتعيش من ورق التوت، وهو من النبات.

وقد نص على ذم المتعلق باللبس والفراش النبيُّ ﷺ في قوله في الحديث السابق: «تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيْصَةِ».

وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن النبي ﷺ قام يصلي في خميصة ذات أعلام، فنظر إلى علمها، فلما قضى صلاته قال: «اذْهَبُوْا بِهَذِهِ الْخَمِيْصَةِ إِلَى أَبِـي جَهْم بنِ حُذَيْفَةَ، وَائْتُوْنِي بِأَنْبِـجَانِيَتِهِ؛ فَإِنهَّا أَلْهَتْنِيْ آنِفاً عَنْ صَلاتِي».

وفي لفظ: «شَغَلَتْنِيْ أَعْلامُ هَذِهِ».

وفي رواية: «كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى عَلَمِهَا وَأَنَا فِيْ الصَّلاةِ فَأَخَافُ أَنْ تَفْتِنِّي»(١).

وروى البخاري [عن عقبة بن عامر] رضي الله تعالى عنه قال: أهدي إلى النبي ﷺ فَرُّوج حرير، فلبسه فصلى فيه، ثم انصرف فنزعه نزعاً شديداً كالكاره له، وقال: «لا يَنْبَغِي هَذَا لِلْمُتَّقِيْنَ»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٥٤٧٩)، ومسلم (٥٥٦).

(٢) رواه البخاري (٥٤٦٥)، وكذا مسلم (٢٠٧٥).

والفروج ـ بالفتح ـ: كساء فيه شق من خلفه، وكان هذا قبل تحريم الحرير؛ فإنما نزعه مع أنه كان مباحاً لأنه من الزينة المُلهية عن الصلاة كما ترك الخميصة، وآثر بها أبا جهم، واستبدل بها أنبجانيته، وقد روي بفتح الهمزة وكسرها؛ يقال: ثوب أنبجاني، ومنبجاني ـ بفتح الباء الموحدة فيهما ـ: نسبة إلى منبج كمجلس: موضع بالشام على غير قياس، وهو كساء أسود غليظ.

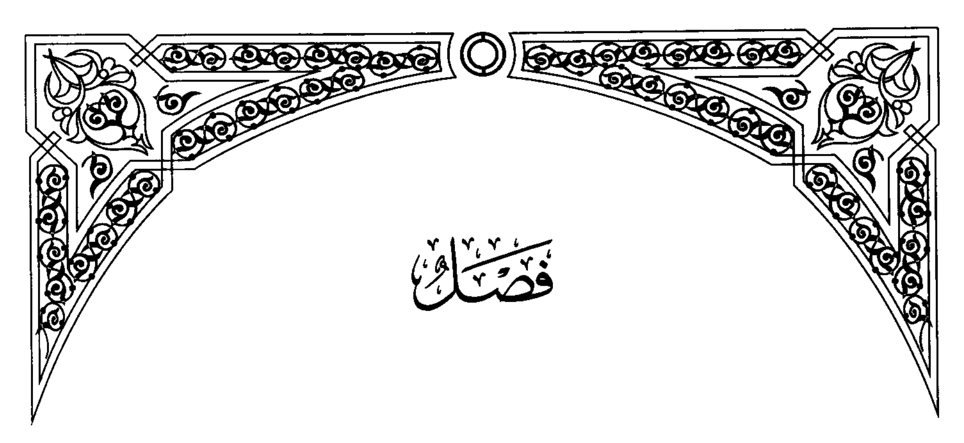
وسيرة النبي ﷺ والسلف في الطعام واللباس وغيرهما معروفةٌ في كتب الحديث.

وحاصلها لا يرجع إلى تحريم شيء من المباحات، بل إلى استحباب الاقتصاد والاقتصار على ما يجزىء العبد في قطع المسافة الدنيوية، والمسير إلى الله تعالى.

ولا سبيل في تحريم شيء من المباحات والمنع منها لئلا تتعطل حكمة خلقها للعباد المشار إليه بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة: ٢٩].

وإنما المقصود استعمالها على قوانين الشرع، والتأدب فيها بالآداب المطلوبة لتكون من المُوصلات إلى الله تعالى لا من القاطعات عنه، وإنما تكون قاطعة عن الله تعالى إذا أخذت بمقتضى الشهوة والهوى، لا بمقتضى الشرع والتقى؛ فافهم!

* * *



فَصْلٌ

ولما كان للشيطان مداخل كثيرة على الإنسان عَجِبَتِ الملائكةُ الكرام ممن ينجو من الشيطان كما روى عبدالله ابن الإمام أحمد عن عبد العزيز بن رفيع رحمه الله تعالى قال: إذا عرج بروح المؤمن إلى السماء قالت الملائكة عليهم السلام: سبحان الذي نجى هذا العبد من الشيطان، يا ويحه كيف نجا[1]!

وقد علمت أنه لا مدخل للشيطان على الإنسان إلا من قبل نفسه.

وفي حديث أنس رضي الله تعالى عنه: «الْمُؤْمِنُ كَيِّسٌ فَطِنٌ حَذِرٌ». رواه القضاعي[2].

ومن كياسته أن يعلم أن النفس تميل إلى الشهوات، وأنَّ النار

(١) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ١٦٧).

(٢) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٢٨)، وكذا الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤/ ٢٦). وفيه أبو داود النخعي الكذاب. انظر: «ميزان الاعتدال» للذهبي (٣/ ٣٠٥).

محفوفة بالشهوات، فيحاسب نفسه على كل شهوة تضره في الآخرة، فيدعها ويقلع عنها كما قال ﷺ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ـ أَيْ: حَاسَبَهَا ـ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ»[1].

وكل شهوة تؤذي صاحبها بعد الموت فهي مدخل للشيطان إلى الإنسان؛ إذ مقصوده من كل أحد أن يكدِّر عليه آخرته، ويبعده من رحمه الله تعالى عند الموت، كما أبلس هو منه، ولسان حاله يقول: كما عثرتني عثر جميع خلقك، ولا يليق هذا إلا به وبمن كان على طريقه.

وأما المؤمن فإنه يحب للناس ما يحب لنفسه، فمن غلب شهوته، ولم تبالغ نفسه فيها فقد سدَّ عنه مداخل الشيطان، فقد صار عنه الشيطان مطروداً.

وروى أبو نعيم عن وُهَيب رحمه الله تعالى أنه قال: من جعل شهوته تحت قدمه فزع الشيطان من ظله، ومن غلب حلمُه هواه فذلك العالم الغلاب[2].

فعليك بحسم مواد نفسك عنك جملة، واتهامها في كل الأحوال اقتداء بالكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام في قوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٦٠).

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾[يوسف: ٥٣]

ومن حسن نظر يوسف عليه السلام أنه اتهم نفسه، وأعرض عن ذكر الشيطان، وهو المسُول من حيث إن المقام مقام هضم النفس وعدم تزكيتها، وقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾[يوسف: ١٠٠]، فنزَّه إخوته عن نسبَة ما فعلوه به إليهم على وجه الحقيقة، بل إلى نزغ الشيطان مبالغة في التلطف بأبيه والعفو عنهم، وإقامة العذر لهم مع ما في ذلك من الإشارة إلى قول أبيه عليهما السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[يوسف: ٥]؛ كأنه موافق لأبيه في إقامة عذر إخوته في الجملة، وفي ذلك من كرم النفس ما لا يخفى.

وأنت أحق باتهام نفسك والنظر إلى عذر أخيك، فمهما رأيت لها هوى في شيء فإن وافق العلم فاتبعه من ناحية العبودية والامتثال لأمر الله تعالى وإظهار حكمته، لا من حيث إنه هوى وشهوة، وإن خالف العلم فاحذره؛ فإنه محل فرصة الشيطان واغتياله.

ثم ليكن من المقرر عندك أن الشيطان عدو محقق العداوة، شديد الحرص على اغتيالك، فينظر منك مثل هذه الفرصة، فيكون ذلك حامياً لك من كيده، كافياً لك من شره.

وليكن حذرك من الشيطان في حال طاعتك لله أكثر من حذرك منه في حال معصيتك، فقد قال بعض الحكماء: إن الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة، فإن

أبى أمره بالتحرج والشدة حتى يحرِّم ما ليس بحرام، فإن أبى شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرج عن العلم، فإن أبى خفَّفَ عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابراً عفيفاً فيميل قلبه إليهم، ويعجب بنفسه، وبه يهلكه، وعنده يشتد لَجاجه؛ فإنه آخر درجه، ويعلم أنه لو جاوزه أفلت منه إلى الجنة. نقله حجة الإسلام في «الإحياء»[1].

وروى الدينوري في «المجالسة» عن بكر بن خنيس رحمه الله تعالى قال: بلغني أنَّ إبليس اللعين لعنه الله قال: ثلاث إذا وردت على واحدة منهن من ابن آدم فقد قدرت على حاجتي: من نسي ذنوبه، واستكثر عمله، وأعجب برأيه[2].

فالشيطان يعجبك إلى نفسك، ويعجب نفسك إليك، ويعجب طاعتك لله إليك، فيكون العجب منك ـ وإن كنت على طاعة ـ أبلغ من المعصية لو كنت على معصية لأنه يحبط الطاعة.

وفي الحديث «كَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ يُعْجَبَ بِرَأْيِهِ[3]». رواه البيهقي عن مسروق مرسلاً، وأبو نعيم عنه عن ابن عمر متصلاً، ولفظه: «إِذَا أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ»[4].

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/ ٤٥).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٤٥٤).

(٣) في «شعب الإيمان»: «بعمله» بدل «برأيه».

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٤٩) عن مسروق مرسلاً، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١٧٤) لكن عن ابن عمرو رضي الله عنهما متصلاً. وقال: غريب.

وقال النبي ﷺ: «لَوْ لَمْ تَكُوْنُوْا تُذْنِبُوْنَ لَخَشِيْتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ الْعُجْبَ الْعُجْبَ». رواه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق»، والحاكم في «تاريخه» عن أنس رضي الله تعالى عنه[1].

ولو فتشت لوجدت أن إعجاب الشيطان برأيه ونفسه هو الذي كان سبباً في طرده وعكسه.

وقد سبق أنه كان من الأخيار، فلما زكَّى نفسه وأعجب بها صار من الأشرار، فهو يود أن جميع بني آدم ضلوا كما ضل، وزلوا كما زل.

فاعلم أن الشيطان ـ وإن اطمأنت نفسك ـ لا والله لا يترك إرادتك بكل سوء حتى تفارق نفسك جسدك، بل هو عند موتك أشد إرادة لإضلالك منه قبل ذلك خشية أن تنفلت منه.

وفي الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ أَقْرَبُ مَا يَكُوْنُ مِنْ ابْنَ آدَمَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمَصْرَعِ» كما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الموت»، وأبو نعيم[2].

فلا تغتر بطمأنينة نفسك وإن تحققت الطمأنينة منها، ولو ساغ ذلك

---

(١) رواه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (٢/ ١٠٤)، وكذا البزار في «المسند» (٦٩٣٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٦٩): رواه البزار وإسناده جيد.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١٨٦) عن واثلة بن الأسقع ﷺ، وعزاه السيوطي في «شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور» (ص: ٤١) إلى ابن أبي الدنيا عن أبي حسين البرجمي رفعه.

لأحد لم يقل يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾[يوسف: ٥٣].

بل ينبغي لكل أحد أن لا يأمن من مكر الله تعالى، ولا يترك الحذر من الشيطان؛ فإنه مترصد له في كل حال.

وقد روى ابن أبي الدنيا في كتاب «الحذر» عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: قيل لداود عليه السلام: يا داود! احذر لا يأخذك الله على ذنب، فتلقاه ولا حجة لك.

وقال محمود الوراق رحمه الله تعالى: [من المتقارب]

أَخافُ عَلَى الْمُحْسِنِ الْمُتَّقِي ... وَأَرْجُو لَدَى الْهَفَواتِ الْمُسِي
فَذَلِكَ خَوْفِي عَلَى مُحْسِنٍ ... فَكَيْفَ عَلَى الظَّالِمِ الْمُعْتَدِي
عَلَى أَنَّ ذا الزَّيْغِ قَدْ يَسْتَقِيْمُ ... وَيَسْتَأْنِفُ الزَّيْغَ قَلْبُ التَّقِي[1]

ولذلك أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[آل عمران: ٧ - ٨].

وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوْبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِيْنِكَ».

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: يا رسول الله! ما أكثر ما تدعو

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ١٢٣).

بهذا الدعاء؟

فقال: «لَيْسَ مِنْ قَلْبٍ إِلاَّ وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؛ إِذَا شَاءَ أَنْ يُقِيْمَهُ أَقَامَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُزِيْغَهُ أَزَاغَهُ، أَما تَسْمَعِيْنَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾[آل عمران: ٨] الآية؟ رواه ابن أبي شيبة، والإمام أحمد عن عائشة رضي الله تعالى عنها[١].

وفي الباب عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها. روياه هما والترمذي[٢].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه. رواه هؤلاء، والبخاري في «الأدب المفرد»، وحسنه الترمذي[٣].

وعن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه. رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الحاكم[٤].

فإن أول ما يبدو من زيغ القلب ممن ظاهره الخير أن يرضى عن

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩١٩٩)، والإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٢٥٠) عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩١٩٧)، والإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٣٠١)، والترمذي (٣٥٢٢) عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩١٩٦)، والإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١١٢)، والترمذي (٢١٤٠) وحسنه، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٨٣)، وكذا ابن ماجه (٣٨٣٤) عن أنس ﷺ.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٨٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٧٣٨)، وابن ماجه (١٩٩)، والحاكم في «المستدرك» (٩٢٦)، عن النواس بن سمعان ﷺ.

نفسه، ويزكيها، ويرى الناس دونها ـ وإن كان يعلم من نفسه الطاعة والسداد ـ فإنَّ للأعمال الصالحة آفات خفية، والخاتمة غيب، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[النجم: ٣٢].

وقد روى ابن أبي شيبة، والبزار، وأبو يعلى، والبيهقي في «دلائل النبوة» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: ذكروا رجلاً عند النبي ﷺ، فذكروا قوته في الجهاد، واجتهاده في العبادة، فإذا هم بالرجل مقبلاً، فقال النبي ﷺ: «إِنِّيْ لأَرَى فِيْ وَجْهِهِ سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ»، فلما دنا سلم فقال له رسول الله ﷺ: «هَلْ حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِيْ الْقَوْمِ أَحَدٌ خَيْرٌ مِنْكَ»؟

قال: نعم. الحديث(١).

وسفعة ـ بفتح المهملة، وإسكان الفاء ـ: السِّمة، والعلامة؛ من سفع الشيء: إذا علمه ووسمه، أو مِنْ سَفَعت وجهه السموم؛ أي: لفحته لَفحاً يسيراً، فأثَّرت فيه.

* * *

(١) تقدم تخريجه.



فصل

أول مودة كانت المودة بين آدم والملائكة عليهم السلام، وأول عداوة كانت عداوة إبليس لعنه الله لآدم عليه السلام، ثم كان التوارث بعد ذلك، فورثت أولاد آدم عنه مودة الملائكة وعداوة الشيطان، وقد قال النبي ﷺ: «الْوُدُّ وَالْعَدَاوَةُ يُتَوَارَثَانِ». رواه صاحب «الغيلانيات» عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: أنه قال لرجل من العرب كان يقال له عفير: يا عفير! كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في الود؟

قال رضي الله تعالى عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الْوُدُّ يُتَوَارَثُ، وَالْعَدَاوَةُ تُتَوَارَثُ»(١).

وهذه الوراثة لا تكون في كل بني آدم، بل في أخيارهم كما روى الطبراني في «الكبير» عن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه: أنه سمع

---

(١) ورواه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١٢١)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٧/ ٣٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ١٨٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧٣٤٣). قال ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٥١٤): فيه عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي، وهو ضعيف.

النبي ﷺ: «الْوُدُّ الَّذِي يُتَوَارَثُ فِيْ أَهْلِ الإِسْلامِ»(١).

فأما الأشرار فإنهم على الضد من أخلاق أبيهم آدم، يعرضون عن مودة الملائكة عليهم السلام، ويوالون الشياطين، وإنما يكون ذلك بخذلان الله تعالى، كما يكون تخلقهم بأخلاق آدم عليه السلام بتوفيق الله تعالى لهم.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[مريم: ٨٣]؛ أي: تهُزُّهم وتغريهم على المعاصي بالتسويلات، وتحبيب الشهوات إليهم، ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: بالهلاك، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾[مريم: ٨٤].

فهؤلاء لمَّا وَالوا عدو أبيهم، وأصروا حتى كفروا، أُخرجوا من موالاة أبيهم، ودخلوا في ولاية عدوه، فكانوا مع من والوه ولحقوا به، وباينوا من عادوه وأبلسوا عنه.

وقد قيل: [من الطويل]

صَدِيْقُ صَدِيْقِي داخِلٌ فِي صَداقَتِي ... صَدِيْقُ عَدُوِّي لَيْسَ لِي بِصَدِيْق

فحُشروا مع من والوه من الشياطين كمَا قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[الصافات: ٢٢]؛ أي: قرناءهم، وأمثالهم من الشياطين.

ثم لما تمت العداوة بين آدم عليه السلام وبين الشيطان لعنه الله

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٤١٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٨٠): فيه محمد بن عمر الواقدي، وهو متروك.

تعالى نشأت الحروب بينهما، ثم بينَ مَن بعد آدم وبين الشيطان، فكانت هذه الحروب بأمر من الله تعالى.

ألا ترى كيف يقول تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[طه: ١١٧].

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[طه: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[فاطر: ٦].

ثم كانت الدولة دائرة بين آدم وبين إبليس، وكانت الأيام بينهما مداولة، ثم كانت بين الناس وبين الشياطين مداولة؛ تارة تكون الدولة لأهل الحق، وتارة لأهل الباطل لحكمة ما ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[النمل: ٨٨].

قال أبو جعفر رضي الله تعالى عنه وعن آبائه: إن للحق دولة، وإن للباطل دولة، ومن دولة الحق أن إبليس أمر بالسجود لآدم، فأديل آدم على إبليس، وابتلي آدم بالشجرة فأكل منها، فأديل إبليس على آدم. رواه ابن المنذر(١).

قلت: ثم كانت النصرة آخراً لآدم حتى تلقى من ربه كلمات فتاب عليه، وبقي إبليس في اللعنة إلى يوم الوقت المعلوم، ثم إلى الأبد.

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٣٣٢).

وفي كتاب الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠].

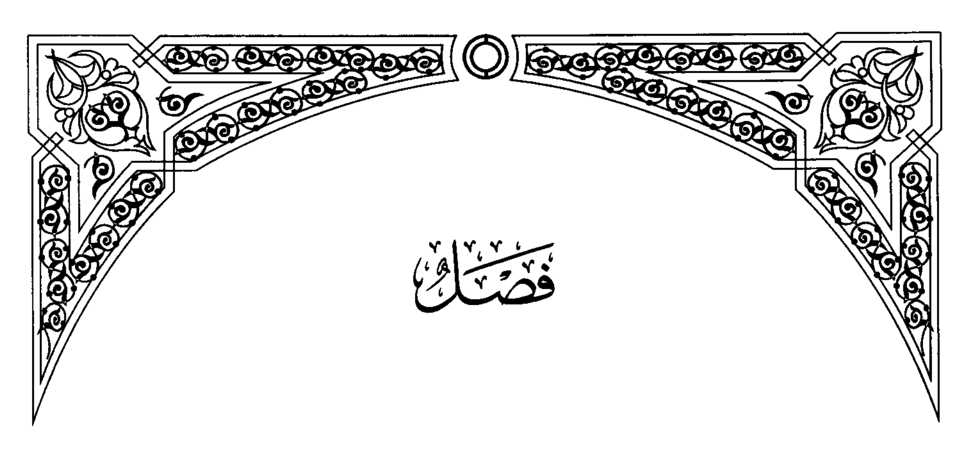
قال السدي: يوماً لكم، ويوماً عليكم.

وقال قتادة: والله لولا الدول ما أوذي المؤمنون، ولكن قد يدال للكافر من المؤمن، ويبلى المؤمن بالكافر ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه. رواهما ابن جرير(١).

وقد علمت من ذلك أن دولة البر على الفاجر نصرة، ودولة الفاجر على المؤمن محنة وابتلاء، وتمحيص لذنوبه، ورفعة لدرجاته، وتأديب لنفسه، وتهذيب لخلقه، فيرجع إلى البراءة من الحول والقوة، والاعتراف بالعجز والضعف، وبذلك يكمل المؤمن، وتتم النعمة عليه، وينال الفوز والقربة.

* * *

(١) رواهما الطبري في «التفسير» (٤/ ١٠٤ ـ ١٠٥).



فصل

وعداوة النفس والشيطان للإنسان ثابتة بالكتاب والسنة.

فأما النصوص الدالة على عداوة الشيطان فهي من الشهرة والكثرة بحيث لا تكاد تخفى على مسلم، ومن أنكر عداوة الشيطان لله تعالى، ولبني آدم فهو كافر، ومن غفل عن عداوته يوشك أن يؤخذ على غِرَّة منه، فيكون يوم القيامة ممن يخاطبه الله تعالى بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾[يس: ٦٠ ـ ٦٢].

وأما النصوص الدالة على عداوة النفس فكثيرة، لكن لا يتنبه لها إلا العارفون لأن عداوة النفس مما يشكل فهمه، فإنَّ حب الإنسان لنفسه سليقة وخليقة، فكيف يتصور أن تكون نفسه عدوَّة له، ومن تأمل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[النساء: ١٢٣] عَلِمَ أن من أساء إلى أحد بحيث يجازى بإساءته ويعاقب عليها، فإنما يعود شر إساءته على نفسه، فما أساء إلا إلى نفسه.

وكان علي بن أبي طالب يقول: ما أحسن أحد إلاَّ إلى نفسه،

وما أساء إلا على نفسه، ثم يقرأ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[الإسراء: ٧]؛ أي: فعليها.

وغاية ما يخشى من العدو أن يصل شره وإساءته إلى من يعاديه، وبذلك تحق العداوة وتستحكم، فالنفس قد بلغت غاية العداوة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أَعْدَى أَعْدَائِكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيكَ». رواه البيهقي في «الزهد» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بإسناد ضعيف[1].

وروى فيه عن جابر رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال لقوم قدموا من الجهاد: «قَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ».

قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟

فقال: «جِهَادُ النَّفْسِ»[2].

وروى الترمذي، وابن حبان وصححاه، عن فَضالة بن عبيد رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ»[3].

---

(١) رواه البيهقي في «الزهد» (ص: ١٥٧). قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٧٠٩): فيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين.

(٢) رواه البيهقي في «الزهد» (ص: ١٦٥) وقال: هذا إسناد فيه ضعف. وكذا الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٥٢٣).

(٣) رواه الترمذي (١٦٢١) وصححه، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٠٦).

زاد ابن مردويه في روايته: «فِيْ طَاعَةِ اللهِ»[1].

وقد أمر رسول الله ﷺ بالاستعاذة من النفس كما أمر بالاستعاذة من الشيطان، كما روى أبو داود، والترمذي وصححه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنَّ أبا بكر رضي الله تعالى عنه قال: يا رسول الله! مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت.

قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيْكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرِكِهِ».

قالَ: «قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجعَكَ»[2].

وفي تقديم الاستعاذة من النفس على الاستعاذة من الشيطان إشعار بشدة عداوتها، واهتمام بالاستعاذة منها.

* * *

(١) ورواه بهذا اللفظ الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٢٢).

(٢) رواه أبو داود (٢٥٨٢)، والترمذي (٣٣٩٢) وصححه.



خاتمة

تشتمل على فوائد

روى المخلص عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَسُبُّوْا الشَّيْطَانَ، وَتَعَوَّذُوْا بِاللهِ مِنْ شَرِّهِ»(١).

وهذا النهي محمول على خلاف الأولى، وله وجهان:

الأول: أن الإنسان ينبغي له أن لا يعود لسانه إلا خيراً كما قيل:

[من البسيط]

عَوِّدْ لِسانَكَ قَوْلَ الْخَيْرِ وَارْضَ بِهِ … إِنَّ اللِّسانَ لِما عَوَّدْتَ مُعْتادُ(٢)

فلا يتعود الشر ولو بسبب الشيطان المسبوب بنص القرآن كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾[النساء: ٣٨].

والثاني: أن الشيطان لا ينقمع بالسب ولا باللعن، بل ربما يكون ذلك سبباً لتعاظمه كما في حديث والد أبي المليح(٣).

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «الذكر» عن مجاهد رحمه الله

---

(١) ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٧٢٩٠).

(٢) انظر: «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» لابن حبان (ص: ٥١).

(٣) تقدم تخريجه.

تعالى قال: إذا لعنت الشيطان قال الشيطان: لعنت ملعَّناً.

وما اجتمع قوم قط فذكروه إلا حضرهم، وما شيء أقطع لظهره من: لا إله إلا الله[1].

وروى أبو نعيم عن حسان بن عطية رحمه الله تعالى قال: إن العبد إذا لعن الشيطان ضحك فقال: إنك لعنت ملعَّناً.

وإنما يخذل ظهره أن تتعوَّذ منه[2].

وروى ابن السمعاني في «أماليه» عن أبي الحسن الحبابري قال: كنت أصلي بالناس في بعض مساجد البصرة، وكنت أعزب أنام في المسجد، فصليت بالناس ليلة العشاء الآخرة، وأغلقت الباب، ووقفت أتنفل في المحراب شطر الليل، ثم جلست في المحراب أذكر الله تعالى وأستغفره لما سلف من الخطأ والذنوب، وألعن إبليس، إذ انشق المحراب فظهر علي شخص كريه المنظر، فقال لي: يا أبا الحسن! كم تلعنني منذ الليلة؟ ونحن ثلاثة تلعن واحداً وتترك اثنين.

فقلت: أما أنت يا لعين فقد عرفتك، فمن الاثنان؟

قال: نفسك، وهواك، ثم أنشأ يقول: [من الكامل]

أَهْمَلْتَ نَفْسَكَ فِي هَوَاكَ وَلُمْتَنِي ... لَوْ كُنْتَ تُنْصِفُ لُمْتَ نَفْسَكَ دُونِي

ومن مستظرفات الشعبي رحمه الله تعالى: أنه سُئِلَ عن أكل لحم الشيطان، فقال: نحن نرضى منه بالكفاف. نقله الماوردي في «أدب

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ٢٠٥).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٧٥).

الدين والدنيا»[1].

وقال وهب رحمه الله تعالى: اتق الله، ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر[2].

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «قَالَ إِبْلِيسُ: يَا رَبِّ! وَعِزَّتِكَ لا أَزَالُ أُغْوِيْ بَنِي آدَمَ مَا كَانَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِيْ أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ اللهُ: وَعِزَّتِي لا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُوْنِي»[3].

وروى البزار، والبيهقي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله! إني أذنبت.

فقال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَذْنَبْتَ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ؛ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللهَ».

قال: ثم أعود فأذنب.

قال: «إِذَا أَذْنَبْتَ فَاسْتَغْفِرْ رَبَّكَ».

ثم عاد، فقال في الرابعة: «اسْتَغْفِرْ رَبَّكَ حَتَّى يَكُوْنَ الشَّيْطَانُ هُوَ الْمَحْسُوْرَ»[4].

وروى عبد الرزاق، وغيره عن ثابت رحمه الله تعالى قال: بلغني أن إبليس لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] صاح إبليس بجنوده، وحثا على رأسه التراب، ودعا بالويل والثبور حتى جاءته جنوده من كل بر وبحر، فقالوا: ما لك يا سيدنا؟

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٣٩٣).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٥٤).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه البزار في «المسند» (٦٩١٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٩٠).

قال: إنه نزلت في كتاب الله آية لا يضر بعدها أحداً من بني آدم ذنب.

قالوا: ما هي؟

فأخبرهم، قالوا: نفتح لهم باب الأهواء فلا يتوبون ولا يستغفرون، ولا يرون إلا أنهم على الحق، فرضي منهم بذلك[1].

وروى أبو يعلى عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِلا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَالاسْتِغْفَارِ، فَأَكْثِرُوْا مِنْهُمَا؛ فَإِنَّ إِبْلِيْسَ قَالَ: أَهْلَكْتُ النَّاسَ بِالذُّنُوْبِ، وَأَهْلَكُوْنِيْ بِلا إِلَهَ إِلا اللهُ وَالاسْتِغْفَارِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ أَهْلَكْتُهُمْ بِالأَهْوَاءِ، فَيَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُوْنَ»[2].

وروى الديلمي عن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَمِلَ بِبِدْعَةٍ خَلاهُ الشَّيْطَانُ فِيْ الْعِبَادَةِ، وَأَلْقَى عَلَيْهِ الْخُشُوْعَ وَالْبُكَاءَ»[3].

وفيه إشارة أن الشيطان إنما تركه يتعبد، ولم يَحُل بينه وبين العبادة لأن مقصوده إلقاء ابن آدم في الشر، وكفى بالبدعة شراً، ولا تنفع العبادة مع البدعة، وإنما يعبث الشيطان بأهل السنة ليمنعهم من العبادة لأن

---

(١) عزاه في السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٣٢٦) إلى الحكيم الترمذي.

(٢) رواه أبو يعلى في «المعجم» (٢٩١)، وكذا ابن أبي عاصم في «السنة» (٧). قال ابن كثير في «التفسير» (١/ ٤٠٨): عثمان بن مطر وشيخه ضعيفان.

(٣) ورواه الهروي في «ذم الكلام وأهله» (٣/ ٧٧).

العبادة مع السنة هي المعتدُّ بها.

وقد روى ابن ماجه عن حذيفة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا يَقْبَلُ اللهُ لِصَاحِبِ بِدْعَةٍ صَلاةً، وَلا صَوْمَاً، وَلا صَدَقَةً، وَلا حَجَّاً، وَلا عُمْرَةً، وَلا جِهَاداً، وَلا صَرْفاً وَلا عَدْلاً، يَخْرُجُ مِنَ الإِسْلامِ كَمَا تَخْرُجُ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِيْنِ»[1].

وروى ابن أبي الدنيا في «الذكر» عن ابن جريج رحمه الله تعالى قال: بلغني أن الكلمة التي تزجر الملائكة الشياطين بها: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وهذا أتم مما رواه عبدالله ابن الإمام أحمد عن يحيى بن سليم الطائفي، وقد قدمناه في التشبه بالملائكة عليهم السلام.

وروى أبو نعيم عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: قرأت في الحكمة: كما أن الريح إذا هاجت زلزلت الشجر كذلك إبليس سلطانه يزلزل البشر[2].

قلت: وإنما يزلزل سلطانه أولياءه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[الحجر: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٧٦].

وفيه نكتة بديعة، وهي أن هذه الأمة لما كانت أكثر الأمم ذكراً،

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٩). وفي سنده محمد بن محصن العكاشي كذاب.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٨١).

ولا شيء أقصم لظهر الشيطان من ذكر الرحمن، أنزل الله تعالى في كتابه الـذي أنزلـه على نبيهـا ﷺ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٧٦]؛ أي: لا يقوم كيده ولا سلطانه مع سلطان الذكر، فظهر بذلك فضل هذه الأمة على الأمة التي نزل في كتابها أنَّ لإبليس سلطاناً يزلزل به البشر.

وأين ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وهم المتقون الذين يفرون من الشيطان إلى الذكر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١].

وروى أبو نعيم عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال: إن إبليس مُوثق في الأرض السفلى، فإذا تحرك كان كل شر على الأرض بين اثنين من تحركه[١].

قلت: ومن هنا استحب للغضبان أن يتعوَّذ من الشيطان ليسكن غضبه؛ لأن حركة الشيطان تبطل بالذكر كما دلت الآية السابقة عليه، لأن الغضب من جملة طائف الشيطان.

وقد فسره ابن عباس بالغضب، كما رواه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم[٢].

ورواه ابن أبي الدنيا في «ذم الغضب»، وغيره عن مجاهد رحمه الله تعالى[٣].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٤٠).

(٣) ورواه الطبري في «التفسير» (٩/ ١٥٨).

وفي «الصحيحين» عن سليمان بن صُرَد رضي الله تعالى عنه قال: استبَّ رجلان عند النبي، فجعل أحدهما يغضب ويحمرُّ وجهه وتنتفخ أوداجه، فنظر إليه النبي فقال: «إِنِّيْ لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ ذَا: أَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ»(١).

وروى ابن أبي الدنيا في «الذكر» عن أبي عبد الرحمن السلمي رحمه الله تعالى قال: إذا اجتمع قوم على ذكر الله ﷻ أخرج الشيطان وشيعته على باب المسجد يقول لهم: انظروا هل قاموا بعد، فيضرب كتده، فيقولون له: ما لك تضرب كتدك؟

فيقول: أخشى عليهم الرحمة فلا يعذبون أبداً.

والكَتَد ـ بفتحتين، وتاؤه مثناة فوقية ـ: الكاهل، وهو مقدَّم أعلى الظهر مما يلي العنق.

وروى ابن أبي الدنيا في «المكائد» عن ثابت رحمه الله تعالى قال: بلغني أنَّ إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام، فرأى عليه معاليق من كل شيء، فقال له يحيى عليه السلام: يا إبليس! ما هذه المعاليق التي أرى عليك؟

قال: هذه الشهوات التي أصيب من بني آدم.

قال: فهل لي فيها شيء؟

قال: ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة والذكر.

---

(١) رواه البخاري (٤١٠٨)، ومسلم (٢٦١٠).

قال: هل غير هذا؟

قال: لا.

قال: لله علي أن لا أملأ بطني من طعام أبداً.

فقال إبليس: ولله عليَّ أن لا أنصح مسلماً أبداً[1].

قلت: وهذا من باب تسخير إبليس للأنبياء ـ عليهم السلام ـ بحيث تأتيهم النصيحة والحكمة من غير أهلها، وقد اتفق مثل ذلك لنوح وموسى ـ عليهما السلام ـ كما سبق، وكذلك قد يسخر للصالحين.

وقوله: ولله عليَّ أن لا أنصح مسلماً أبداً: هذا خلقه أبداً؛ فإنه أغش الخلق للخلق، كما قال مُطرِّف رحمه الله تعالى[2].

وربما وقع مثل ذلك من كثير من الناس أنه ينصح آخر فيغضب منه، فيقول: ما بقيت أنصح بعدك أحداً، ونحو هذا الكلام، فهو من أخلاق الشيطان كما علمت.

وكذلك يضرب المثل فيقال: فلان لا ينصح مسلماً؛ بمعنى أنه على خلق شيطاني.

وروى ابن أبي الدنيا عن فضيل بن عياض رحمه الله تعالى قال: حدثني بعض أشياخنا: أنَّ إبليس جاء إلى موسى ـ عليه السلام ـ وهو يناجي ربه ﷻ، فقال له الملك: ويلك ما ترجو منه وهو على هذه الحالة؟

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه، لكن لفظه: «أغش عباد الله لعباد الله الشياطين».

قال: أرجو منه ما رجوت من أبيه آدم وهو في الجنة[1].

فإذا كان طمعه في موسى عليه السلام وهو في حضرة ربه تعالى، فكيف طمعه فيمن دونه.

وقد روى أبو نعيم عن أبي محمد حبيب الفارسي رحمه الله تعالى قال: والله إنَّ الشيطان ليلعب بالقُرَّاء كما تلعب الصبيان بالجوز، ولو أن الله تعالى دعاني يوم القيامة فقال: يا حبيب! فقلت: لبيك، فقال: جئتني بصلاة يوم، أو صوم يوم، أو ركعة، أو تسبيحة اتقيت عليها من إبليس أن لا يكون طعن فيها طعنة فأفسدها، ما استطعت أن أقول: نعم أيْ ربِّ[2].

وروى أبو نعيم عن أبي الجوزاء رحمه الله تعالى قال: والذي نفسي بيده إن الشيطان ليأزم بالقلب حتى ما يستطيع صاحبه يذكر الله، ألا ترونهم في المجالس يأتي على أحدهم عامة نومه لا يذكر الله ﷻ إلا حالفاً، والذي نفس أبي الجوزاء بيده ما له في القلب طرد إلا: لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦][3].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» (ص: ٧٢)، وكذا ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ١٢٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٥٣).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٨٠)، وعنده: «ليلزم» بدل «ليأزم».

وروى البزار عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الَّذِي يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ قَبْلَ الإِمَامِ إِنَّمَا نَاصِيَتُهُ بِيَدِ شَيْطَانٍ»[1].

ومن لطائف الآثار: ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «التقوى» عن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً أسمعَهُ كلاماً، فقال له عمر: أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً، ثم عفا عنه[2].

وقوله: يستفزني؛ أي: يستخفني.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾[الإسراء: ٦٤]؛ أي: بالغناء، والمزامير، واللهو، والباطل كما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «ذم الملاهي»، والمفسرون[3].

والغضب: لحظ النفس من الباطل وما يجر إليه، فمن أدركه الحلم والعفو عند الغضب، والقدرة على الانتقام فقد دحر عنه الشيطان، وكان له العز والسلطان، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «مَا زَادَ اللهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزّاً»[4].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٦٩٢)، ورواه الإمام مالك في «الموطأ» (١/ ٩٢) موقوفاً.

(٢) ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٣٢٤).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (٣٤) عن مجاهد.

(٤) تقدم تخريجه.

وروى أبو نعيم عن أبي حازم رحمه الله تعالى قال: وما إبليس؟ لقد عصى فما ضر، ولقد أطيع فما نفع[1].

وقد قلت: [من السريع]

مَـنْ يُطِـعِ الـشَّيْطانَ لا يَنْتَفِـعْ ... بِطاعَـةِ الـشَّيْطانِ مَهْمـا يُطِـعْ
وَمَنْ عَصَى الـشَّيْطانَ مـا ضَـرَّهُ ... عِـصْيانُهُ لَكِنَّـهُ يَنْتَفِـعْ
فَـلا تُطِـعْ إِبْلِـيْسَ فِـي أَمْـرِهِ ... وَأَطِـعِ اللهَ وَلا تَبْتَـدِعْ

روى ابن أبي الدنيا في كتاب «التقوى» عن أبي حازم رحمه الله تعالى أنه قيل له: إنك لمتشدد.

قال: وما لي لا أتشدد وقد ترصَّدني أربعة عشر عدواً؟

أما أربعة منها: فشيطان يضلني، ومؤمن يحسدني، وكافر يقاتلني، ومنافق يبغضني.

وأما العشَرة منها، فالجوع، والعطش، والحر، والبرد، والعري، والهوى، والمرض، والفقر، والموت، والنار، ولا أطيقهن إلا بسلاح تام، ولا أجد لهن سلاحاً أفضل من التقوى[2].

وروى أبو بكر بن لال في كتاب «مكارم الأخلاق» بسند ضعيف، عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ بَيْنَ

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٤٥).

(٢) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٣١).

خَمْسِ شَدَائِدَ: مُؤْمِنٍ يَحْسُدُهُ، وَمُنَافِقٍ يُبْغِضُهُ، وَكَافِرٍ يُقَاتِلُهُ، وَشَيْطَانٍ يُضِلُّهُ، وَنَفْسٍ تُنَازِعُهُ»[١].

وروى أبو نعيم عن طلحة بن مُصرِّف رحمه الله تعالى: المؤمن يجلب عليه إبليس من الشياطين أكثر من ربيعة ومضر[٢].

وروى ابن أبي حاتم في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[الكهف: ٥٠] عن سفيان رحمه الله تعالى قال: باض إبليس خمس بيضات، فذريته من ذاك[٣].

قال: وبلغني أنه يجتمع منهم على مؤمن واحد أكثر من ربيعة ومضر[٤].

وروى ابن مردويه، وابن عساكر، وغيرهما عن عبد الواحد الدمشقي قال: رأيت أبا الدرداء ﷺ يحدث الناس ويفتيهم، وولده وأهل بيته جلوس في جانب يتحدثون، فقيل له: يا أبا الدرداء! ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم، وأهل بيتك جلوس لاهين؟

---

(١) ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٦٥٤٨). قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٧٤١): رواه أبو بكر بن لال في «مكارم الأخلاق» من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١٩).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٤٠٤).
وروواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٨٢) عن مجاهد.

(٤) تقدم تخريجه.

قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَزْهَدَ النَّاسِ فِيْ الأَنْبِيَاءِ وَأَشَدَّهُمْ عَلَيْهِمُ الأَقْرَبُوْنَ».

وذلك فيما أنزل الله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤] إلى آخر الآية.

ثم قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَزْهَدَ النَّاسِ فِيْ الْعَالِمِ أَهْلُهُ حَتَّى يُفَارِقَهُمْ، وَإِنَّهُ لَيَشْفَعُ فِيْ أَهْلِ دَارِهِ وَجِيْرَانِهِ، فَإِذَا مَاتَ جَلا عَلَيْهِمْ مِنْ مَرَدَةِ الشَّيَاطِيْنِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ رَبِيْعَةَ وَمُضَرَ قَدْ كَانُوْا مُشْتَغِلِيْنَ بِهِ؛ فَأَكْثِرُوا التَّعَوُّذَ بِاللهِ مِنْهُمْ»[1].

وروى الإمام عبدالله بن المبارك في «الزهد» عن خيثمة رحمه الله تعالى قال: إن الله تعالى ليطرد بالرجل الشيطان من الآدر؛ أي: الدور[2].

وذلك بطاعة الله تعالى وكثرة ذكره، أو بالصمت والإعراض عنه مع الاشتغال بالقلب بالله تعالى، فيحوم الشيطان فلا يجد له في قلب ولي الله تعالى مساغاً، فيخسأ عنه وعن من في جيرته وحمايته ببركة صمته.

وروى أبو يعلى عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّهَا جِمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ؛

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٢٩١).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١١٢).

فَإِنَّهُ رُهْبَانِيَّةُ الْمُسْلِمِيْنَ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلاوَةِ كِتَابِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ نُوْرٌ لَكَ فِي الأَرْضِ وَذِكْرٌ لَكَ فِيْ السَّمَاءِ، وَاخْزُنْ لِسَانَكَ إِلا مِنْ خَيْرٍ؛ فَإِنَّكَ بِذَلِكَ تَغْلِبُ الشَّيْطَانَ»(١).

وروى الطبراني في «الكبير» عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال له: «أُوْصِيْكَ بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّهُ رَأْسُ الأَمْرِ كُلِّهِ.

وَعَلَيْكَ بِتِلاوَةِ الْقُرْآنِ وَذِكْرِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ ذِكْرٌ لَهُ فِيْ السَّمَاءِ وَنُوْرٌ لَكَ فِيْ الأَرْضِ.

وَعَلَيْكَ بِطُوْلِ الصَّمْتِ إِلاَّ مِنْ خَيْرٍ؛ فَإِنَّهُ مَطْرَدَةٌ لِلشَّيْطَانِ عَنْكَ وَعَوْنٌ لَكَ عَلَى أَمْرِ دِيْنِكَ.

إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ؛ فَإِنَّهُ يُمِيْتُ الْقَلْبَ وَيُذْهِبُ بِنُوْرِ الْوَجْهِ.

عَلَيْكَ بِالْجِهَادِ؛ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي.

أَحِبَّ الْمَسَاكِيْنِ وَجَالِسْهُمْ.

انْظُرْ إِلَى مَنْ تَحْتَكَ وَلا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ فَوْقَكَ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لا تَزْدَرِيَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكَ.

صِلْ قَرَابَتَكَ وَإِنْ قَطَعُوْكَ.

قُلِ الحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرّاً.

---

(١) رواه أبو يعلى في «المسند» (١٠٠٠)، وكذا الطبراني في «المعجم الصغير» (٩٤٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢١٥): فيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس، وقد وثق.

لا تَخَفْ فِيْ اللهِ لَوْمَةَ لائِمْ.

ليحجْزكَ عَنِ النَّاسِ مَا تَعْلَمُ مِنْ نَفْسِكَ، وَلا تَجِدْ عَلَيْهِمْ فِيْمَا يَأْتِيْ.

وَكَفَى بِالْمَرْءِ عَيْباً أَنْ يَكُوْنَ فِيْهِ ثَلاثُ خِصَالٍ: أَنْ يَعْرِفَ مِنَ النَّاسِ مَا يَجْهَلُ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَسْتَحْيِي لَهُمْ مِمَّا هُوَ فِيْهِ، وَيُؤْذِيَ جَلِيْسَهُ.

يَا أَبَا ذَرٍ! لا عَقْلَ كَالتَّدْبِيْرِ، وَلا وَرَعَ كَالْكَفِّ، وَلا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ»[1].

وإنما ذكرت هذا الحديث بطوله هنا لأنه من غرر الفوائد.

وروى أبو نعيم عن حسان بن عطية رحمه الله تعالى قال: إنما مثل الشياطين في كثرتهم كمثل رجل دخل زرعاً فيه جراد كثير، وكلما وضع فيه رجله تطاير الجراد يميناً وشمالاً، ولولا أن الله ﷻ غض البصر عنهم ما رئي شيء إلا وعليه شيطان[2].

وعن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال: إن رجلاً من بني إسرائيل صام سبعين أسبوعاً يفطر في كل سبعة أيام يوماً، وهو يسأل الله ﷻ أن يريه كيف يَغوي الشيطان الناس، فلما أن طال ذلك ولم يجب، قال: لو أقبلت على خطيئتي، وعلى ذنبي وما بيني وبين ربي ﷻ لكان خيراً لي من هذا الأمر الذي أطلب، فأرسل الله تعالى إليه ملكاً فقال: إن الله ﷻ

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٦٥١)، ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١) بأطول منه.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٧٥).

أرسلني إليك وهو يقول لك: إن كلامك هذا الذي تكلمت به أعجب إلي مما مضى من عبادتك، وقد فُتِحَ بصرك.

قال: فنظر، فإذا هو أحبولة لإبليس قد أحاطت بالأرض، وإذا ليس أحد من بني آدم إلا وحوله شياطين مثل الذباب، فقال: أي رب! من ينجو من هذا؟

قال: اللَّيِّن الوادع[1].

وعنه أنه قال: وجدت في بعض ما أنزل الله على أنبيائه ـ عليهم السلام ـ أن الشيطان لا يكابد شيئاً أشد من مؤمن عاقل.

وقال وهب أيضاً: لإَزالة الجبال صخرة صخرة أيسر على الشيطان من مكابدة مؤمن عاقل[2].

وعنه قال: قال لقمان لابنه عليهما السلام: يا بني! اعقل عن الله ﷻ؛ فإن أعقل الناس عن الله ﷻ أحسنهم عقلاً، وإن الشيطان ليفر من العاقل وما يستطيع أن يكابده[3].

والمراد أن يكون عقله معروفاً في الورع، والزهد، والعزوف عن الدنيا؛ إذ هو العقل النافع كما يشير إليه كلام لقمان.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٢). وعنده: «الورع اللين» بدل «اللين الوادع».

(٢) رواهما أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٦).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٥).

ومن ثم قال أكثر العلماء: لو أوصى بثُلث ماله لأعقل الناس صُرِفَ إلى الزُّهاد[1].

وليس المراد بالعقل الدَّهاء، والتدقيق في أمور الدنيا؛ فإنه من أمر الشيطان كما روى الدينوري في «المجالسة» عن مضاء: أنه قال: قال بعض الحكماء: العَقِلُ غيرُ الورعِ عَنِ الذنوبِ خازنُ الشيطان[2].

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: إنَّ من فقه الرجل أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه الرجل أن يعلم أمزداد هو أم منتقص، وإنَّ من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه[3].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن عامر بن حبيب الأحموسي قال: إن العبد ليعمل العمل سراً ما يطلع عليه أحد، فيطلب إبليس سنة، فإن أدركه وإلا تركه، يقول له: حدث بعملك؛ فإنه قد رفع إلى الله وليس بناقصك شيئاً، فإن حدث به مُحِي عنه أجر السر، وحُطَّ عنه أجر العلانية، ثم يطلب سنة، فإن أدركه وإلا تركه، يقول له: حدث، قد رفع إلى الله وليس بناقصك ذلك شيئاً، فإن حدث به مُحي أجر العلانية، وكتب رياء.

وروى ابن جهضم عن صالح المُرِّي رحمه الله تعالى قال:

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ١٤). وقد نسبه للإمام الشافعي رحمه الله تعالى.

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٣٩٨).

(٣) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٥/ ٩٤٥).

ما عرف الله حق معرفته من آثر طاعة الشيطان على طاعته، وما عرف الآخرة حق معرفتها من آثر الدنيا عليها.

وقال ابن أبي الدنيا في «الصمت»: بلغني عن الحسن بن حي رحمه الله تعالى قال: المزاح استدراج من الشيطان، واختداع من الهوى[1].

ونقله الماوردي في «أدبه» عن النبي ﷺ، ولم أجده في أصول الحديث[2].

وروى ابن أبي الدنيا عن مسلم بن يَسار رحمه الله تعالى قال: إيَّاك والمِراء؛ فإنها ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته[3].

وروى الدينوري في «المجالسة» عن بكر بن خُنيس رحمه الله تعالى قال: بلغني أن إبليس اللعين قال: ثلاث إذا قدرت على واحدة منهن من ابن آدم فقد قدرت على حا تي: من نسي ذُنوبه، واستكثر عمله، وعجب برأيه[4].

وروى أبو نعيم عن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت إسحاق ابن خالد يقول: ليس شيء أقطع لظهر إبليس من قول ابن آدم: ليت

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ٢١٢).

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٣٩١).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ١٠٠).

(٤) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٤٥٤).

شعري بما يختم لي؟

قال: عندها ييأس منه إبليس، ويقول: متى يعجب هذا بعمله؟

قال: فحدثت به مضاء بن عيسى، فقال: يا أحمد! عند الخاتمة قطع بالقوم.

قال: فحدثت به أبا عبدالله النباجي، فقال: واخطراه[1].

وعن سفيان الثوري رحمه الله تعالى: ليس شيء أقطع لظهر إبليس من قول: لا إله إلا الله، ولا شيء يضاعف ثوابه من الكلام مثل: الحمد لله[2].

وعن عكرمة رحمه الله تعالى قال: إن الشيطان ليزيِّن للعبد الذنب حتى يكسبه، فإذا كسبه تبرَّأَ منه، فلا يزال العبد يبكي ويتضرع إلى الله ﷻ، ويستكين حتى يغفر له ذلك الذنب وما قبله، فيندم الشيطان على ذلك الذنب حين أكسبه إياه؛ غفر له الذنب وما قبله[3].

وروى ابن جهضم عن سهل بن عبدالله رحمه الله تعالى: أنه سُئِلَ: أي شيء أشد على إبليس؟

قال: إشارة قلوب العارفين بالله تعالى[4].

وروى ابن أبي شيبة عن ثابت البناني رحمه الله تعالى: أنَّ أبا تامر

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣١١). وعنده: «الساجي» بدل «النباحي».

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ١٦).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣٣٤).

(٤) وروواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٠٠).

رحمه الله تعالى كان رجلاً عابداً، فنام ذات ليلة قبل أن يصلي العشاء، فأتاه ملكان أو رجلان في منامه، فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رأسه للذي عند رجليه: الصلاة قبل النوم ترضي الرحمن، وتسخط الشيطان.

وقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: إن النوم قبل الصلاة يرضي الشيطان، ويسخط الرحمن[1].

قلت: وهذا من باب العتاب في النوم.

وفي حديث أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خَيْرَاً عَاتَبَهُ فِيْ مَنَامِهِ». رواه الديلمي[2].

وروى ابن المبارك في «الزهد» عن عطاء الخراساني رحمه الله تعالى قال: مر نبي من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بساحل، فإذا هو برجل يصطاد حيتاناً، فقال: بسم الله، فألقى شبكته، فلم يخرج فيها حوت واحد، ثم مر بآخر فقال: باسم الشيطان، فخرج فيها من الحيتان كثير حتى جعل الرجل يتقاعس من كثرتها، فقال النبي عليه السلام: رَبِّ! هذا الذي دعاك ولم يشرك بك شيئاً ابتليته بأن لم يخرج في شبكته شيء، وهذا الذي دعا غيرك ابتليته فخرج في شبكته ما جعل يتقاعس تقاعساً من كثرتها، وقد علمت أن كل ذلك بيدك، فأنى هذا؟

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٥١٥).

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٩٤٣). وسنده ضعيف.

فقال: اكشفوا لعبدي عن منزلتهما.

فلما رأى ما أعدَّ الله لهذا من الكرامة، وما أعدَّ لهذا من الهوان، قال: رضيت يا رب[1].

وروى الإمام أحمد، والطبراني عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ خَارِجٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ إِلاَّ بِبَابِهِ رَايَتَانِ: رَايَةٌ بِيَدِ مَلَكٍ، وَرَايَةٌ بِيَدِ شَيْطَانٍ؛ فَإِنْ خَرَجَ لِمَا يُحِبُّ اللهُ اتَّبَعَهُ المَلَكُ بِرَايَتِهِ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الْمَلَكِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ، وَإِنْ خَرَجَ لِمَا يُسْخِطُ اللهَ ﷻ اتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ بِرَايَتِهِ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الشَّيْطَانِ حَتَّى يَرْجِعَ»[2].

وروى أبو داود عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ، يُقَالُ لَهُ: هُدِيْتَ، وَكُفِيْتَ، وَوُقِيْتَ، فيتنحَّى لَهُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُوْلُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ كُفِيَ، وَهُدِيَ، وَوُقِيَ؟»[3].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٢٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٢٣)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٧٨٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٣٢): فيه عبد الرحمن بن أبي الزناد، وثقه مالك، وضعفه أحمد ويحيى.

(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٥)، وكذا الترمذي (٣٤٢٦) وصححه.

رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُنْضِي ـ أَيْ: يُهْزِلُ ـ شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيْرَهُ فِيْ السَّفَرِ»[1].

وروى ابن أبي الدنيا عنه رضي الله عنه قال: التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر، فإذا شيطان الكافر سمين دهين كاسي، وإذا شيطان المؤمن هزيل أشعث عاري، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن: ما لك؟

قال: أنا مع رجل إذا أكل سمَّى فأظل جائعاً، وإذا شرب سمَّى فأظل عطشان، وإذا ادهن سمَّى فأظل شعثاً، وإذا لبس سمى فأظل عرياناً.

قال شيطان الكافر: لكني مع رجل لا يفعل شيئاً مما ذكرته، فأنا أشاركه في طعامه وشرابه ولباسه[2].

وعن قيس بن الحجاج رحمه الله تعالى: قال لي شيطاني: دخلت فيك وأنا مثل الجزور، وأنا الآن مثل العصفور.

فقلت: ولم ذاك؟

قال تذيبني بكتاب الله[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٨٠). وفي إسناده ابن لهيعة، وهو ضعيف.

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/ ٣٧)، وقد تقدم نحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» (ص: ٤٠).

وروى ابن المبارك في «الزهد» عن الحسن رحمه الله تعالى قال: إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداوماً في طاعة الله تعالى، فبغاك وبغاك، فرآك مداوماً مَلَّكَ ورفضك، وإذا كنت مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك[1].

وروى أبو نعيم عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال: ليس من الآدميين أحد إلا معه شيطان موكَّل به، أما الكافر فيأكل من طعامه، ويشرب معه من شرابه، وينام معه على فراشه، وأما المؤمن فهو مجانب له ينتظر متى يصيب منه غفلة أو غِرة، فيثِبُ إليه، وأحب الآدميين إلى الشيطان النؤوم الأكول[2].

وعن حسان بن عطية رحمه الله تعالى قال: قيل لعثمان رضي الله تعالى عنه: ما يمنعك أن تكون مثل عمر رضي الله تعالى عنه؟

قال: أتجعلوني مثل رجل أوثقت الشياطين في خلافته حتى انقرضت[3].

وروى الطبراني بسند صحيح، عن وحشي بن حرب ﷺ: أن النبي ﷺ خرج لحاجته من الليل وترك باب البيت مفتوحاً، ثم رجع فوجد إبليس قائماً في وسط البيت، فقال النبي ﷺ: «اخْسَأْ يَا خَبِيْثُ مِنْ بَيْتِي».

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٧).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٥٨).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٧٥).

ثم قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَرَجْتُمْ مِنْ بُيُوْتِكُمْ بِاللَّيْلِ فَأَغْلِقُوا أَبْوَابَهَا»[1].

وروى ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن يزيد رحمه الله تعالى قال: إن للشيطان قارورةً فيها نفوخ، فإذا قاموا إلى الصلاة أنشقهموها، فأمروا عند ذلك بالاستنثار[2].

وعن إبراهيم - يعني: النخعي رحمه الله تعالى - قال: مسح أصحاب رسول الله ﷺ على الخفين، فمن ترك ذلك رغبة فإنما هو من الشيطان[3].

وروى الإمام أحمد بسند جيد، عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلاَّ اللَّبَنَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ بَيْنَ الرَّغْوَةِ وَالصَّرْعِ»[4].

والمعنى أنَّ الشيطان يُحِب الموضع الذي يكثر فيه اللبن، وأكثر ما يكون في البادية، فالمراد التنفير من سكنى البادية؛ إذ تكثر فيها الألبان خشية من الشيطان كما في حديث عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال:

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ١٣٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١١٢): رجاله ثقات.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٨٨٥).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ١٧٥). لكن عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هَلاكُ أُمَّتِي فِي الْكِتَابِ وَاللَّبَنِ».

قالَوا: يا رسولَ اللهِ ما الكِتابُ واللَّبن؟

قالَ: «يَتَعَلَّمُوْنَ الْقُرْآنَ فَيَتَأَوَّلُوْنَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ، وَيُحِبُّوْنَ اللَّبَنَ فَيَتْرُكُوْنَ الْجَمَاعَاتِ وَيُبْدُوْنَ». رواه الإمام أحمد بإسناد حسن(١).

وقوله: «يبدون»؛ أي: يسكنون البادية كما قال ﷺ: «مَنْ بَدَا جَفَا». رواه الإمام أحمد عن البراء، والطبراني في «الكبير» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم(٢).

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ولفظه: «مَنْ سَكَنَ الْبادِيَةَ جَفا، وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمنْ أَتى السُّلْطانَ افْتُتِنَ»(٣).

على أن هذه الخصال الثلاث هي مجامع مطلوبات الشياطين: الجفاء، والغفلة، والفتنة.

وروى ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيَكُوْنُ قَوْمٌ بَعْدِي مِنْ أُمَّتِيْ يَقْرَؤُوْنَ الْقُرْآنَ وَيَتَفَقَّهُوْنَ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٥٥). وفي إسناده ابن لهيعة، ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٢٩٥).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٤٤٠) عن البراء ﷺ.

ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٠٣٠) عن ابن عباس ﷺ.

(٣) رواه أبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦) وصححه، والنسائي (٤٣٠٩).

فِيْ الدِّيْنِ، يَأْتِيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُوْلُ لَهُمْ: لَوْ أَتَيْتُم السُّلْطَانَ فَأَصْلَحَ مِنْ دُنْيَاكُمْ، وَاعْتَزَلْتُمُوْهُ بِدِيْنِكُم، وَلا يَكُوْنُ ذَلِكَ كَمَا لا يُجْتَنَى مِنَ الْقَتَادِ إِلاَّ الشَّوْك، لا يُجْتَنَى مِنْ قُرْبِـهِم إِلاَّ الْخَطَايَا»[١].

وروى الإمام أحمد، والبخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ مَوْلُوْدٍ يُوْلَدُ إِلاَّ نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخاً مِنْ نَخْسَتِهِ، إِلاَّ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ».

قال أبـو هريـرة: اقـرؤوا إن شـئـتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[آل عمران: ٣٦][٢].

وروى ابن جرير، وابن المنذر، وابن عساكر عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال: لما ولد عيسى ـ عليه السلام ـ أتت الشياطين ـ يعني: إلى إبليس ـ فقالوا: أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها.

فقال: هذا حدث؟ مكانكم، فطار حتى جاب خافقي الأرض فلم يجد شيئاً، ثم جاب البحار فلم يقدر على شيء، ثم طار أيضاً فوجد عيسى ـ عليه السلام ـ قد ولد، وإذا الملائكة ـ عليهم السلام ـ قد حفت حوله، فرجع إليهم فقال: إن نبياً قد ولد البارحة، ما حملت أنثى ولا وضعت إلا وأنا بحضرتها إلا هذا، فايئسوا أن تعبد الأصنام

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٣٣)، والبخاري (٣٢٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦).

بعد هذه الليلة، ولكن ائتوا بني آدم من قِبَل الحقد والعجلة[1].

وروى أبو نعيم عنه قال: إن إبليس قال لعيسى ـ عليه السلام ـ حين وضعه على بيت المقدس: زعمت أنك تحيي الموتى، فإن كنت كذلك فادع الله أن يردَّ هذا الجبل خبزاً.

فقال له عيسى: أكُل الناس يعيشون من الخبز؟

قال له إبليس: فإن كنت كما تقول فثب من هذا المكان؛ فإن الملائكة تتلقاك.

قال: إن ربي أمرني أن لا أجرب نفسي، فلا أدري هل يسلمني أم لا.

وعن طاوس، والزهري رحمهما الله تعالى قالا: لقي عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ إبليس فقال: أما علمت أنه لا يصيبك إلا ما قدر لك؟

قال: نعم.

قال: فأوف نذوره، هذا الجبل فَتَرَدَّ منه، فانظر أتعيش أم لا؟

قال طاوس في حديثه: قال: علمت أن الله تعالى قال: لا تجربني عبدي؛ فإني أفعل ما شئت.

وقال الزهري: قال: إن العبد لا يبتلي ربَّه، ولكنَّ الله تعالى يبتلي عبدَه.

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٣/ ٢٤٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ٣٥٦).

قال: فخصمه(١).

وروى الحكيم الترمذي في «النوادر»، وابن أبي الدنيا في «المكائد»، وأبو الشيخ في «العظمة»، وابن حبان في «الضعفاء»، وابن مردويه في «التفسير» عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ الْجِنَّ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ حَيَّاتٌ، وَعَقَارِبُ، وَخَشَاشُ الأَرْضِ، وَصِنْفٌ كَالرِّيْحِ فِيْ الْهَوَاءِ، وَصِنْفٌ عَلَيْهِمُ الْحِسَابُ وَالْعِقَابُ، وَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ كَالْبَهَائِمِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾[الأعراف: ١٧٩] الآية، وَصِنْفٌ أَجْسَادُهُمْ أَجْسَادُ بَنِيْ آدَمَ وَأَرْوَاحُهُمْ أَرْوَاحُ الشَّيَاطِيْنِ، وَصِنْفٌ فِيْ ظِلِّ اللهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ»(٢).

وروى البيهقي في «الشعب» عن أبي عثمان النهدي رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ عِبَادِ اللهِ إِلَى اللهِ الْعِفْرِيْتُ النِّفْرِيْتُ الَّذِي لَمْ يَرْزَأْ فِيْ مَالٍ وَلا وَلَدٍ»(٣).

وروى ابن المبارك في «الزهد» عن الحجاج بن الفرافصة رحمه الله تعالى قال: بلغنا أن في بعض الكتب: من عمل بغير مشورة فذاك

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٢).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الهواتف» (ص: ٩٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٩٣)، وابن حبان في «المجروحين» (٣/ ١٠٧).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٩١٠).

باطل يتعنى، ومن لم ينتصر من ظالمه بيد ولا لسان ولا عقد فذلك علمه يقين، ومن استغفر لظالمه فقد هزم الشيطان(١).

وعن أبي رزين رحمه الله تعالى قال: جاء رجل إلى الفضيل بن بزوان رحمه الله تعالى فقال: إن فلاناً يقع فيك، فقال: لأغيظن مَنْ أمره؛ يغفر الله لي وله.

قيل: مَنْ أمره؟

قال: الشيطان(٢).

وروى الإمام أحمد، والترمذي، والحاكم وصححه، عن سَمُرة ابن جُندب رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «لَمَّا حَمَلَتْ حَوَّاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيْسُ وَكَانَ لا يَعِيْشُ لَهَا، فَقَال: سَمِّيْهِ عَبْدَ الْحَرْثِ؛ فَإِنَّهُ يَعِيْشُ، فَسَمَّتْهُ عَبْدَ الْحَرْثِ فَعَاشَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْي الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ»(٣).

وروى ابن جرير عن السدي رحمه الله تعالى: أن إبليس كان اسمه قبل أن يلعن: الحرث(٤).

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن اسمه كان: عزازيل؛ قال

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٣٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٠٩).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٣٤).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه الطبري في «التفسير» (١/ ٢٢٧).

بعضهم: وهو بمعنى الحرث[1].

وروى هو وابن المنذر، وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: أن إبليس كان اسمه في الملائكة: الحرث[2].

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إنَّما سمِّي إبليس لأنه أُبلِسَ من رحمة الله كلها[3].

وروى ابن أبي حاتم عن السدي رحمه الله تعالى قال: الإبلاس: تغيُّر الوجه، وإنما سُمِّي إبليس لأن الله تعالى نكَّس وجهَه وغيَّره[4].

ورويا عن ابن زيد قال: المبلس: المجهود المكروب الذي قد نزل به الشر الذي لا يدفعه[5].

وإبليس إن قيل: إنه عربي، فاشتقاقه من البَلَس - بالتحريك - مصدر: بَلِس كفرح، فهو بلس ككشف، وهو المبلس الساكت على ما في نفسه، والبلس على وزن المصدر: مَن لا خير عنده، أو من عنده إبلاس وشر.

وحقيقة الإبلاس التحير والتغير، والكآبة والحزن، ومنه قول

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٨٤)، وكذا الطبري في «التفسير» (١٥/ ٢٥٩).

(٢) ورواه الطبري في «التفسير» (٩/ ١٤٥).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (١/ ٢٢٧).

(٤) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٢٦٩).

(٥) رواه الطبري في «التفسير» (٧/ ١٩٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١٢٩٢).

رُؤبة: [من السريع]

وَحَضَرَتْ يَوْمَ الْخَمِيْسِ الأَحْماسْ وَفِي الْوُجُوْهِ صُفْرَةٌ وَإِبْلاسْ[1]

وقال أبوه العجاج: [من الرجز]

يا صاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْماً مكْرسا قالَ نَعَم أَعْرِفُهُ وَأَبْلَسا[2]

وروى الإمام أحمد عن مسلم بن عبدالله الأزدي قال: جاء عبدالله ابن قُرط الأزدي ﷺ إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «مَا اسْمُكَ؟»

قال: شيطان بن قرط:

فقال له النبي ﷺ: «أَنْتَ عَبْدُاللهِ بْنُ قُرْطٍ»[3].

وروى الطبراني بسند صحيح، عن أبي جحيفة رضي الله تعالى عنه قال: رأيت النبي ﷺ وأتي بثوب من القَصَّار وعليه مكتوب: شيطان، فأُمِرَ به فَمُحِيَ، وقال: «أَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ»[4].

وروى بسند فيه متروك، عن خيثمة بن عبد الرحمن، عن أبيه

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٢٢٧)، و«لسان العرب» لابن منظور (٦/ ٣٠).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٢٢٧)، و«لسان العرب» لابن منظور (٦/ ٣٠).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٥٠)، وكذا ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٨/ ١٨٧) واللفظ له.

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ١٢٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٥٥): رواه الطبراني مرفوعاً وموقوفاً، ورجالهما رجال الصحيح، إلا أن الطبراني صحح الوقف على الرفع.

رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على النبي ﷺ فقال لأبي: «هَذَا ابْنُكَ؟»

قال: نعم.

قال: «مَا اسْمُهُ؟»

قال: الحباب.

قال: «لا تُسَمِّهِ الْحُبَابَ؛ فَإِنَّ الْحُبَابَ شَيْطَانٌ، وَلَكِنْ هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ»[1].

وقال مسروق: سألني عمر رضي الله عنه: مسروق ابن من؟

قلت: مسروق بن الأجدع.

قال: الأجدع اسم شيطان، قال: مسروق بن الأجدع[2].

وفي ذلك إشارة إلى كراهة التسمية بأسماء الشياطين.

قال البغوي: وقال عبد الرحمن بن أبي نُعم: يكره أن يسمى الرجل مُرَّة، ويكتنى بأبي مُرَّة. قال: وجاء في الحديث «شَرُّ الأَسْمَاءِ حَرْبٌ وَمُرَّةُ»[3]. انتهى[4].

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ١٢٢): رواه الطبراني في «الكبير» وفيه سويد بن عبد العزيز، وهو ضعيف.

(٢) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» (١/ ١٤٤)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٤٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٧٧٤٢).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٥٠) عن أبي وهب الجشمي، ولفظه: «تسموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء إلى الله عز وجل عبدالله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة».

(٤) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٢/ ٣٣٩).

وقد تقدم أن كنية إبليس أبو مرة، وأن مرة اسم ولد من أولاده.

ولا تكره التسمية بالحارث ـ وإن كرهه بعضهم ـ لأن أصدق الأسماء حارث وهمام كما في الحديث الصحيح[1]، وأمَّا تسمية إبليس بالحرث فكان ذلك قبل أن يصير شيطاناً.

وروى الدينوري أن رجلاً قال للشعبي: ما اسم امرأة إبليس؟

قال: ذاك عرس ما شهدته[2].

لكن التحقيق أن من الشياطين إناثاً؛ لحديث الصحيحين عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ إذا دخل الخلاء قال: «اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَعُوْذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ»[3].

قال الخطابي: الخبث ـ بضم الباء ـ: جماعة الخبيث، والخبائث جمع الخبيثة؛ يريد ذكور الشياطين وإناثهم.

ورأى رسول الله ﷺ رجلاً يتبع حمامة فقال: «شَيْطَانٌ يَتْبَعُ شَيْطَانَةً». أخرجه أبو داود عن أبي هريرة، وابن ماجه عنه، وعن أنس، وعن عثمان، وعن عائشة رضي الله تعالى عنهم[4].

---

(١) هو الحديث السابق، وانظر الحديث بتمامه في التعليق السابق.

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٣٦٧). وقد تقدم نحوه لكن لم يعزه هناك لأحد.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد رضي الله تعالى عنهما: أنها كانت عند رسول الله ﷺ والرجال والنساء قعود عنده، فقال: «لَعَلَّ رَجُلاً يَقُوْلُ: مَا فَعَلَ بِأَهْلِهِ، وَلَعَلَّ امْرَأَةً تُخْبِرُ بِمَا فَعَلَتْ مَعَ زَوْجِهَا، فَأَرَمَّ الْقَوْمُ».

فقلت: إي والله: أعلم أنهم ليفعلون وأنهن ليفعلن.

قال: «فَلا تَفْعَلُوْا؛ فَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ مِثْلُ شَيْطَانٍ لَقِيَ شَيْطَانَةً فَغَشِيَهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُوْنَ»(١).

وأخرج البزار نحوه عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه(٢).

فأَرَمَّ القوم؛ أي: سكتوا ـ بفتح الهمزة، والراء، وتشديد الميم ـ.

وروى ابن أبي شيبة عن ثابت: أن مطرفاً رحمه الله تعالى كان يقول: لو أن رجلاً رأى صيداً والصيد لا يراه، فختله، ألم يوشك أن يأخذه.

قالوا: بلى.

قال: فإن الشيطان يرانا، ونحن لا نراه، ويصيب منا(٣).

قلت: وأشار إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ يعني: الشيطان ﴿يَرَىٰكُمْ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٦٢): رواه البزار، وله شواهد تقويه.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥١٣٤).

﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[الأعراف: ٢٧].

وروى عبد بن حميد، وأبو الشيخ عن قتادة رحمه الله تعالى: أنه قال في الآية: والله إن عدواً يراك من حيث لا تراه لَشديد المونة إلا من عَصم الله[١].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾؛ قال: نسله[٢].

قال مجاهد رحمه الله تعالى: سأل الشيطان ـ يعني: لنفسه ولذريته ـ أن يَرى ولا يُرى، وأن يخرج من تحت الثرى، وأنه متى شاب عاد فتى، فأجيب. رواه أبو الشيخ[٣].

وروى ابن أبي الدنيا عن سفيان رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[الحجر: ٤٢]؛ قال: ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر[٤].

وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الآية قال: عبادي الذين قضيت لهم بالجنة أن يذنبوا ذنباً لا أغفره لهم[٥].

وروى ابن جرير عن يزيد بن قسيط رحمه الله تعالى قال: كان

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٣٦).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٤٦٠).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٣٦).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (ص: ١١٧).

(٥) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٣١٣).

الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يكون لهم مساجد خارجة من قراها، فإذا أراد النبي أن يستنبىء ربه ﷻ عن شيء خرج إلى مسجده، فصلى ما كتب له، ثم سأل ما بدا له، فبينا نبي في مسجده إذ جاءه إبليس حتى كان بينه وبين القبلة، فقال النبي عليه السلام: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ ثلاثاً ـ فقال إبليس: أخبرني بأي شيء تنجو مني؟

قال النبي: بل أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم.

فأخذ كل منهما على صاحبه، فقال النبي عليه السلام: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[الحجر: ٤٢].

قال إبليس: قد سمعت هذا قبل أن تولد.

قال النبي عليه السلام: ويقول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[الأعراف: ٢٠٠]، وإني والله ما أحسَسْت بك قط إلا استعذت بالله منك.

فقال إبليس: صدقت، بهذا تنجو مني.

قال النبي: فأخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم.

قال: آخذه عند الغضب، وعند الهوى(١).

قلت: ومن هنا أرشدنا رسول الله ﷺ أن يقول أحدنا عند الغضب:

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٤/ ٣٤). وقد تقدم نحوه لكن عزاه هناك لابن المبارك.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وروى ابن أبي شيبة عن أبي جعفر رحمه الله تعالى مرسلاً: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَعُوْذُ بِكَ مِنَ الشَّكِّ بَعْدَ الْيَقِيْنِ، وَأَعُوْذُ بِكَ مِنْ مُقَارَنَةِ الشَّيَاطِيْنِ، وَأَعُوْذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الدِّيْنِ»[(١)].

وروى أبو يعلى بسند حسن، عن أنس رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فِيْ الْيَوْمِ عَشْرَ مَرَّاتٍ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكاً يَرُدُّ عَنْهُ الشَّيَاطِيْنَ»[(٢)].

وروى الديلمي عن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُوْ بِهَذَا الدُّعَاءِ فِيْ أَوَّلِ لَيْلِهِ وَأَوَّلِ نَهَارِهِ إِلاَّ عَصَمَهُ مِنْ إِبْلِيْسَ وَجُنُوْدِهِ: بِسْمِ اللهِ ذِيْ الشَّأْنِ، عَظِيْمِ الْبُرْهَانِ، شَدِيْدِ السُّلْطَانِ، مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، أَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ».

وروى ابن أبي شيبة، وأبو نعيم عن إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى قال: إذا قال الإنسان حين يصبح: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم عشر مرات، أُجير من الشيطان حتى يمسي، وإذا قاله

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩١٤٤).

(٢) رواه أبو يعلى في «المسند» (٤١١٤). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٢): فيه ليث بن أبي سليم، ويزيد الرقاشي، وقد وثقا على ضعفهما، وبقية رجاله رجال الصحيح.

ممسياً أجير من الشيطان حتى يصبح[1].

وروى أبو نعيم عن كعب رحمه الله تعالى قال: لولا كلمات أقولهن حين أصبح وحين أمسي لجعلتني اليهود مع الكلاب النابحة والحمر الناهقة: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر، الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر الشيطان وحزبه[2].

وروى ابن السني عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ تَدَاعَتْ جُنُوْدُ إِبْلِيْسَ وَأَجْلَبَتْ، وَاجْتَمَعَتْ كَمَا تَجْتَمِعُ النَّحْلُ عَلَى يَعْسُوْبِـهَا، فَإِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَعُوْذُ بِكَ مِنْ إِبْلِيْسَ وَجُنُوْدِهِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا قَالَهَا لَمْ تَضُرَّهُ»[3].

والآيات، والأذكار، والأدعيَة الحافظة من الشيطان كثيرة تطلب من محالِّها.

والاستعاذة بالله من الشيطان مأمور بها في كتاب الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٤٠٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٢٦).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٧٧).

(٣) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص: ١٣٣).

﴿بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾[المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨].

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَعُوْذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَمِنْ هَمْزِهِ وَنَفْثِهِ وَنَفْخِهِ».

قال: همزه: الموتة، ونفثه: الشهوة، ونفخه: الكبرياء. رواه ابن أبي حاتم وغيره[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠١].

وحقيقة الاستعاذة من الشيطان التجاء إلى الله تعالى، واعتصام بحبله من خلل يطرأ على العبد، أو خطأ يحصل منه في القراءة وغيرهما، وإقرار لله تعالى بالعبودية والقدرة، واعتراف من العبد بالضعف والعجز عن هذا العدو الباطن الذي لا يقدر على رفعه ومنعه إلا الله تعالى الذي خلقه، فهو لا يقبل مصانعة، ولا يدارى بإحسان، ولا يقبل رشوة، ولا يؤثِّر فيه جميل، بخلاف العدو الظاهر من جنس الإنسان كما دلت عليه الآيات الثلاثة من القرآن العظيم التي أرشد الله فيها إلى رد العدو الإنساني والشيطاني، فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩]؛ فهذا ما يتعلق بالعدو الإنساني.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٤٠)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٤٠٣).

ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[الأعراف: ٢٠٠].

وقال في المؤمنين: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[المؤمنون: ٩٦].

ثم قال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[المؤمنون: ٩٧].

وقال في فصلت: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[فصلت: ٣٤ ـ ٣٦].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله تعالى من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنَّه ولي حميم. رواه البيهقي في «سننه»، والمفسرون[1].

واعلم أن الغضب يكون من نزغ الشيطان وحمية النفس، فإذا استعاذ بالله المؤمن عند غضبه بطل عنه عمل الشيطان ونزغه، ثم يرد حمية النفس بالحلم والعفو، ودفع السيئة بالحسنة، وقد أمن من شر غضبه.

قال خيثمة رحمه الله تعالى: كان يقال: إن الشيطان يقول: كيف يغلبني ابن آدم؛ إنه إذا رضي جئت حتى أكون في قلبه، وإذا غضب

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٤٥)، والطبري في «التفسير» (٢٤/ ١١٩).

طِرْت حتى أكون في رأسه؟ رواه ابن أبي شيبة[1].

قلت: يغلبه بذكر الله تعالى، والتسمية في أموره كلها، والاستعاذة منه كما في حديث والد أبي المليح رضي الله تعالى عنه، وكان رديفَ رسولِ الله ﷺ فعثرت بهما الدابة، فقال: تعس الشيطان.

فقال له النبي ﷺ: «لا تَقُلْ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ؛ فَإِنَّهُ يَعْظُمُ حَتَّى يَصِيْرَ مِثْلَ الْبَيْتِ، وَيَقُوْلُ: بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللهِ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيْرَ مِثْلَ الذُّبَابِ». رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الحاكم وغيره[2].

واعلم أن العبد لا يهتدي إلى دفع نزغ الشيطان وكيده عنه بذكر الله تعالى إلا بتوفيقه.

وفي «الصحيحين»، وغيرهما عن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فاشتد غضب أحدهما، فقال النبي ﷺ: «إِنِّيْ لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ: أَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ».

فقال الرجل: أمجنون تراني؟

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠][3].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٠١٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٣١٠٨)، ومسلم (٢٦١٠).

وفي «سنن أبي داود»، و«الترمذي»، و«النسائي»عن معاذ رضي الله تعالى عنه قال: استَبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى خُيلَ لي أن أنفه يتمزع من شدة غضبه، فقال النبي ﷺ: «إِنِّيْ لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ مِنَ الْغَضَبِ».

فقال: ما هي يا رسول الله؟

قال: «تَقُوْلُ: اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَعُوْذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ».

قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى وضحك، وجعل يزداد غضباً[1].

فالذي يهتدي إلى الاستعاذة عند الغضب من أولياء الله تعالى الموفقين، ولا يكون ذلك إلا بتوفيق رب العالمين.

ولقد قال مطرِّف بن عبدالله رحمه الله تعالى: إنما وجدت العبد ملقى بين ربه تعالى وبين الشيطان، فإن استشلاه ربه ـ أو قال: استنقذه ـ نجا، وإن تركه للشيطان ذهب به. رواه الإمام عبدالله بن المبارك في «الزهد»[2].

ورواه الإمام أحمد في «زهده»، ولفظه: وجدت العبد ساقطاً بين يدي ربه وبين الشيطان، فإن تركه ربه ذهب به الشيطان، وإن عصمه

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٨٠)، والترمذي (٣٤٥٢) وقال: مرسل عبد الرحمن ابن أبي ليلى لم يسمع من معاذ، ورواه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٢١).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٠٠).

ربه ﷻ اعتصم[1].

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: إنما مثل ابن آدم كالشيء الملقى بين يدي الله تعالى وبين الشيطان، فإن كان لله فيه حاجةً حازه من الشيطان، وإن لم يكن لله فيه حاجة خلَّى بينه وبين الشيطان[2].

وروى أبو الشيخ في كتاب «الثواب» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ مَعْصُوْمُوْنَ مِنَ شَرِّ إِبْلِيْسَ وَجُنُوْدِهِ: الذَّاكِرُوْنَ اللهَ كَثِيْرَاً بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْمُسْتَغْفِرُوْنَ بِالأَسْحَارِ، وَالْبَاكُوْنَ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ»[3].

وروى أبو نعيم عن يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله تعالى قال: سمعت ذا النون رضي الله تعالى عنه يدعو ويقول: إلهي! الشيطان لك عدو ولي عدو، ولن تغيظه بشيء أنكا له من عفوك عنا؛ فَاعف عنا[4].

ولعل مأخذ ذي النون من قول النبي ﷺ: «مَا رُؤِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمَاً

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٢٤٢) بلفظ قريب.

(٢) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ١٥٥).

(٣) كذا عزاه السيوطي في «الجامع الكبير» (٤/ ١٧٦) إلى أبي الشيخ في «الثواب».

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٨٤).

هُوَ فِيْهِ أَصْغَرُ وَلا أَدْحَرُ وَلا أَحْقَرُ وَلا أَغْيَظُ مِنْهُ فِيْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لِمَا يَرَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللهِ عَنِ الذُّنُوْبِ الْعِظَامِ، إِلاَّ مَا رُئِيَ يَوْمَ بَدْرٍ؛ فَإِنَّهُ رَأَى جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلامُ يَزَعُ الْمَلائِكَةَ». رواه مالك، ومن طريقه البيهقي، وغيره عن طلحة بن عبدالله بن كريز رحمه الله تعالى، مرسلاً[1].

وروى أبو يعلى عن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «يَقُوْمُ مِنْ بَيْتِ الْمَيِّتِ الْمُؤْمِنِ إِلَى قَبْرِهِ صَفَّانِ مِنَ الْمَلائِكَةِ يَسْتَقْبِلُوْنَهُ بِالاسْتِغْفَارِ، فَيَصِيْحُ إِبْلِيْسُ عِنْدَ ذَلِكَ صَيْحَةً يَنْصَدِعُ لَهَا بَعْضُ عِظَامِ جَسَدِهِ، وَيَقُوْلُ لِقَوْمِهِ: الْوَيْلُ لَكُمْ! كَيْفَ خَلَصَ هَذَا الْعَبْدُ مِنْكُمْ؟ فَيَقُوْلُوْنَ: هَذَا كَانَ مَعْصُوْماً»[2].

وروى ابن أبي الدنيا عن سفيان رحمه الله تعالى قال: إن الشيطان أشد بكاء على المؤمن إذا مات من بعض أهله لما فاته من فتنته إياه في دنياه[3].

وعن يحيى بن سعيد رحمه الله تعالى قال: لما حضرت عمرة ابنة عبد الرحمن رحمهما الله تعالى الوفاة اجتمع عندها ناس من التابعين منهم

---

(1) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (1/ 422)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (4069).

(2) انظر: «المطالب العالية» لابن حجر (18/ 540).

(3) رواه ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» (ص: 52).

عروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وأبو سلمة، فبينما هم عندها وقد أغمي عليها إذ سمعوا نفيضاً من السقف، فإذا ثعبان أسود قد سقط كأنه جذع عظيم، فأقبل يهوي نحوها إذ سقط رق أبيض فيه مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، من رب عكب إلى عكب، ليس لكم على بنات الصالحين سبيل، فلما نظر إلى الكتاب سعى[1] حتى خرج من حيث نزل[2].

وروى ابن المبارك في «الزهد»، وابن أبي الدنيا عن عطاء بن يسار رضي الله تعالى عنه قال: تبدى إبليس لرجل عند الموت، [فقال: نجوت مني]، فقال: ما نجوت منك بعد[3].

وقال الإمام عبدالله ابن الإمام أحمد رحمة الله عليهما: حضرت وفاة أبي، وبيده[4] خرقة لأشد لحييه، فكان يغرق ثم يفيق، ويقول بيده: لا بعد، لا بعد، فعل هذا مراراً، فقلت له: يا أبه! أي شيء يبدو مِنك؟

فقال: الشيطان قائم بحذاي عاض على أنامله، يقول: فُتَّنِي يا أحمد، وأنا أقول: لا بعد حتى أموت[5].

وحكى القرطبي في «التذكرة» عن شيخ شيخه أحمد بن محمد

---

(١) في «مصائد الشيطان»: «سما» بدل «سعى».

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» (ص: ٢٧).

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٠٤). وعنده: «ما أمنتك بعد».

(٤) في «الحلية»: «بيدي» بدل «بيده».

(٥) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١٨٣).

القرطبي أنه احتضر فقيل له: قل: لا لإله إلا الله.

فكان يقول: لا.

فلما أفاق ذكرنا له ذلك، فقال: أتاني شيطانان عن يميني وعن يساري، يقول أحدهما: مُت يهودياً فإنه خير الأديان، والآخر: مت نصرانياً فإنه خير الأديان، وكنت أقول لهما: لا لا، أتقولان هذا وقد كتبت بيدي في كتاب الترمذي، والنسائي عن النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِيْ أَحَدَكُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ فَيَقُوْلُ: مُتْ يَهُوْدِيَّاً مُتْ نَصْرَانِيَّاً»، «فَكَانَ الْجَوَابُ لَهُمَا لا لَكُمْ».

قال القرطبي: لم أجد هذا الحديث في كتاب الترمذي، وأما النسائي فإنه نسخ، فيحتمل أن يكون في بعضها.

وقيل: إن الله إذا أراد أن يثبِّت أحداً عند الموت بعث إليه جبريل عليه السلام.

وقيل: يبعث إليه الرحمة فتقول له: هؤلاء أعداؤك من الشياطين، مت على الحنيفية والشريعة، فما شيء أحب إلى الإنسان وأفرح مِنْهُ، فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[آل عمران: ٨].

وكان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَعُوْذُ بِكَ مِنَ الْهَرَمِ، وَأَعُوْذُ بِكَ مِنْ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ». رواه أبو داود[1].

---

(١) رواه أبو داود (١٥٥٢)، وكذا النسائي (٥٥٣١) عن أبي اليَسَر رضي الله عنه.

وروى ابن أبي شيبة، والإمام أحمد، والترمذي عن أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه أن يقول: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوْبِ ثَبِّتْ قَلْبِـيْ عَلَى دِيْنِكَ».

قلت: يا رسول الله! وإن القلوب لتنقلب؟

قال: «نعَمْ، مَا مِنْ خَلْقِ اللهِ مِنْ بَشَرٍ مِنْ بَنِيْ آدَمَ إِلاَّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِـعِ اللهِ، فَإِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ، فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ لا يُزِيْغَ قُلُوْبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ».

قلتُ: يا رَسولَ اللهِ! ما أَكثرَ مَا تَدعو بِهذَا الدُّعاءِ! أَلا تُعلِّمني دَعوةً أَدْعُو بِها لِنَفسِي؟

قالَ: «بَلَى، قُلْ: اللَّهُمَّ رَبَّ مُحَمَّدٍ النَّبِـيِّ! اغْفِرْ لِيْ ذَنْبِـي، وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِـي، وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِـلاَّتِ الْفِتَنِ مَا أَحْيَيْتَنِي»[1].

وروى الأولان عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوْبِ! ثَبِّتْ قَلْبِـي عَلَى دِيْنِكَ».

قلت: يا رسول الله! ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء؟

فقال: «لَيْسَ مِنْ قَلْبٍ إِلاَّ وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِـعِ الرَّحْمَنِ، إِذَا شَاءَ أَنْ يُقِيْمَهُ أَقَامَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُزِيْغَهُ أَزَاغَهُ، أَمَا تَسْمَعِيْنَ قَوْلَهُ

---

(١) هذا لفظ الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٣٠١)، وقد تقدم تخريجه.

تعَــالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[آل عمران: ٨]»[١].

وفي البـاب عن أنس، وسـبرة بن فـاتِك، وجـابر، والنـواس بن سمعان رضي الله تعالى عنهم[٢].

وروى الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن سفيان رحمه الله تعالى قال: إذا سئل الميت: من ربك؟ تزايا له الشيطان في جنوده يشير إلى نفسه: أنا ربك[٣].

ولذلك كان السلف يستحبون إذا وضع الميت في قبره أن يقولوا: اللهم أعذه من الشيطان، كما رواه الحكيم الترمذي أيضاً عن عمرو بن مرة رحمه الله تعالى[٤].

وروى الطبراني بسند ضعيف، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِـهَا خَرَّ إِبْلِيْسُ سَاجِداً يُنَادِي: إِلَهِي! مُرْنِيْ أَنْ أَسْجُدَ لِمَنْ شِئْتَ، فَتَجْتَمِعُ إِلَيْهِ زَبَانِيَّتُهُ، فَيَقُوْلُوْنَ: يَا سَيِّدَهُمْ! مَا هَذَا التَّضَرُّعُ؟ فَيَقُوْلُ: إِنِّيْ سَأَلْتُ رَبِـي أَنْ يُنْظِرَنِيْ إِلَى الْوَقْتِ الْمَعْلُوْمِ، قَالَ:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «سنن الترمذي» (٣٥٢٢).

(٣) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ٢٢٧).

(٤) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ٢٢٧).

ثُمَّ تَخْرُجُ دَابَّةُ الأَرْضِ مِنَ الصَّفَا، قَالَ: فَأَوَّلُ خُطْوَةٍ تَضَعُهَا بِأَنْطَاكِيَّةَ فَيَأْتِي إِبْلِيْسُ فَتَلْطِمُهُ»[1].

وروى نُعيم بن حماد في كتاب «الفتن»، والحاكم في «المستدرك» وضعفه، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَجفَّتِ الأَقْلامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ لا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ تَوْبَةٌ، وَيخِرُّ إِبْلِيْسُ سَاجِداً، وَيُنَادِيْ: إِلَهِي! مَنْ لِيْ أَنْ أَسْجُدَ لِمَنْ شِئْتَ، وَتَجْتَمِعُ إِلَيْهِ الشَّيَاطِيْنُ فَيَقُوْلُوْنَ: يَا سَيِّدَهُمْ! إِلَى مَنْ تَضْرَعُ؟

فَيَقُوْلُ: أَنَا سَأَلْتُ رَبـي أَنْ يُنْظِرَنِيْ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، وَقَدْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَهَذَا الْوَقْتُ الْمَعْلُوْمُ، وَتَصِيْرُ الشَّيَاطِيْنُ ظَاهِرَةً فِيْ الأَرْضِ حَتَّى يَقُوْلَ الرَّجُلُ: هَذَا قَرِيْنِي الَّذِي كَانَ يَغْوِيْنِي، فَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَخْزَاهُ، وَلا يَزَالُ إِبْلِيْسُ سَاجِداً بَاكِياً حَتَّى تَخْرُجَ الدَّابَّةُ فَتَقْتُلَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ، وَيَمْتَنِعُ الْمُؤْمِنُوْنَ بَعْدَ ذَلِكَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً لا يَتَمَنَّوْنَ شَيْئاً إِلاَّ أُعْطُوْهُ حَتَّى تِتِمَّ أَرْبَعُوْنَ سَنَةً بَعْدَ الدَّابَّةِ، ثُمَّ يَعُوْدُ فِيْهِم الْمَوْتُ فَلا يَبْقَى مُؤْمِنٌ، وَيَبْقَى الكُفَّارُ يَتَهَارَجُوْنَ فِيْ الطُّرُقِ كَالْبَهَائِمِ حَتَّى يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ فِي وَسَطِ الطَّرِيْقِ يَقُوْمُ وَاحِدٌ عَنْهَا، وَيَتْرُكُ وَاحِداً، وَأَفْضَلُهُمْ يَقُوْلُ: لَوْ تَنَحَّيْتُمْ عَنِ الطَّرِيْقِ كَانَ أَحْسَنَ، فَيَكُوْنُوْنَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ حَتَّى

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩٤). وضعف ابن كثير إسناده في «تفسيره» (٢/ ١٩٦).

لا يُوْلَدَ أَحَدٌ مِنْ نِكَاحٍ، ثُمَّ يعْقِمُ اللهُ النِّسَاءَ ثَلاثِيْنَ سَنَةً، وَيَكُوْنُوْنَ كُلُّهُمْ أَوْلاد زِناً شِرَارَ النَّاسِ، عَلَيْهِمْ تَقُوْمُ السَّاعَةُ»[1].

وروى ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي بكر الهذلي رحمه الله تعالى قال: لما نزلت: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قال إبليس: يا رب! وأنا من الشيء، فنزلت: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[الأعراف: ١٥٦]، فنزعها من إبليس[2].

وروى ابن المنذر نحوه عن ابن جريج، وعن السدي، ورواه عبد ابن حميد عن قتادة رحمهم الله تعالى[3].

وفي «شعب الإيمان» للحافظ أبي بكر البيهقي: عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مدَّ إبليس عنقه، فقال: أنا من الشيء، فنزلت ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٥٦]، فمدت اليهود والنصارى أعناقها، فقالوا: نحن نؤمن بالتوارة والإنجيل، ونؤدي الزكاة، فاختلسها الله تعالى من إبليس واليهود والنصارى، فجعلها لهذه الأمة خاصة، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾[الأعراف: ١٥٧] الآية[4].

---

(١) رواه نعيم بن حماد في «الفتن» (٢/ ٦٥٤)، والحاكم في «المستدرك» (٨٥٩٠). قال الذهبي: موضوع.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٧٩).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥٧٢).

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٧٩).

وروى الطبراني بسند ضعيف، عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ الْفَاجِرُ فِيْ دِيْنِهِ، وَالأَحْمَقُ فِيْ مَعِيْشَتِهِ، وَالَّذِي بَعَثَنِي لَيَغْفِرَنَّ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْفِرَةً يَتَطَاوَلُ لَهَا إِبْلِيْسُ رَجَاءَ أَنْ تُصِيْبَهُ»(١).

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى حُلَّةً مِنَ النَّارِ إِبْلِيْسُ فَيَضَعُهَا عَلَى حَاجِبِهِ، وَيَسْحَبُهَا مِنْ خَلْفِهِ، وَذُرِّيَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ يُنَادِي: يَا ثُبُوْرَاهُ، وَهُمْ يُنَادُوْنَ: يَا ثُبُوْرَهُمْ، حَتَّى يَقِفُوْا عَلَى النَّارِ، فَيَقُوْلُ: يَا ثُبُوْرَاهُ، وَيَقُوْلُوْنَ: يَا ثُبُوْرَهُمْ، فَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾[الفرقان: ١٤]»(٢).

وفي كتاب الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾[الشعراء: ٨٧-٩٤]؛ أي: الآلهة، إلا ما استثنى الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾[الأنبياء: ١٠١].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٠٢٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١٦): وفي إسناده سعد بن طالب أبو غيلان، وثقه أبو زرعة وابن حبان، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٥٣).

وقد قيل: (إنَّ) في الآية بمعنى (إلا)، وكان الأصل: إنا في معنى إلا، حذفت الألف للساكنين.

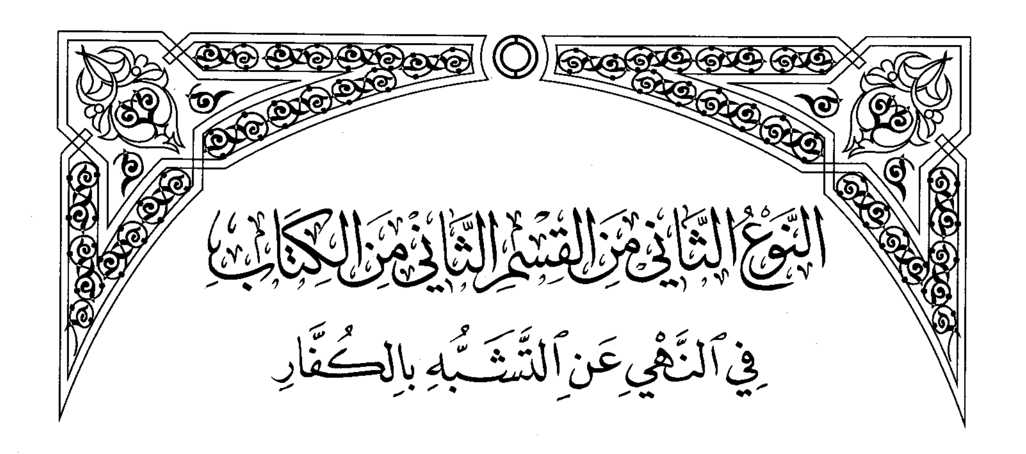
ومعنى ﴿فَكُبْكِبُواْ﴾ جمعوا؛ أي: فجمع فيها الآلهة إلا ما استثنى ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾: الذين عبدوهم، ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾؛ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٢ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الشعراء: ٩٤ ـ ١٠٤].

فهذا آخر أمر الشيطان اللعين، وآخر أتباعه الغاوين، ومن كان يؤمن بهذا، فكيف تسمح نفسه باتباعه والتشبه به وهو يعلم ما ينتهي أمره وأمر أتباعه وأشباهه إليه.

ولقد قلت: [من مجزوء الرمل]

أَوَّلُ الــــشَّيْطانِ رَجْـــــمٌ ... وَمَـــدَى الـــشَّيْطانِ لَعْـــنُ
وَلأَشْـــــباهِ الــــشَّيا ... طِـينِ عَــنِ الْخَيْـراتِ وَهْــنُ
وَلَهُــمْ فِــي يَــوْمِ فَــصْلِ الــ ... أَمْـــرِ إِبْعـــادٌ وَحُـــزْنُ
وَعَلَـــيْهِمْ كُـــلُّ سَـــهْلٍ ... كَيْــفَ كــانَ الْقَــوْمُ حُــزْنُ
وَلِمَـــنْ تــابَ إِلَـــى اللَّـــ ... ــهِ مِــنَ الْعِــصْيانِ أَمْــنُ

* * *



وهم أتباع الشيطان في المعصية التي لا تُغفر، وهي الشرك بالله تعالى، فيتعين على المؤمن أن يتجنب التشبه بهم في أصل الكفر، والخصال التي يعتادونها؛ إما لترتبها على الكفر، أو لاستجرارها إليه؛ أي: لأنها تُنقص الإيمان وتُوهيه، أو لنحو ذلك لِمَا علمت في أول الكتاب من أنَّ من تشبه بقوم فهو منهم.

وقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا». رواه الترمذي من حديث عبدالله بن عمرو(١).

وروى الديلمي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ عَمِلَ بِسُنَّةِ غَيْرِنَا»(٢).

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: من عهد قابيل إلى بعثة النبي ﷺ ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾؛ أي: يصدقوا بالله ورسله، وما جاؤوا به، ويعملوا بمقتضى ذلك ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: ممن بعدهم من هذه الأمة إلى آخر الدهر ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[يونس: ١٣ ـ ١٤]؛ أي: هل تستقيمون على ما أمرتم به، أم تعملون مثل أعمالهم؟

وفيه وعيد شديد لمن حذا حَذْوهم في الظلم والإجرام، والإعراض عن الإيمان والإسلام.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾[النساء: ١١٥] الآية.

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[آل عمران: ١٥٦].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[يونس: ٩٤ ـ ٩٥].

وإذا كان هذا الخطاب مع المعصوم فكيف بغيره، أو الخطاب للنبي والمراد به أمته.

وقال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[يونس: ١٠٤ ـ ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ

مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾[المجادلة: ٢٢].

ولقد بينا لك سابقاً أنَّ التشبه بالقوم دليل محبتهم ومودتهم، واستحسان أحوالهم وطريقتهم.

وقال تعالى في ذم المقتدين بأسلافهم في الكفر والمعصية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[البقرة: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[لقمان: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[البقرة: ١١٨].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[التوبة: ٣٠].

أي: كيف يُصرفون عن الحق الواضح بعد قيام الأدلة عليه إلى الباطل بمجرد التقليد والتشبه بمن تقدمهم من الكفار.

وقال تعالى حكاية عن صالح عليه السلام: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

قال قتادة: المسرفون في الآية هم المشركون. رواه عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وغيرهما(1).

وقال تعالى حكاية قول المشركين: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[الزخرف: ٢٢ ـ ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾[هود: ١١٣].

قال أبو العالية رحمه الله تعالى: لا ترضوا أعمالهم(2).

وابن عبـــاس رضي الله تعالى عنهما: لا تميلوا إليهم(3). رواهما ابن المنذر.

وقال القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى في الآية: ولا تميلوا إليهم أدنى ميل؛ فإن الركون هو الميل اليسير كالتزي بزيهم، والتعظيم لذكرهم، انتهى(4).

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٨٠٣).

(٢) ورواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ١٢٧).

(٣) ورواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ١٢٧).

(٤) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٦٦).

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[غافر: ٢١].

أمَرَ الله تعالى هذه الأمة بالنظر فيما صار إليه الأمم من الأخذ الوبيل بسبب الذنوب؛ ليحذروا مما كان أولئك عليه من الاغترار بالقوة والتأثير والتصرُّف في الأمور.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[غافر: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[الروم: ٩ ـ ١٠].

و(السُّوأى) خبر (كان)؛ أي: العاقبة السوأى، أو: العقوبة السوأى.

و(أن كذبوا) بدل من (السوأى)، أو تعليل للجملة قبله؛ أي: بسبب أن كذبوا.

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾[السجدة: ٢٦].

فقد دلت هذه الآية والآيات قبلها، وأمثالها مما تضمنته من الاستفهام التوبيخي على استحباب الاعتبار بأحوال الأمم السالفة بعد

النظر في آثارهم والاستماع إلى أخبارهم، بحيث يتسبب عنه الانزجار عمَّا كانوا عليه من الكفر والظلم والاغترار خشية أن يصيبهم ما أصابهم، فهي تتضمن الزجر عن التشبه بهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

وروى الشيخان عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «خَالِفُوْا الْمُشْرِكِيْنَ؛ احْفُوْا الشَّوَارِبَ، وَاعْفُوْا اللِّحَى»[1].

وروى ابن أبي شيبة عنه ـ موقوفاً ـ قال: خالفوا سنن المشركين[2]؛ أي: طرائقهم وأعمالهم.

وروى الإمام الحافظ أبو حفص بن شاهين في «مسنده»، والديلمي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَقَرَّبُوْا إِلَى اللهِ بِبُغْضِ أَهْلِ الْمَعَاصِيْ، وَالْقَوْهُمْ بِوُجُوْهٍ مُكْفَهِرَّةٍ، وَالْتَمِسُوْا رِضَى اللهِ بِسُخْطِهِمْ، وَتَقَرَّبُوْا إِلَى اللهِ بِالتَّبَاعُدِ عَنْهُمْ»[3].

وإنما أمرنا ببغضهم إيذاناً ببغض أعمالهم والتنزه عنها، وكي لا يألفونا ونألفهم فتتسارق الطِّباع.

والتباعد عنهم إنما المقصود منه التباعد عن أخلاقهم وأعمالهم.

والوجوه المكفهرة هي العابسة عند لقائهم، فالعبوس في وجوه

---

(١) رواه البخاري (٥٥٥٣)، ومسلم (٢٥٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٦٤٩).

(٣) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٢٣٢٠).

أهل المعاصي زجراً لهم، ولقاؤهم باكفهرار الوجوه مندوب إليه كلقاء أهل الطاعة بالبشاشة، والتودد إليهم، والتخلق بأخلاقهم كما سبق بيانه.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: في الزَّبور مكتوب: طوبى لمن لم يسلك سبيل الأَثَمة، ولم يجالس الخطَّائين، ولم يقم[1] في همِّ المستهزئين، ولكن همه سنة الله ﷻ وإياها يتعلم بالليل والنهار، مَثَلُه مثل شجرة على شَطِّ الماء تُؤتي ثمرها في حينها، ولا يتناثر من ورقها شيء، وكل عمله بأمري، ليس عمله مثل عمل المنافقين[2].

وعن عقيل بن مدرك السُّلمي رحمه الله تعالى قال: أوحى الله تعالى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: قل لقومك لا يأكلوا طعام أعدائي، ولا يشربوا شراب أعدائي، ولا يتشكلوا بشكل أعدائي؛ فيكونوا أعدائي[3].

وروى أبو الحسن بن جهضم في «بهجة الأسرار» عن حذيفة المرعشي رحمه الله تعالى أنه قال: إياكم وهدايا الفجارِ والسفهاء؛ فإنَّكم إذا أكلتموها[4] ظنوا أنَّكم رضِيتم فعلَهم[5].

---

(١) في «الدر المنثور»: «يفيء» بدل «يقم».

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٣٠٤).

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٠٣).

(٤) في «شعب الإيمان»: «قبلتموها» بدل «أكلتموها».

(٥) تقدم تخريجه.

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «الأولياء» عن عمرو بن مُرَّة رحمه الله تعالى، عن رجل من بني هاشم رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَنْبَغِي لأَوْلِيَاءِ اللهِ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْخُلُوْدِ الَّذِيْنَ لَهَا سَعْيُهُمْ وَفِيْهَا رَغْبَتُهُمْ وَلَهَا يُرِيْدُوْنَ: أَنْ يَكُوْنُوْا أَوْلِيَاءَ، وَلا أَحِبَّاءَ، وَلا جُلَسَاءَ لأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ[1] مِنْ أَهْلِ دَارِ الْغُرُوْرِ الَّذِيْنَ لَهَا سَعْيُهُمْ وَفِيْهَا رَغْبَتُهُمْ، هُمْ أَشَدُّ تَبَاعُدَاً عَنْهُمْ، وَتَبَادُرَاً إِلَى الْخَيْرِ، وَمُقَاطَعَةً لَهُم أَسْبَابَاً وَأَخْلاقَاً»[2].

وروى الأستاذ أبو القاسم القشيري في «رسالته» عن يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى قال: تزكية الأشرار لك هجنَة[3]، وحبهم لك عيب عليك، وهان عليك من احتاج إليك[4].

وروى ابن المبارك في «الزهد» عن يحيى بن [أبي] كثير رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ـ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ مِنْ صَاحِبِ غَفْلَةٍ، وَقَرِيْنِ سُوْءٍ، وَزَوْجِ أَذَى»[5].

ومن المعلوم عند عامة أهل العلم أن الله تعالى لم يذكر قصص الأمم الماضية في كتابه العزيز لتكون أسماراً، ولكن قررها لتكون

---

(١) في «الأولياء»: «السلطان».

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (ص: ٢٠).

(٣) في الأصل: «هجنة لك».

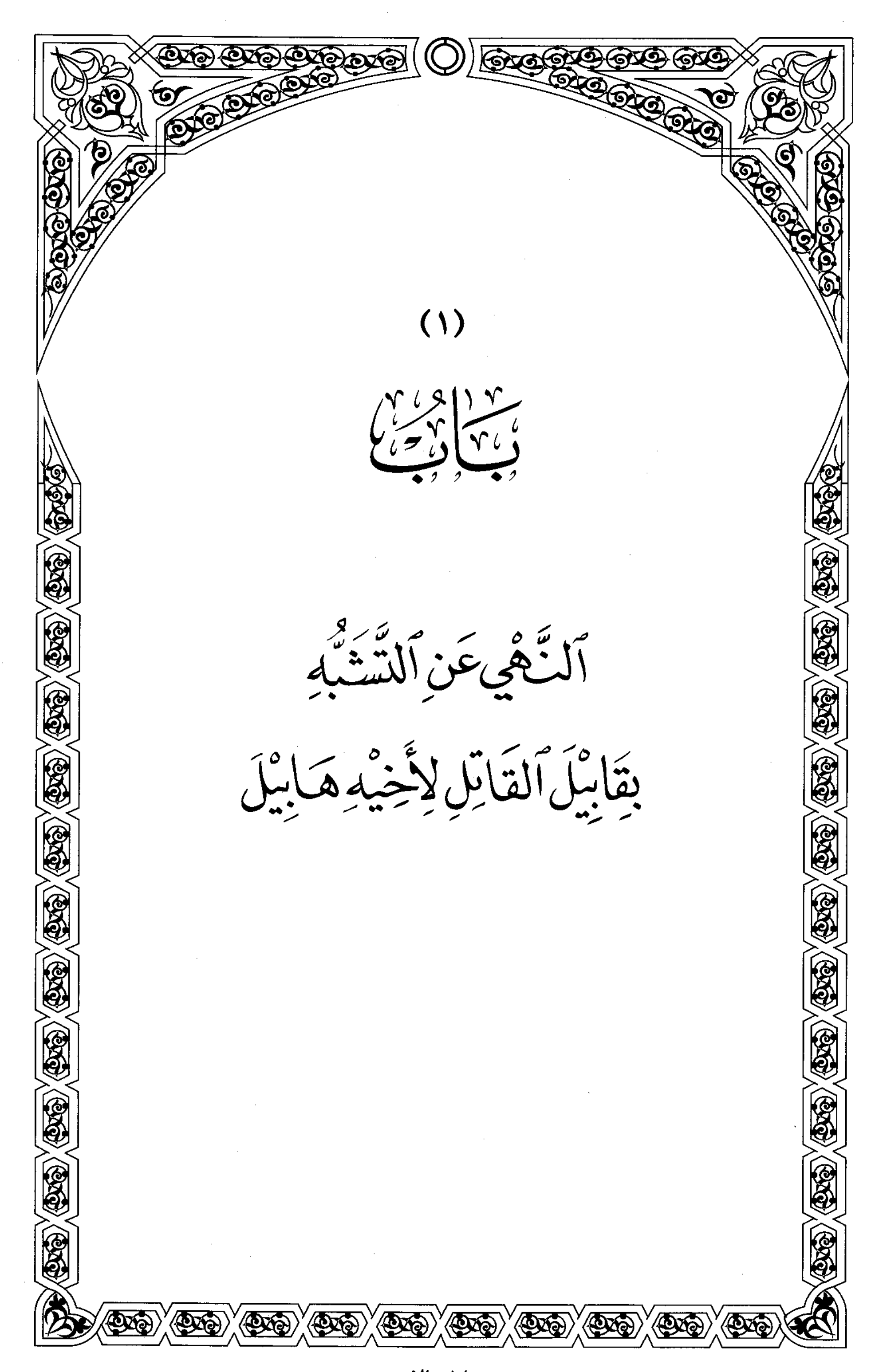
(٤) رواه القشيري في «رسالته» (ص: ٤٤).

(٥) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٣٠٣).

اعتباراً، فإذا نظر العبد إلى قصصهم وهلاك ضُلاَّلهم، ونجاة المؤمنين منهم، كان ذلك أدعى للعبد، وأبعث له على الثبات على الإيمان والطاعة، وأردع له وأزجر عن الكفر والمعصية؛ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف: ١١١].

فينبغي أن نشير إلى قصص مشاهير الأمم التي ذكرها الله تعالى في القرآن العظيم على سبيل الإيجاز، ونبين ما انتقد عليهم من الأعمال والأقوال والاعتقادات التي هي السبب في هلاكهم وبَوارهم؛ لينكفَّ المؤمن عن التشبه بهم فيها، وينزجر عن الاقتداء بهم في تعاطيها.

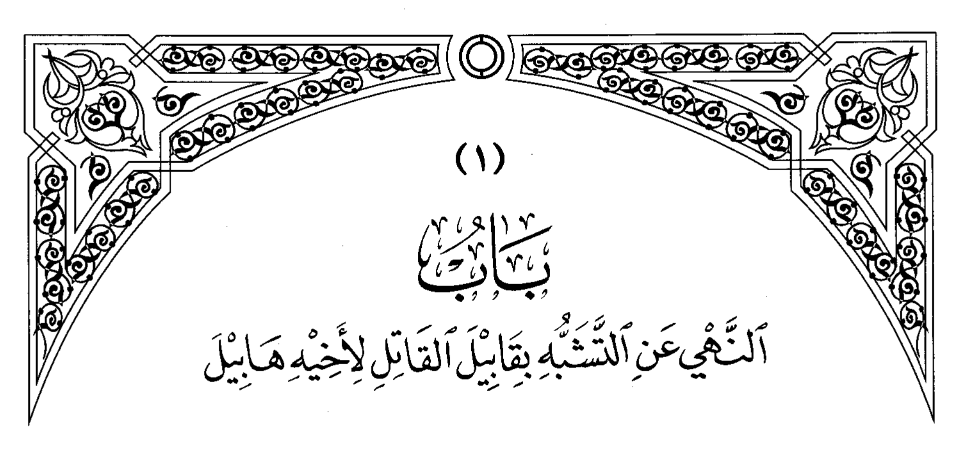
❐ ❐ ❐



(١)

بَابُ

النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِقَابِيلَ الْقَاتِلِ لِأَخِيهِ هَابِيلَ



(١)
باب
النهي عن التشبه بقابيل القاتل لأخيه هابيل

وهو أول من عَبَدَ النار، وأول من قتل النفس التي حرَّم الله تعالى بغير حق، وأول من عقَّ أبويه، وأول من قطع رحمه.

روى عبد بن حميد عن الحسن رحمه الله تعالى قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَلا إِنَّ ابْنَي آدَمَ ضَرَبَا لَكُمْ مَثَلاً؛ فَتَشَبَّهُوْا بِخَيْرِهِمَا، وَلا تَشَبَّهُوْا بِشَرِّهِمَا»(١).

وروى الشيخان، والترمذي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمَاً إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهِ؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»(٢).

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾[المائدة: ٢٧] الآيات.

رُوِيَ أَنَّ حواء كانت تلد في كل بطن غلاماً وجارية، فكان آدم عليه السلام إذا شبَّ أولادهُ زوَّجَ غلامَ هذا البطنِ جارية بطنِ آخرَ،

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٥٩).

(٢) رواه البخاري (٣١٥٧)، ومسلم (١٦٧٧)، والترمذي (٢٦٧٣).

فلمَّا ولد قابيل وتوأمته، وهابيل وتوأمته، أمر الله تعالى آدم عليه السلام أن يزوج قابيل توأمة هابيل، وهابيل توأمة قابيل، وكانت أحسن من توأمة هابيل، فسخِط قابيل ذلك، وقال: أنا أحق بأختي.

فقال له آدم عليه السلام: إنها لا تحل لك.

فأبى، وزعم أن الله تعالى لم يأمر أباه بذلك، وإنما أراد ذلك من رأيه.

فقال لهما آدم: قرِّبا قرباناً، وأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها.

وكان القربان إذا كان مقبولاً نزلت نارٌ بيضاءُ من السماء فأكلته، وإلا لم تنزل النار إليه، وأكلته الطير والسباع، وكان قابيل صاحب زرع فقرَّب صُبرة من طعام من رديء زرعه، وكان هابيل صاحب غنم فقرب أحسن كبش عنده، ووضعا قربانهما على الجبل، فتقبل من أحدهما قربانه وهو هابيل، ولم يتقبل من الآخر وهو قابيل، فغضب لرد قربانه، وأَضمر الحسد لأخيه حتى ذهب آدم عليه السلام إلى زيارة البيت الحرام، فجاء قابيل إلى هابيل وهو في غنمه، قال: لأقتلنك.

قال: ولم؟

قال: لأنَّ الله قبِل قربانك ولم يقبل قرباني، وتنكح أنت أختي الحسناء، وأنكح أختك الذميمة فتتحدث الناس أنك خير مني، ويفتخر ولدُك على ولدي.

فقال هابيل: ما ذنبي؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[المائدة: ٢٧ ـ ٢٩].

قال المفسرون: يعني: إن كان الإثم واقعاً لا محالة فأريد أن يكون منك لا مني[١].

وقال بعضهم: أراد بالإثم: العقوبة[٢].

قلت: والذي أختاره أنَّ هابيل أراد تخويف أخيه من القتل، وتهويل أمره عليه لينجو هو من القتل، ويَسْلَم أخوه من العار والإثم، ولم يُرِدْ وقوع العصيان من أخيه.

قال الله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[المائدة: ٣٠].

قال ابن جريج، ومجاهد رحمهما الله تعالى: جهل كيف يقتل أخاه، فجاء إبليس بطائر أو حيوان غيره، فجعل يشدخ رأسه بين حجرين حتى قتله ليقتدي به قابيل، ففعل، وعلَّمه القتل فتعلم. رواه ابن جرير[٣].

قال ابن عباس: كان ذلك في ثورٍ؛ جبلٍ بمكة[٤].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٤٨)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٢٨).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٦/ ١٩٣)، و«معاني القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٥)، و«أحكام القرآن» للجصاص (٤/ ٤٨).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٦/ ١٩٥).

(٤) انظر: «تفسير البغوي» (٢/ ٣٠)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٢/ ٣٣٨).

وقال محمد بن جرير: عند عَقَبة حراء[١].

وقال جعفر الصادق: بالبصرة في موضع المسجد الأعظم[٢].

وروى الربعي في «فضائل الشام» عن علي رضي الله تعالى عنه، وعن كعب الأحبار، وعن عبدالله بن أبي المهاجر رحمهم الله تعالى: أنه بدمشق في جبل قاسيون[٣].

وعن ابن أبي المهاجر: أنهما وضعا القربان في موضع مسجد دمشق على حجر خارج باب الساعات[٤].

وروى ابن عساكر عن علي رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «بِدِمَشْقَ جَبَلٌ يُقَالُ لَهُ: قَاسِيُونُ؛ فِيْهِ قَتَلَ ابْنُ آدَمَ أَخَاهُ»[٥].

وعن كعب قال: الدم الذي على قاسيون هو دم ابن آدم؛ يعني: هابيل عليه السلام[٦].

قالوا: ولما قتله قعد عند رأسه يبكي، إذ أقبل غرابان فاقتتلا،

---

(١) انظر: «زاد المسير» لابن الجوزي (٢/ ٣٣٨)، «تفسير القرطبي» (٦/ ١٣٩).

(٢) انظر: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٦٥٩)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٢/ ٣٣٨).

(٣) انظر: «فضائل الشام» للربعي (ص: ١٦).

(٤) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٤/ ٥).

(٥) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/ ٣٢٩).

(٦) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٤/ ٧).

فقتل أحدهما الآخر، ثم حفر له حفرة فدفنه، فتفطَّن قابيلُ لذلك، ووارى أخاه[1].

ومن هنا يعلم أن هابيل أول مدفون من بني آدم، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾[المائدة: ٣١]؛ أي: على فقده لا على قتله، أو: لم يكن الندم يومئذ توبة.

قال قوم: لم يدر قابيل ما يصنع بأخيه حين قتله، فحمله حتى أروح، فبعث الله له الغراب.

قال مجاهد: حمله في جِراب، ومشى به يحمله على عاتقه مئة سنة[2].

والمروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه حمله سنة واحدة، كما رواه ابن جرير[3].

وقال قوم آخرون: كان يعلم الدفن، ولكن نبذه بالعراء استخفافاً به، ثم لمَّا رأى الغراب يواري الغراب علم من نفسه العجز والقطيعة، فقال ذلك[4].

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٦/ ١٣٩).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٦/ ١٩٨).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٦/ ١٩٦).

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (٦/ ١٤٢).

ثم هرب قابيل إلى عَدَن من أرض اليمن، وامتزج بالوحش، وكان الوحش إذ ذاك يستأنس بالإنس، فلما مضت عليه أيام جاع ولم يجد طعاماً، فأخذ ظبية وشدخ رأسها بالحجر؛ قال ابن عباس: فكانت الموقوذة حراماً من عهد قابيل، وهرب الوحش يومئذ من الإنس لِمَا رأى من قابيل[1].

قلت: ومن هنا يعلم أن القتل للوحش منه، ومنه حصلت الوِحشة للبشر، ثم للوحش.

قالوا: وعرض إبليس لقابيل فقال له: إنما أكلت النار قربان أخيك لأنه كان يعبدها، فانصُب أنت ناراً تكون لك ولعَقِبك، فبنى بيت نار، وهو أول من عبد النار، ولذلك كان أول من ينساق إلى النار كما روي[2].

قال البغوي رحمه الله تعالى: قالوا: واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من اليراع، والطبول، والمزامير، والعيدان، والطنابير، وانهمَكوا في اللهو، وشرب الخمر، وعبادة النار، والزنا، والفواحش حتى أغرقهم الله بالطُّوفان أيامَ نوح عليه السلام، وبقي نسل شيث عليه السلام[3].

قلت: ويجمع بين ذلك وبين ما تقدم أن إبليس وضع المزامير،

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٦/ ١٤٢).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٥٣)، «تفسير القرطبي» (٦/ ١٣٩)،

(٣) انظر: «تفسير البغوي» (٢/ ٣١).

والعيدان، وآلات اللهو على ألحان داود عليه السلام بأن المزامير وآلات اللهو كانت نُسيت في عهد نوح عليه السلام بعد أولاد قابيل، حتى جدَّدهَا إبليس في بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام، أو بعده، أو كانت قبل داود على وضع ولحن، فلما أعطي داود عليه السلام حسن الصوت واللحن جعلها الشيطان على ألحانه، والله الموفق.

وقد اشتملت قصة قابيل على قبائح يتعين على كل مؤمن أن يتبرأ منهَا ويتنزه عنها.

١ ـ فمنهَا: أن قابيل سَخِطَ قسمة الله تعالى، ولم يرض بما قُسم له.

وقد روى الإمام أحمد، والترمذي، والحاكم وصححه، عن سعد ابن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَتُهُ اللهَ، وَمِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَى اللهُ ـ وفي رواية: بِمَا قَسَمَ اللهُ ـ وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخَارَتَهُ اللهَ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ سَخَطُهُ لِمَا قَضَى اللهُ لَهُ ـ وفي رواية: لِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُ ـ»(١).

وروى الطبراني في «الكبير»، وابن حبان في «الضعفاء» عن أبي

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ١٦٨)، والترمذي (٢١٥١) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي حميد، وليس بالقوي عند أهل الحديث. ورواه الحاكم في «المستدرك» (١٩٠٣).

هند الداري رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «قَالَ اللهُ ﷻ: أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا، مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي، وَيَصْبِرْ عَلَى بَلائِي، فَلْيَلْتَمِسْ رَبّاً سِوَايَ»[1].

وفي كتاب الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف: ٣١ ـ ٣٥].

وروى أبو نعيم عن أبي سعيد، وابن مسعود رضي الله تعالى عنهما معاً قالا: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَسَخَّطَ رِزْقَهُ، وَبَثَّ شَكْوَاهُ، وَلَمْ يَصْبِرْ، لَمْ يَصْعَدْ لَهُ إِلَى اللهِ عَمَلٌ، وَلَقِيَ اللهَ تَعَالَى وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ»[2].

وروى الحاكم عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[الزخرف: ٣٢]؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٣٢٠). وضعف العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٠٥٨).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٤٥) وقال: كذا حدث به أحمد ابن زنجويه عن عثمان، وعثمان كثير الوهم سيء الحفظ.

يُعْطِيْ الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لا يُحِبُّ، وَلا يُعْطِي الدِّيْنَ إلاَّ مَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ الدِّيْنَ فَقَدْ أَحَبَّهُ»[1].

ولقد قلت في الرضا بالقسمة: [من السريع]

مَنْ لَيْسَ يَرْضَى بِالَّذِي قَدْ قُسِمْ ... لَمْ يَبْلُغِ الْمَطْلُوْبَ لَكِنْ أَثِمْ
أَمَا تَرى قابِيْلَ فِي سُخْطِهِ ... باءَ بِإِثْمٍ فَوْقَ ما قَدْ حُرِمْ
وَلَمْ يَفُتْ هابِيْلَ مِنْ رِزْقِهِ ... شَيْءٌ وَلَكِنْ بِالرِّضَا قَدْ نُعِمْ
دُنْياكَ تَفْنَى فَادَّخِرْ صالِحاً ... مَنْ كانَ ذا عَقْلٍ لِقَوْلِيْ فَهِمْ
خَلِّ الْهَوى لا يَسْتَمِلْكَ الْهَوى ... مَنْ يَسْتَقِمْ يُغْدَقْ لَهُ فَاسْتَقِمْ

٢ ـ ومنها: عقوق الوالدين وإسخاطهما، وهو من الكبائر.

وروى الترمذي، والحاكم وصححاه، عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ»[2].

ورواه الطبراني، ولفظه: «رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُهُ فِيْ سَخَطِهِمَا»[3].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٧١)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٨٧).

(٢) رواه الترمذي (١٨٩٩) مرفوعاً وموقوفاً وقال: وهذا أصح، والحاكم في «المستدرك» (٧٢٤٩).

(٣) رواه الطبراني في «جزء من اسمه عطاء» (١٥).

وروى أبو نعيم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يُقَالُ لِلعَاقِّ: اِعْمَلْ مَا شِئْتَ مِنَ الطَّاعَةِ؛ فَإِنِّي لا أَغْفِرُ لَكَ»[1].

٣ ـ ومنها: مخالفة النبي، ومخالفة الوالد، ومخالفة الأستاذ.

وقد كان آدم عليه السلام أباً لقابيل، ونبياً، وأستاذاً.

وطاعة الوالدين واجبة إلا إذا أَمَرا بمعصية، أو بما فيه ضرر عليه؛ فإِنْ أمراه بشبهة لا ضرر عليه فيها فالذي عليه الأكثرون ـ كما قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى ـ وجوب طاعتهما في ذلك[2].

فإن أمراه بترك سنة مرة أو مرتين أطاعهما، فإن أمراه بالترك دائماً فلا طاعة لهما فيه كما قال بعض المالكية، وأقره الشيخ تقي الدين السبكي[3].

فإن أمره كل منهما بما يخالف ما أمره به الآخر أطاع الأب لأنه أقرب في الحزم والرأي من الأم ما لم يكن أمرُ الأبِ مخالفاً للشرع.

وروى الأصبهاني في «الترغيب» عن حبان بن موسى رضي الله

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٢١٦).

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٢/ ٢١٨).

(٣) انظر: «عمد القاري» للعيني (٢٢/ ٨٦).

تعالى عنه قال: سألت ابن المبارك رحمه الله تعالى عن الوالد والوالدة إذا أمرا بشيء، فقال: الأب أحق بالطاعة، والأم أحق بالبر[1].

قلت: وهذا حسن.

٤ ـ ومنها: إساءة الظن بالوالد، وبالأستاذ، وبالعبد الصالح.

وقد قال الله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات: ١٢].

وروى ابن عدي، والخطيب عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ الْمَرْءِ حُسْنُ ظَنِّهِ»[2].

نعم، لو كان المظنون فيه محلاً للتهمة وسوء الظن فعليه يُحمل ما رواه أبو الشيخ عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: الحزم سوء الظن[3].

٥ ـ ومنها: النظر إلى كلام الناس، والخوف من تعييرهم، فيدعوه ذلك إلى مخالفة الشرع والعقل، والوقوع في الحذر، كما يدل عليه قول قابيل: فيتحدث الناس أنك خير مني[4].

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٤٣٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٠/ ١٢٩) عن ابن المبارك عن مقاتل بن سليمان. وعندهما: «بالصلة» بدل «بالبر».

(٢) رواه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٢٩١) وقال: بهذا الإسناد لا أصل له. والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٥/ ٣٧٧).

(٣) كذا عزاه السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ٦٥) لأبي الشيخ.

(٤) تقدم تخريجه.

وقد قلت: [من البسيط]

لا يَجْرِمَنَّكَ مَرْأى النَّاسِ مِنْكَ عَلى
أَنْ تَرْكَبَ الْحُوبَ أَوْ أَنْ تَرْفُضَ الدِّينا

وَلا تَخَفْ مِنْ كَلامِ النَّاسِ فِيْكَ إذا
تَبِعْتَ ما شَرَعَ الدَّيَّانُ بارِينا

وَإِنْ أَنِفْتَ لِرَأْيِ النَّاسِ مِنْ عَمَلٍ
فَقُلْ لِنَفْسِكَ مَهْ لَوْلا تَخافِيْنا

فَضِيْحَةُ الْمَرْءِ فِي الدُّنْيا أَخَفُّ أَسىً
ما كُنْتِ يا نَفْسُ إلاَّ أَوَّلاً طِينا

بِالْعِلْمِ وَالدِّيْنِ وَالتَّقْوَى سَما رَجُلٌ
وَحَسْبُنا اللهُ كافِينا وَهادِينا

٦ ـ ومنها: دعوى ما ليس له، والدعوى الباطلة.

قال الماوردي: قيل: أول دعوى وقعت في الأرض دعوى قابيل على أخيه هابيل أنه أحق بنكاح توأمته، فتنازعا إلى آدم عليه السلام، فأمرهما بما قصه الله تعالى علينا بقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾[المائدة: ٢٧]، فقتل قابيل هابيل، فكان أول قتيل في الأرض(١).

(١) انظر: «الحاوي الكبير» للماوردي (١٧/ ٢٩١).

وروى ابن ماجه عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ مِنَّا، وَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١).

٧ ـ ومنها: تزكية النفس، وتعظيمها، والنظر إلى فضلها.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[النجم: ٣٢].

ولولا تزكية قابيل لنفسه على أخيه ما رأى نفسه أولى بالنعمة من أخيه، فمن زكَّى نفسه ورأى فضلها فهو أشبه بأخيه قابيل.

وقد روى الإمام أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، والطبراني في «الكبير» عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَظَّمَ فِيْ نَفْسِهِ، وَاخْتَالَ فِيْ مِشْيَتِهِ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ»(٢).

٨ ـ ومنها: قطيعة الرحم، وهي من الكبائر.

قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾[محمد: ٢٢].

وروى الشيخان عن عائشة رضي الله تعالى عنها، عن النبي ﷺ قال: «يَقُوْلُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا الرَّحْمَنُ، وَهَذِهِ الرَّحِمُ شَقَقْتُ لَهَا مِن اسْمِي؛

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٣١٩)، وكذا مسلم (٦١).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ١١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٩٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٩٨): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ»(1).

وأقول: [من السريع]

قابيلُ أَوَّلُ أَخٍ مُدابِرِ   وَأَوَّلُ الباغِيْنَ فِي الْعَشائِرِ
تَبّاً لِمَنْ كانَ لَهُ مُقْتَفِياً   مِنْ جائِرٍ بَيْنَ الْبَرايا حائِرِ

٩ ـ ومنهَا: التصدق بأردأ الأموال وشرها، وهو مكروه.

قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾[البقرة: ٢٧٦].

والمعنى: ما لا تأخذونه إلا مع كراهة وحياء، وهو معنى الإغماض، فلا تُؤثروا به ربكم.

وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾[النحل: ٦٢].

١٠ ـ ومنها: لوم غيره، والانتقام منه على ما ابتلي به بسبب ذنب نفسه، أو تمحض القضاء والقدر.

فإن قابيل لما لم يقبل منه قربانه غضب، وحَنِقَ على أخيه، وقال:

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤٣)، ومسلم (٢٥٥٥) مع بعض الاختلاف. واللفظ الذي ذكره المصنف: رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٤٩٨) عن أبي هريرة ﷺ.

لأقتلنك، ولو كان حازماً كان غضبه على نفسه؛ إذ كان هو السبب في عدم قَبول قربانه بارتكاب المعاصي التي أشرنا إليها آنفاً، فلو رجع على نفسه باللائمة، وتاب وأقلع لكان خيراً له، وليته حين نبَّهه أخوه هابيل بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧] تنبه وعاد إلى الطاعة.

وقد قيل: [من السريع]

ارْجِـعْ إِلـى الْـوِدِّ الَّـذِي بَيْنَنَـا وَكُـلُّ ذَنْـبٍ لَـكَ مَغْفُـورُ

وكذلك ينبغي لكل من أصيب بمصيبة، أن يعلم أنها بما قدمت يداه كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾[النساء: ٨٨].

﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[النساء: ٧٩].

ولا يحمله الطيش والبغي أن يلوم غيره فيكون متشبهاً بقابيل حيث لم يتقبل قربانه، فحمله البغي على أن قال لأخيه: لأقتلنك، بل يرجع باللأَّئمة على نفسه ليظفر بحصول أُنسه، كما قلت: [من مخلّع البسيط]

أَنَـا الـسَّبَبُ فِـي بَلْـوايَ مَـا ضَـرَّنِي غَيْـرُ أَهْـوايَ
يَـا رَبِّ خَلِّـصْنِي مِنِّـي وَنَجِّنِـي مِـنْ دَعْـوايَ
نَفْسِي تَقُـوْلُ لِـيَّ فِـي نَفْـسِي وَأَنَـا الْحَـزِيْنُ مِـنْ نَجْـوايَ
مَـنْ ذا تُـرَى مِثْلِـيَ فِـي الْكَـوْنِ ثَـانِيَ يَجِـيْءُ فِـي تَقْـوايَ
وَأَنَـا الَّـذِي أَدْرِي وَأَعْـ ـلَمُ مِنْهـا زِيـادَةَ طَغْـوايَ

مِـنْ عُجْـبِ نفْسِيَ يـا عَجَبِـي	وَالْعُجْـــــــبُ أَرْدَى أَدْوايَ

فِـــيْ بَـــدْئِها كانَـــتْ نُطْفَـــةً	وَالـــرَّمْسُ آخِـــرُ مَثْـــوايَ

يــــا رَبِّ كَـــمْ ذا تُـــؤْذِيْنِي	نَفْـــسِي وَتَجْلِـــبُ بَلْـــوايَ

يــــا رَبِّ سَـــكِّنْها عَنِّـــيَ	فَأَنْـــتَ أَقْـــصَى رَجْـــوايَ

١١ ـ ومنها: التشبه بالشيطان.

فإن قابيل اقتدى بالشيطان في شدخ رأس أخيه كما تقدم، فمن تشبَّهَ بإبليس كان متشبهاً بقابيل في التشبه به؛ فإنه أول من تشبه بالشيطان، وقد قلت: [من السريع]

أَوَّلُ مَـــنْ أَشْـــبَهَ شَـــيْطانا	قابـــيْلُ لَمَّـــا هـــامَ عِـــصْيانا

هُمَا الْمُضِـلاَّنِ لِمَنْ جاءَ مِـنْ	بَعْـدِهِما مِـنْ كُـلِّ مَـنْ كانـا

فَـــلا تَكُـــنْ مِثْلَهُمـــا باغِيـــاً	وَخَـــفْ مَقـــامَ اللهِ مَوْلانـــا

لَـوْلا التُّقَـى مـا قَبِـلَ اللهُ مِـنْ	هابـــيْلَ مَعْرُوفـــاً وَقُرْبانـــا

وَرَدَّ مـــا قَرَّبَـــهُ طاغِيـــاً	قابـــيْلُ إِبْعـــاداً وَخُـــذْلانا

لا تَتَّبِـعْ قابِـــيْلَ فِـــي فِعْلِـهِ	تَحْـصُدْ بِمـا تَـزْرَعُ خُـسْرانا

تَرْضَـى بِـأَنْ تُـصْبحَ شَـيْطانا	مِنْ بَعْدِ مـا [قـد] كُنْـتَ إِنْـسانا

نَعْلَـمُ هَـذا ثُـمَّ نَغْـدُو هَـوَىً	وَإِنَّ أدرانـــا لأَنْـــسانا

يـا لَيْـتَ شِـعْرِي مـا الَّـذِي قَـدْ	لَهـا قُلُوبَنـا عَنْـهُ وَأَنْـسانا

إِنِّي عَلى ما فِيَّ مِنْ لَوْعَةٍ   عَلى غُرُوْرٍ مِنْ دُنْيَانا
وَلَسْتُ بِالآيِسِ مِنْ رَحْمَةٍ   أَوَدُّ أَنَّ اللهَ عافانا

١٢ ـ ومنها: إشمات العدو في القريب والصديق.

فإن قابيل أشمت إبليس في أبيه آدم، وأمه حواء، وإخوته وأصدقائه، فمن كان أبوه صالحاً وخالف سمت أبيه فقد أشمت عدو أبيه فيه، وكان لقابيل مثيلاً، ولإبليس خليلاً، بل اللائق بابن الكريم أن يكون كريماً، ولا يباح لابن اللئيم أن يكون لئيماً، وقد ذمَّ الله تعالى الأبناء على تقليد الآباء في اللآمة، وعدَّ افتخار يوسف بآبائه الكرام عليهم السلام من قبيل الكرامة.

وقد روى الطبراني عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ سئل: أي الناس أفضل؟ قال: «مُؤْمِنٌ بَيْنَ كَرِيْمَيْنِ»[١].

وقال بعض العرب: [الكامل]

لَسْنا وَإِنْ كَرُمَتْ أَوائِلُنا   يَوماً عَلى الأَحْسابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كَما كانَتْ أَوائِلُنا   تَبْنِي وَنَفْعَلُ كَالَّذِيْ فَعَلُوا[٢]

ولا شك أن ابن الكرام إذا جاء بأفعال اللئام سَلَّطَ على عرضه

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٨٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٨٢): فيه معاوية بن يحيى، أحاديثه مناكير.

(٢) البيتان لعبدالله بن معاوية. انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ١٣٧)، و«زهر الآداب» للقيرواني (١/ ٩٢).

وعرض آبائه ألسنةُ الأنام، فهو جانٍ على نفسه وعشيرته، وشائنٌ لقومه وقبيلته، فهو حري بالنكال، جدير بالوبال.

وقلت: [من الكامل]

يـا مُـشْمِتَ الأَعْـداءِ فِـي آبائِـهِ لا كُنْتَ يَوْمـاً مُـشْمِتَ الأَعْـداءِ
وَابْنُ الْكِرامِ إِذا نَبا عَنْ سَـمْتِهِمْ أَوْلَـى بِـأَنْ يُهْجَـى بِكُـلِّ هِجـاءِ

١٣ ـ ومنها: الحسد، والحقد، والبغضاء لغير سبب ديني.

وقد تقدم في حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ؛ فَإِنَّ ابْنَي آدَمَ إِنَّمَا قَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ حَسَداً، فَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَطِيْئَةٍ»[١].

وروى البيهقي في «الشعب» عن الأحنف بن قيس رضي الله تعالى عنه أنه قال: لا راحة لحسود[٢].

وعن الخليل بن أحمد رحمه الله تعالى: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد؛ نفس دائم، وعقل هائم، وحزن لائم[٣].

وقال الشاعر: [من الكامل]

قُـلْ لِلْحَـسُوْدِ إِذا تَـنَفَّسَ طَعْنَـةً يـــا ظالمـــاً وكأنّـــهُ مظلـــوم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٦٣٤).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٦٣٥).

١٤ ـ ومنها: العمل بمقتضى الهوى والشهوة، والافتتان بالمرأة التي لا تحل له، خصوصاً المحرم.

وقد روى أبو نعيم عن حسان بن عطية رحمه الله تعالى قال: ما أُتيت أُمَّةٌ قط إلا من قبل نسائهم[١].

قلت: وأول ذلك أن آدم عليه السلام أُتيَ من قبل حواء، وبلاء هابيل عليه السلام كان من قبل النساء، ومعصية قابيل كانت من قبل توأمته.

وفي الحديث: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَشَدَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»[٢].

١٥ ـ ومنها: إخافة أخيه وترويعه.

فإنه لم يقتله حتى توعَّده بالقتل، وأخافه؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾[المائدة: ٢٧]؟

وإخافة المسلم وترويعه حرام.

روى أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله تعالى قال: حدثنا أصحاب محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه، فأخذه ففزع، فقال النبي ﷺ: «لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِماً»[٣].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٧٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه أبو داود (٥٠٠٤).

وروى البزار، والطبراني، وأبو الشيخ في كتاب «التوبيخ» عن عامر بن ربيعة رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً أخذ نعل رجل فغيَّبها وهو يمزح، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «لا تُرَوِّعُوْا الْمُسْلِمَ؛ فَإِنَّ رَوْعَةَ الْمُسْلِمِ ظُلْمٌ عَظِيْمٌ»[1].

وفي الحديث: «مَنْ نَظَرَ إِلَى أَخِيْهِ نَظْرَةً مُخِيْفَةً مِنْ غَيْرِ حَقٍّ أَخَافَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي لفظ: «مَنْ نَظَرَ إِلَى مُسْلِمٍ نَظْرَةً يُخِيْفُهُ بِهَا فِيْ غَيْرِ حَقٍّ أَخَافَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

رواه باللفظ الأول الخطيب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وبالثاني الطبراني في «الكبير» عن ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما[2].

وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يُشِيْرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيْهِ بِالسِّلاحِ؛ فَإِنَّهُ لا يَدْرِيْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِيْ يَدِهِ فَيَقَعُ فِيْ حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»[3].

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٥٣): رواه الطبراني والبزار، وفيه عاصم بن عبيدالله، وهو ضعيف.

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٩/ ٢٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٥٣) إلى الطبراني عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال: رواه الطبراني عن شيخه أحمد بن عبد الرحمن بن عقال، ضعفه أبو عروبة.

(٣) رواه البخاري (٦٦٦١)، ومسلم (٢٦١٧).

١٦ ـ ومنها: قتل النفس التي حرم الله بغير حق.

وهو أعظم الذنوب بعد الشرك، وقد سبق أنه ما من نفس تُقتَل ظلماً إلا كان على قابيل كِفْل من دمها لأنه أول من سنَّ القتل.

والآيات والأحاديث في النهي عن القتل والوعيد عليه معروفة.

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللهَ مَكْتُوْبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: آيسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ»[١].

قال سفيان بن عيينة: هو أن يقول: أق، ولا يتم كلمة أقتل[٢].

وروى الإمام أحمد، والبخاري عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «لا يَزَالُ الْعَبْدُ فِيْ فُسْحَةٍ مِنْ دِيْنِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمَاً حَرَاماً»[٣].

وقال ابن عمر: إنَّ من وَرْطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها الدم الحرام بغير حلِّه. رواه الإمام أحمد[٤].

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٦٢٠). قال ابن طاهر المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (٤/ ٢٢١٢): رواه يزيد بن أبي زياد الشامي، وهو متروك الحديث.

(٢) رواه الخطابي في «غريب الحديث» (١/ ٢٠٥).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٩٤)، والبخاري (٦٤٦٩).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٩٤).

* تَنْبِيهانِ:

الأَوَّلُ: روى ابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: إن قابيل لما قتل أخاه، عقل الله تعالى إحدى رجليه ساقها إلى فخذها من يوم قتله إلى يوم القيامة، وجعل وجهه إلى الشمس حيث دارت دار عليه حظيرة من ثلج في الشتاء، وعليه في الصيف حظيرة من نار[1].

ومن طرائف العقوبات: نقصان الخلقة بعد تمامها، وأول من نقصت خلقته عقوبة إبليس وقابيل؛ فإبليس عَوِر، وقابيل عَرِج.

ولقد قلت: [من السريع]

أَوَّلُ عُوْرِ الْخَلْقِ إِبْلِيْسُهُمْ ... وَأَوَّلُ الْعُرْجانِ قابِيْلُ

وَمِنْ هُنا عانَدَ عُوْرُ الْوَرَى ... وَكانَ فِي الْعُرْجِ الأَباطِيْلُ

وقلت مقرراً لما هو مشهور من أن نقصان الخلق يدل على نقصان العقل: [من الرجز]

تَبارَكَ الدَّيَّانُ مِنْ مُصَوِّرِ ... وَجَلَّ مِنْ مُهَيْمِنٍ مُقْتَدِرِ

ما أَكْمَلَ اللهُ عَلا خَلْقَ امْرِئٍ ... حَتَّى تَراهُ كامِلاً فِيْ مَعْشَرِ

إِلاَّ وَقَدْ أَكْمَلَ مِنْهُ عَقْلَهُ ... حَتَّى تَراهُ سالِمَ التَّصَوُّرِ

وَجَعَلَ النُّقْصانَ فِي الْخَلْقِ دَلِيـ ... ـلاً دَلَّ ذا عَقْلٍ وَذا تَفَكُّرِ

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٦/ ١٨٧).

عَلى انْتِقاصِ عَقْلِ مَنْ يَنْقُصُهُ فِـي عَقْلِـهِ وَخَلْقِـهِ الْمُقَـدَّرِ
آيَـةُ مـا قُلْـتُ إِذا حَقَّقْتَـهُ وُجُـوْدُ حـالِ الـنَّقْصِ وَالتَّهَـوُّرِ
مِـنْ أَقْـرَعٍ أَوْ أَطْـرَشٍ أَوْ أَعْـوَرٍ أَوْ أَحْـوَلٍ أَوْ أَعْـرَجٍ أَوْ أَبْـصَرِ
وَفِي اعْتِدالِ اللَّوْنِ عَـدْلُ طَبْعِـهِ وَمِنْ هُنا اعْوَجَّتْ طِباعُ الأَشْـقَرِ
إِنْ يَتَخَلَّـفْ ذاكَ فَالنَّـادِرُ لا حُكْمَ لَهُ وَالْحُكْمُ حُكْـمُ الأَكْثَرِ

التَّنْبِيْهُ الثَّانِي: روى الحافظ نعيم بن حماد في «الفتن» عن عبد الرحمن بن فَضَالة رحمه الله تعالى قال: لما قتل قابيل هابيل، مسخ الله تعالى عقله، وخلع فؤاده، فلم يزل تائهاً حتى مات[1].

قلت: ولهذا يطيش عقل القاتل غالباً، ويشتد رعبه، ويندم، وإذا طُلِب هرب.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[المائدة: ٣٠].

وقَلَّ أن يقتل إنسان إنساناً لغير ثأر، ويطمئن قلبه بعدها، ومن شذ عن هذه القاعدة فقتل ولم يرعب ولم يرهب، فقسوته أشد من قسوة قابيل.

وقد روى أبو داود، والضياء في «المختارة» عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً فَاغْتَبَطَ بِقَتْلِهِ لَمْ

(١) رواه نعيم بن حماد في «الفتن» (١/ ٦٥).

يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ صَرْفاً وَلا عَدْلاً»[1].

ثم روى أبو داود عن خالد بن دهقان قال: سألت يحيى بن يحيى الغساني عن قوله: فاغتبط بقتله، قال: الذين يقاتلون في الفتنة فيقتل أحدهم، فيرى أنه على هدى، فلا يستغفر الله[2].

والصرف: النافلة، والعدل: الفريضة.

وقيل غير هذا.

والمعنى: أنه يحبط عمله.

١٧ ـ ومن أعمال قابيل وأخلاقه: انتهاك حرمة المسلم بعد موته، وعدم الاهتمام بمواراته وسائر ما يحتاج إليه من تجهيزه، وذلك كله من فروض الكفاية، إذا تركه كلٌّ من تعين عليهم أثموا.

ومن أصرح الأدلة على ذلك: ما روى الإمام أحمد، ومسلم، والنسائي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْلا أَن لا تَدَافَنُوْا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ الْقَبْرِ»[3].

ووجه الاستدلال به أن علوم القبر وأحوال البرزخ علوم شريفة، وقد حُجبت عنا فلم نشاهدها بالحس خشية أن يحملنا الاطلاع عليها

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٧٠)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٤١٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٢٧١).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٠٣)، ومسلم (٢٨٦٨)، والنسائي (٢٠٥٨).

على ترك التدافن، فلولا أن يكون التدافن أمراً واجباً، لم يُحجب عنا هذا الفن من العلم مع شرفه خشية تركه.

١٨ ـ ومنها: إزهاق روح الحيوان بغير ذكاة شرعية إلا ما جاز قتله، وأكل الموقوذة وسائر أنواع الميتة، وكل ذلك من العظائم إلا في حالة الاضطرار.

روى الإمام أحمد، والطبراني، والبيهقي في «السنن» عن عبدالله ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ عُصْفُوْرَاً بِغَيْرِ حَقِّهِ سَأَلَهُ اللهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

وروى الإمام أحمد، والنسائي، وابن حبان وصححه، وآخرون عن الشَّريد بن سويد رضي الله تعالى عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «مَنْ قَتَلَ عُصْفُوْرَاً عَبَثَاً عَجَّ إِلَى اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْه فَيَقُوْلُ: يَا رَبِّ! إِنَّ فُلاناً قَتَلَنِيْ عَبَثَاً، وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفعَةٍ»[2].

١٩ ـ ومنها: تنفير الوحش في محل أمْنِه؛ لأن الأرض كانت أمناً للوحش، فلما فعل قابيل ما فعل فرَّت منه، واستوحشت.

وكذلك من نفَّرَ صيد مكة والمدينة المشرفتين، كان أشبه الناس بقابيل.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ١٦٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٨٦). وكذا النسائي (٤٤٤٥).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٨٩)، والنسائي (٤٤٤٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٨٩٤).

وفي «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلامُ حَرَّمَ بَيْتَ اللهِ وَأَمَّنَهُ، وَإِنِّيْ حَرَّمْتُ الْمَدِيْنَةَ مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا، لا يُقْطَعُ عِضَاهُهَا، وَلا يُصَادُ صَيْدُهَا»[1].

وفي رواية أبي داود بإسناد صحيح: «لا يُخْتَلَى خَلاهَا، وَلا يُنْفَّرُ صَيْدُهَا»[2].

٢٠ ـ ومنهَا: الإكباب على آلات اللهو، وشرب الخمر، والزنا، وارتكاب الفواحش.

وكل ذلك مما علمت أنه من قبائح الذنوب، ومرتكبه متشبه في ذلك بأولاد قابيل لأنهم أول من سنَّ ذلك.

قال هشام بن محمد بن السائب في كتاب «ابتداء العيدان»: أول من عمل العود وضرب به رجل من أولاد قابيل بن آدم يقال له: كمد عُمِّر زماناً طويلاً، ولم يولد له، فتزوج خمسين امرأة، وتسرَّى بمئتي جارية، فولد له غلام قبل موته بعشر سنين، ففرح به، فلما أتت على الغلام خمس سنين مات، فجزع عليه جزعاً شديداً، فأخذه وعلقه في شجرة، وقال: لا تذهب صورته عن عيني، فجعل لحمه يقع، وعظامه تسقط حتى بقيت الفخذ بالساق والقدم والأصابع، فأخذ عموداً فشقَّه، وجعل يؤلف بعضه إلى بعض، وجعل صدره على صورة الفخذ، والعنق

---

(١) رواه مسلم (١٣٦٢).

(٢) رواه أبو داود (٢٠٣٥) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

على صورة السَّاق، والإبريم على صورة القدم، والداري على صورة الأصابع، وعلق عليه أوتاراً كالعروق، وجعل يضرب عليه ويبكي.

وهذا كاف في ذم العود الذي هو أفخر الآلات عند أهلها حيث كانت هذه بداية وضعه.

ولا شك أن هذا من وحي الشيطان.

وكذلك تجد أصل كل آلة محرمة من أمر الشيطان ووحيه.

ولا تلتفت إلى فاسق عساه يمدح لك الآلات، ويدعوك إلى هذه الضلالات؛ فالحذر ثم الحذر من الإصغاء إلى شيء من ذلك.

وقد روى الإمام أحمد، وابن أبي الدنيا في «الملاهي»، والطبراني عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي رَحْمَةً وَهُدَىً لِلْعَالَمِيْنَ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَمْحَقَ الْمَزَامِيْرَ وَالْكَبَارَاتِ - يَعْنِي: الْبَرَابِطَ - وَالْمَعَازِفَ، وَالأَوْثَان الَّتِيْ كَانَتْ تُعْبَدُ فِيْ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَقْسَمَ رَبِي بِعِزَّتِهِ لا يَشْرَبُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيْدِي جُرْعَةً مِنْ خَمْرٍ إِلاَّ سَقَيْتُهُ مَكَانَهَا مِنْ حَمِيْمِ جَهَنَّمَ مُعَذَّبَاً أَوْ مَغْفُوْرَاً لَهُ، وَلا سَقَاهَا صَبِيَّاً صَغِيْرَاً إِلاَّ سَقَيْتُهُ مَكَانَهَا مِنْ حَمِيْمِ جَهَنَّمَ مُعَذَّبَاً أَوْ مَغْفُوْرَاً لَهُ، وَلا يَدَعُهَا عَبْدٌ مِنْ عَبِيْدِي مِنْ مَخَافَتِيْ إِلاَّ سَقَيْتُهُ إِيَّاهَا فِي حَظِيْرَةِ الْقُدْسِ»(١).

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٥٧)، وابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (ص: ٧٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٠٣). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٦٩): رواه الإمام أحمد والطبراني، وفيه علي بن يزيد، وهو ضعيف.

وروى البخاري، وأبو داود، وآخرون عن عبد الرحمن بن غنم قال: حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه سمع النبي ﷺ يقول: «لَيَكُوْنَنَّ فِيْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّوْنَ الْخَمْرَ وَالْحَرِيْرَ وَالْمَعَازِفَ[1]، وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ تَرُوْحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، فَيَأْتِيْهِمْ آتٍ لِحَاجَتِهِ فَيَقُوْلُوْنَ: ارْجِعْ إِلَيْنَا غَداً، فَيُبَيِّتُهُمُ اللهُ، وَيَقَعُ الْعَلَمُ عَلَيْهِمْ، وَيُمْسَخُ مِنْهُمْ آخَرِيْنَ قِرَدَةً وَخَنَازِيْرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2].

وروى نعيم بن حماد في «الفتن» عن [قبيصة بن] مالك الكندي، [عن قبيصة بن ذؤيب] رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «لَيَكُوْنَنَّ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ قِرَدَةً، وَقَوْمٌ خَنَازِيْرَ، وَلَيُصْبِحُنَّ فَيُقَالُ: خُسِفَ بِدَارِ بَنِيْ فُلانٍ وَدَارِ بَنِيْ فُلانٍ، وَبَيْنَمَا الرَّجُلانِ يَمْشِيَانِ يُخْسَفُ بِأَحَدِهِمَا بِشُرْبِ الْخُمُوْرِ، وَلِبَاسِ الْحَرِيْرِ، وَالضَّرْبِ بِالْمَعَازِفِ وَالزَّمَّارَةِ»[3]؛ وهي على وزن جبانة: ما يزمر به.

وروى ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَكُوْنَنَّ فِيْ هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ وَقَذْفٌ وَمَسْخٌ، وَذَلِكَ إِذَا شَرِبُوْا الْخُمُوْرَ، وَاتَّخَذُوْا الْقَيْنَاتِ، وَضَرَبُوْا بِالْمَعَازِفِ».

---

(١) في البخاري: «الحِرَ والحرير والخمر والمعازف».

(٢) رواه البخاري (٥٢٦٨)، وأبو داود (٤٠٣٩)،

(٣) رواه نعيم بن حماد في «الفتن» (٢/ ٦١٠).

قال صاحب «القاموس»: والمعازف؛ أي: بالعين المهملة والزاي: الملاهي؛ كالعود والطنبور، الواحد: عزف، أو معزف؛ كمنبر، ومِكْنسة، والعازف: اللاعب بها[1].

وروى ابن أبي الدنيا، وابن عساكر عن الغاز بن ربيعة ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيُمْسَخَنَّ قَوْمٌ وَهُمْ عَلَى أَرِيْكَتِهِمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيْرَ؛ شُرْبُهُمُ الْخَمْرَ، وَضَرْبُهُمْ بِالْبَرَابِطِ وَالْقِيانِ»[2].

والبرابط: جمع بربط؛ كجعفر: العود، معرَّب برمط؛ أي: صدور الأوز لأنه يشبهه؛ قاله في «القاموس»[3].

* تَنْبِيْهٌ:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

روى ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن علي رضي الله تعالى عنه قال: هما إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه[4].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٠٨٢) (مادة: عزف).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٣١٢). وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ١٧٩).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٨٥٠) (مادة: بربط).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٢١٥)، وكذا الطبري في «التفسير» (٢٤/ ١١٣).

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله: ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩]: ليكونا أشد عذاباً منا[١].

وهذا واضح؛ فإنهما لا يشاركهما في عذابهما أحد، وهما مشاركان كل من اقتدى بهما في وزره؛ لقوله ﷺ في حديث أبي جحيفة «ومَنْ سَنَّ سُنَّةً سيِّئةً فعُمِلَ بِهَا بَعْدَه، كان عَلَيْهِ وزْرُهَا وَمِثْلُ أَوْزَارِهِمْ مِنْ غَيرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً». رواه ابن ماجه[٢].

وروى مسلم وغيره نحوه من حديث جرير رضي الله تعالى عنه[٣].

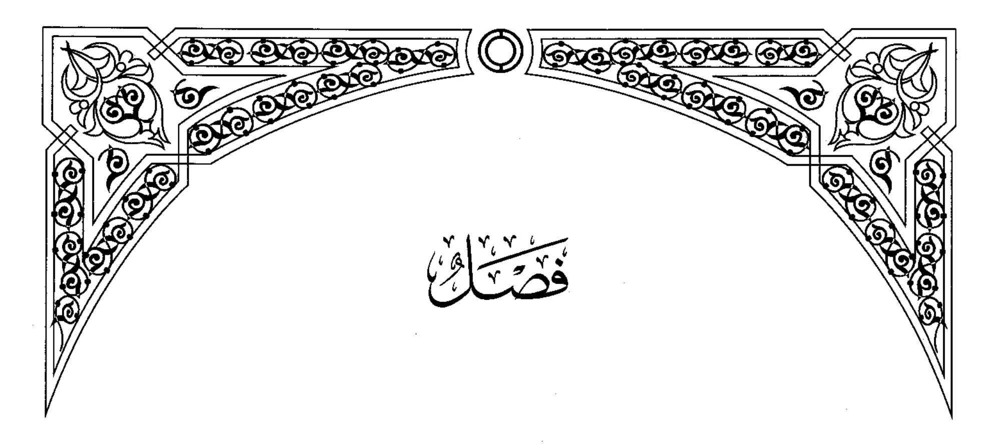
وقد علم بذلك أنَّ إبليس أبو العصاة الأول، وقابيل أبوهم الثاني، وهذا وجه المناسبة في ذكرنا النهي عن التشبه بقابيل عقب النهي عن التشبه بالشيطان.

* * *

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٤/ ١١٣).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٠٧).

(٣) رواه مسلم (١٠١٧).



فَصْلٌ

كما ينبغي الحذر من موافقة قابيل، ينبغي الحرص على موافقة هابيل عليه السلام.

وقد دل على ذلك حديث الحسن المتقدم «إنَّ ابني آدم ضربا لكم مثلاً، فتشبهوا بخيرهما، ولا تشبهوا بشرهما».

وفي لفظ: «إِنَّ ابْنَيْ آدَمَ ضَربا مَثَلاً لِهَذِهِ الأُمَّةِ، فَخُذُوا بِالْخَيِّرِ مِنْهُما». أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير[1].

أي: خذوا بأعمال الخيِّر منهما وأخلاقِه، وهو هابيل عليه السلام.

وقد اشتملت مسايرته لأخيه على خِلال جميلة:

١ ـ منها: تقريب القربان لله تعالى.

وفي معناه من شريعتنا الصدقة، والأضحية، والهَدْي، بل كل ما يتقرب به إلى الله تعالى فهو قربان، وأعظم قربان هذه الأمة بعد

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١/ ١٨٧)، والطبري في «التفسير» (٦/ ١٩٩).

التوحيد الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾[العلق: ١٩].

ولحديث: «أَقْرَبُ مَا يَكُوْنُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ إِذَا كَانَ سَاجِداً»(١).

وروى القضاعي في «مسند الشهاب» عن علي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصَّلاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ»(٢).

وروى أبو يعلى بإسـناد حسن، عن جابر رضي الله تعالى عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لكعب بن عُجرة رضي الله تعالى عنه: «يَا كَعْبُ بْنَ عَجرَةَ! الصَّلاةُ قُرْبَانٌ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِيءُ الْخَطِيْئَةَ كَمَا يُطْفِيءُ الْمَاءُ النَّارَ، يَا كَعْبُ بْنَ عَجرَةَ! النَّاسُ غَادِيَانِ؛ فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوْبِقٌ رَقَبَتَهُ، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعتِقٌ رَقَبَتَهُ»(٣).

٢ ـ ومنها: تقريب أجود ما عنده أو من أجود ما عنده.

وهذا من جملة التقوى التي هي سبب القبول كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧].

وقـال الله تعـالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢٦٥).

(٣) رواه أبو يعلى في «المسند» (١٩٩٩)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٩٩)، وابن حبان في «صحيحه» (١٧٢٣).

فينبغي لكل مؤمن أن يحافظ على هذا الخلق من أخلاق هابيل عليه السلام.

وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ - وَلا يَقْبَلُ اللهُ إلاَّ طَيِّباً - فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَتَقَبَّلْهَا بِيَمِيْنِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيْهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُوْنَ مِثْلَ الْجَبَلِ»[1].

* **تَنْبِيْهٌ:**

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[المائدة: ٩٣].

وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ». رواه الإمام أحمد، ومسلم، والأربعة عن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه[2].

وروى البيهقي في «الشعب» عن كليب رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسِنَ»[3].

وأخرجه عن عائشة رضي الله تعالى عنها، ولفظه: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ

---

(١) رواه البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (١٠١٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٣١٥)، وكذا الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ١٩٩).

إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ»[1].

وروى ابن عساكر عن عبدالله بن عمرو: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْفَضْلَ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الصَّلاةِ»[2].

وروى الطبراني في «الكبير»، والحاكم وصححه، والخرائطي، وأبو نعيم، والبيهقي عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ كَرِيْمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلاقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسافَها»[3].

ورواه أبو نعيم من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، والبيهقي من حديث طلحة بن عبدالله رضي الله تعالى عنه، ولفظهما: «إِنَّ اللهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُوْدَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلاقِ، وَيُبْغِضُ سَفْسافَهَا»[4].

ولا شك أن الكرم، والجود، والصدقة والهدية إذا قارنها الإحسان فيها والجودة كانت أعلى وأتم وأبلغ في تحصيل المقصود منها من ثواب، أو محبة، أو محمدة.

وإذا كانت بما يكرهه الإنسان لنفسه كان بخلاً في نفس الكرم، ومنعاً في نفس العطاء، وعداوة في نفس الحب.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٣١٢)، وكذا أبو يعلى في «المسند» (٤٣٨٦)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٩٧).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٣١٨).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

وربما قال من أحسنت إليه بما أسأت فيه: إنما يريد هذا أن يهزأ بي ويسخر مني، ولولا مهانتي عنده لما خصَّني بهذا الرديء، وقابلني بهذا التافه؛ فإن هدية المهدي على قدر مقام المُهدَى إليه عنده، وعطية المعطي مشعرة بمكانة المعطى عنده، وإذا كان هذا مذموماً في معاملة الخلق للخلق، فكيف يكون في معاملة العبد لمولاه؟

وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾[النحل: ٦٢]؛ أي: معجلون إلى النار، مقدمون إليها، أو متروكون فيها.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ شامل للجعل دعوى؛ لأنهم كانوا يجعلون الإناث لله، ويكرهونهن، والغلمان لهم، وللجعل فعلاً؛ أي: يقدمون لله ما يكرهون كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الأنعام: ١٣٦].

روي أنهم كانوا يعينون شيئاً من الحرث والنتاج لله، ويصرفونه إلى الضِّيفان والمساكين، وشيئاً لآلهتهم، وينفقونه على سَدَنتها، ويذبحون عندها، ثم إنْ رأوا ما عينوا لله أزكى بدَّلوه بما لآلهتهم، وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لهَا.

فالتقرب إلى الله تعالى بالرديء المكروه خلق جاهلي منشؤه من قابيل، والتقرب إليه بالحسن المحبوب خلق إيماني مبدؤه من هابيل،

وهذا هو الكرم الخالص، وذاك بخل في صورة الكرم.

وقد قلت: [من السريع]

مَنْ جادَ بِالْمَكْرُوْهِ كانَ الَّذِي جادَ بِهِ أَشْبَهَ بِالْبُخْلِ
يا رُبَّ جُوْدٍ كانَ فِيْهِ الْجَوى وَرُبَّ مَنْعٍ كانَ فِي الْبَذْلِ
إِنَّ الْهَدايا تُوْرِثُ الْحُبَّ إِنْ جادَتْ وَتُؤْوِي الْخِلَّ لِلْخِلِّ
وَرُبَّما كانَتْ إِذا لَمْ تَجِدْ عَداوَةً تُبْنَى عَلى أَصْلِ
الْحُسْنُ فِي الإِحْسانِ أَزْكَى يَداً وَالْفَضْلُ فِي الإِفْضالِ وَالْفَضْلِ
وَرُبَّ قُرْبانٍ قَضَى بِالنَّوى وَصَيَّرَ الْخِصْبَ إِلَى مَحْلِ
مَنْ لَيْسَ يُهْدِي مِنْ جَمِيلِ الْحُبا جَمْلاً جَفاهُ الوَصْلُ مِنْ جَمْلِ
وَباذِلٌ أَحْسَنَ ما عِنْدَهُ يَنالُ أَهْنَى الْعَيْشِ وَالْفَضْلِ
فِي شَأْنِ هابِيْلَ وَقابِيْلَ ما دَلَّ عَلى ما قُلْتُ مِنْ قَبْلِ

٣ ـ ومن أخلاق هابيل عليه السلام: التحدث بالنعمة، والتمدح بها؛ فإنَّ قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧]، وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[المائدة: ٢٨] فيه تمدح بالتقوى، والخوف من الله تعالى، وتحدث عن هذه النعمة التي هي أعظم النعم، وهذا مقبول إذا كان لغرض الشكر ونحوه لتهييج الغير للاقتداء به في التقوى والخوف وغيرهما من الطاعات، ولعل هابيل عليه السلام إنما قصد بتمدحه بالتقوى والخوف استمالةَ أخيه إلى التوبة والرجوع إلى الحق.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى: ١١].

روى ابن أبي حاتم عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما قال في الآية: إذا أصبت خيراً فحدِّث إخوانك(١).

وروى ابن جرير عن أبي نضرة رحمه الله تعالى قال: كان المسلمون يرون أنها من شكر النعمة أن يحدث بها(٢).

وروى البيهقي في «الشعب» عن فضيل بن عياض رحمه الله تعالى: كان يقال: من شكر النعمة أن يُتحدَّث بها(٣).

وروى عبدالله ابن الإمام [أحمد](٤) في «زوائد المسند»، والبيهقي بسند ضعيف، عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «التَّحَدُّثُ بِالنِّعْمَةِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ»(٥).

ومحل ذلك إذا لم يقترن التحدث بالنعمة بالعجب والرياء، أو غيرهما من المعاصي القلبية التي يجمعها تزكية النفس؛ فإنه بذلك يكون كفراناً لا شكراناً، وفرق بين التحدث بالنعمة وتزكية النفس.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[النجم: ٣٢].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٤٤).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٢٣٣).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٣٤).

(٤) زيادة من «ت».

(٥) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد المسند» (٤/ ٢٧٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٤١٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢١٨): رواه عبدالله ابن الإمام أحمد والبزار والطبراني، ورجالهم ثقات.

روى الطبراني عن أبي الأسود الدؤلي، وزادان الكندي رحمهما الله تعالى قالا: قلنا لعلي ﷺ: حدِّثنا عن أصحابك، فذكر مناقبهم.

قلنا: فحدِّث عن نفسك.

قال: مهلاً، نهى الله تعالى عن التزكية.

فقال رجل: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

قال: فإني أحدِّث بنعمة ربي، كنت والله إذا سألت أعطيت، وإذا سكت ابتُديت[1].

وقد قلت: [من السريع]

إذا تَفَوَّهْنا بِفَضْلٍ إلى ... مِنْ نِعَمِ الرَّحْمَنِ سُبْحانَهُ
فَذاكَ تَحْدِيْثٌ بِنَعْمائِهِ ... وَإِنَّما نَقْصِدُ شُكْرانَهُ
وَلَمْ يَكُنْ عُجْباً فَإِنَّ التَّقِيْ ... إِنْ شابَهُ عُجْبٌ فَقَدْ شانَهُ
تَزْكِيَةُ النَّفْسِ مِنَ الْمَرْءِ لا ... تَرْفَعُ يَوْماً فِي الورى شانَهُ
اللهُ أَدْرَى بِالَّذِي يَتَّقِي ... وَبِالَّذِي يُخْلِصُ إِيْمانَهُ

٤ ـ ومن أخلاق هابيل عليه السلام: التقوى، والوصيّة بها، والإشارة بها؛ لأن قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧] فيه إيماء إلى ذلك، كأنه يقول لأخيه: إنك لو كنت من المتقين لَمَا رُدَّ

---

(١) تقدم تخريجه.

قربانك، فهو إرشاد إلى التقوى، وتنبيه على وبال الغفلة والمعصية.

وقد قيل لسفيان الثوري رحمه الله تعالى: إن النَّاس يقولون: سفيان الثوري، وما نرى لك كثير اجتهاد؟

فقال: مَلاَك هذا الأمر التقوى[1]؛ يشير إلى أن التقوى إذا كانت في القلب لا يضر صاحبها قلة الأعمال.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: لا يقل عمل مع تقوى، وكيف يقل ما يتقبل؟[2]

وقال فَضَالة بن عُبيد رضي الله تعالى عنه: لأن أكون أعلم أن الله تعالى يتقبل مني مثقال حبة من خردل أحب إليَّ من الدنيا وما فيها وما بينهما؛ يقول: فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧]. رواهما ابن أبي الدنيا في كتاب «التقوى»[3].

وقال أبو الدرداء: لأن أستيقن أن الله تعالى تقبل مني صلاة واحدة أحب إليَّ من الدنيا وما فيها؛ إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧]. رواه ابن أبي حاتم[4].

وروى ابن أبي شيبة عن الحسن ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

«إِنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ عَمَلَ عَبْدٍ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ»[1].

وروى ابن عساكر عن هشام بن يحيى، عن أبيه قال: دخل سائل إلى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، فقال لابنه: أعطه ديناراً، فلما انصرف قال ابنه: تقبَّل الله منك يا أبتاه.

فقال: لو علمت أنَّ الله تعالى تقبَّل مني سجدة واحدة، أو صدقة درهم لم يكن غائب أحب إليَّ من الموت، تدري ممن يتقبل الله؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧][2].

وقلت: [من السريع]

مِــنْ نِعَــمِ اللهِ عَلَــى عَبْــدِهِ   تَوْفِيقُــهُ لِلْعَمَــلِ الــصَّالِحِ
وَإِنَّمــا يَقْبَــلُ مِــنْ مُتَّــقٍ   أَعْمالَــهُ لا مُعْجَــبٍ طــالِحِ
فَــلازِمِ التَّقْــوى فَــإِنَّ التُّقَــى   لِلْمُتَّقِــيْ مِــنْ كَسْبِــهِ الرَّابــحِ
مَنْ كانَ يَـدْرِي أَنَّ هَـذا الْـوَرى   مِــنْ كــاتِمٍ لِلــسِّرِّ أَوْ بــائِحِ
فَإِنَّمــا مَــوْرِدُهُ الْمَــوْتُ مِــنْ   غــادٍ إِلــى الأَمْـرِ وَمِـنْ رائِـحِ
فَكَيْـفَ يَعْتـاضُ بِمَرْجُـوحِ دُنْـ   يــاهُ عَــنِ الْمُـسْتَقْبَلِ الـرَّاجِحِ
انْظُــرْ لِمــا تَعْمَــلُ لا تَعْتَبِــرْ   بِــسانِحٍ عَنــ[ــه] وَلا بــارِحِ

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٣٤١)، وكذا هناد بن السري في «الزهد» (٢/ ٥٤٣).

(٢) تقدم تخريجه.

بِمَـنْ تَـشاءَمْتَ وَأَنْـتَ الَّـذِي — ساءَكَ شُؤْمُ الْعَمَلِ الْفاضِـحِ
يـا كـادِحَ الْكَـدْحِ إِلـى رَبِّـهِ — سَـوْفَ تَـرى أَخَـرَةَ الْكـادِحِ
لا يَحْمَـدُ الْغِـبُّ سِـوى ذاهِـبٍ — لِرَبِّـهِ فِـي الْمَـنْهَجِ الْواضِـحِ
الْحَمْـدُ لِلَّـهِ وَسُـبْحانَهُ — مَنْ ذا الَّـذِي يَقْبَلُ مِـنْ ناصِـحِ

٥ ـ ومن أخلاق هابيل عليه السلام: الحلم، واحتمال الأذى، والصبر على المكروه، وترك الانتقام، وعدم مقابلة السيئة بالسيئة.

وكل هذه أخلاق نبوية.

وفي وصف النبي ﷺ في التوراة: لا يجزي بالسيئة عن السيئة، ولكن يعفو ويصفح[١].

وقال بعضهم لبعض آل البيت في مغاضبة: لتسمعن مني مئة كلمة.

قال: لكنك لا تسمع مني كلمة واحدة.

وروى ابن أبي الدنيا، والديلمي، وابن النجار عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنِ اتَّقَى اللهَ كَلَّ لِسَانُهُ، وَلَمْ يَشْفِ غَيْظَهُ»[٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الورع» (ص: ٧٨)، وابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد» (١٦/ ٣١٧)، وكذا رواه العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٣٢٧) وقال: عبد الرحمن بن حريز هذا مجهول بالنقل، لا يتابع على حديثه، وفيه رواية من وجه آخر نحو هذا أو يقاربه في الضعف.

فما ذكر من الأخلاق، وسائر الأخلاق الكريمة فإنها ـ وإن كانت في طباع النفوس ـ فإن التقوى تثيرها وتنشرها، وتظهرها وتقوِّيها، وتنقلها من دائرة الغرائز إلى دائرة الكسب والأعمال، وتتحف أصحابها بالثواب.

٦ ـ ومنها: الرجوع إلى الله تعالى في كل أحواله.

ألا ترى أنه قرَّبَ القربان لله، وتأنق فيه إخلاصاً لله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧]، ثم قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[المائدة: ٢٨].

وكذلك المؤمن أوَّاب إلى الله رجَّاع إليه، معوِّل في كل أموره عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[ق: ٣١ ـ ٣٣].

٧ ـ ومنها: الخوف لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[المائدة: ٢٨].

وفي وصفه سبحانه برب العالمين بيان وجه المخافة منه؛ فإن معنى رب العالمين: مالكهم، والألف واللام للاستغراق؛ أي: المالك لجميعهم، المحيط بهم، والمالك الحقيقي هو الله تعالى، وملكه لهم يستدعي الإحاطة بهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الملك: ١٤]، فهو حقيق بأن يُخاف ويُتَّقى.

وإن قلنا: الرب القائم بمصالح العباد، فمن مصالحهم أخذ حق المظلوم منهم من الظالم، فهو يأخذ حق المقتول من القاتل، والمغصوب منه من الغاصب، والمأخوذ من عرضه من الآخذ، فهو حري بأن يُخاف ويُحذر من هذه الحيثية أيضاً.

وفي قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[المائدة: ٢٨] إشارة إلى موعظة نفسه ـ وإن أراد موعظة أخيه ـ فإن العارف إذا ذكر غيره ذكر نفسه أيضاً، وإلا لم يكن عارفاً حكيماً.

ومن هذا القبيل قوله ﷺ في حديث الصيام: «وَإِنِ امْرُؤٌ شَاتَمَهُ أَوْ خَاصَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ، إِنِّيْ صَائِمٌ»(١).

واعلم أنَّ في دعوى الخوف والخشية خطراً عظيماً لأنها تحتاج إلى أن يكون صاحبها متلبساً بأعمال الخائفين، وإلا كان كاذباً.

ومن هنا قال بعض السلف: ما عَرضت نفسي على الكتاب والسنة إلا خشيت أن أكون مكذباً(٢).

وقال بعضهم: إذا قيل لك: هل تخاف الله؟ فاسكت؛ فإنك إن قلت: لا، كان كفراً، وإن قلت: نعم، فإنك لا تعمل أعمال الخائفين، فيكون كذباً(٣).

---

(١) رواه البخاري (١٧٩٥)، ومسلم (١١٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه من قول إبراهيم التيمي.

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٤٢٣) من قول الفضيل بن عياض.

٨ ـ ومنها: كف الأذى عن أخيه مع احتمال الأذى منه.

ألا ترى إلى قوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ﴾[المائدة: ٢٨].

روى ابن النجار في «تاريخه» عن عبد الرحمن الحبلي قال: شكى رجل إلى رسول الله ﷺ جاره، فقال: «كُفَّ عَنْهُ أَذَاكَ، وَاصْبِرْ عَلَى أَذَاهُ؛ فَكَفَى بِالْمَوْتِ مُفَرِّقاً»(١).

وما كانَ بينَ متجاورَينِ أو متقاربَينِ أو متصادقَينِ أفضل من عشرة كُلٍّ واحِد منهُما الآخرَ على الإنصافِ والاتِّفاق على الحقِّ وعدمِ الاختلافِ.

وقد روى الخرائطي في «المكارم»، وأبو نعيم عن عائشة رضي الله تعالى عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «كَفَى بِهَا نِعْمَةً أَنْ يَتَجَاوَرَ الْمُتَجَاوِرَانِ، أَوْ يَتَخَالَطَا، أَوْ يَصْطَحِبَا، فَيَفْتَرِقَا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْراً»(٢).

وقلت في عقد هذا الحديث: [من الطويل]

تَصاحَبْتُما فِي مُدَّةٍ وَافْتَرَقْتُما ... وَكُلٌّ يَقُولُ الْخَيْرَ فِي وَصْفِ صاحِبِهْ

فَما بَعْدَها مِنْ نِعْمَةٍ وَفَضِيْلَةٍ ... لِطالِبِ فَضْلٍ فِي الزَّمانِ وَكاسِبِهْ

---

(١) ورواه المروزي في «البر والصلة» (ص: ١١٥)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (ص: ١٠٣).

(٢) رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص: ٢٠٤)، وكذا العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٣٨٧) وقال: قال البخاري: عيسى بن ميمون منكر الحديث، ولا يعرف هذا الحديث إلا بعيسى.

٩ ـ **ومنها: الاستسلام لقضاء الله تعالى.**

ألا ترى إلى قولـه: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾[المائدة: ٢٨]؟

قال مجاهد رحمه الله تعالى: كان كُتِبَ عليهم إذا أراد الرجل يقتل الرجل تركه، ولا يمتنع منه. رواه ابن جرير[١].

وأما في شرعنا فيجوز أن يدفع عن نفسه إجماعاً، وإنما الكلام في وجوبه كما قال القرطبي.

قال: والأصح وجوب ذلك لما فيه من النهي عن المنكر.

قال: وفي الحشوية قوم لا يجيزون للمَصول عليه الدفع[٢].

قلت: خلاف مثل هؤلاء لا يعد خلافاً، ومذهبنا أن دفع الصائل عن المال جائز، وعن البُضع له أو لأهله أو لأجنبي واجب.

قال البغوي، والمتولي رحمهما الله تعالى: إن لم يخف على نفسه.

وكذلك يجب الدفع عن النفس إن قصدها كافر، أو مهدر الـدم، أو بهيمة، فإن قصدها مسلم محقون الدم فأظهر الأقوال أن الدفع جائز. وقيل: الاستسلام مستحب، وعليه استسلام عثمان رضي الله تعالى عنه لقاتليه[٣].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٦/ ١٩٢).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٦/ ١٣٦).

(٣) انظر: «تفسير البغوي» (٢/ ٢٩).

قال بعض الأنصار فيه: [من الطويل]

وَكَـفَّ يَدَيْـهِ ثُـمَّ أَغْلَـقَ بابَـهُ ... وَأَيْقَـنَ أَنَّ اللهَ لَـيْسَ بِغافِـلِ
وَقـالَ لأَهْـلِ الـدَّارِ أَنْ لا تُقـاتِلُوا ... عَفا اللهُ عَنْ ذَنْبِ امْرِئٍ لَمْ يُقاتِلِ
فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللهَ أَلْقَى عَلَيْهِمُ الْـ ... عَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ بَعْدَ التَّواصُلِ
وَكَيْفَ رَأَيْتَ الْخَيْرَ أَدْبَرَ بَعْدَهُ ... عَنِ النَّاسِ إِدْبارَ النَّعامِ الْجَوافِلِ

قلت: والذي أختاره الاستسلام أيام الفتنة؛ لما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والحاكم وصححه، عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ فِيْهَا الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً، وَيُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً، الْقَاعِدُ فِيْهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيْهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيْهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، فَكَسِّرُوْا سُيُوْفَكُمْ، وَقَطِّعُوْا أَوْتَارَكُمْ، وَاضْرِبُوْا بِسُيُوْفِكُمُ الْحِجَارَةَ؛ فَإِنْ دُخِلَ عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ فَلْيَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ»[1]؛ يعني: هابيل عليه السلام.

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه نحوه، وقال: قلت: يا رسول الله! إن دخل علي بيتي وأدخل يده ليقتلني؟

قال: فقال رسول الله ﷺ: «كُنْ خَيْرَ ابْنَيْ آدَمَ»، وتلا هذه الآية:

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤١٦)، وأبو داود (٤٢٥٩)، وابن ماجه (٣٩٦١)، والحاكم في «المستدرك» (٨٣٦٠).

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ﴾[المائدة: ٢٨] الآية[١].

وروى الإمام أحمد، والحاكم عن خالد بن عُرْفُطَةَ رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا خَالِدُ! سَيَكُوْنُ بَعْدِيَ أَحْدَاثٌ وَفِتَنٌ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُوْنَ عَبْدَاللهِ الْمَقْتُوْلَ لا الْقَاتِلَ فَافْعَلْ»[٢].

والأحاديث في ذلك كثيرة.

* تَنْبِيْهٌ:

روى ابن أبي شيبة عن الحسن رحمه الله تعالى قال: أول من مات آدم عليه السلام[٣].

وتمسك به من قال: إن ابني آدم كانا من بني إسرائيل[٤].

ولعل مراده أول من مات موتاً بدون القتل، فلا معارضة بينه وبين ما تقدم: أن هابيل قتل في حياة أبيه.

* تَنْبِيْهٌ آخَرُ:

روى ابن جرير عن خيثمة رحمه الله تعالى قال: لما قَتَل ابن آدم

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١٨٥)، وأبو داود (٤٢٥٧)، والترمذي (٢١٩٤) وحسنه، والحاكم في «المستدرك» (١٦٠٩).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٩٢)، والحاكم في «المستدرك» (٥٢٢٣).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٩٧٨).

(٤) انظر: «تاريخ الطبري» (١/ ٩١).

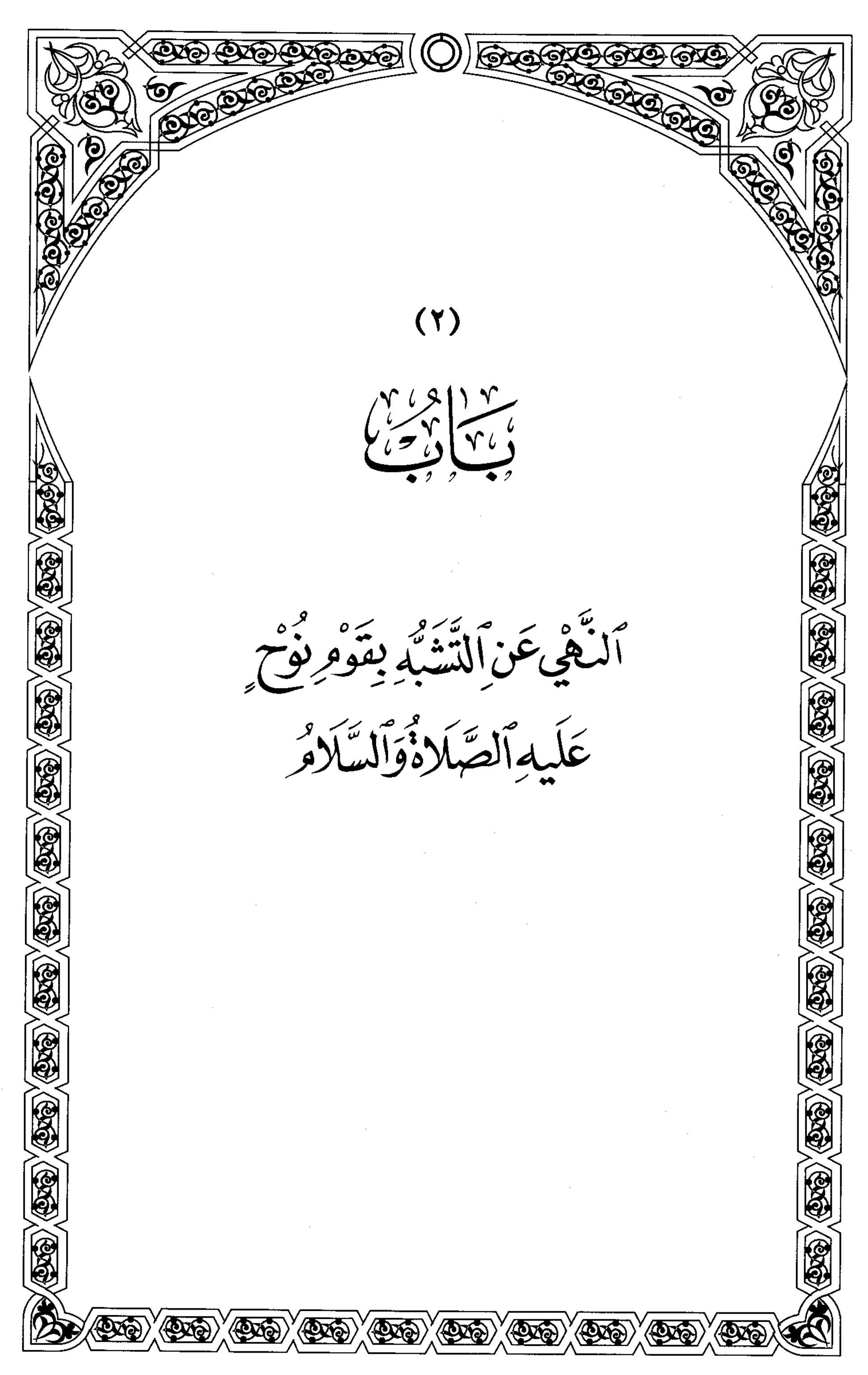
أخاه نَشَّفت الأرضُ دمه، فلُعنت، فلم تنشف الأرض دماً بعده[1].

روى ابن عساكر عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال: إن الأرض نشـفت دم ابن آدم المقـتول، فلَعن آدم الأرض لأجـل ذلك، لا تنشف الأرض دماً بعد دم هابيل إلى يوم القيامة[2].

❑ ❑ ❑

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٦/ ١٩٩).

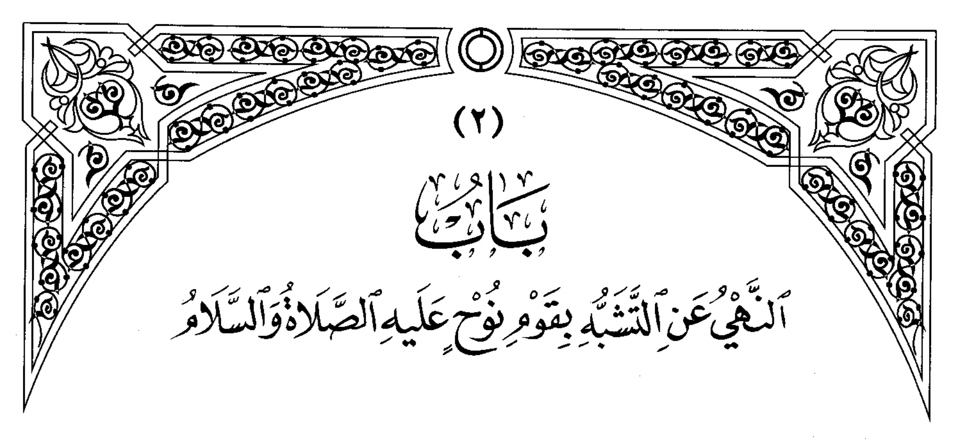
(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٤/ ٦).



(٢)

بَابُ

النَّهْيُ عَنِ التَّشَبُّهِ بِقَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ



وهم أول من عبد الأصنام.

روى ابن عساكر عن الحسن رحمه الله تعالى: أن نوحاً عليه السَّلام أول رسول[1] بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض؛ قال: وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤][2].

وروى ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ نَبِيٍّ أُرْسِلَ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ»[3].

لكن هذا معارَض بما رواه الحكيم الترمذي عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ الرُّسُلِ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلامُ،

---

(١) قد روى البخاري (٦١٩٧) حديث الشفاعة المشهور عن أنس رضي الله عنه، وفيه: «ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله».

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٤٤).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٠٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٤٣).

وَآخِرُهُمْ محمَّدٌ ﷺ، وَأَوَّلُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيْلَ مُوْسَى، وَآخِرُهُمْ عِيسَى، وَأَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ إِدْرِيسُ عَلَيْهِمُ السَّلامُ»[1].

قلت: أما كون آدم عليه السَّلام أول الأنبياء عليهم السَّلام فهذا مما أجمعوا عليه، وإنما الكلام في أنه أول الرسل أو نوح، والظاهر الأول.

ولعل النبي ﷺ ظنَّ أن أول نبي أرسل نوح، ثم أعلم بسبق رسالة آدم إلى أولاده وأولاد أولاده.

أو أراد في حديث أنس ﷺ: أول نبي أرسل من بني آدم نوح.

أو في حديث أنس تتمة حذفها بعض الرواة، ويؤيده ما في «تفسير القرطبي»، وغيره: أول رسول أرسل بتحريم الأخوات والعمات نوح عليه السلام[2].

وروى ابن أبي حاتم وصححه، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون؛ كلهم على شريعة من الحق[3].

---

(١) ورواه ابن حبان في «الثقات» (٢/ ١١٩)، والمعافى بن زكريا في «الجليس الصالح والأنيس الناصح» (ص: ٣٩٦).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ٢٣٢).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٦٩٦).

وقد جاء ما يدل على أن إدريس عليه السَّلام أرسل أيضاً، وهو متقدم على نوح عليه السلام، فروى الدِّينوري في «المجالسة» عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أنه قال: إن إدريس أقدم من نوح عليهما السَّلام، بعثه الله ﷻ إلى قومه، فأمرهم أن يقولوا: لا إله إلا الله، ويعملوا ما شاؤوا، فأبوا، فأهلكهم الله تعالى. وقد أخرجه ابن أبي حاتم(١).

وأخرج عن السدي أنه قال: كان إدريس عليه السلام أول نبي بعثه الله في الأرض(٢).

وهذان الأثران إن صحَّا فحكمهما حكم الحديث المرفوع؛ فإن مثل ذلك لا يقال رأياً، فهو دليل كاف في إثبات رسالة إدريس، فأما نبوته فإنها ثابتة بالقرآن العظيم.

وإنما اقتصر في شريعة إدريس عليه السَّلام على شهادة التوحيد؛ لأنها تَنهى مَنْ صدَّق بها عن الفحشاء والمنكر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ أي: أبلغ في النهي عن ذلك.

وأيضاً فإن تقليل الشرائع ـ وإن كان من باب التيسير والتسهيل ـ

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٥٦٧)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٥١٧).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٥٢٤).

فليس فيه كبير تكريم، وإلا لم يحرم على النبي ﷺ أشياء لم تحرم على أمته، بل في تقليل الشرائع زيادة في نكال من عصى ولم يمتثل، وخصوصاً إذا اعتبر حاله مع حال من ابتلي بالشرائع الكبيرة فامتثل وأطاع.

وقريب من قصة إدريس في تقليل الشريعة ما رواه الدينوري عن عبدالله بن عائذ رحمه الله تعالى أن نبياً من الأنبياء عليهم السلام بعث إلى قوم فقال لهم: قوموا من الشمس إلى الظل يغفرْ لكم، فأبوا[1].

ثم إني تذكرت ما يدل على أن الناس في زمان إدريس عليه السلام كانوا مكلفين بتحريم القتل، والزنا، وشرب الخمر، وغير ذلك من الفساد، وهو قصة هاروت وماروت، وقد تقدمت قصتهما في التشبه بالملائكة عليهم السلام.

وروى الثعلبي، وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[الأحزاب: ٣٣]: ما بين نوح وإدريس عليهما السَّلام، وكان ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم أحدهما كان يسكن السهل، والآخر الجبل، وكان رجال الجبل صِباحاً، وفي النساء دَمامة، وهم أولاد قابيل بن آدم، وكان نساء السهل صِباحاً، وفي الرجال دمامة، وهم أولاد شيث عليه السلام، وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام، فآجر

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٥).

نفسه منه، فكان يخدمه، واتخذ إبليس شيئاً مثل ما يزمر به الرعاء، فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله قط، فبلغ ذلك من حولهم، فانتابوهم ليسمعوا، فاتخذوه عبداً يجتمعون إليه في السنة، فتتبرج النساء للرجال.

وإن رجلاً من الجبل هجم عليهم وهم في عيدهم، فرأى النساء وصباحتهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهم، فنزلوا معهم، فظهرت الفاحشة فيهم، فهو قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[الأحزاب: ٣٣].

وكان آدم عليه السلام أوصى ابنه شيث أن لا يناكح بين أولاده وأولاد قابيل، فلما تحول أولاد قابيل وهم أهل الجبل إلى أولاد شيث حملهم حسنُ نساءِ أولادِ شيث على طلب المناكحة، فمنعهم بعض أولاد شيث من ذلك عملاً بوصية آدم، فأخذه أولاد قابيل، وجعلوه في مغارة، وبنوا عليه حائطاً، ثم تناكح الطائفتان، وتناسلوا حتَّى ملئوا الأرض، وكثر الفساد فيهم، فبعث الله تعالى إليهم نوحاً عليه السَّلام يدعوهم إلى الله تعالى، وينذرهم بأسه[1].

وروى عبد بن حميد، وابن المنذر عن الحكم رحمه الله تعالى في قوله ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾[الشورى: ١٣]؛ قال: جاء نوح عليه الصلاة والسلام بالشريعة بتحريم الأمهات،

---

(١) رواه الثعلبي في «التفسير» (٨/ ٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠١٣).

والأخوات، والبنات[1].

ومن هنا يجمع بين الآثار؛ فإن آدم عليه السلام أول من أرسل بالتوحيد وبعض الأحكام؛ كتحريم التوأمة على توأمها.

ثم إدريس أول من أرسل بالتلفظ بلا إله إلا اله بحيث لا يقبل التوحيد والطاعة إلا ممن تلفظ بها.

ونوح أول من أرسل بتحريم المحارم، وكانت المناكحة قبل سائغة لضرورة النسل، ثم لما كثر الناس حرمت المحارم.

وذكر القرطبي في تفسير سورة الأعراف: أن نوحاً عليه السلام أول الرسل بعد آدم عليه السلام بتحريم البنات، والأخوات، والعمات، والخالات.

ولمَّا بعث الله نوحاً عليه السَّلام أخذ يأمرهم وينهاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً، وكانوا يدخلون عليه فيخنقونه، ويضربونه في المجالس حتى يُغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، وكان يكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه، ويجعل أصبعيه في أذنيه لكيلا يسمع شيئاً من كلامه، وكان يضرب ويلف في لبد، ويلقى بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم.

وجاءه رجل منهم ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا، فقال: يا بني!

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٣٤٠).

انظر هذا الشيخ لا يغرنك.

قال: يا أبت! مَكِّنِّي من العصا، فشجه شجة مُوضحة في رأسه، وسال الدم.

قال نوح: رب! قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن يك لك في عبادك خير فاهدهم، وإن يك غير هذا فصبِّرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين.

فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[هود: ٣٦]، فأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن، فدعا عليهم[1].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن الحسن رحمه الله تعالى: أن نوحاً عليه السلام لم يدع على قومه حتى نزلت عليه هذه الآية: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[هود: ٣٦]، فانقطع رجاؤه عند ذلك منهم، فدعا عليهم عند ذلك.

وأوحى الله تعالى إلى نوح بعد أن دعا عليهم أن يصنع الفلك، فصنعه من يومئذ، وهيأه حتى فار التنور، فركب في الفلك، وحَمَل فيه من أمر الله تعالى بحملهم من مؤمن بني آدم ومن كل زوجين اثنين، وأغرق الله الباقين في الطوفان.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٩/ ٤٣)، وروى طرفاً منه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٤٨).

وليس غرضنا الآن بيان القصة بأطرافها، وإنما نذكر التنقيب على قوم نوح، والتفتيش على قبائح أفعالهم ليحذر المؤمن التشبه بهم فيها، ويتنزه عن مقارفتها وتعاطيها.

١ ـ فمنها: الكفر.

كما شهد عليهم به نوح عليه السَّلام بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

٢ ـ ومنها ـ وهو نوع مما قبله ـ: عبادة الأصنام، والتحريض عليها.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح: ٢١ ـ ٢٣].

وقد تقدم في التشبه بالشيطان أنه هو الذي صور لهم هذه الأصنام على صورة أولاد آدم، وكانوا صالحين فعبدوا تلك الصور.

وذكر الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن نوحاً كان يحرس جسد آدم عليهما السلام على جبل بالهند يحول بين الكافرين وبين أن يطوفوا بقبره، فقال لهم الشيطان: إنما هو جسد، وأنا أصور لكم جسداً تطوفون به، فنحَتَ خمسة أصنام، وحملهم على عبادتها؛ وهي: وُد، وسُواع، ويَغوث، ويَعُوق، ونَسْر، فلمَّا كان أيام الغرق دفن الطوفان تلك الأصنام وطمها التراب، فلم تزل حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب.

وكان ود لكلب، وسواع لآل ذي الكلاع، ويغوث لهمذان، ويعوق لأعلى وأنعم وهما من طي، ونسر لخثعم[1].

وروى البخاري، وغيره عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب تُعبد؛ أمَّا ود فكانت لكلب بدُومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمذان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، ولما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلكت أولئك ونُسِخَ العلم عُبدت[2].

٣ ـ ومنها: الزندقة، والانحلال عن الدين، وعدم التقيد بشريعة.

وقال في «القاموس»: الزنديق ـ بالكسر ـ: من الثنوية، أو القائل بالنور والظلمة، أو مَن لا يؤمن بالآخرة والربوبية، أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، أو معرَّب زن دين؛ أي: دين المرأة، وجمعه زنادقة، وزناديق، وقد تزندق، والاسم الزندقة[3].

روى البخاري في «تاريخه» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال:

---

(١) رواه الثعلبي في «التفسير» (١٠/ ٤٦).

(٢) رواه البخاري (٤٦٣٦).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١١٥١) (مادة: زندق).

بعث الله نوحاً فما أهلك أمته إلا الزنادقة، ثم نبي فنبي، وإنه لا يهلك هذه الأمة إلا الزنادقة(1).

وروى ابن المنذر عن [زيد بن] رفيع فقيه أهل الجزيرة قال: بعث الله تعالى نوحاً، وشرع له الدين، فكان الناس في شريعة نوح عليه السَّلام ما كانوا، فما أطغاها إلا الزندقة، ثم بعث الله ﷻ إبراهيم عليه الصلاة والسَّلام، وشرع له الدين، فكان الناس في شريعة من بعد إبراهيم ما كانوا، فما أطغاها إلا الزندقة، ثم بعث الله ﷻ عيسى عليه السَّلام، وشرع له الدين، فكان الناس في شريعة عيسى ما كانوا، فما أطغاها إلا الزندقة(2).

٤ ـ ومنها: التكذيب باليوم الآخر، وإنكار البعث والنشور.

كما يشير إليه قول نوح عليه السلام: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[نوح: ١٧ ـ ١٨].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف: ٥٩]؛ يعني: يوم القيامة، وقيل: يوم الإغراق.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[الأعراف: ٦٠]؛ سموا ما جاء به من التوحيد والإنذار بيوم القيامة ضلالاً مبيناً.

---

(١) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٣٥).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٣٤٠).

وهذا دليل على أنهم كانوا يكذبون بذلك، بل كل رسول أرسله الله تعالى أرسله بالإيمان بالله واليوم الآخِر وكذَّبه قومُه إلا من آمن منهم، وهم قليل كمَا قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل كفار هذه الأمة ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[ق: ١٢ ـ ١٤].

وقد حكي قبل ذلك عنهم أنهم قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾؛ أي: نرجع بعد الموت والفناء كما يدل عليه قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[ق: ٣].

فمن كذب باليوم الآخر فقد تشبه بهؤلاء كلهم.

وفي الحديث: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ؛ فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِيَ أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدَاً». رواه البخاري من حديث ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما[1].

وأخرجه هو والإمام أحمد، والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه نحوه، وقال فيه: «وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَيْسَ يُعِيدُنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ»[2].

---

(١) رواه البخاري (٤٢١٢).

(٢) رواه البخاري (٤٦٩٠)، والإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣١٧)، والنسائي (٢٠٧٨).

٥ ـ ومنها: عدم المبالاة بالله بحيث لا يرجى ولا يخاف، ولا يشكر له نعمة، ولا يستحيى، ولا يؤمن مكره.

قال الله تعالى يحكي ما قاله نوح لقومه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[نوح: ١٣].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا تعلمون له عظمة. رواه ابن جرير، والبيهقي، وقال: لا تعرفون له حق عظمته[١].

وزاد ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وقال: لا تخشون له عقاباً، ولا ترجون له ثواباً. رواه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ[٢].

فسره على إعمال اللفظ المشترك في معنييه؛ فإنه يقال: رجاء بمعنى الخوف، وبمعنى الطمع.

وقال الحسن رحمه الله تعالى: ولا تعرفون له حقاً، ولا تشكرون له نعمة[٣].

وقال مجاهد رحمه الله تعالى: لا تبالون لله عظمة[٤]. رواهما سعيد بن منصور، والبيهقي.

وفي «مصنف عبد الرزاق»: عن علي رضي الله تعالى عنه، أن

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢٩/ ٩٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٧٩٠)، والطبري في «التفسير» (٢٩/ ٩٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٣٧٥) واللفظ له.

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٣٢).

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٣١).

النَّبي ﷺ رأى ناساً يغتسلون عراة ليس عليهم أزر، فوقف، فقال بأعلى صوته: «ما لَكُمْ لا تَرْجُوْنَ لِلَّهِ وَقاراً؟»[1].

٦ ـ **ومنها: الزنا.**

وهو من أقبح الفواحش، وأعظم المعاصي، وهو مما أجمعت أهل الأديان على تحريمه.

ومن محاسن شيخ الإسلام والدي رحمه الله تعالى قوله: [من الطويل]

ثَلاثَةُ أَلْفاظٍ تَساوَتْ لَدى الْخَطِّ ... وَلَيْسَ لَها خُلْفٌ سِوى حالَةَ النَّقْطِ

رِباءٌ رِياءٌ وَالزِّناءُ كَبائِرٌ ... عَلَيْها وَعِيْدٌ بِالْعِقابِ مَعَ السُّخْطِ

وَلَمْ يَأْتِ فِيها الْحِلُّ يَوْماً بِشِرْعَةٍ ... فَخُذْ عَنِّيْ ما قَدْ قُلتُ وَاعْتَمِدَنْ ضَبْطِي

٧ ـ **ومنها: تبرج النساء بالزينة.**

وهو إظهار زينتهن للرجال الأجانب، والتبختر في المشية، وهو حرام.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[الأحزاب: ٣٣].

وقد علمت أنها ما بين آدم ونوح عليهما السلام.

وروى ابن سعد، وابن أبي حاتم عن مجاهد رحمه الله تعالى

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١١٠٢).

قال: كانت امرأة تخرج فتمشي بين الرجال، فذلك تبرج الجاهلية الأولى[1].

وروى ابن أبي حاتم عن مقاتل رحمه الله تعالى قال: التبرج أن تلقي الخمار على رأسها ولا تشده، فيوازي قلادتها وقرطيها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها[2].

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[الأحزاب: ٣٣]؛ قال: تكون جاهلية أخرى.

وفي لفظ: ما سمعت بأولى إلا لها آخرة. رواه ابن أبي حاتم[3].

وروى البيهقي في «سننه» عن أبي[4] أذينة الصدفي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «شَرُّ نِسَائِكُمُ الْمُتَبَرِّجَاتُ، وَهُنَّ الْمُنَافِقَاتُ، لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْهُنَّ إِلاَّ مِثْلُ الْغُرَابِ الأَعْصَمِ»[5].

وروى سعيد بن منصور عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن امرأة دخلت عليها وعليها خمار رقيق يشف جبينها، فأخذته عائشة فشقته، ثم

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٩٨)، وكذا عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ١١٦).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٦٠٢).

(٣) ورواه الطبري في «التفسير» (٢٢/ ٥).

(٤) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٨٢).

(٥) في الأصل و«ت»: «ابن».

قالت: أما تعلمين ما أنزل الله في سورة النور؟ - تعني: قوله تعالى ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[النور: ٣١] الآية - ودعت لها بخمار فكستها إياه[١].

وروى الإمام أحمد، والنسائي، وصححه الحاكم، عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَخَرَجَتْ، فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوْا رِيْحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ»[٢].

وأصله عند أبي داود، والترمذي، وحسنه[٣].

وروى ابن أبي شيبة عن ثابت البناني، عن أبي ثامر رضي الله عنه - وكان أبو ثامر رجلاً عابداً ممن يغدو إلى المسجد - فرأى في المنام كأن الناس قد عُرضوا على الله، فجيء بامرأة عليها ثياب رقاق، فجاءت ريح فكشف الله تعالى عنها، وقال: اذهبوا بهَا إلى النار؛ فإنها كانت من المتبرجات، حتى انتهى الأمر إلي قال: دعوه؛ فإنه كان يؤدي حق الجمعة[٤].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ١٨٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤١٨)، والنسائي (٥١٢٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٩٧).

(٣) رواه أبو داود (٤١٧٣)، والترمذي (٢٧٨٦) وحسنه، إلا أنهما قالا: «فهي كذا وكذا» بدل «فهي زانية».

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٥١٢).

وروى عبد الرزاق عن ليث رحمه الله تعالى: أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رأى امرأة متزينة أذن لها زوجها في البروز، فأخبر بها عمر، فطلبها فلم يقدر عليها، فقام خطيباً فقال: هذه الخارجة وهذا لمرسلها، لو قدرت عليهما لشترت بهما، ثم قال: تخرج إلى أبيها يكيد بنفسه، أو إلى أخيها يكيد بنفسه، فإذا خرجت فلتلبس معاوزها[1].

قال الخطابي: قال أبو زيد: شترت ـ يعني: بالمعجمة، والمثناة فوق ـ بالرجل، وهجلت به، وقدرت، وسمعت به شتِيراً وتهجيلاً: إذا أسمعته القبيح، وشتمته.

وقوله: يكيد نفسه؛ أي: يسوق سياق الموت[2].

ومعنى كلام عمر رضي الله تعالى عنه: أنه لم يأذن للمرأة أن تخرج إلا في ضرورة كموت أخيها وأبيها في ثياب بِذْلة من غير تزين ولا تعطر.

٨ ـ ومنها: اتباع المترفين، وإيثار محبتهم ومخالطتهم.

كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾[نوح: ٢١].

واعلم أن عشرة المتخولين والأغنياء المترفين مُضِـرَّة بالنفس والدين؛ لأن النفس تتحرك بمعاشرتهم إلى مشاركتهم فيما هم فيه

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٨١١١).

(٢) انظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ١٠٥).

ومضارعتهم، فيكون ذلك باعثاً للعبد على طلب مثلِ ما لهم، وازدراء ما أنعم الله عليه مما دون ذلك، فيركب في طلبه كل صعب وذَلُول، وربما لا يتوصل إليه إلا بالأسفار المُشِقة والأتعاب الشديدة؛ فإن المرء إذا هوي شيئاً طلبه ولو بالصين، وركب فيه المَهَامِه والقِفار ولو سنين كما قيل: [من السريع]

وَكَمْ قَطَعْتُ اللَّيْلَ فِي مَهْمَهٍ ... لا أَسَداً أَخْشَى وَلا ذِئْباً
يَغْلِبُنِي شَوْقِي فَأَسْرِي السُّرَى ... وَلَمْ يَزَلْ ذُو الشَّوْقِ مَغْلُوباً[1]

وقد لا يتيسر مطلوبه من طريق مباح، فيرتكب الشبهات، ويقارف المحرمات، ثم إذا أصاب بغيته ولقى أمنيته فقد لا يحسن التصرف فيما أوتيه، وقد يؤدي به حصوله له إلى البطر والأشَر كما صار لقوم نوح، وإذا لم يتيسر له ما أراده، وأعمَلَ في طلبه اجتهاده، فإما أن يغلب جانبه الدين فيحتاج إلى تجرع الصبر، ومدافعة الغم والحصر، وإما أن يفتتن في دينه، ويسخط فضل من جاد بإيجاده وتكوينه.

واعتزال هؤلاء متعين على كل من خاف على نفسه من هذه الغوائل، ورغب في التخلص من هذه الرذائل.

وقد قيل في المثل: عينٌ لا تنظرُ قلبٌ لا يحزنُ.

وروى أبو نعيم عن عون بن عبدالله رحمه الله تعالى قال: كنت أجالس الأغنياء، وكنت من أكثر الناس هماً ومن أكثرهم غماً، أرى

---

(١) انظر: «الرسالة القشيرية» (ص: ٢٣٧).

مركباً خيراً من مركبي، وثوباً خيراً من ثوبي فأهتم، فجالست الفقراء فاسترحت[1].

وروى الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انْظُرُوْا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلا تَنْظُرُوْا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لا تَزْدَرُوْا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيكُمْ»[2].

ولقد قلت: [من المديد]

فِـي خلْطَـةِ الأَغْنِيـاءِ خَطْـبُ ... أَوْرَثَ قَلْـبَ الْفَقِيْـرِ حُزْنـا
يَحْـسُدُهُمْ فِـي الَّـذِي يَـراهُ ... وَلا يَنـالُ الَّـذِي تَمَنَّـى
يَـسْخَطُ مِـنْ رَبِـهِ عَطـاءً ... قَـدْ عَمَّـهُ يَـسْرَةً وَيمْنَـى
قَـدْ كـانَ فِـي عَيْـشِهِ مُهَنَّـاً ... فَـصارَ مِمَّـا رَأَى مُعَنَّـى
فَـالْقَ الْمَـساكِيْنَ وَاصْـطَحِبْهُمْ ... تَـشْكُرْ لِـرَبِّ الْعِبـادِ مَنَّـا

٩ ـ ومنها: المكر، وهو كبيرة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾[نوح: ٢٢].

قال الحسن رضي الله تعالى عنه: أي: مكروا مكراً عظيماً

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٤٣)، وذكره الترمذي في «سننه» (١٧٨٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٥٤)، ومسلم (٢٩٦٣)، والترمذي (٢٥١٣)، وابن ماجه (٤١٤٢).

في الدين[1].

والمكر عاقبته وخيمة.

وحقيقته: حيلة يجلب بها لغيره المضرة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[فاطر: ٤٣].

وفي «مراسيل أبي داود» عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمَكْرُ وَالْخَدِيْعَةُ وَالْخِيَانَةُ فِيْ النَّارِ»[2].

١٠ ـ ومنها: إضلال الناس، وإغواؤهم، ومنعهم عن الإيمان بالله تعالى، وعن طاعته، والدعوة إلى معصيته، واتباع الأئمة المضلين.

قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾[نوح: ٢٤].

وقد دلت الآية أنه كان في قوم نوح الضُّلَّال والمضلون.

واتباع أهل الضلال مذموم منهي عنه في سائر الملل كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة: ٧٧].

قيل: الإشارة بالأول إلى ضلالهم عن مقتضى العقل، وبالثاني عن ضلالهم عما جاء به الشرع.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٤٥).

(٢) رواه أبو داود في «المراسيل» (١٦٥).

وروى الإمام أحمد، والطبراني عن أبي الدَّرداء رضي الله تعالى عنه: أنَّ النَّبِـيَّ ﷺ قـال: «إِنَّ أَخْـوَفَ مَا أَخَـافُ عَـلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةُ الْمُضِـلُّوْنَ»[1].

وروى الإمام أحمد بإسناد جيد، عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «غَيْرُ الدَّجَالِ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنَ الدَّجَالِ».

قيلَ: ومَا ذاكَ؟

قالَ: «أَئِمَّةٌ مُضِـلُّونَ»[2].

وروى الإمام أحمد، والشيخان، والترمذي، وابن ماجه عن ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ لا يَقْبِـضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنْ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِـضُهُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمَاً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُسَاءَ جُهَّالاً فَسُئِلُوْا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوْا وَأَضَلُّوْا»[3].

وفي لفظ: «إِنَّ اللهَ لا يَنْزِعُ الْعِلْمَ انْتِزَاعَاً مِنَ النَّاسِ بَعْدَ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ إِيَّاهُ، وَلَكِنْ يَذْهَبُ بِذَهَابِ الْعُلَمَاءِ، فَكُلَّمَا ذَهَبَ عَالِمٌ ذَهَبَ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْعِلْمِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ رُؤَسَاءُ جُهَّالٌ إِنْ سُئِلُوْا أَفْتَوا بِغَيْرِ عِلْمٍ،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ١٦٢)، والبخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، والترمذي (٢٦٥٢)، وابن ماجه (٥٢).

فَيَضِلُّون وَيُضِلُّونَ».

١١ ـ ومنها: الإعراض عن سماع الموعظة.

قال نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾[نوح: ٧] الآية.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾: غطوا بها وجوههم لكيلا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه. رواه سعيد بن منصور، وابن المنذر[١].

فالمعرض عن سماع الذكر والموعظة والنصيحة متشبه بقوم نوح، وهو يستوجب الإعراض عنه من الله تعالى.

ومَنْ أقبل على الله أقبل الله عليه؛ لما روى الشيخان عن أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد والنَّاس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحدٌ، فوقفا على رسولِ الله ﷺ قال: فأمَّا أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأمَّا الآخر فجلس خلفهم، وأمَّا الثَّالث فأدبر ذاهباً، فلمَّا فرغَ رسولُ الله ﷺ قال: «أَلا أُخْبِرُكُمْ عَنْ الثَّلاثَةِ النَّفَرِ؛ أَمَّا أَحَدُهُمْ آوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَى مِنَ اللهِ فَاسْتَحْيَى اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ»[٢].

---

(١) انظر: «الدرالمنثور» للسيوطي (٨/ ٢٩٨).

(٢) تقدم تخريجه.

١٢ ـ ومنها: بغض النصحاء.

قال في «الكشاف» في قوله: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾[نوح: ٧]: تغطوا بها لئلا ينظروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله[١].

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: لا خير في من لا يحب الناصحين.

وأصل ذلك من الجهل.

وفي المثل: من نصح جاهلاً عاداه.

١٣ ـ ومنها: الإصرار على المعصية، وترك التوبة والاستغفار.

قال نوح عليه السلام: ﴿وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾[نوح: ٧].

وأصل الإصرار العزم والإسراع والبعد؛ كأن المصر على الذنب فعله في الحال، وعزم عليه مرة أخرى، وأسرع إليه وفيه، ثم أسرع إليه ثانياً، وبَعُدَ به عن الخير.

والندم عليه والاستغفار منه رجوع عنه.

ولقد أمرهم نوح عليه السلام بالاستغفار كما قال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾[نوح: ١٠].

فلم يستغفروا من ذنب أصروا عليه، وفروا من الله لا إليه كما قال: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾[نوح: ٦].

فَفِرَّ إلى الله ولا تفر عنه، ولا تصر على معصيته والإبعاد منه،

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٤/ ٦١٩).

وإن كنت واقعاً في المعصية فلا تكن عاجزاً عن التوبة عنها والاستغفار منها كما كان قوم نوح كذلك، فوقعوا في المهالك.

فليس ثبوت الشقاء والبلاء بمجرد وقوع الذنب والخطاء، والاستغفار منك مقصود، وباب التوبة عنك غير مردود، ولكن البلية والرزية في الإصرار على الذُّنوب بعد الوقوع في الإثم والحَوب، فقد ينهدم ركن الذَّنب بالاستغفار، وقد يكون عظم الخطيئة من الإصرار كما روى سعيد بن منصور في «سننه» عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا كَبِيْرَةَ مَعَ الاسْتِغْفَارِ، وَلا صَغِيْرَةَ مَعَ الإِصْرَارِ»(١).

١٤ ـ ومنها: الاستكبار.

كما قال: ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾[نوح: ٧].

وقد تقدم الكلام عليه في النهي عن التشبه بالشيطان.

ولما نظر نوح عليه السَّلام أن الكبر هو الذي صرف قومه عن الإيمان كما صرف به عنه الشيطان؛ إذ لا يجتمع الكبر والإيمان في قلب إنسان بدليل الحديث: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، وَلا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ»(٢) اقتصر

---

(١) ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٧٩٩٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٨٥٣).

(٢) بهذا اللفظ رواه الترمذي (١٩٩٩) وحسنه، والإمام أحمد في «المسند» (١/ ٤١٦) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. وقد تقدم بلفظ آخر.

نوح في وصيته لابنيه عليهم السَّلام على النهي عن الكبر والشرك كما روى الإمام أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، وصححه الحاكم، عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ نُوْحاً عَلَيْهِ السَّلامُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَعَا ابْنَيْهِ فَقَالَ: إِنِّي آمُرُكُمَا بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكُمَا عَنِ اثْنَتَيْنِ؛ أَنْهَاكُمَا عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ، وَآمُرُكُمَا بلا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ؛ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَوْ وُضِعَتْ فِيْ كفَّةِ الْمِيْزَانِ وَوُضِعَتْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فِيْ الْكَفَّةِ الأُخْرَى لَكَانَتْ أَرْجَحَ مِنْهَا، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتْ حَلَقَةً فَوُضِعَتْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ عَلَيْهَا لَقَصَمَتْهَا، وَآمُرُكُمَا بِسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ؛ فَإِنَّهَا صَلاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ»[1].

١٥ ـ ومنها: مقابلة الإحسان بالإساءة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[هود: ٢٥ ـ ٢٦].

فانظر إلى تودد نوح إليهم، ونصحه لهم بدعوته إيَّاهم إلى توحيد الله، وشفقته عليهم حتَّى خاف عليهم العذاب، ثم انظر كيف قابلوا هذا بما حكاه الله عنهم بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٢٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٨)، والحاكم في «المستدرك» (١٥٤).

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[هود: ٢٧]؛ فأنكروا فضله وفضل من تبعه في نصيحتهم، ثم كانوا يتجاوزون إلى إهانته وضربه.

قال عبيد بن عمير رحمه الله تعالى: إن كان نوح ليضربه قومه حتى يغمى عليه، ثم يفيق فيقول: اهْدِ قومي؛ فإنهم لا يعلمون. رواه ابن أبي شيبة، والإمام أحمد في «الزُّهد»(١).

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء قد ضربه قومه وهو يمسح الدَّم عن جبينه، وهو يقول: اللَّهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون(٢).

فسبحان الله ما أكرم أخلاق الأنبياء عليهم السلام كيف كانوا يحملون جفاء أقوامهم، ثم يعطفون عليهم.

وكذلك أخلاق الأبدال من أولياء الله تعالى، ولسان حال البدل مع من يقابل نداه بأذاه يقول كما قلت: [من الوافر]

أَخافُ عَلَيْكَ إِشْفاقاً عَلَيْكا ... وَأُهْدِي النُّصْحَ مِنْ كَرَمِي إِلَيْكا
وَأَنْتَ تُسِيْءُ عَنْ لُؤْمٍ إِلَيْنا ... أَلَمْ تَذْكُرْ أَيادِينا لَدَيْكا
وَقَدْ أَصْرَرْتَ لَكِنَّا صَبَرْنا ... فَتُبْ نَمْلأْ بِجَدْوانا يَدَيْكا

وقد حكي أن البهلول كان الصبيان يضربونه بالأحجار حتى

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٠٠٨)، والإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٥٠).

(٢) رواه البخاري (٣٢٩٠)، ومسلم (١٧٩٢).

يدموه، فكان ينشد ويقول: [من الرمل]

حَـسْبِيَ اللهُ تَوَكَّلْـتُ عَلَيْـهِ ... وَنَواصِي الْخَلْقِ طُـرّاً فِـي يَدَيْـهِ
رُبَّ رامٍ لِـي بِأَحْجـارِ الأَذَى ... لَمْ أَجِدْ بُدّاً مِنَ الْعَطْفِ عَلَيْـهِ[1]

ثم قد يؤدي الإصرار على أذية أولياء الله تعالى إلى غضب الله تعالى، فتحق على المصر كلمة العذاب، إلا أن قوم نوح لما تمادوا في الطغيان والفجور، والسَّفَه عليه وعلى أصحابه المؤمنين، وإيذائهم كيف دمر الله آخراً عليهم، ونهاه عن العطف عليهم، فقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[هود: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

فلم يسع نوحاً عليه السَّلام بعد ذلك إلا أن قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح: ٢٦].

ولذا قال الشيخ رضي الدين جَدي رحمه الله تعالى حيث يقول:

[من السريع]

أَيُّهـا الْواقِـفُ مَـعْ نَفْـسِهِ ... فِـي مَقـامِ الْـوَهْمِ وَالْغَلَـطِ

---

(١) انظر: «شعب الإيمان» للبيهقي (٨٠٩٥).

أَنْـــتَ وَاللهِ إِذا لَـــمْ تَتُـــبْ واقِــعٌ فِــي الْمَقْــتِ وَالــسَّخَطِ

وقلت: [من الرجز]

قَدْ يُـوْحِشُ بَيْنَـهُ وَبَـيْنَ الْبـارِي مَنْ لَيْسَ يَخافُ مِنْ عَذابِ النَّارِ
ما يَجْتَلِـبُ الرِّضَـا كَالاسْـتِغْفارِ وَالسُّخْطُ يَكُـوْنُ آخِـرَ الإِصْـرارِ

١٦ ـ ومنها: الوقاحة، والتجري على الأكابر، وعدم توقيرهم، وتجرئة الصغار عليهم، وحمل الأطفال على قبائح الأعمال.

كما في قصة الشيخ الذي أعطى الغلام العصا حتى شج نوحاً عليه السلام(١).

وهذه الأمور كلها خلاف ما تعطيه الديانة، وليس للصغير أحسن من حفظه في أول أمره والصيانة.

ولقد قلت: [من الكامل]

وَلَــدُ الأَدِيْــبِ إِذا أَرادَ نَجاحَــهُ فَــإِذا أَســاءَ أَخافَــهُ مِــنْ يَوْمِــهِ
إِنَّ الــصَّغِيْرَ إِذا أَتَــى بِقَبِــيْحَةٍ قَدْ أَعْرَضَتْ عَنْهـا أَكابِـرُ قَوْمِـهِ
أَفْضَى بِـهِ إِعْراضُـهُمْ عَنْـهُ إِلَـى أَمْــرٍ عَظِــيْمٍ لا يُــزالُ بِلَوْمِــهِ
لا تَلْهَ عَـنْ أَدَبِ الـصَّبِيِّ فَإِنَّمـا تَــسْمُو بِــهِ عَمَّــا يُـشانُ بِـسَوْمِهِ
لا تَلْفَ مِنْهُ كَرىً يَصُدُّ عَنِ السَّرى إِلاَّ وَقَــدْ نَبَّهْتَــهُ مِــنْ نَوْمِــهِ

---

(١) تقدم تخريجها.

ولقد كان سبب توارث الشقاء في قوم نوح جيلاً بعد جيل، وقبيلاً بعد قبيل مشاهدة الصغار لما عليه الكبار، بل حَمَلَ الكبيرُ صغيره على إساءة الأدب، وتدريبه على مواقعة الريب حتى تتابعت بهم العصور وهم في غرور وقصور، ووقاحة وفجور، لا يوقرون كبيراً ولا يرحمون صغيراً، ولا يحسنون قليلاً ولا كثيراً؛ فالعاقل من نكَب عن هذا الطريق، وسأل من الله تعالى التوفيق.

فروى الإمام أحمد، والحاكم وصححه، عن عبادة بن الصَّامت رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَجِلَّ كَبِيْرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيْرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ»(١).

وروى الإمام أحمد، والطبراني في «الكبير» - وإسناده حسن - عن عبدالله بن بُسر رضي الله تعالى عنه قال: قد سمعت حديثاً منذ زمان: إذا كنت في قوم - عشرين رجلاً، أو أقل أو أكثر - فتصفحت وجوههم، فلم تر فيهم من يُهاب في الله ﷻ، فاعلم أن الأمر قد رق(٢).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٨٨)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٠٠٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٣): رواه أحمد والطبراني في «الكبير» بنحوه، وإسناده حسن، ورجاله موثقون، وأزهر بن عبدالله، قال فيه البخاري: إنه أزهر بن سعيد. قال فيه الذهبي: تابعي حسن الحديث.

ولو أننا قابلنا ما نرى من أحوال الناس الآن على ما نروي من آثار السلف لرأينا المباينة بائنة، والسيرة غير موافقة، والطريقة غير مطابقة، والمنافقة نافِقة، والصدق عزيز، والمصادقة غير صادقة، ليس لهم سكينة إلا التماوت، ولا وقار إلا التغافل والتهافت، وإني لقائل: [من الكامل المذيّل]

وَلَقَدْ أَرى أَنَّ السَّكِيْنَةَ لَمْ تَكُنْ ... تُرأى عَلَى أَهْلِ الشَّبابِ وَلا الْمَشِيْبْ
وَأَراهُمْ ما وَقَّرُوا ذا حُرْمَةٍ ... حَتَّى لَقَدْ رَكِبُوا مِنَ الأَمْرِ الْمَعِيْبْ
لا يَبْرَحُوْنَ على أُمُوْرٍ لَمْ تَكُنْ ... تَعْنِيْهِمْ لَدُنِ الصَّباحِ إِلَى الْمَغِيْبْ
هَلْ آمَنُوا أَنَّ الإِلَـهَ مُهَيْمِنٌ ... أَمْ آمَنُوا أَنَّ الإِلَـهَ هُوَ الرَّقِيْبْ
لَوْ أَنَّهُم قَدْ آمَنُوا حَقّاً لَما ... أَمْسَوْا على أَعْمالِ ذِي شَكٍّ مَرِيْبْ
مَنْ قالَ إِنَّ لِقاءَهُمْ لَمُصِيْبَةٌ ... وَوُجُوْدَهُمْ فَقْدٌ فَذاكَ هُوَ الْمُصِيْبْ
إِنَّ الأَدِيْبَ إِذا تَظاهَر بَيْنَهُمْ ... أَضْحَى وَأَمْسَى وَهْوَ فِي ذُعْرِ الْغَرِيْبْ
إِنْ مَزَّقُوا عِرْضَ امْرِىءٍ لَمْ يَسْتَطِعْ ... تَخْلِيْصَ جِلْدِ الشَّاةِ مِنْ أَنْيابِ ذِيْبْ
إِنِّي عَجِبْتُ لِبَعْضِهِمْ فِي بُغْضِهِ ... مَرْأً وَإِنْ يُبْصِرْهُ قالَ أَتَى الْحَبِيْبْ
يا وَحْشَةَ الْمَشْغُوْلِ فِي أَيَّامِهِ ... بِالنَّاسِ حَتَّى ذُو الصَّداقَةِ وَالْقَرِيْبْ
بِاللهِ أُنْسُ وَلِيِّهِ هُوَ حَسْبُهُ ... فِي كُلِّ ما قَدْ نابَهُ نِعْمَ الْحَسِيْبْ

١٧ ـ ومنها: استبعاد اختصاص الله تعالى بعض عباده بفضيلة العلم والحكمة، أو نحو ذلك.

والله تعالى يقول: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾[البقرة: ٢٦٩].

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[البقرة: ١٠٥].

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[الجمعة: ٤].

قال الله تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾[هود: ٢٧].

وهذا غلط وقع فيه أكثر مكذبي الأمم، فنظروا إلى أن التساوي في البشرية يمنع الاختصاص، أو يرون أن الفضيلة تكون تابعة للنسب والحسب، أو لشرف الكسب، أو لكثرة العرض، أو للجاه، أو للعشيرة، أو لحسن الصورة، ولا يزول هذا الغلط إلا بمعرفة الله تعالى؛ فإنه الإله الحق والمالك المطلق، ومن وقع له شيء مما ذكر، وسكن إليه فما حَصَل على المعرفة.

ومما قلته: [من مخلّع البسيط]

اللهُ يَخْتَصُّ بِالنَّوالِ ... مَنْ شاءَ لا عَنِ احْتِيالِ
كَمْ مِنْ حَسِيبٍ بِلا نَصِيبٍ ... وَذِي جَمالٍ بِغَيْرِ مالِ
ما الْفَضْلُ بِالْجِسْمِ وَالْهُيُولَى ... لَكِنْ بِتَوْفِيقِ ذِي الْجَلالِ
كَمْ مِنْ وَلِيٍّ يَمْشِي بِسُوْقٍ ... وَإِنَّهُ واحِدُ الرِّجالِ
ما لِعَباءٍ وَلا قِباءٍ ... فِي النَّقْصِ فِعْلٌ وَلا الْكَمالِ

فِـي النَّـاسِ نـاسٍ وَذُو ذَكـاءٍ بَـرزَ فِـي الْفَـضْلِ وَالْمَعـالِي
وَحاسِـدُ النَّـاسِ لا تَـراهُ يَرْجِـعُ إلاَّ بِـسُوْءِ حـالِ
يُنـازِعُ اللهَ مـا قَـضاهُ فَهْـوَ حَـرِيٌّ مِنْـهُ بِالنَّكـالِ
فِـي قَـوْمِ نُـوْحٍ أَيُّ اعْتِبـارٍ لَمَّـا تَمـادَوْا عَلـى الـضَّلالِ
لَـمْ يُبْـقِ طُوفـانُهُمْ صَـغِيراً وَلا كَبِـيْراً عَلـى التَّـوالِي
لَـوْلا حَـذِرْنا عِقـابَ مَـوْلَىً مـا شـاءَ يَفْعَـلْ وَلا يُبـالِي

١٨ ـ ومنها: النظر إلى ظاهر الهيئة، واعتبار أن خسة الحرفة أو رثاثة الهيئة مانع من الاختصاص بالفضيلة.

وهو نظر قاصر وغلط ظاهر.

قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾[هود: ٢٧].

نظروا إلى خساسة الصناعة ودناءة الحرفة، ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها في الديانات.

قال القرطبي: وفي الحديث: أنهم ـ يعني: أتباع نوح ـ كانوا حاكة وحجامين[١].

العاقل لا ينظر إلى دناءة الحرفة، وإنما ينظر إلى زكاة النفس

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٩/ ٢٣).

وتخلقها بمكارم الأخلاق.

قـال ذو النـون المصري رحمه الله تعـالى: رأيت فتى وعليه أطمار رثة، فقذَرَتْه نفسي، وشهد قلبي له بالولاية، فبقيت بين قلبي ونفسي أتفكر، فاطلع الفتى على ما في سري، فنظر إليَّ وقال: يا ذا النون!

لا تُبْـصِرْنِي لِكَـيْ تَـرى خَلْقِـي فَأَنـا الـدُّرُّ داخِـلَ الـصَّدَفِ[1]

وقال القناد رحمه الله تعالى: رأيت الحسين بن منصور رحمه الله تعالى في حالة رثة، فقلت له: كيف حالك؟ فأنشأ يقول متمثلاً: [من الوافر]

لأَنْ أَمْـسَيْتُ فِـيْ ثَـوْبَيْ عَـدِيْمٍ لَقَـدَ بَلِيـا عَلـى خُلُـقٍ كَـرِيْمِ

فَلا يَحْزُنْـكَ إِنْ أَبْـصَرْتَ حـالاً مُعَبـِـرَةً عَـنِ الْحـالِ الْقَـدِيْمِ

فَلِي نَفْـسٌ سَـتَتْلَفُ أَوْ سَـتَرْقَى لَعَمْـرُكَ بِـي إِلـى أَمْـرٍ عَظِـيْمِ[2]

وروى أبو نعيم، وغيره عن أبي الحسن علي بن أحمد البصري قال: حدثني بعض شيوخنا قال: لما أشخص الشافعي رضي الله تعالى عنه إلى «سُرَّ مَن رأى» دخلها وعليه أطمار رثة، وطال شعره، فتقدم إلى مزيِّن فاستقذره لما نظر إلى زيه، فقال له: امض إلى غيري، فاشتد على الشافعي أمره، فالتفت إلى غلام كان معه فقال: إيش معك من النفقة؟

قال: عشرة دنانير.

---

(١) انظر: «التعرف لمذهب أهل التصوف» للكلاباذي (ص: ١٥٢).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٨/ ١١٧).

فقال: ادفعها إلى المزين.

فدفعها الغلام إليه، فولى الشافعي وهو يقول: [من الطويل]

عَلَيَّ ثِيابٌ لَوْ تُباعُ جَمِيعُها   بِفَلْسٍ لَكانَ الْفَلْسُ مِنْهُنَّ أَكْثَرا
وَفِيْهِنَّ نَفْسٌ لَوْ تُقاسُ بِمِثْلِها   نُفُوْسُ الْوَرى كانَتْ أَجَلَّ وَأَخْطَرا
وَما ضَرَّ نَصْلَ السَّيْفِ إِخْلاقُ غِمْدِهِ   إِذا كانَ عَضباً حَيْثُ أَنْفَذْتَهُ بَرا
فَإِنْ تَكُنِ الأَيَّامُ أَزْرَتْ بِبِزَّتِي   فَكَمْ مِنْ حُسامٍ فِي غِلافٍ مُكَسَّرا[1]

١٩ ـ ومنها: إنكار فضل ذوي الفضل.

كما حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا لنوح وأتباعه: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾[هود: ٢٧].

وروى الخطيب في «تاريخ بغداد» عن أنس، وابنُ عساكر في «تاريخ دمشق» عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالا: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا يَعْرِفُ الْفَضْلَ لأَهْلِ الْفَضْلِ أَهْلُ الْفَضْلِ»[2].

٢٠ ـ ومنها: الاستنكاف عن مجالسة الفقراء، وأداني الناس من حيث الحرفةُ وظاهرُ الهيئة لا في الدين، وإزعاجهم من المجالس،

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١٣١).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٣/ ١٠٥)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٢٦٠) عن أنس رضي الله عنه.
وروله ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٣٣٤) عن عائشة رضي الله عنها.
ورواه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٦٦٥) عن الحسن.

وطلب إزعاجهم.

قال نوح عليه السلام ـ وتقدم ـ: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩ ـ ٣٠].

وهذا يدل على أنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين، وينحيهم استنكافاً أن يجالسوهم.

وقد اتفق مثل ذلك لأغنياء قريش مع النبي ﷺ، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

فالاستنكاف عن مجالسة الفقراء خلق الهالكين، كما أن التواضع معهم والجلوس إليهم من أخلاق النَّبيين.

وروى أبو نعيم بسند ضعيف، عن الحسن بن عليٍّ، عن النبي ﷺ أنه قال: «اتَّخِذُوْا عِنْدَ الْفُقَرَاءِ أَيَادِيَ؛ فَإِنَّ لَهُمْ دَوْلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: سِيْرُوْا إِلَىْ الْفُقَرَاءِ، فَيُعْتَذَرُ إِلَيْهِم كَمَا يَعْتَذِرُ أَحَدُكُمْ إِلَىْ أَخِيْهِ فِيْ الدُّنْيَا»[1].

وبلغني عن أخي الشيخ شهاب الدين أحمد، وكان ممن أجمع

---

(١) ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٢٦١). قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٠٨٧): رواه أبو نعيم في «الحلية» من حديث الحسين بن علي، بسند ضعيف.

الناس على اعتماد علمه ودينه، وحبه وولايته، وكان له صلابة في الدِّين، ووسوسة في الطهارة، ووداد مع الناس، وكان بدمشق مجذوب مستغرق، وكان كل منهما يعتقد الآخر، غير أن المجذوب كان يقصد التقرب من الأخ، والأخ يبعد عنه حرصاً على النظافة، ففي بعض الليالي خرج الأخ إلى الجامع فرأى هذا المجذوب فقال له: يا شهاب الدين! هل لك في صلاة الفجر بمكة عند البيت؟

قال: نعم.

فخرجا من باب البريد، فما أحس الشيخ إلا وهو بباب شبيكة، فشربا قهوة، ثم دخلا الحرم، وقد أذن للصبح، فصليا، وطافا، واختفى عنه المجذوب، ثم ظهر له بعد طلبه إياه، فقال له: يا شهاب الدين! هل تعود إلى جمع ثيابك عني؟

قال: لا.

قال: فامض بنا إلى دمشق، فخرجا من مكة، فما أحس إلا وهو بدمشق.

* **تَنْبِيهٌ:**

لم يأت بعد نوح أطغى منهم، ولا أظلم من الأمم لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٠ ـ ٥٢].

وحكمة ذلك أنهم كانوا أول الأمم بدأوا بالظلم والطُّغيان.

وفي المثل: البادئُ أظلمُ.

وقولنا: (من الأمم) احتراز عما لو انفرد واحد بظلم، وكان أظلم ممن سبق لأنه أتى بما لم يأت به غيره، ولا لحقه فيه غيره كعاقر الناقة، وقاتل عليٍّ والدَّجال.

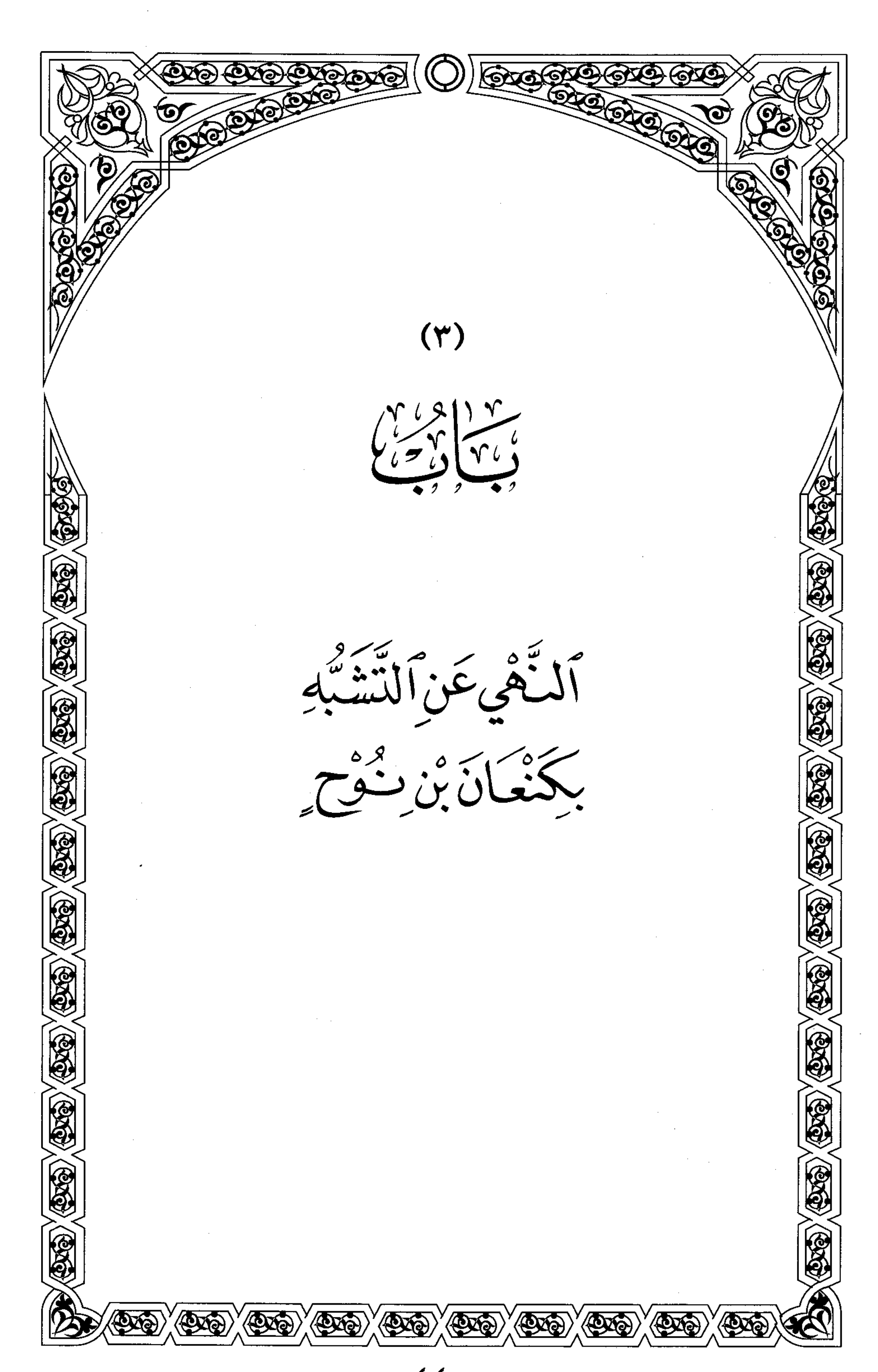
وروى ابن أبي حاتم، والبغوي، والبيهقي في «الدَّلائل» عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ رضي الله تعالى عنه: «أَلا أُحَدِّثُكَ بِأَشْقَى النَّاسِ؟».

قال: بلى.

قال: «رَجُلانِ؛ أُحَيْمِرُ ثَمُوْدِ الَّذِيْ عَقَرَ النَّاقَةَ، وَالَّذِي يَضْرِبُكَ عَلَى هَذَا - يَعْنِي: تَرْقُوته - حَتَّى تَبْتَلَّ هَذِهِ - يَعْنِي: لِحْيَته -»[1].

❐ ❐ ❐

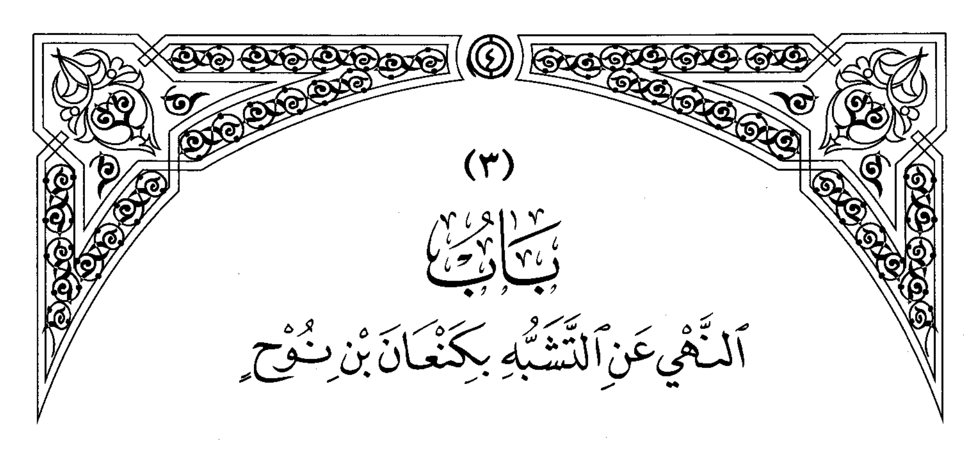
(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٣٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١٣)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٦٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٥٣٨).



(٣)

بَابُ

النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِكَنْعَانَ بْنِ نُوحٍ



وهو أول من عرف بالنفاق من أولاد آدم.

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾؛ أي: عن سفينة أبيه، أو عن دينه، أو عن طاعته.

﴿يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

روى ابن أبي حاتم عن قتادة قال: كان اسم ابن نوح الذي غرق كنعان(١).

وفي «القاموس»: الكنعانيون أمة تكلمت بلغة تضارع العربية؛ أولاد كنعان بن سام بن نوح(٢).

ويجمع بينهما بأن كنعان هذا سمي باسم عمه الذي غرق، وهو

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٢٠٣٥).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٩٨١) (مادة: كنع).

من كنع: إذا اجتمع ولان، وكنعان الأول من كنع كنوعاً: انقبض، وانضم لأنه انضم عن أبيه وإخوته، واعتزل عنهم، فلم يكن معهم في السفينة.

وروى ابن عساكر عن ابن عباس: أنَّ كنعان بن نوح هو الذي غَرِقَ، وأن العرب تسميه يام؛ أي: بالياء التحتية[1].

ومن هنا قال في «الصحاح»، وتبعه في «القاموس»: يام بن نوح غَرِقَ في الطوفان[2].

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وغيرهم عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾[هود: ٤٢]؛ قال: هو ابنه ـ أي: لصلبه ـ غير أنه خالفه في النية والعمل[3].

ورووا عن أبي جعفر محمَّد بن عليٍّ رحمه الله تعالى في قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾[هود: ٤٢]؛ قال: بلغة طي، فيجوز للرَّجل أن ينسب ربيبه إليه على وجه التبني[4].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٤٥).

(٢) انظر: «الصحاح» للجوهري (٥/ ٢٠٦٥)، و«القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٥١٤) (مادة: يوم).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ٥١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٢٠٣٩).

(٤) رواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ٥٠).

وهذا أحد الوجوه في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾[هود: ٤٦].

قال بعض المفسرين: كان نوح عليه السَّلام يظن أن ابنه مؤمن، ولم يعلم أنه كان كافراً، ولو علم لم يقل: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾[هود: ٤٥]؛ أي: بأنك تنجيني وأهلي إلا من سبق عليه القول منهم؛ أي: أن يكون كافراً.

ولم يكن قد علم أن ابنه كنعان كان قد سبق عليه القول بكفره، وإلا فليس من شأن نوح عليه السَّلام أن يسأل ربه هلاك الكفار واستئصالهم بحيث لا يبقى على الأرض منهم ديار، ثم يسأل نجاة بعضهم ولو كان ابنه، وكان كنعان يُظهر الإيمان ويبطن الكفر.

قال الحسن رحمه الله تعالى: كان منافقاً[1].

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾[هود: ٤٦] أقوال:

قيل: إنه كان ابن زوجته من زوج آخر كما تقدم عن أبي جعفر.

وقيل: بغت به أمه وهلكت معه؛ بدليل قوله تعالى عن امرأتَيْ نوح ولوط عليهما السَّلام: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[التحريم: ١٠].

وهذا خطأ، والصواب أن خيانتهما كانت في الدِّين والنميمة، لا في الفراش.

وروى عبد الرزاق، والمفسرون، وابن أبي الدُّنيا في «الصمت»، وصححه الحاكم، عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما في قوله:

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٤/ ٣٧٨).

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[التحريم: ١٠]؛ قال: ما زنتا؛ أما خيانة امرأة نوح فكانت تقول للناس: إنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل على الضيف فتلك خيانتها[١].

وروى ابن المنذر عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: ما بغت امرأة نبي قط[٢].

وروى ابن عساكر من غير حديثه مرفوعاً إلى النَّبيِّ ﷺ[٣].

والحق أن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: ليس من أهل دينك بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[هود: ٤٦].

وهو في قراءة يعقوب والكسائي: بكسر ميم عمل، وفتح لامه، بلا تنوين، وفتح راء غير؛ أي: ليس من أهلك لأنه عمل عملاً غير صالح.

وقرأ الباقون بفتح الميم، وضم اللام منوناً، مع ضم راء غير على أنه وصف لعمل، وتقديره عند أكثر العلماء: إنه ذو عمل[٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٠/ ٣١٨) عن أشرس الخرساني يرفعه.

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» لأبي بكر البغدادي (ص: ٣٣٤) لكنه قال: قرأ الكسائي وحده، و«حجة القراءات» لابن زنجلة (٣٤١)، و«تفسير القرطبي» (٩/ ٤٦).

والعرب يخبرون بالمصدر عن الذات مبالغة كما قالوا: زيد رضى، وزيد عدل.

وقال الشاعر: [من الطويل]

فَأَنْتَ النَّدى وَابْنُ النَّدى وَأَخُو النَّدى
وَجَدُّ النَّدى ما لِلنَّدى عَنْكَ مَهْرَبُ[1]

وقال قتادة: إنه ـ أي: سؤالك أن أنجي ابنك مع كفره ـ عملٌ غير صالح[2].

والأول أولى.

وعليه: ففيه إشارة على أنَّ النسب لا ينتفع به النسيب عند الله تعالى ما لم يكن عمله مقبولاً، بل على العبد الصالح أن يتبرأ ممن لا يجري على طريقته من أهله وأولاده بعد أن يبالغ في نصيحتهم كما فعل إبراهيم عليه السلام حيث بالغ في دعوة أبيه وقومه، ثم لما لم يؤمنوا تبرأ منهم، واعتزلهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾[التوبة: ١١٤].

وأنت خبير بأن أقرب أهل الإنسان إليه أصله وفرعه، وقد برَّأ الله

---

(١) انظر: «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي (٥/ ١٨١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ٣١٠).

تعالى إبراهيم من أصله، ونوحاً من فرعه لمَّا لم يكونا على دينهما وملتهما.

وتأمل ما رواه الطَّبراني عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آلُ مُحَمَّدٍ كُلُّ مُؤْمِنٍ تَقِيٍّ»[1].

وروى الإمام أحمد، والطَّبراني عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ آلَ بَنِي فُلانٍ لَيْسُوْا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُو الْمُؤْمِنِيْنَ»[2].

وقد قيل: [من الطويل]

عَلَيْكَ بِتَقْوى اللهِ فِي كُلِّ حالَةٍ
وَلا تَدَعِ التَّقْوى اتِّكالاً عَلى النَّسَبِ

فَقَدْ رَفَعَ الإِسْلامُ سَلْمانَ فارِسٍ
وَقَدْ وَضَعَ الْكُفْرُ النَّسِيْبَ أَبا لَهَبِ[3]

---

(1) قال الحافظ في «فتح الباري» (11/ 161): أخرجه الطبراني ولكن سنده واه جداً.

(2) رواه الإمام أحمد في «المسند» (4/ 203)، وكذا رواه البخاري (5644)، ومسلم (215).

(3) البيتان لعلي بن أبي طالب، كما رواهما عنه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (2/ 246).

وما أحسن قول الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رحمه الله تعالى: [من الطويل]

وخلع عذاري فيكَ فَرْضٌ وَإن أَبَى ... اقْترابِـيَ قَـوْمِي وَالخلاعـةُ سُـنَّتِي

وَلَيْسُوا بِقَوْمِيَ ما اسْـتَعابُوا تَهَتُّكِـي ... فَأَبْدَوا قِلَىً وَاسْتَحْسَنوا فِيْكَ جَفْوَتِي

وَأَهْلِيَ فِي دِيْنِ الْهَـوى أَهْلُـهُ وَقَـدْ ... رَضُوا لِي عارِيَ وَاسْتَطابُوا فَضِيْحَتِي

وَمَنْ شاءَ فَلْيَغْضَبْ سِواكَ فَلا أَذىً ... إِذا رَضِـيَتْ عَنِّـي كِـرامُ عَـشِيْرَتِي

واعلم أن قوله تعالى في كنعان بن نوح: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[هود: ٤٦] على القراءتين نص في ذم أعماله، وأنها سبب هلاكه ووباله، فيتعين على كل عاقل أن يتجنبها، ولا يتشبه به فيهَا فيرتكبها.

١ ـ فمنها: النفاق.

وهو إبطان الكفر وإظهار الإيمان، وقريب منه إظهار المودة وإبطان العداوة، وسيأتي الكلام على ذلك.

ولم ينفرد كنعان بالنفاق، بل شاركه بعض قومه كما روى عبد بن حميد عن حميد بن هلال رحمه الله تعالى قال: جعل نوح عليه السَّلام لرجل من قومه جُعلاً على أن يعينه على عمل السفينة، فعمل معه حتى إذا فرغ قال له نوح: اختر أي ذلك شئت؛ إما أن أوفيك أجرك، وإما أن ينجيك الله من القوم الظالمين.

قال: حتى أستأمر قومي.

فاستأمر قومه فقالوا: اذهب إلى أجرك فخذه، فأتاه فقال: أجري.

فوفاه، فما جاوز ذلك الرجل إلى حيث ينظر إليه حتى أمر الله الماء بما أمره، فأقبل ذلك الرجل يخوض الماء، فقال: الذي جعلت لي.

قال: لك ما رضيت به.

فغرق فيمن غرق[1].

٢ ـ ومنها: مخالفة الوالد في الدين والاعتقاد الحق.

ومن هنا تعلم أن مخالفة الوالد، وكذلك الأستاذ غير محمودة إذا كان موثوقاً بعقله واستقامته على طلب الحق، والطهارة من سوء الاعتقاد.

وقد روى الحاكم في «مناقب الشافعي» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ أَنْ يُشْبِـهَ أَبَاهُ»[2].

والمراد أن يشبهه في الخير، وحسن الخلق، وطلب الحق، فأما يشبهه في أضداده فمن شقاوته، بدليل ذم اتباع الآباء في الضلال في كتاب الله تعالى.

أو المراد بالحديث مما يعده الناس سعادة أن يشبه الولد أباه.

*** تَنْبِـيْهٌ:**

كانت أم كنعان كافرة، وكانت تقول عن نوح عليه السَّلام: إنه

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٤٣٤).

(٢) ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢٩٩)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٦٠١٢)

مجنون لتوافق قومها، وفي طبع الولد ميل إلى والدته، وإذا تعارضا مال إلى أحدهما، وميل كنعان إلى أمه أرداه.

وحكم الولد مع والديه إذا اختلفا في الدين أن يكون مع المسلم منهما، فإذا اتفقا في الدين والاعتقاد قدم أباه في الطاعة وأمه في البر؛ لأن الأم أضعف فناسبها زيادة البر، والأب أتم عقلاً فناسبه التقديم في الطاعة، وكثيراً ما ترى من هذه الأمة من يميل مع أمه على أبيه بغير عقل يرجع إليه، بل لمجرد موافقة هوى الأم، خصوصاً إذا تزوج غيرها، وفي ذلك تشبه بكنعان.

٣ ـ ومنها: عدم المحافظة على ود الوالد والأستاذ.

فإن كنعان خرج عن وداد أبيه بقوله: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾[هود: ٣٤]؛ فإنه لو كان ودوداً لأبيه لما رضي مفارقته ولو كان في مهلكة؛ فإن المحب يفدي حبيبه بنفسه، ولا يرضى مفارقته ولو هلك معه، وإلا فقد رضي بمفارقته يوماً من الأيام، وذلك مناقض للمحبة، والعاقل يقطع بأن شفقة الوالد على الولد تقتضي النظر له والاجتهاد في نفعه، وإن عقل الوالد أتم من عقل الولد بحيث إن تقليد الولد له أنفع من تحقيقه هو لنفسه، وإذا كان الولد على خلاف ذلك كان أحمق.

وَمِن أعجب الأحاديث التي في هذا المقام ما روى الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن رفاعة بن رافع الزُّرقي رضي الله تعالى عنه قال: قال رجل: يا رسول الله! كيف ترى رقيقنا؟ أقوام مسلمون يصلون صلاتنا

ويصومون صومنا نضربهم؟

فقال رسول الله ﷺ: «يُوْزَنُ ذَنبُهُمْ وَعُقُوبَتُكُمْ إِيَّاهُمْ؛ فَإِنْ كَانَتْ عُقُوبَتُكُمْ أَكْثَرَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ أَخَذُوا مِنْكُمْ».

قالَ: أرأيت سَبَّنا إياهم؟

قال: «يُوْزَنُ ذَنبُهُمْ وَأَذَاكُمْ إِيَّاهُمْ؛ فَإِنْ كَانَ أَذَاكُمْ أَكْثَرَ أُعْطُوا مِنْكُمْ».

قال الرجل: ما أسمع عدواً أقرب إلي منهم.

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

فقال الرجل: أرأيت يا رسول الله وَلَدِي أَضْرِبُهُمْ؟

قال: «إِنَّكَ لا تُتَّهَمُ فِيْ وَلَدِكَ؛ فَلا تَطِيْبُ نَفْساً تَشْبَعُ وَيَتَجَوَّعُ، وَلا تَكْتَسِيَ وَيَعْرى»(١).

وصدق رسول الله ﷺ؛ فإن الوالد لا يتهم في ولده إلا أن يكون المتهم له أحمق، أو خارجاً عن طباع البشرية، أو يكون الوالد مختل العقل بهوى، أو سوء اعتقاد أو غيرهما، فيكون محلاً للتهمة، وما يوقعه الوالد الكامل بولده من عقوبة أو إهانة فإنما يريد تكميله، أو تأديبه، أو تهذيبه، أو صيانته عما يخشاه عليه من سوء العاقبة.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ١١٣)، وكذا ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٦٧٥).

واعلم أن الأصل في القرابة المودة، وكذلك التزاوج، فإذا نفِدت المودة لم تنفع القرابة، فإذا اجتمعت القرابة والمودة كانت قرة عين، وإذا كانت القرابة عداوة كانت سخنة عين.

والمودة تجمع بين المتوادين في الدار الآخرة، لكن إذا كانا قريبين كانت الجمعية بينهما أخص.

وقد روى أبو عبيد القاسم بن سلام، وابن المنذر، وأبو الشَّيخ، والبيهقي ـ واللفظ له ـ عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: قرابة الرحم تقطع، ومنة النعم تكفر، ولم نر مثل تقارب القلوب؛ يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[الأنفال: ٦٣].

وذلك موجود في الشعر: [من الطويل]

إِذا مَـــنَّ ذُو الْقُرْبَـــى عَلَيْـــكَ بِرَحْمَـــةٍ
فَغَـــشَّكَ وَاسْـــتَغْنَى فَلَـــيْسَ بِـــذِي رَحِـــمِ
وَلَكِـــنَّ ذا الْقُرْبَـــى الَّـــذِي إِنْ دَعَوْتَـــهُ
أَجابَ وَمَـنْ يَرْمِـي الْعَـدُوَّ الَّـذِي تَرْمِـي(١)

---

(١) البيتان للنعمان بن بشير ﷺ. انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٤/ ١٤٩٩).

ومن ذلك قول القائل: [من الكامل]

وَلَقَدْ صَحِبْتُ النَّاسَ ثُمَّ سَبَرْتُهُمْ ... وَبَلَوْتُ ما وَصَلُوا مِنَ الأَسْبابِ
فَـإِذا الْقَرابَـةُ لا تُقَـرِّبُ قاطِعـاً ... وَإِذا الْمَوَدَّةُ أَقْـرَبُ الأَحْبـابِ[1]

قال البيهقي: هكذا وجدته موصولاً بقول ابن عباس، ولا أدري قوله: (وذلك موجود في الشعر) من قوله أو من قول من قبله من الرواة[2].

٤ ـ ومنها: الاستعداد بالرأي، والإعجاب به، وإيثار رأي النفس على الرأي الصواب، وعلى رأي الوالد والأستاذ والمرشد.

وهذا ليس من شأن الصالحين، ومن فعل ذلك لم يؤل أمره إلى نجاح.

قال حجة الإسلام في آداب المتعلم من «الإحياء»: ومهما أشار إليه المعلم بطريق في العلم فليقلده وليدع رأي نفسه؛ فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه.

ثم قال: وبالجملة: كل متعلم استبقى لنفسه رأياً واختياراً وراء

---

(١) البيتان لحبيب الطائي. انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ١٥٣)، وعنده: «الأنساب» بدل «الأحباب».

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٣٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤١/ ٢٨٣)، ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٦٢) دون الشعر.

اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران، انتهى[1].

وفي الحديث: «ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ: هَوًى مُتَّبَعٌ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ». رواه الطبراني في «الأوسط» من حديث أنس رضي الله تعالى عنه.

وعنده نحوه من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما[2].

ويدخل في الإعجاب بالنفس الإعجاب برأيها، وقد نص عليه في حديث آخر.

٥ ـ **ومنها: إيثار تدبير نفسه على تدبير الله تعالى**، واختيار نفسه على اختيار الله ورسوله عليه السلام حيث يقول له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾[هود: ٤٢]، وهو يقول: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾[هود: ٤٣]؛ فانظر كيف اختار كنعان من دون الله تعالى أمراً، فكان عاقبته فيه هلاكاً وخسراً.

فقد حكي أنه كان راكباً على فرس قد نظر إلى نفسه وأعجب بها، فلما رأى الماء جاء إلى أبيه وقال: يا أبه! فار التنور، فقال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾[هود: ٤٢]، فما استتم المراجعة حتى جاءت موجة عظيمة فالتقمته هو وفرسه، وحيل بينه وبين أبيه، فغرق.

وقيل: إنه اتخذ لنفسه بيتاً من زجاج يتحصن فيه من الماء، فلما فار التنور دخل فيه وأقفله عليه من داخل، فلم يزل يتغوط فيه ويبول

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (١/ ٥٠).

(٢) تقدم تخريجه.

حتى غرق بذلك. ذكره القرطبي(١).

٦ ـ ومنها: الالتجاء إلى غير الله تعالى في الشدة.

ألا ترى إلى قوله: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾[هود: ٤٣]؟ فاعتصم بغير الله ولم ينفعه قول أبيه في الإشارة إليه والتنبيه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[هود: ٤٣].

وإنما قيده نوح عليه السَّلام باليوم ـ مع أنه لا عاصم في كل وقت من أمر الله إلا بعصمة الله ورحمته ـ تقريباً لفهمه لضيق الوقت عن البيان والتفهيم؛ فإنه استقر في نفس كنعان ما هو في العادة من الاعتصام بالأسباب والاتقاء بالآلات، ومتى يفهم أن الأسباب والأدوات كلها من خلق الله تعالى وإفاضاته وإنعاماته، وهي مسخرات لمن يشاء بتسخيره، وهو على ما هو عليه من كفره؟

وأين حال كنعان من حال أبيه حيث يقول: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾[هود: ٤١]؟

وحال يونس عليه السَّلام من قوله في ظلمات ثلاث: قعر البحر، وبطن الحوت، وظلمة الليل: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧]؟

فانظر كيف سخر الله لنوح السفينة وهي سبب، لكنه مأذون فيه.

وكيف سخر الله تعالى ليونس شجرة من يقطين وهي سبب، لكن

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٩/ ٤٠).

ممنون به.

وانظر كيف لما كانت السفينة وهذه الشجرة من أمر الله تعالى وألطافه كيف ظفر نوح ويونس منهما بعناية الله وإسعافه.

ولقد قلت: [من مجزوء الكامل]

لا تَـرْكَنَنَّ إِلَـى نَـسبْ ... مِـنْ دُوْنِ رَبِّـكَ أَوْ نَـشَبْ
مـا دُونَ ذَلِـكَ نـافِعٌ ... نَـسَبٌ يَخُـصُّكَ أَوْ حَـسَبْ
إِنْ يَلْطُـفِ اللهُ الْكَـرِيْمُ ... يُبَلِّـغِ الْعَبْـدَ الأَرَبْ
وَإِذا أَرادَ اللهُ أَمْـراً ... هَيَّـأَ اللهُ الـسَّبَبْ
لا يَنْفَـعُ التَّدْبِـيْرُ مِـنْ ... دُوْنِ الإِلَـهِ وَلا التَّعَـبْ
هَـلاَّ اسْـتَرَحْتَ مِـنَ اللُّغـوبِ ... وَحُـدْتَ عَـنْ سَـنَنِ النَّـصَبْ
دَأْبُ الْفَتَـى فِـي رَوْمِ مـا ... لَـمْ يُقْـضَ مِـنْ سُـوْءِ الأَدَبْ

* **تَتِمَّةٌ:**

أخرج ابن أبي الدنيا في «العقوبات» عن الأعمش رحمه الله تعالى أنه قال: انظروا إلى أبناء الأنبياء عليهم السلام إلى ما صيرتهم المعاصي ـ وأراد مثل قابيل بن آدم، وكنعان بن نوح، وبني إسرائيل ـ وما أدت بهم المعاصي إلى الذلة، والمسكنة، والبواء بالغضب.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن عطاء بن السائب، عن وهب ابن منبه رحمه الله تعالى قال: أعطى الله ﷻ موسى نوراً فقال: يكون

في الأرض بغير نار، فقال موسى لأخيه هارون عليهما السَّلام: إن الله ـ جل ثناؤه ـ وهب لي نوراً، وإني أهبها ـ أي: هذه الهبة والعطية ـ لك.

قال: فقال هارون لابنيه: إن الله ﷻ وهب لعمِّكما نوراً، وإنه وهبها لي، وإني أهبها لكما.

وكان الغلامان يقربان القربان لبني إسرائيل، ويسرجان في بيت المقدس، فأبطأت نار السماء، فاستضاءا بنار الأرض، فجاءت النار من السماء فأحرقت الغلامين.

قال: فسمعت مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: لما احترق الغلامان ابنا هارون شَعَّثَ موسى وهارون عليهما السَّلام رؤوسهما، وأقاما حزينين بين يدي الله تعالى، وبكيا على الغلامين صَبابة إليهما، فأوحى الله ﷻ إليهما: هكذا أفعل بمن عصاني من أهل طاعتي، فكيف بمن عصاني من أهل معصيتي؟[1]

وروى ابنه في «زوائده» عن سالم بن أبي الجعد: أن ابْنَيْ هارون أمرا أن يُسْرِجا من زيت بيت المقدس فأسرجا من غيره، فثارت النار فأخذتهما، فجاء هارون يطفىء عنهما النار فلا تطفأ، فقال موسى: خلِّ بين ربك ﷻ وبين ما أراد؛ فإنها مأمورة، فأوحى الله إلى موسى: هذا فعلي بمن خالفني من أوليائي، فكيف بمن خالفني من أعدائي؟

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٨٤).

ومن هنا ينبغي للعلماء وأشراف الناس أن يتنبهوا لتأديب أولادهم ومن يليهم، ونهيهم عما يقع منهم من المخالفات؛ فإنهم أحق بذلك من غيرهم، وعتابهم في تركهم والإعراض عنهم أبلغ من عتاب غيرهم.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن بكر بن عبدالله المزني رحمه الله تعالى، عن لقمان قال: ضرب الوالد لولده كالسَّماد للزرع[1].

وعن يحيى بن أبي كثير رحمه الله تعالى: أن سليمان بن داود قال لابنه عليهم السَّلام: يا بني! إن أحببت أن تغيظ عدوك فلا ترفع العصا عن ابنك[2].

وفي «زوائد ابنه»: فلا تبعد عن ابنك العصا.

وفي حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: «عَلِّقُوا السَّوْطَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُ الْبَيْتِ». رواه أبو نعيم[3].

وهو عند عبد الرزاق، والطبراني في «الكبير» من رواية ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وزاد: «فَإِنَّهُ أَدَبٌ لَهُمْ»[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٩٦).

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٤٠).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣٣٢).

(٤) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٧٩٦٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٦٧١).

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى: أن رجلاً كان على مجامر بيت المقدس، فكان له ابنان، فبلغا، فجعلا يعبثان بالنساء.

قال: فأوحى الله ﷻ إلى نبيِّهم عليه السَّلام أن فلاناً اطلع على ابنيه يعبثان بالنساء فلم ينكر عليهمَا، فبعزتي حلفت لأميتنهم ثلاثة في يوم واحد، ولأسلطن على أهله من بعده الفقر[1].

وعن مالك بن دينار قال: كان حبر من أحبار بني إسرائيل يغشى منزله الرجال والنساء؛ يعظهم فيذكرهم بأيام الله، قال: فرأى بعض بنيه يوماً غمز النساء، فقال: مهلاً يا بني، مهلاً يا بني، فسقط من سريره، وانقطع نخاعه، وأسقطت امرأته، وقتل بنوه في الجيش، فأوحى الله إلى نبيهم أن أخبر فلاناً الحبر أني لا أُخرج مِنْ صُلبك صديقاً أبداً ما كان غضبك لي إلا أن قلت: مهلاً يا بني، مهلاً يا بني[2].

وعنه قال: مكتوب في التوراة: من كان له جار يعمل بالمعاصي فلم ينهه فهو شريكه[3]؛ والله الموفق.

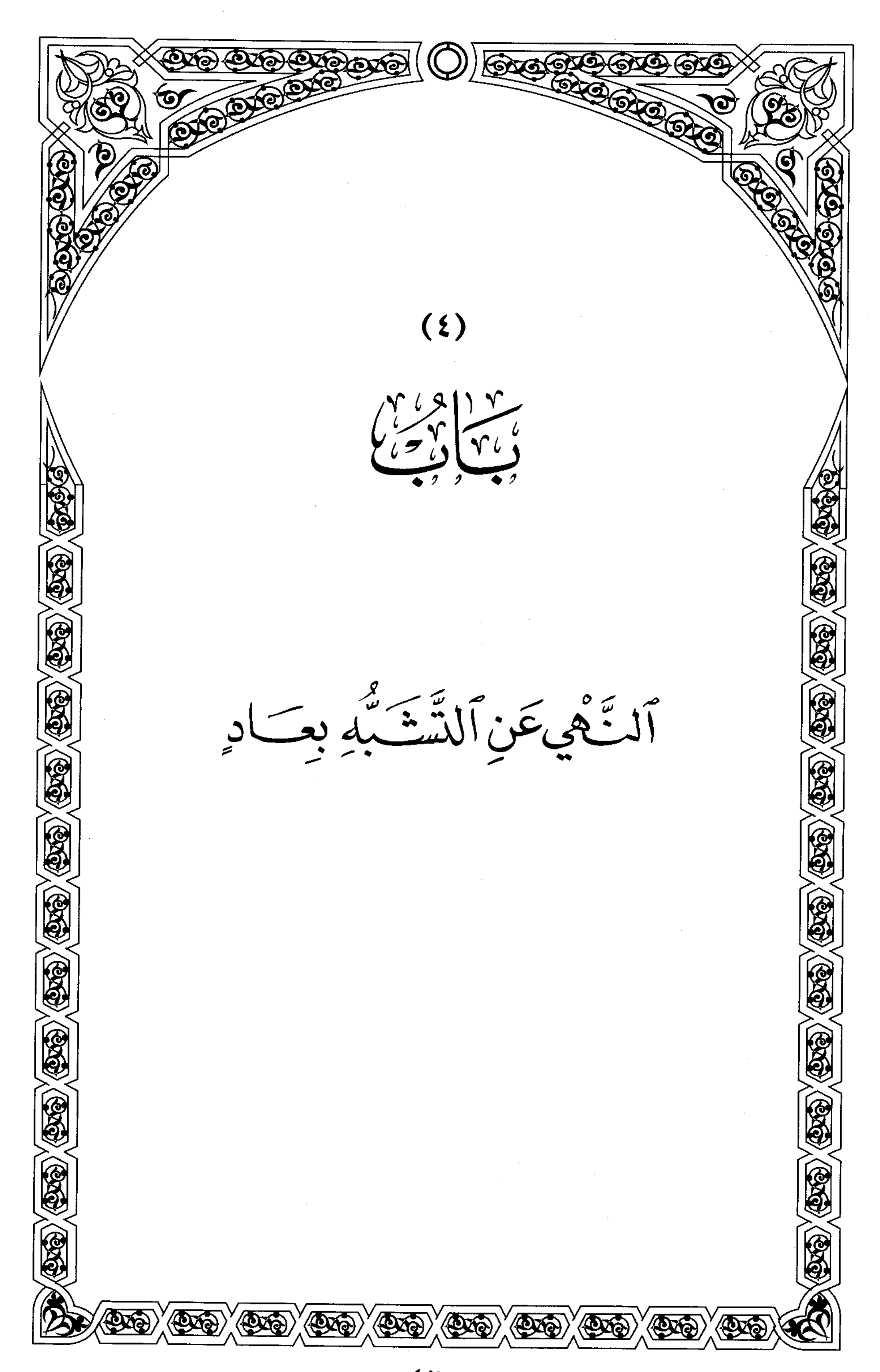
❐ ❐ ❐

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٠٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٠٣).

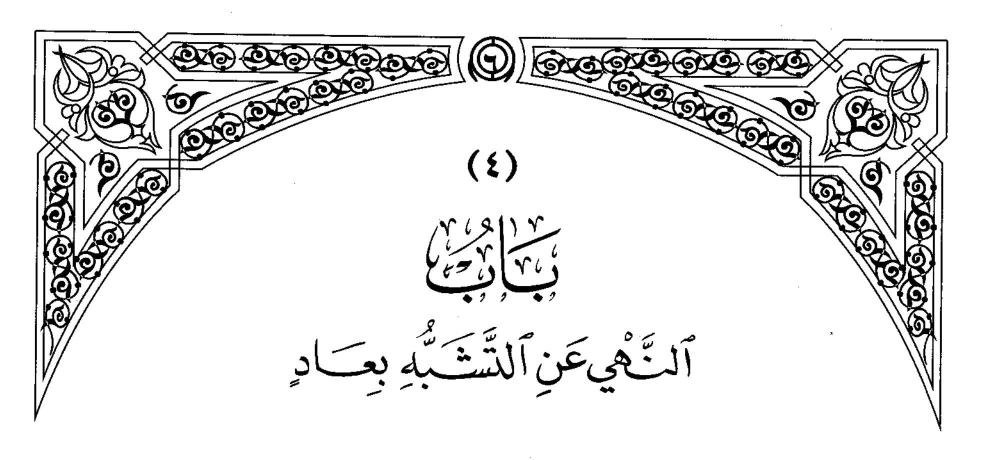
(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٠٤).



(٤)

بَابُ

النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِعَادٍ



وهم أول من تأنق في البنيان، ورفعه وأحكمه أملاً منهم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾[الأحقاف: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف: ٦٥].

وهم أولاد عاد بن عوص بن آدم بن سام بن نوح، وهي عاد الأولى.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾[النجم: ٥٠].

قال في «الكشاف»: عاد الأولى: قوم هود، وعاد الأخرى: إرم.

وقيل: الأولى: القدماء؛ لأنهم أول الأمم هلاكاً بعد قوم نوح.

وقيل: المقدمون في الدنيا الأشراف، انتهى(١).

وروى ابن المنذر عن ابن جريج رحمه الله تعالى في قوله تعالى:

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٤/ ٤٢٩).

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾[النجم: ٥٠]؛ قال: كانت الأخرى بحضرموت[١].

وقال مجاهد رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ﴾[الفجر: ٦ ـ ٧]؛ قال: القديمة[٢].

وقال السدي رحمه الله تعالى: عاد من إرم، نسبهم إلى جدهم الأكبر[٣].

وقال قتادة: كنا نتحدث أن إرم قبيلة من عاد، وكان يقال لها: ذات العماد، كانوا أهل عمود التي لم يخلق مثلها في البلاد[٤].

قال: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر ذراعاً طولاً في السماء. رواها ابن المنذر، وغيره[٥].

قال في «القاموس»: إرم كعنب؛ وسحاب، والد عاد الأولى أو الأخيرة، أو اسم بلدهم، أو أمهم، أو قبيلتهم، وإرم ذات العماد: دمشق، أو: الإسكندرية، أو: موضع بفارس، انتهى[٦].

وقال صاحب «الكشاف»: وقيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٦٦٥).

(٢) ورواه الطبري في «التفسير» (٣٠/ ١٧٥)، وذكره البخاري في «صحيحه» (٤/ ١٨٨٧).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٥٠٥).

(٤) ورواه الطبري في «التفسير» (٣٠/ ١٧٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٢٦).

(٥) ورواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٢٦).

(٦) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٣٨٩) (مادة: أرم).

سام بن نوح: عاد كما يقال لبني هاشم: هاشم، ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى، وإرم تسمية لهم باسم جدهم، ولمن بعدهم عاد الآخرة.

قال ابن الرّقّيات: [من المنسرح]

مَجْـــداً تَلِيْـــداً بَنــــاهُ أَوَّلُـــهُ   أَدْرَكَ عـــاداً وَقَبْلَهـــا إِرَمـــا

ثم قال: وروي أنه كان لعاد ابنان: شداد وشديد، فملكا وقهرا، ثم مات شديد، وخَلُص الأمر لشداد، فملك الدنيا ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنة، فقال: أبني مثلها، فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلاثمئة سنة، وكان عمره سبعمئة سنة، وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة، وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة، ولما تم أمرها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة أرسل الله تعالى عليهم صيحة من السماء فهلكوا.

قال: وعن عبدالله بن قلابة رضي الله تعالى عنه: أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه مما تم، وبلغ خبره معاوية رضي الله تعالى عنه فاستحضره، فقص عليه، فأرسل إلى كعب رحمه الله تعالى فسأله، فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك، أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له، ثم التفت فأبصر ابن قلابة،

فقال: هذا والله ذلك الرجل، انتهى[1].

وكان هود عليه السلام أخا عاد في النسب، وهو هود بن عبدالله ابن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص.

وقال ابن إسحاق: هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح[2].

وروى ابن إسحاق، وإسحاق بن بشر، وابن عساكر عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما: أن عاداً كانوا أصحاب أوثان يعبدونها على مثال ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، واتخذوا صنماً يقال له: صمود، وصنماً يقال له: الهتار، فبعث الله إليهم هوداً عليه السَّلام، فكان هود من قبيلة يقال لها: الخلود، وكان من أوسطهم نسباً، وأصبحهم وجهاً، أبيض جيداً، بادي العنق، طويل اللحية، فدعاهم إلى الله تعالى، وأمرهم أن يوحدوه، وأن يكفوا عن ظلم الناس، ولم يأمرهم بغير ذلك، ولم يَدْعُهم إلى شريعة ولا صلاة، فأبوا ذلك وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف: ٦٥] إلى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾؛ يعني: سكاناً في الأرض ﴿مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، فكيف لا تعتبرون فتؤمنون وقد علمتم ما نزل بقوم نوح من النقمة حين عصوا، ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾؛ أي: طولاً وقوة، ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: هذه النعم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: ٦٩]؛ أي:

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٤/ ٧٥٠ ـ ٧٥١).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٤٥).

كي تفلحوا.

وكانت منازلهم الأحقاف.

والأحقاف: الرمل من عمان إلى حضرموت اليمن.

وكانوا قد أفسدوا في الأرض، وقهروا أهلهَا بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكان من قوتهم كثرتهم وانتشارهم في الأرض، وسعة أجسامهم، وشدة بطشهم[1].

روى ابن أبي حاتم عن الرَّبيع بن خُثيم رضي الله تعالى عنه قال: كانت عاد ما بين اليمن إلى الشَّام مثل الذَّرِّ ـ أي: في الكثرة ـ مع كبر الأجسام وطولها[2].

قيل: كان طول كل واحد منهم اثني عشر ذراعاً.

وقيل: سبعين ذراعاً.

وقيل: الطويل مئة ذراع، والقصير ستون.

وعن ابن عباس: ثمانون ذراعاً[3].

وقد يجمع بين هذه الأقوال بأن عاداً كانوا أولهم مئة ذراع، ثم تناقص طول ذراريهم حتى صاروا إلى اثني عشر.

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٨٥).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٧٩٢).

(٣) انظر: «تفسير البغوي» (٢/ ١٧٠)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٨٥).

أو هذا طول عاد الآخرة، وما فوقه طول عاد الأولى.

وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع من حجارة، ولو اجتمع عليه خمسمئة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلوه، وإن كان أحدهم ليدخل قدمه في الأرض فتدخل فيها. رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد»، وابن أبي حاتم[1].

وقال عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما: كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل. رواه ابن مردويه[2].

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان الرجل من عاد في خلقه ثمانين باعاً، وكانت البرة فيهم ككلية البقرة، والرمانة الواحدة يقعد في قشرها عشرة نفر؛ أي: منكم. رواه الحكيم الترمذي في «نوادره»[3].

وقال زيد بن أسلم رحمهما الله تعالى: كان في الزمن الأول يمضي أربعمئة سنة ولم يسمع فيها جنازة.

وقال ثور بن يزيد: جئت اليمن فإذا أنا برجل لم أر أطول منه قط، فعجبت؛ قالوا: تعجب من هذا؟

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٧٩٨).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٨٥).

(٣) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ١٥١).

قلت: والله ما رأيت أطول من ذا قط.

قالوا: والله لقد وجدنا ساقاً أو ذراعاً، فذرعناها بذراع هذا، فوجدناها ستة عشرة ذراعاً.

وقال أيضاً: قرأت كتاباً: أنا شداد بن عاد، أنا الذي رفعت العماد، أنا الذي سددت بدراً عن بطن واد، أنا الذي كنزت كنزاً في البحر على تسع أذرع لا يخرجه إلا أمة محمَّد. رواهما الزبير بن بكار في «الموفقيات»[1].

وقال هريم[2] بن حمزة رحمه الله تعالى: سأل النَّبيُّ ﷺ ربه أن يريه رجلاً من عاد، فكشف الله له عن الغطاء، فإذا رأسه بالمدينة ورجلاه بذي الحليفة أربعة أميال طوله. رواه أبو الشيخ في «العظمة»[3].

وذكر المفسرون أن الله تعالى بعث إليهم هوداً عليه السَّلام، فأمرهم بالتوحيد والاستغفار، والكف عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ وبنوا المصانع وأبراج الحمام، وبطشوا بطشة الجبارين، فأمسك الله المطر عنهم ثلاث سنوات، فبعثوا منهم جماعة إلى البيت الحرام يستمطرون لهم[4]، فرجعوا وقد

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٨٦).

(٢) في «أ» و«ت»: «هرمز».

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٥٢٧).

(٤) روى الترمذي (٣٢٧٣) واللفظ له، والإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٨٢) عن عن أبي وائل عن رجل من ربيعة ـ الحارث بن يزيد البكري ـ قال: قدمت المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ فذكرت عنده وافد عاد، =

بعث الله تعالى عليهم سحاباً أسود وريحاً فيها كشهب النار، فلما رأوه قالوا: هذا عارض ممطرنا، فقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الأحقاف: ٢٤] الآية.

وروى عبد بن حميد، وعبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد»، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن رحمه الله تعالى قال: لما جاءت الريح إلى قوم عاد قاموا، فأخذ بعضهم بيد بعض، وأخذوا يشتدون، وركزوا أقدامهم في الأرض، وقالوا لهود: من يزيل أقدامنا من أماكنها إن كنت صادقاً؟ فأرسل الله عليهم الريح تنزع أقدامهم من الأرض كأنهم أعجاز نخل منقعر، وقال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[الحاقة: ٦ ـ ٧][1].

= فقلت: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد. قال رسول الله ﷺ: وما وافد عاد؟ قال: فقلت على الخبير سقطت، إن عاداً لما أقحطت بعثت قيلا، فنزل على بكر بن معاوية فسقاه الخمر وغنته الجرادتان، ثم خرج يريد جبال مهرة، فقال: اللهم إني لم آتك لمريض فأداويه ولا لأسير فأفاديه فاسق عبدك ما كنت مسقيه، واسق معه بكر بن معاوية، يشكر له الخمر التي سقاه، فرفع له سحابات فقيل له: اختر إحداهن فاختار السوداء منهن، فقيل له خذها رماداً رمداً لا تذر من عاد أحداً، وذكر أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة يعني حلقة الخاتم ثم قرأ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾[الذاريات: ٤١ ـ ٤٢].

(١) ورواه الطبري في «التفسير» (٢٧/ ٩٩)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٧٩٨).

وهي الأيام النحسات، وأيام الأعجاز، وأيام العجوز لأنها جاءت في عجز الشتاء، أو لأن عجوزاً من عاد اختبأت من الريح في سرب لها، فاقتلعتها الريح ودقَّت عنقها(١).

روى ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾[الأحقاف: ٧]؛ قال: كان أولها الجمعة(٢)؛ أي: وآخرها ليلة الجمعة الثانية.

فإن قلت: كيف يجمع بين هذا وبين ما ذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾[القمر: ١٩] أنه يوم الأربعاء؟

قلت: قد يجمع بينهما بأن الريح نشأت يوم الجمعة، ثم استمرت تعذبهم وتثرثرهم حتى هلكوا في يوم الأربعاء، ثم تكامل هلاكهم إلى صبيحة الجمعة الثانية.

وجاء أن تلك الأربعاء كانت آخر أربعاء في الشهر؛ فقد روى وكيع في «الغرر»، والخطيب في «تاريخه» بسند ضعيف، عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «آخِرُ أَرْبِعَاءٍ فِي الشَّهْرِ يَوْمُ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ»(٣).

وكثيراً ما يحتج به كثير من الحمقى في التطير بآخر أربعاء من الشهر حتى لا يتحركون فيه بحركة، ومنهم من لا يخرج فيه من بيته،

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٦).

(٢) رواها ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٣٦٩).

(٣) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٤/ ٤٠٥).

ويرده الحديث الصحيح: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ»[1]، والحديث الصحيح: «لا طِيَرَةَ»[2].

والتحقيق أنه يوم نحس مستمر على أعداء الله تعالى، والمصرين على معاصيه دون أولياء الله تعالى وأهل تقواه؛ فإنه يوم سعد مستمر عليهم بدليل أن الله تعالى كما أهلك فيه قوم هود أنجاه هو والذين آمنوا معه فيه، فظفروا فيه بهلاك عدوهم، ونجاتهم في أنفسهم.

ومنهم من يتطير بيوم الأربعاء مطلقاً، وكأنه يحتج بحديث جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَوْمُ الأَرْبِعَاءِ يَوْمُ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ». رواه ابن المنذر[3].

وهذا الحديث إن صح فإنما هو في حق من ذكر من أهل المعاصي، أو في حق من تطير.

واللائق بالمؤمن أن لا يتطير من شيء أصلاً، بل إذا تطير يمضي ويعلم أن الطيرة على من تطير[4].

---

(١) رواه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤) وصححه، وابن ماجه (٣٥٣٨) عن عبدالله بن مسعود ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٥٤٢٢)، ومسلم (٢٢٢٣) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) ورواه أبو عوانة في «المسند» (٦٠٢٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٩٧). قال ابن حجر: فيه إبراهيم بن أبي حية ضعيف جداً.

(٤) قال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١٩٤): ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ كان اليوم نحساً عليهم لإرسال العذاب عليهم، أي لا يقلع عنهم كما تقلع مصائب الدنيا عن أهلها، بل هذا النحس دائم على هؤلاء المكذبين =

وروى ابن مردويه عن أنس رضي الله تعالى عنه: أنه سئل عن يوم الأربعاء فقال: يوم نحس مستمر.

قالوا: كيف ذاك يا رسول الله؟

قال: «غَرِقَ فِيْهِ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَأَهْلَكَ عاداً وَثَمُوداً»(١).

وإذا كان كذلك فينبغي أن يتيمَّن به أهل الإيمان ولا يتشاءموا، بل إن جاز التشاؤم والتطير بالأربعاء بهلاك عاد فيه فليجز التطير بسائر أيام الجمعة لما علمت بنص القرآن العظيم أنهم هلكوا في مجموع الأسبوع سبع ليال وثمانية أيام حسوم.

= للرسل، و(مستمر) صفة للنحس لا لليوم، ومن ظن أنه صفة لليوم، وأنه كان يوم أربعاء آخر الشهر، وأن هذا اليوم نحس أبداً فقد غلط وأخطأ فهم القرآن، فإن اليوم المذكور بحسب ما يقع فيه، وكم لله من نعمة على أوليائه في هذا اليوم، وإن كان له فيه بلايا ونقم على أعدائه، كما يقع ذلك في غيره من الأيام، فسعود الأيام ونحوسها إنما هو بسعود الأعمال وموافقتها لمرضاة الرب، ونحوس الأعمال مخالفتها لما جاءت به الرسل، واليوم الواحد يكون يوم سعد لطائفة ونحس لطائفته، كما كان يوم بدر يوم سعد للمؤمنين ويوم نحس على الكافرين، فما للكوكب والطالع والقرانات، وهذا السعد والنحس، وكيف يستنبط علم أحكام النجوم من ذلك، ولو كان المؤثر في هذا النحس هو نفس الكوكب والطالع لكان نحساً على العالم، فأما أن يقتضي الكوكب كونه نحساً لطائفة سعداً لطائفة فهذا هو المحال.

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٦٧٧). وقال في «اللآلىء المصنوعة» (١/ ٤٤٢): فيه أبو الأخيل متهم.

ومعنى الحسوم: المتابعة كما صح تفسيرها عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما[1].

وكذلك الآيات التي ترادفت على فرعون وقومه من الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع إلى آخرها كانت تستمر عليهم أسبوعاً أسبوعاً.

فإذا بطل التطير بأيام الأسبوع لما ذكر، فليبطل التطير بيوم الأربعاء.

وروى ابن المنذر عن ابن جريج رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾[الأحقاف: ٧]؛ قال: كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عذاب الله، فلما أمسوا اليوم الثامن ماتوا، فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر، فذلك قوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[الحاقة: ٨]، وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾[الأحقاف: ٢٥][2].

ويؤخذ من هذا مع ما مر عن الربيع بن أنس: أن العذاب بدأهم يوم الجمعة، وأهلكهم واستأصلهم يوم الجمعة الثانية، ولذلك كان يوماً مباركاً، ولقد بقيت آثار عذابهم ظاهرة في نظير هذه الأيام من كل عام، فنرى فيها من شدة البرد ويبس الريح كل سنة ما هو عبرة لذوي

---

(١) رواهما الطبري في «التفسير» (٢٩/ ٥٠).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٢٢٦).

الاعتبار، وتبصرة لأولي الاستبصار مع سلامة هذه الأمة من سوئها.

وكانت الريح التي أرسلت عليهم الدبور، وهي الغربية التي تضرب في دبر الكعبة، ومن عادتها أن تكون رحمة فانقلبت عليهم عذاباً مسخرة لهود كما سخرت القبول، ويقال لها: الصبا، وهي التي تضرب في قبل الكعبة لمحمَّد ﷺ، فكانت دافعة للأحزاب عنه ليلة الأحزاب، ولم تستمر، ولم تهلكهم لأنه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وبقوا حتى خرج من أصلابهم أهل التوحيد.

روى الإمام أحمد، والشيخان عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»(١).

وروى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الرِّيْحُ مَسْجُوْنَةٌ فِيْ الأَرْضِ الثَّانِيَةِ، فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُهْلِكَ عَاداً أَمَرَ خَازِنَ الرِّيْحِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمْ رِيْحاً تُهْلِكُ عَاداً، قَالَ: يَا رَبِّ! أَرْسِلْ مِنَ الرِّيْحِ قَدْرَ مِنْخرِ الثَّوْرِ، قَالَ لَهُ الْجَبَّارُ ﷻ: تِلْكَ إِذاً تَكْفِي الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ أَرْسِلُ عَلَيْهِمْ بِقَدْرِ الْخَاتَمِ»(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٢٨)، والبخاري (٩٨٨)، ومسلم (٩٠٠).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٣١٣)، وكذا الحاكم في «المستدرك» (٨٧٥٦). قال ابن كثير في «التفسير» (٣/ ٤٣٨): هذا حديث غريب، ورفعه منكر، والأظهر أنه من كلام عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه.

وروى ابن جرير عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: لم ينزل قطرة من ماء إلا بكيل على يدي ملك إلا يوم نوح؛ فإنه أذن للماء دون الخزان، فطغى الماء على الخزان فخرج، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾[الحاقة: ١١]؛ أي: غلب.

ولم ينزل شيء من الريح إلا بكيل على يدي ملك إلا يوم عاد؛ فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت، فذلك قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[الحاقة: ٦]؛ عتت على الخزان(١).

وروي نحوه عن ابن عباس مرفوعاً(٢).

وروى أبو الشيخ في «العظمة» عنه، عن النبي ﷺ قال: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ».

وهذه القطعة في «الصحيحين» كما سبق.

زاد قال: ما أمر الخزان أن يرسلوا على عاد إلا مثل موضع الخاتم من الريح، فعتت على الخزان، فخرجت من نواحي الأبواب، فذلك قول الله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[الحاقة: ٦]؛ قال: عتوها: عتت على الخزان، فبدأت بأهل البادية منهم فحملتهم بمواشيهم وبيوتهم، فأقبلت بهم إلى الحاضرة، قالوا: هذا عارض ممطرنا، فلما

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢٩/ ٥٠).

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٢٥٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٦١).

دنت الريح أظلتهم، فألقت البادية على أهل الحاضرة فقطعتهم، فأهلكوا جميعاً[1].

واعلم أنه قد كان من عاد قبائح يتعين اجتناب التشبه بهم فيها.

١ ـ فمنها: الكفر، وعبادة الأوثان، وتقليد الآباء في ذلك.

وقد تقدم نظائر ذلك في قوم نوح.

٢ ـ ومنها: الابتداع في الدين أعم من أن يكون كفراً أو دونه.

وقد علمت أن عاداً اتخذوا أصناماً زائدة على ود وأخواته، وقد أشار إلى ذلك مرثد بن سعد منهم، وكان ممن بعثهم عاد إلى مكة ليستسقوا لهم، ولكنه قال لهم: والله لا يستجاب دعاؤكم وتسقون إلا إن أطعتم هوداً ـ وكان ممن يكتم إيمانه ـ فقال: [من الوافر]

عَصَتْ عادٌ رَسُوْلَهُم فَأَمْسَوا ... عِطاشاً ما تَبُلُّهُمُ السَّماءُ
يُبَصِّرُنا الرَّسُوْلُ سبيلَ رُشْدٍ ... فَأَبْصَرْنا الْهُدى وَجَلا الْعَماءُ
لَهُمْ صَنَمٌ يُقالُ لَهُ صَمُوْدٌ ... يُقابِلُهُ صَداةُ وَالْهباءُ
وَإِنَّ إِلَهَ هُوْدٍ هُوْ إِلَهِي ... عَلَى اللهِ التَّوَكُّلُ وَالرَّجاءُ[2]

وقال الله تعالى حكاية عن قوم هود: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٥١).

(٢) انظر: «تاريخ الطبري» (١/ ١٣٧).

ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَـٰدِلُونَنِى
فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟
إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا
دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ٧٠ ـ ٧٢].

وهذه الآية قد بينت أن سبب الرجس والغضب الشركُ، والمجادلة بالباطل، والابتداع في الدين، والإعراض عن الحق، وترك الاتباع، وآخر من هذا حاله قطع دابره، وإخلاء الأرض منه، وبقاء أخباره عبرة لمن بعده؛ وبالله التوفيق، ونعوذ بالله من الخذلان.

٣ ـ ومنها: الكذب، والتكذيب لأهل الصدق.

بل هو حال سائر الأمم إلا من آمن منهم.

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾
وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ
وَعِيدِ﴾[ق: ١٢ ـ ١٤].

وقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا
فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى
وَنُذُرِ﴾[القمر: ١٨ ـ ٢١]

وإنما كرر هذه الجملة للتهويل.

وقيل: الأول لما حاق بهم في الدنيا، والثاني لما يحيق بهم في الآخرة، كما قال في قصتهم أيضاً: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦].

وقال تعالى حكاية عن هود عليه السَّلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٠ ـ ٥٣].

واعلم أن قبح الكذب مما علم بالضرورة في سائر الأديان إلا في الحرب ونحوه.

وروى الترمذي، وأبو نعيم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن النَّبيَّ ﷺ قال: «إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ كِذْبَةً تَبَاعَدَ عَنْهُ الْمَلَكُ مِيْلاً مِنْ نَتَنِ مَا جَاءَ بِهِ»(١).

٤ ـ ومنها: العناد، والتصميم على الباطل بعد ظهور الحق.

ألا ترى إلى قولهم: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣] بعد ما بين لهم أنه لا يريد إلا نصيحتهم بسبب أنه لا يسألهم الأجر؟

---

(١) رواه الترمذي (١٩٧٢) وقال: حديث حسن جيد غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه تفرد به عبد الرحيم بن هارون، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٩٧). قال ابن حبان في «الثقات» (٨/ ٤١٣): عبد الرحيم بن هارون: يعتبر حديثه إذا روى عن الثقات من كتابه فإن فيما حدث من غير كتابه بعض المناكير. وقال ابن حجر في «تقريب التهذيب» (ص: ٣٥٤): ضعيف كذبه الدارقطني.

وهذا مما ينفي التهمة عن النذير الناصح؛ فإنه من حاول الأجر ممن أنذره فإنما يحاول مصلحة نفسه لا مصلحة المنذر.

ومن هنا حذر العلماء من طلب الدُّنيا بالعلم والدين حتى قال بعض الحكماء من أهل العلم: طلب الدنيا بالدف والمزمار أخف إثماً من طلبها بالدين والعلم.

وقد أجمع الأنبياء على بذل العلم وتعليم الدين بلا عوض من المبذول له؛ فليكن ورثتهم على طريقتهم.

٥ ـ ومنها: الإصرار على المعصية، وترك التوبة والاستغفار.

وقال هود عليه السَّلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ۝٥٢ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[هود: ٥٢ ـ ٥٣].

وأي إصرار بعد هذا الإصرار؟

روى ابن عساكر عن الضَّحَّاك رحمه الله تعالى قال: أمسك الله عن عاد القطر ثلاث سنين، فقال لهم هود: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾[هود: ٥٢]، فأبوا إلا تمادياً[1].

وقد دلت الآية على أن الإصرار يمنع الرزق كما أن الاستغفار يمنع العقوبة ويجلب المنافع؛ فإن الاستغفار يحل عقدة الإصرار.

---

(١) ورواه الثعلبي في «التفسير» (٨/ ٢٨٩).

وقد سبق مثل ذلك في قوم نوح حيث قال لهم عليه السَّلام: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

وقال الثعلبي رحمه الله تعالى: خرج عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يستسقي، فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فقيل له: ما رأيناك استسقيت؟

قال: طلبت المطر بمجاديح السَّماء التي يستنزل بها المطر، ثم قرأ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢].

و﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١١][1].

والمجاديح ـ بتقديم الجيم ـ؛ قال في «النهاية»: جمع مجدح مع زيادة الياء[2].

والمجدح؛ كمنبر؛ قال في «القاموس»: الدبران، أو نجم صغير تحته، والثريا.

قال: ومجاديح السماء: أنواؤها[3].

---

(١) رواه الثعلبي في «التفسير» (١٠/ ٤٤)، وكذا عبد الرزاق في «المصنف» (٤٩٠٢).

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٢٤٣).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٢٧٥) (مادة: جدح).

قيل: وهي ثلاثة كواكب كالأثافي، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر[1].

وقول عمر رضي الله تعالى عنه: (لقد استقيت بمجاديح السماء) شبه الاستسقاء بالاستمطار بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفون لا قولاً بالأنواء، كأنه يشير إلى أن الاستسقاء بالاستغفار أولى من الاستمطار بالأنواء؛ فإن الاستغفار أحق ما تطلب به الحوائج، وترفع به النوائب.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجَاً، وَمِنْ كُلِّ ضِيْقٍ مَخْرَجَاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبْ». رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الحاكم، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[2].

وتأمل قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[يونس: ٩٨].

روى الإمام أحمد في «الزهد» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إن يونس عليه السلام كان وعد قومه العذاب، وأخبره أنه يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرقوا بين كل والدة وولدها، ثم خرجوا فجاؤوا

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٢٤٣).

(٢) رواه أبو داود (١٥١٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٢٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦٧٧).

إلى الله ﷻ واستغفروه، فكف عنهم العذاب[1].

وروى هو والمفسرون عن أبي الجلد رحمه الله تعالى قال: لما غشي قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم، فقالوا: ما ترى؟

قال: قولوا: يا حي حين لا حي، ويا حي محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت، فكشف عنهم العذاب[2].

وروى هو وغيره عن أبي الجلد أيضاً: أن داود النبي عليه السلام أمر منادياً، فنادى بالصَّلاة جامعة، فخرج النَّاس وهم يرون أنه يكون منه يومئذ موعظة وتأديب، ودعا، فلما رأوا مكانه قال: اللهم اغفر لنا، وانصرف.

فاستقبل آخر الناس أوائلهم قالوا: ما لكم؟

قالوا: إن النبي إنما دعا بدعوة واحدة، ثم انصرف.

قالوا: سبحان الله! كنا نرجو أن يكون هذا اليوم يوم عبادة ودعاء، وموعظة وتأديب، فما دعا إلا بدعوة واحدة!

قال: فأوحى الله إليه أن أبلغ عني قومك؛ فإنهم قد استقلوا دعاءك: إني من أغفر له أصلح له أمر آخرته ودنياه[3].

---

(١) ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٨٦٦)، والطبري في «التفسير» (١١/ ١٧٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٣٤)، والطبري في «التفسير» (١١/ ١٧٢).

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٧٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٥٧).

وعن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال: قال المسيح عليه السلام: أكثروا ذكر الله، وحمده وتقديسه، وأطيعوه، وإنما يكفي أحدكم من الدعاء إذا كان الله ﷻ راضياً عنه أن يقول: اللهم اغفر لي خطيئتي، وأصلح لي معيشتي، وعافني من المكاره يا إلهي[1].

٦ ـ **ومن أعمال عاد، وأخلاقهم:** عصيان أولياء الأمور في طاعة الله تعالى، وبغض العلماء وأولياء الله تعالى، والرغبة عنهم، والاستنكاف عن مجالستهم ومعاشرتهم، والرغبة في عشرة الأشرار والمترفين، واتباعهم والانهماك معهم فيما هم فيه.

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[هود: ٥٩ ـ ٦٠].

ومن لطائف الأستاذ حمدون القصار رحمه الله تعالى ما نقله عنه أبو عبد الرَّحمن السلمي في «حقائقه» أنه قال: من رغب في صحبة الأشرار حرم صحبة الأخيار.

٧ ـ **ومنها: أذية أنبياء الله وأوليائه،** وانتقاصهم، ورميهم بالسُّوء، واعتقاد أن الجمادات تضر وتنفع، بل لا يضر وينفع حقيقة إلا الله تعالى، ومن نفع غيره فبتسخيره، ومن ضرَّ غيره فبتسليطه.

ألا ترى إلى قولهم يخاطبون هوداً عليه السَّلام: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾[هود: ٥٤]؟

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٥٤).

وهذا منهم غاية في السخف والحماقة، ولذلك خف أمرهم، واضمحل حالهم عند هود عليه السَّلام حتى أجابهم بما حكاه الله تعالى عنه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

أي: فإذا كانت الدَّواب مأخوذاً بنواصيها، فلا يكون منها حركة ولا أمر إلا بإرادة الله الآخذ بنواصيها، فكيف تزعمون إضراري بآلهتكم الجمادات؟

فأنتم ولو اجتمعتم على كيدي لا تستطيعون كيدي، وإنما قال لهم: واشهدوا مع أن من هذا مؤدَّى عقله لا يصلح للإشهاد، ولا يصح إشهاده على وجه التهكم، فهو أمر احتقار وتهكم واستهزاء بهم.

ومن هنا يظهر لك أن من اعتقد أن شيخه أو معتقده ينتقم، أو يعطب من يعاديه، وهو مصر على المعصية والظلم، فهو أشبه الناس بقوم هود في سخافة العقل.

نعَم، لا ينكر أن يكرم الله تعالى بعض أوليائه باستجابة دعوته في بعض أعدائه وإن لم يدع، ولا أن الله تعالى ينفع من يوالي ولياً لله تعالى به.

وكذلك من يزعم أن شيخه يقتل محقون الدم بحاله، أو يضر مسلماً بعطبته إلا أن يغار لله تعالى إذا شاهد معصية فيكون غضبه لله

تعالى لا لمريده، ولا لمعتقده تنفيذاً لهواه؛ فإن أولياء الله منزهون عن الهوى، فإذا تنفس بدعاء أو فعل فإنه نتيجة غضبه لله تعالى، كما كان رسول الله ﷺ لا يغضب إلا إذا انتهكت محارم الله، فلا يقوم لغضبه شيء كما في الحديث[1].

* **فائِدَةٌ لَطِيْفَةٌ:**

روى ابن أبي حاتم عن يحيى بن سعيد رضي الله تعالى عنه قال: ما من أحد يخاف لصاً عادياً، أو سَبُعاً ضارياً، أو شيطاناً مارداً فيتلو هذه الآية: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود: ٥٦] إلا صرفه عنه[2].

قلت: وكذلك لو قصده عدو ولو جماعة، ولو أصحاب قوة وجاه.

ومثل هذا لا يقال من قبل الرأي، ولكن هذا مورد الآية؛ ألا ترى أن هذا قاله هود عليه السلام لأشد الأمم قوة وبطشاً، وحمية وجأشاً.

وقد ذكر بعض أهل الكشف أن هذه الآية تمنع وتدفع شر كل ذي شر توجه الصادق بتلاوتها إليه، وقرأها في مقابلته، والعارف يكفيه من ذلك التصديق بالآية بقلبه.

وكذلك يتحظر بحظار عظيم من كل شر وسوء بكلمة الشهادة كما

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٤٤٣).

في الحديث القـدسي: «لا إلـه إلا الله حصني»[1] فهي أمنـه وهجِّيراه؛ فافهم!

٨ ـ ومنها: الإعجـاب بالشـباب والقـوة، والفخر والخيلاء، والتطاول على الناس.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[فصلت: ١٥].

وقال تعالى حكاية عن هود عليه السَّلام: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[الشعراء: ١٢٨ ـ ١٢٩].

أي: قصوراً مشيَّدة تفتخرون بها، كما ذكره القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى[2].

وروى الإمـام عبدالله بن المبـارك، والطبراني في «الكبيـر»، والأصفهاني في «الترغيب»، عن العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «يَظْهَرُ هَذَا الدِّيْنُ حَتَّى يُجَاوِزَ الْبِحَارَ، وَحَتَّى يُخَاضَ الْبَحْرُ بِالْخَيْلِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمٌ يَقْرَؤُوْنَ الْقُرْآنَ يَقُوْلُوْنَ: قَدْ قَرَأْنَا القُرْآنَ، فَمَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟ وَمَنْ أَفْقَهُ مِنَّا؟ وَمَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟ هَلْ فِيْ أُوْلَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟»

قالوا: لا.

---

(١) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٥١).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٤٨).

قَالَ: «فَأُوْلَئِكَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُوْدُ النَّارِ»[1].

وروى الطبراني في «الأوسط» نحوه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2].

وروى أبو نعيم عن أبي تراب النخشبي رحمه الله تعالى قال: قال حاتم الأصم رحمه الله تعالى: لا أدري أيهما أشد على الناس؛ اتقاء العجب، أو الرياء؟ العجب داخل فيك، والرياء داخل عليك، العجب أشد عليك من الرياء، ومثلهما أن يكون معك في البيت كلب عقور، وكلب آخر خارج البيت، فأيهما أشد عليك؛ الداخل أم الخارج، أما الداخل فهو العجب، وأما الخارج فهو الرياء[3].

٩ ـ ومنها: ظلم الناس، والبغي عليهم، وتمكيس أموالهم، وضربهم بغير حق، والفتك بهم، والتكبر والتجبر، والاغترار بالصحَّة، والقوة والجَلَد، والتطاول في البنيان، والتأنق فيه وفي إحكامه فوق الحاجة، والتمرد، وإطالة الأمل، واللعب بالحَمَام الطَّيَّارة، والعبث بالناس، واللهو واللعب، والاسترسال فيها، وكفران النعم.

قال الله تعالى حكاية عن هود عليه السلام مخاطباً لقومه: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٥٢)، وكذا أبو يعلى في «المسند» (٦٦٩٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٦): رواه أبو يعلى والبزار والطبراني في «الكبير» وفيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٢٤٢).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٤٨).

﴿بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله: ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾؛ قال: طريق.

وفي رواية: شرف.

﴿ءَايَةً﴾؛ قال: علماً.

﴿تَعْبَثُونَ﴾؛ قال: تلعبون[١].

وقال في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾: كأنكم تخلدون[٢]. رواهما ابن جرير وغيره.

وقال مجاهد رحمه الله تعالى في قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾؛ قال: بكل فج بين جبلين.

﴿ءَايَةً﴾؛ قال: بنياناً.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾؛ قال: بروج الحمام. رواه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة.

وكذلك أخرجه الفريابي وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر[٣].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ٩٥).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ٩٦).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ٩٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٧٩٣).

وروى هؤلاء أيضاً عنه في قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾؛ قال: قصوراً مشيدة، وبنياناً مخلداً؛ أي: مقصوداً للخلود[1].

وقال قتادة رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾؛ قال: مآخذ للماء[2].

قال: وكان في بعض القراءة: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[3].

وقال مجاهد رحمه الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾؛ قال: بالسوط والسيف. رواهما عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[4].

قال في «الكشاف»: وقيل: الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب.

وعن الحسن: تبادرون تعجيل العذاب، لا تتثبتون متفكرين في العواقب[5].

ثم قال لهم هود عليه السَّلام بعد تعريفهم بما صدر منهم وإنه مما

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ٩٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٧٩٤).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ٩٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٧٩٥).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ٩٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٧٩٥).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٧٩٥).

(٥) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ٣٣١).

يخشى عواقبه مذكراً لهم بالنعم محذراً من النقم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣١ ـ ١٣٨].

بالغ هود في تنبيههم على نعم الله تعالى بحيث أجملها، ثم فصلها مستشهداً بعلمهم ليوقظهم عن سنة غفلتهم، فلم يزدادوا إلا عَمًى وغفلة وإنكاراً للبعث والعقوبة، وكان ذلك سبب هلاكهم كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ [الشعراء: ١٣٩].

وقيل: إنهم كانوا يعبثون بمن يمر عليهم، وكان لهم مناظر على الطرقات يقعدون بها، ويسخرون بمن يمر بهم.

وقال الكلبي: هو عبث العشَّارين بأموال من يمر بهم؛ وكانوا يمكسون. رواه الثعلبي، وغيره[1].

وجميع هذه الأخلاق محرمة إلا ما كان من اللعب واللهو الذي ليس فيه أذى الغير؛ فإنه مكروه، وكذلك اللعب بالحمام.

وروى ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» عن إبراهيم النَّخعي رحمه الله تعالى أنه قال: من لعب بالحمام الطيارة لم يمت حتى يذوق ألم الفقر[2].

---

(١) انظر: «تفسير الماوردي» (٤/ ١٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ١٢٣).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (ص: ٨٤)، وكذا البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥٣٨).

وكذلك البناء مباح في الأصل كاتخاذ القصور، والحصون، والمصانع، وإنما كان بناؤهم مذموماً لمعنى خارج عن كونه بناء؛ فإن مطلق البناء مباح، اللهم إلا أن يقال: إن بناء ما فوق الحاجة كان محرماً في شرعهم، وهو في شرعنا مكروه، وإذا انتهى إلى حد السرف وإضاعة المال كان محرماً، وكذلك إذا بني من مال حرام، وفي أرض مغصوبة، أو غُصب فيه البناؤون.

ولعلهم إنما ذموا البناء لأنه كان من مال المُكْس والظلم، أو لأنه كان منهم طلباً للخلود وأملاً للبقاء كما يدل عليه قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[الشعراء: ١٢٩]؛ أي: راجين للخلود؛ وهذا أقرب الاحتمالات.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، رفعه: «مَنْ بَنَى فَوْقَ مَا يَكْفِيْهِ كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَحْمِلَهُ». رواه الطبراني في «الكبير»، وأبو نعيم(١).

وقال أنس رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ بَنَى بِنَاءً أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كَانَ وَبَالاً عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

وقال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَىْ صَاحِبِهِ يَوْمَ

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٢٨٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٤٦). قال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٦/ ٤٣١): هذا حديث منكر.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٧٠٤).

الْقِيَامَةِ إِلاَّ مَسْجِداً»[1]. رواهما البيهقي في «الشعب».

بل روى أبو داود، وغيره عن أنس ﷺ: أن رسول الله ﷺ خرج يوماً ونحن معه فرأى قبة مشرقة، فقال: «مَا هَذِهِ؟».

فقال أصحابه: هذه لفلان؛ رجلٍ من الأنصار.

فسكت وحملها في نفسه، حتى إذا جاء صاحبها رسولَ الله ﷺ سلم عليه في الناس، فأعرض عنه ـ صنع ذلك مراراً ـ حتى عرف الرجل الغضب فيه والإعراض عنه، فشكا ذلك إلى الصحابة، فقال: والله إني لأنكر رسول الله ﷺ.

قالوا: خرج فرأى قبتك.

فرجع الرجل إلى قبته فهدمها حتى سوَّاها بالأرض.

فخرج رسول الله ﷺ فلم يرها، فقال: «مَا فَعَلَتِ الْقُبَّةُ؟»

قالوا: شكا إلينا صاحبها إعراضك عنه، فأخبرناه فهدمها.

فقال: «أَمَا إِنَّ كُلَّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَىْ صَاحِبِهِ إِلاَّ مَا لاَ، إلا ما لا»[2].

أي: إلا ما لا بُدَّ لِلإِنْسَانِ مِنْهُ مِمَّا يَسْتُرُهُ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ السُّرَّاقِ وَالسِّبَاعِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وروى الطبراني في «الكبير» بسند حسن، عن خباب بن الأرت

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٧٠٧).

(٢) رواه أبو داود (٥٢٣٧)، وابن ماجه (٤١٦١).

رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ نَفَقَةٍ يُنْفِقُهَا الْعَبْدُ يُؤْجَرُ فِيْهَا إِلاَّ الْبُنْيَانُ»[1].

واستثناء البنيان من النفقة دليل على إباحته في الأصل؛ لأن الإنفاق إنما يكون في الخير، فأما في الشر فيقال: خسرت وغرمت.

وروى البيهقي في «الشعب» عن إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ نَفَقَةٍ يُنْفِقُهَا الْمُسْلِمُ يُؤْجَرُ فِيْهَا عَلَىْ نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ، وَعَلَى صَدِيْقِهِ، وَعَلَى بَهِيْمَتِهِ إِلاَّ فِيْ بِنَاءٍ إِلاَّ بِنَاءَ مَسْجِدٍ يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ»[2].

وروى أبو نعيم عن إبراهيم النخعي، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كل نفقة ينفقها العبد فإنه يؤجر عليها إلا بناء المسجد.

قال ابن حمزة: فقلت لإبراهيم: أرأيت إنما كان بناء كفافاً؟

قال: لا أجر، ولا وزر[3].

وكلامه محمول على ما لو تجرد عن النية؛ فإن اقترن بنية صالحة كإيواء العيال وسترهم ففيه أجر.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٦٤١)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٧٧٠).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٧٠٨)، وكذا ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (ص: ١٨٤).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٣٠).

وفي معنى بناء المسجد بناء مدارس العلم، ودور القرآن، والحديث، وخوانق الفقراء، والربط وبناء الحصون للرابطة، وبناء الخانات على طرق المسلمين لإيواء المسافرين وأبناء السبيل؛ فإن كل ذلك مما فيه أجر عظيم باق لبانيه بعد موته ما دام منتفعاً به.

فإن كان بناؤه هذا بنية فاسدة كالمباراة والمراباة، وبناء الحصون لمناداة المسلمين، والاستعماء عليهم، وتحصين من يخرج عليهم، أو للتجبر ونحوه، كان حراماً.

وكذلك بناء الخمارات وبيوت القمار.

فأما بناء بيوت القهوات فإنه مباح كالأسواق، لكنه مكروه شديد الكراهة لِمَا استقر عليه أمر كثير ممن يدخلها من الإكباب على اللعب، والتعرُّض للمُرد، والمواعدة على السوء، والاجتماع عليه، فإنْ بنيت بهذه النية كان بناؤها محرماً قطعاً؛ فإنما الأعمال بالنيات.

وما أشبه ذلك بحال عاد المعبر عنه بقوله تعالى حكاية عن هود عليه السلام مخاطباً لهم: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[الشعراء: ١٢٩].

وقد أحسن الحافظ أبو الفضل ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى في قوله: [من الطويل]

خَلِيْلَيَّ وَلَّى الْعُمْرُ مِنَّا وَلَمْ نَتُبْ ... وَنَنْوِي فِعالَ الصَّالِحِيْنَ وَلَكِنَّا
وَحَتَّى مَتَى نَبْنِي قُصُوراً مَشِيْدَةً ... وَأَعْمارُنا مِنَّا تُهَدُّ وَما تُبْنا

وقلت: [من البسيط]

يا بانِياً فَوْقَ ما يَكْفِيْـهِ عَـنْ أَمـلٍ وَقَدْ أَعَدَّ صُنُوْفَ الزَّهْـرِ وَالْبـانِ
عَمَّا قَلِيْلٍ تَـرَى الأَزْهـارَ ذاوِيَـةً وَعَنْ قَلِيْلٍ تَبِـيْدُ الـدَّارُ وَالبـانِي
لايَمْنَعَنَّكَ مِنْ أَيْدِي الْحِمامِ حِمًى وَلَوْ بَنَيْتَ حُصُوناً فَوْقَ ذِي الْبانِ
وَإِنْ تَقُـلْ أَجْمَـعُ الـدُّنْيا وَآخِـرَةً فَلَسْتَ ثَـمَّ وَهَـلْ لِلْمَـرْءِ قَلْبـانِ
إِنَّ الَّذِي طَلَب الدُّنْيا وَفَرَّطَ فِـي أُخْـراهُ يَلْحَقْـهُ بِـالْمَوْتِ سـلبانِ
دُنيـاهُ فارَقَهـا أُخْـراهُ ضَـيَّعَها وَلَيْسَ يُجْدِيْهِ شَيئاً حَزْقُ أَسْـنانِ
إِنَّ الأَرِيْبَ الَّذِي يَسْعَى لآخِـرَةٍ تَبْقَى لَهُ غَيْـرَ نَظَّـارٍ إِلَـى الْفـانِي

وقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] سبق تفسيره عن مجاهد.

وقال في «القاموس»: بطش به، يبطِش، ويبطُش: أخذه بالعنف والسطوة؛ كأبطشه.

أو البطش: الأخذ الشديد في كل شيء، والبأس. والبطيش: الشديد البطش(١).

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: روى مالك عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه الضرب بالسياط(٢).

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٧٥٥) (مادة: بطش).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ٤٦٠). قال العقيلي في =

قال القرطبي: والبطشة تكون باليد، وأقله الوَكْز والدفع، ويليه السوط والعصا، ويليه الحديد؛ والكل مذموم إلا بحق.

قال: والآية نزلت خبراً عن من تقدم من الأمم، ووعظاً من الله تعالى في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمهم به وأنكره عليهم.

إلى أن قال: وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه الأمة لا سيما بالديار المصر منذ وليتها البحرية، فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق(١).

قال: وقد أخبر النبي ﷺ أن ذلك يكون كما في «صحيح مسلم» رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمْ؛ قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُوْنَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلاتٌ مُمِيْلاتٌ رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلا يَجِدْنَ رِيْحَهَا؛ وَإِنَّ رِيْحَهَا لَيُوْجَدُ مِنْ مَسِيْرَةِ كَذَا وَكَذَا»(٢).

قلت: وفي «صحيح مسلم» أيضاً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «يُوْشَكُ إِنْ طَالَتْ بِكَ مُدَّةٌ أَنْ تَرَى قَوْمَاً

= «الضعفاء» (٤/ ١٦٩): ليس له أصل من وجه يصح، رواه عن مالك، موسى بن محمد البلقاوي، يحدث عن الثقات بالبواطيل في الموضوعات.

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ١٢٤).

(٢) رواه مسلم (٢١٢٨).

بِأَيْدِيْهِمْ مِثْلُ أَذْنَابِ الْبَقَرِ؛ يَغْدُوْنَ فِيْ غَضَبِ اللهِ، وَيَرُوحُوْنَ فِي سَخَطِ اللهِ»[1].

وقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وفي هذه الآية أنه كان من أخلاقهم نسيان الله وقوته وسطوته، والغفلة عنه وعن انتقامه؛ فليحذر العبد من مثل غفلتهم ونسيانهم، ولا يأمن من مكر الله تعالى.

وروى مسلم، وأبو داود، والترمذي عن أبي مسعود البدري رضي الله تعالى عنه قال: كنت أضرب غلاماً لي بالسَّوط، فسمعت صوتاً من خلفي، فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُوْدٍ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلامِ».

فقلت: لا أضرب مملوكاً بعده أبداً.

وفي رواية: فقلت: يا رسول الله! هو حرٌّ لوجه الله تعالى.

فقال: «لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ»[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٥٧).

(٢) رواه مسلم (١٦٥٩)، وأبو داود (٥١٥٩)، والترمذي (١٩٤٨).

١٠ ـ ومن أخلاق عَاد: تسفيه ذوي الأحلام والعقول، وتجهيل أهل العلم، وتخطئة أهل الصواب.

ألا ترى إلى قولهم لهود عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[الأعراف: ٦٦].

وفي ذلك من الجرأة على الأكابر وسوء الأدب في الخطاب ما لا يخفى.

والسفاهة والسفاه ـ بالفتح ـ، والسفه ـ بالتحريك ـ: خفة الحلم، أو نقيضه، أو الجهل.

ويقال: سفه نفسه ورأيه ـ بالتثليث ـ؛ أي: حمله على السفه.

والسفيه: الذي يسيء التصرف في ماله بالتبذير لجهله، وخفة عقله.

وقال في «الصحاح»: سفه فلان ـ بالضم ـ سفاهاً، وسفاهة، وسفه ـ بالكسر ـ سفَهاً، لغتان؛ أي: صار سفيهاً[1].

فإذا قالوا: سفه نفسه، وسفه رأيه لم يقولوا إلا بالكسر؛ لأن فعُل ـ أي: المضموم ـ لا يكون متعدياً.

ومن العجب أن السفيه يرى العارف العاقل سفيهاً فيرميه بما هو متصف به.

وجواب هود عليه السَّلام لقومه أحكم جواب حيث يقول: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ

---

(١) انظر: «الصحاح» للجوهري (٦/ ٢٢٣٥)، (مادة: سفه).

﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[الأعراف: ٦٧ ـ ٦٨].

لم يقل أنتم السفهاء، أو ليست السفاهة إلا فيكم لما في هذا الجواب من الإيحاش في الخطاب المتسبب عن الضجر، وقلة الصبر المخالف للنصيحة.

والعاقل لا ينبغي أن يقابل سفه السفيه وجهل الجاهل بمثله، بل يغضي ويحلم، كما قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩].

هذا ما دام في مقام النصيحة والدَّعوة، فإذا كان في مقام الولاية والعدل بين المتحاكمين إليه لم يكن منه إلا تأديب الظَّالم ونصر المظلوم من غير زيادة على استيفاء الحق.

وليس من هذا قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٣] في جواب قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾[البقرة: ١٣] لأن هذا إجابة من الله تعالى عن رسوله ﷺ، ورد عنه ونصرة له، فاللائق أن يكون جواباً رادعاً لهم، زاجراً مفصحاً عن جهلهم بالمبالغة فيه؛ فإن الجاهل بجهله الجازم بخلاف ما هو الواقع أعظم ضلالة وأتم جهالة من المتوقف المعترف بجهله؛ فإن هذا ربما يعذر وينتفع بما ينذر.

وبالجملة فليس بعد ظلمة الجهل ظلمة، إلا أن الجاهل بجهله في ظلمات بعضها فوق بعض بخلاف الحاس به؛ فإنه يلتمس النور،

وذاك يقتبس من الظلمة ظلمة يحسها نوراً.

ولقد لطف الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه في قوله:

[من الوافر]

وَمَنْزِلَةُ الْفَقِيْهِ مِنَ السَّفِيْهِ
كَمَنْزِلَةِ السَّفِيْهِ مِنَ الْفَقِيْهِ
فَهَذا زاهِدٌ فِي عِلْمِ هَذا
وَهَذا مِنْهُ أَزْهَدُ مِنْهُ فِيْهِ[١]

وفي الحديث: «إِنَّمَا يَعْرِفُ الْفَضْلَ مِنَ النَّاسِ أُوْلُو الْفَضْلِ»[٢].

عَزْلٌ للجاهل عن إدراك حقيقة العلم ومقام أهله، وشرف العقل وكرم أهله.

[من البسيط]

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ
وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْماءِ مِنْ سَقَمِ

وإنكار الفضل حرمان، والكِبر عن قول الحق خذلان، وسوء الأدب تعرض للعطب.

---

(١) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن» (ص: ٣٦٦).

(٢) تقدم نحوه بلفظ قريب من هذا.

١١ ـ ومن أخلاقهم وأعمالهم: البطر، والإكباب على اللهو واللعب، وشرب الخمر، واستماع الغناء، واتخاذ القِيان.

قد حكي في قصتهم أنه لمَّا قحط المطر عندهم وجهدوا قالوا: جهزوا وفداً منكم إلى مكة ليستقوا لكم، فبعثوا ثلاثة من أعيانهم يقال لهم: قيل بن عَنز، ولقيم بن هزال، وعسل بن جند، فانطلقوا ومع كل واحد منهم رهط من قومه، حتى بلغ عدد وفدهم سبعين رجلاً، فنزلوا على معاوية بن بكر خارج مكة، وكانوا أخواله وأصهاره، فأنزلهم وأكرمهم، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر، وتغنيهم قينتان لمعاوية يقال لهما: الجرادتان، وكان مسيرهم شهراً أيضاً، فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم، وقد بعثهم قومهم يتغوثون من البلاء الذي أصابهم، واستحيى أن يأمرهم بالخروج إلى ما بعثوا إليه وهم أضيافه، قال شعراً، وأمر الجرادتين أن تغنياه وهم يسمعون: [من الوافر]

أَلا يا قِيْلُ وَيْحَكَ قُم فَهَيْنِمْ ... لَعَلَّ اللهَ يُصْحِبَنا غَماما
فَيَسْقِيْ أَرْضَ عادٍ إِنَّ عاداً ... قَدْ اَمْسَوْا ما يَبِيْنُونَ الْكَلاما
منَ الْعَطَشِ الشَّدِيْدِ فَلَيْسَ نَرْجُو ... بِهِ الشَّيْخَ الْكَبِيْرَ وَلا الْغُلاما
وَإِنَّ الْوَحْشَ تَأْتِيْهِمْ جِهاراً ... وَلا يَخْشَى لِعادِيٍّ سِهاما
وَأَنْتُمْ هَهُنا فِيْما اشْتَهَيْتُمْ ... نَهارَكُمْ وَلَيْلَكُمُ التَّماما

فلمَّا غنتهم الجرادتان بذلك تنبهوا، ودخلوا الحرم، فاستقوا

لقومهم، فكان جواب دعائهم أن بعث الله تعالى عليهم الريح العقيم[1].

وروى أبو داود عن أبي هريرة ﵁: أن رسول الله ﷺ كان يصوم، فتحينت فطره بنبيذ، فوضعته في دُبَّاء، ثم أتيته فقال: «اضْرِبْ بِهَذَا الْحَائِطَ؛ فَإِنَّ هَذَا شَرَابُ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ»[2].

وروى أبو يعلى عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «يَبِيْتُ قَوْمٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَىْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ لَهُمْ، فَيُصْبِحُوْنَ قِرَدَةً وَخَنَازِيْرَ، وَلَيُصِيْبَنَّهُمْ خَسْفٌ وَقَذْفٌ، فَيَقُوْلُوْنَ: لَقَدْ خُسِفَ اللَّيْلَةَ بِبَنِي فُلانٍ، وَخَسَفَ اللهُ بِبَنِي فُلانٍ، وَلَيُرْسِلَنَّ عَلَيْهِمُ الرِّيْحَ الْعَقِيْمَ الَّتِي أَهْلَكَتْ عَاداً بِشُرْبِهِمُ الْخَمْرَ، وَأَكْلِهِمُ الرِّبَا، وَاتِّخَاذِهِمُ الْقَيْنَاتِ، وَلُبْسِهِمُ الْحَرِيْرَ، وَقَطْعِهِمُ الأَرْحَامَ»[3].

قلت: وفي هذا الحديث إشارة إلى أن هذه المعاصي قديمة في الأمم؛ لأنه أخبر أن ممن يتعاطاها من يعذب بما عذبت به الأمم السَّالفة من مسخ، أو خسف، أو قذف، أو ريح عقيم بسبب هذه

---

(١) انظر: «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد القرشي (١/ ٢٤)، و«تاريخ الطبري» (١/ ١٣٥).

(٢) رواه أبو داود (٣٧١٦)، وكذا النسائي (٥٦١٠)، وابن ماجه (٣٤٠٩).

(٣) ورواه الطيالسي في «المسند» (١١٣٧)، والحاكم في «المستدرك» (٨٥٧٢)

المعاصي بأعيانها، وهي في شريعتنا كبائر.

١٢ ـ ومن أعمال عاد، وأخلاقهم: الكيد.

وحقيقته إظهار المحبة والقبول، أو الإعراض عن قصد الكيد لمحبة أو غيرها، وإضمار السوء في طي ذلك ولو مآلاً.

قال الله تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾[هود: ٥٤ ـ ٥٥].

وهو أمر تهديد، وفيه إيماء إلى أنهم كان لهم كيد يقصدونه به، وإن كانوا يخالطونه بالمسالمة في كثير من الأحيان.

* تَنْبِيْهٌ:

وصف نوح عليه السَّلام قومه بالمكر، وهود عليه السلام قومه بالكيد، وهل بينهما فرق؟

والظاهر في الفرق أن المكر يكون مع إظهار المحبة، وإظهار البغض والعداوة؛ فإن هذا كان حال قوم نوح معه، والكيد لا يكون مع إظهار البغض، ومن هنا وصف النساء بالكيد، وكان منهن أبلغ، ووصفت إخوة يوسف عليه السلام بالكيد دون المكر.

وإنما قال تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾[يوسف: ٣١]، فوصفن بالمكر بالنسبة إلى ما فعلن معها من قولهن: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[يوسف: ٣٠] إلى آخره.

فكان ذلك غيبة لها أو لوماً، وذلك يكون في الغالب مع البغض؛ فإنه مناقض للمودة، وإنما أردن بذلك الحيلة في التوصل إلى مشاهدة يوسف، ومطالعة جماله.

ومن هنا قال يوسف عليه السَّلام حين كوشف بحالهن: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٣) فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣ ـ ٣٤].

وفي ذلك إشارة إلى أن الدعاء من أنفع شيء يصرف الكيد عن المكيد، وقد حفظ الله تعالى يوسف عليه السَّلام من كيد إخوته، ثم من كيد النسوة، إلا أنه صرف عنه كيدهن بطلب منه، وكيد إخوته بلا طلب؛ لأن كيدهم له كان بمحض الظلم، والله تعالى أولى بنصرة المظلوم وإن لم يسأل النصر، وكيد النسوة لم يكن محض ظلم، وإنما بعثهن عليه الشهوة والطمع.

ووجه آخر: وهو أن يوسف عليه السلام خشي على نفسه من كيد النساء لأنه يعلم أن الشهوة آخذة إليهن، فاستغاث بربه حتى طلب صرف كيدهن عنه ولو بالسجن، ولم يسأله أن يصرف عنه كيد إخوته مع قول أبيه له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥] لِمَا علم أن كيد الإخوة يكون بمجرد إغواء الشيطان، وكيد الشيطان ضعيف، مع أن شفقة الإخوة وازعة عن الكيد في الجملة فاعتمد عليها، فلم يطلب النجاة من

كيدهم، وكيد النساء عظيم لأن الباعث عليه الشهوة من قبلهن، ومن قبل من يكدنه؛ فافهم!

وقد يفرق بين المكر والكيد بأن الكيد يكون مع الضعف والقوة، والمكر لا يكون إلا مع القوة.

ومن هنا وصفت النسوة حين قلن عن امرأة العزيز ما قلن بالمكر؛ لأنهن لم يقلن ذلك حتى اجتمعن، وكن كما روي أربعين امرأة، وما كانت واحدة منهن تستطيع أن تقول ذلك لولا تقويهن بالاجتماع.

والكيد في نفسه قبيح، وعاقبته وخيمة إذا كان في التوصل إلى ما لا يرضى به الله من خيانة، أو ضرر لمسلم.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[يوسف: ٥٢].

وقال تعالى حكاية عن مشركي مكة: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[الطارق: ١٥ ـ ١٧].

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾[المرسلات: ٣٨ ـ ٣٩]؛ أي: كما كنتم تكيدون أوليائي في الدُّنيا.

وقال تعالى: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾[الأعراف: ١٨٣].

وإنما اختير الكيد هنا دون المكر؛ لأن إسباغ النعم عليهم يوهمهم الرضا عنهم، فكان طي النقمة في النعمة أبلغ كيد بأبلغ آية.

١٣ ـ ومن أخلاق عاد: الغفلة عن الموت والعقوبة، واستبعاد موعود الله تعالى.

كما دل عليه قولهم لهود عليه السَّلام: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الأعراف: ٧٠].

وقال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[المؤمنون: ٣٦ ـ ٣٧].

تقدم عن زيد بن أسلم قال: كان في الزمن الأول يمضي أربعمئة سنة لم يسمع فيها بجنازة.

قال بعض العلماء: كان هذا في زمن عاد.

قلت: وليس حال من أملي له بحيث كان يمكث الزمن الطويل لا يرى جنازة لقلة من يموت بأعجب من أحوالنا، ونحن في كل يوم نرى أو نسمع بعدة موتى ولا نتعظ، ولا نستيقظ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون: [من مخلّع البسيط]

لَـوْ أَنَّنَـا لا نَـرَى وَنَـسْمَعْ ... فِـي كُـلِّ يَـوْمٍ يـاتي بِمَـصْرَعْ
لَكَـانَ عُـذْراً لَنَـا إذا مَـا ... كَـانَ لَنَـا فِـي الْبَقَـاءِ مَطْمَـعْ
لَكِنَّمَـا الْمَـوْتُ كُـلَّ يَـوْمٍ ... يُؤْوِي الْوَرَى فِي الثَّرى وَيَجْمَعْ
وَإِنَّنَـا غَـافِلُوْنَ عَمَّـا ... قَـدْ هَـدَّ مِنـا الْقُـوى وَأَوْجَـعْ
حتَـامَ نَرْعَـوِي وَحَتَّـا ... م نُطِـعْ رَبَّنَـا وَنَخْـشَعْ

إِنَّ لَنـــا أَنْ نَـــرى اشْـــتِغالاً ... بِـــاللهِ عمّـــا سِـــواهُ أَنْفَـــعْ
الْحَمْـــــدُ لِلَّـــــهِ إِنَّ عَبْـــداً ... أَوَى حِمـــاهُ هُـــوَ الْمُمَنَّـــعْ

ومن لطـائف الآثـار: ما رواه ابن أبي الدنيـا في كتاب «قصر الأمل»، وابن حبان في كتاب «الثقات»، وأبو نعيم من طريقه عن أبي عبيدة الباجي قال: دخلنا على الحسن رحمه الله تعالى في مرضه الذي مات فيه، فقال: مرحباً بكم وأهلاً، وحياكم الله بالسَّلام، وأدخلنا وإياكم دار المقام، هذه علانية حسنة، إن صبرتم وصدقتم، وأيقنتم فلا يكن حظكم من هذا الخير أن تسمعوه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن؛ فإنه من رأى محمداً ﷺ فقد رآه غادياً ورائحاً، لم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، ولكن رفع له علم فشمر إليه، الوَحَاءَ الوَحَاءَ، النَّجَاءَ النَّجَاءَ علامَ تعرجون، أنتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معاً، رحم الله عبداً جعل العيش عيشاً واحداً، وأكل كسرة، ولبس خَلِقاً، ولزق بالأرض، واجتهد في العبادة، وبكى على الخطيئة، وهرب من العقوبة، وابتغى الرحمة حتى يأتي أجله وهو على ذلك[1].

١٤ ـ ومن أخلاق عاد: انتظار المحبوب والثواب اعتماداً على حسن الظن بالنفس، ونسيان العقوبة على سوء العمل.

ألا ترى حال عاد حين قالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[الأحقاف: ٢٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

وأنشد الدينوري في المجالسة لبعضهم: [من الوافر]

رَأَيْـتُ سَـحابَةً وَظَنَنْـتُ غَيْثـاً   وَأَغْفَلْتُ الَّذِي صَـنَعْتَ بِعـادِ[1]

وروى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في «الأم» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ما هبت ريح إلا جثا النبي ﷺ على ركبتيه، وقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رَحْمَةً وَلا تَجْعَلْهَا عَذَاباً، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحاً وَلا تَجْعَلْهَا رِيْحاً».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: في كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾[القمر: ١٩].

و﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾[الذاريات: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[الحجر: ٢٢].

﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾[الروم: ٤٦][2].

وروى أبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن النبي ﷺ كان إذا رأى ناشئاً في أفق السماء ترك العمل ـ وإن كان في صلاة ـ ثم يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا».

فإن مُطِرَ قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ صَيِّباً هَنِيَّاً»[3].

---

(١) انظر: «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (ص: ٤٦٢).

(٢) رواه الإمام الشافعي في «الأم» (١/ ٢٥٣).

(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٧٧٧)، وابن ماجه (٣٨٨٩). وروى البخاري (٩٨٥) نحوه.

وفي «صحيح مسلم» عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيْهَا، وَأَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيْهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ»[1].

وروى أبو داود، وابن ماجه بإسناد حسن، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرِّيْحُ مِن رَوْحِ اللهِ تَعَالَى؛ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوْهَا فَلا تَسُبُّوْهَا، وَاسْأَلُوْا اللهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيْذُوْا بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا»[2].

وروى ابن السني بإسناد صحيح، عن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اشْتَدَّتِ الرِّيْحُ فَقُوْلُوا: اللَّهُمَّ لَقْحاً لا عَقِيْماً»[3].

واللقح: الحاملة للماءِ؛ كاللقحة من الإبل.

والعقيم: التي لا ماء فيها كالعقيم من الحيوانات، وهي التي لا تلد.

وسب الريح مكروه؛ لأنها مرسلة بإرسال الله تعالى؛ تكون رحمة، وتكون عذاباً.

---

(١) رواه مسلم (٨٩٩).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٧)، وابن ماجه (٣٧٢٧). وحسن النووي إسناده في «الأذكار» (ص: ١٤٢).

(٣) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص: ٢٥٩)، وكذا ابن حبان في «صحيحه» (١٠٠٨). وصحح النووي إسناده في «الأذكار» (ص: ١٤٣).

١٥ ـ ومن أخلاق عاد: مكابرتهم، وتصميمهم على ما كانوا عليه من المعاصي مع مشاهدة الآيات، وملاحظة العقوبة، وعدم اتعاظهم بها.

كما تقدم أنهم لما جاءتهم الريح أخذ بعضهم بيد بعض، وجعلوا يشتدون، وأركزوا أقدامهم في الأرض، وقالوا لهود: من يزيل أقدامنا؟ فاقتلعتهم الريح.

فينبغي للإنسان إذا شاهد شيئاً من آيات الله تعالى من الرعد والبرق، والزلازل، واشتداد الرياح، والكسوف والخسوف، وغير ذلك أن يلزم الخوف والوَجَل، ويسأل الله تعالى أن يعيذه ويعافيه؛ فإن هذا هو المطلوب بإرسال الآيات كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[الإسراء: ٥٩].

ولا ينبغي له أن يعرض عن ذلك؛ فإن من أري الآية ليتأثر بها فلم يتأثر فقد ألحق نفسه بالجمادات، بل بالشياطين.

بل يؤمن بالذي تقوم السماء والأرض بأمره، يبدل الأرض غير الأرض والسموات، وينسف الجبال نسفاً، ويسيِّرها فتكون سراباً، فيعلم أنه قادر على كل ممكن، وعقوبة المعاصي من الممكنات المتكررات، فيخاف ويخشى، ويتعظ ويرعوي، ويتيقظ ويستوي.

وقد روى ابن أبي شيبة عن شهر رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ـ قال: زلزلت المدينة على عهد رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ رَبَّكُم يَسْتَعْتِبُكُمْ

فَأَعْتِبُوْهُ»[1]؛ أي: يطلب منكم العُتبى؛ يعني: الرجوع إلى ما يرضيه.

وروى البزار عن سمرة رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنْكُمْ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يَسْتَعْتِبُ بِهَا عِبَادَهُ لِيَنْظُرَ مَنْ يَخَافُهُ وَمَنْ يَذْكُرُهُ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ تعالى»[2].

وروى الشيخان عن المغيرة، والنسائيُّ عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنهم: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمْرَ لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَصَلُّوا وَادْعُوا رَبَّكُمْ حَتَّى يَكْشِفَ مَا بِكُمْ»[3].

وروى الإمام أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، والترمذي، والنسائي، والحاكم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللَّهُمَّ لا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ»[4].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨٣٣٤). قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٢/ ٩٤): هذا مرسل ضعيف.

(٢) رواه البزار في «المسند» (٤٦٣٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٠٨): فيه يوسف بن خالد، قال عنه في موضع آخر: كذاب.

(٣) رواه البخاري (١٠١١)، ومسلم (٩١٥) عن المغيرة رضي الله عنه.
ورواه النسائي (١٤٦٣) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ١٠٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٢١)، والترمذي (٣٤٥٠) وقال: غريب، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٧٦٣)، والحاكم في «المستدرك» (٧٧٧٢).

زاد النسائي: وقال: «سُبْحَانَ الَّذِيْ يُسَبِحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيْفَتِهِ».

ثم يقول: «إِنَّ هَذَا الْوَعِيْدَ لأَهْلِ الأَرْضِ شَدِيْدٌ»(١).

وروى الحاكم وصححه على شرط الشيخين، عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ قط مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لَهَواته، إنما كان يبتسم.

قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرِف في وجهه الكراهة، فقلت: يا رسول الله! الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهة؟

فقال: «يَا عَائِشَةُ! مَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُوْنَ فِيْهِ عَذَابٌ؟ قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيْحِ، وَقَدْ أَتَى قَوْماً الْعَذَابُ»، وتلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٤](٢).

والأحاديث في هذا الكتاب كثيرة.

والحاصل من ذلك أن من رأى من آيات الله تعالى العظيمة شيئاً ينبغي له أن يذكر الله تعالى ويخافه، ويتوب إليه، ويرجع عما كان عليه لينجو بما نجا هود عليه السلام ومن كان معه من قومه، كما روى

---

(١) لم أقف على هذه الزيادة عند النسائي، ورواها الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٩٢) من قول عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٧٠٠)، وكذا البخاري (٤٥٥١)، ومسلم (٨٩٩).

الدينوري عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال: لما أرسل الله تعالى الريح على عاد اعتزل هود عليه السلام ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين به جلودهم وتلتذه الأنفس، وإنها لتمر بالعادي فتحمله بين السماء والأرض، وتدمغه بالحجارة(١).

وكذلك نجَّا قوم يونس بالإيمان والتوبة عند رؤية الآية التي أنذرهم بها عليه السلام كما قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[يونس: ٩٨].

فإن أصر وتمادى في الضلال والعتو والعناد فقد هلك مع الهالكين، كما هلك قوم نوح وقوم هود في قرون آخرين.

* تَتِمَّةٌ:

من لطائف الآثار ما رواه الخِلَعِي في «فوائده» عن الهيثم بن عدي قال: أتي الحجاج بن يوسف برجل من الخوارج، فدخل عليه والحجاج يتغدى، فجعل الخارجي ينظر إلى حيطانه وما قد نجد، فجعل يقول: اللهم اهدم، اللهم اهدم، اللهم اهدم.

فقال له الحجاج: هيه! كأنك لا تدري ما يراد بك؟

فقال للحجاج: هيه! نزع الله ماضغيك، وما عليك لو دعوتني إلى طعامك؟ أما إن فيك ثلاث خصال مما نعت الله به عاداً؛ فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٤٨٤).

بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠].

فامتلأ الحجاج غيظاً، فأمر بقتله، فأخرجه الحرس إلى الرحبة ليقتلوه، فقال: دعوني أتمثل بثلاثة أبيات.

فقالوا: تمثل بما شئت.

فأنشأ يقول: [من المنسرح]

ما رَغْبَةُ النَّفْسِ فِي الْحَياةِ وَإِنْ ... عاشَتْ طَوِيلاً وَالْمَوْتُ لاحِقُها
أَوْ أَيْقَنَتْ أَنَّها لا تَعُودُ كَما ... كانَ بَراها بِالأَمْسِ خالِقُها
إِنْ لا تَمُتْ غِبْطَةً تَمُتْ هَرَماً ... لِلْمَوْتِ كَأْسٌ فَالْمَرْءُ ذائِقُها

ثم مد عنقه فضربت، فانصرف قاتلوه إلى الحجاج فأخبروه بقوله، فقال: لله دره ما كان أصرمَه في حياته، وعند وفاته.

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «العقوبات» عن يحيى بن يعلى رحمه الله تعالى قال: قال هود عليه السلام لقومه لما عبدوا الأصنام وعملوا بالمعاصي: يا قوم! إني بعثة الله إليكم، وزعيمه فيكم، فاتقوه بطاعته، وأطيعوه بتقواه؛ فإن المطيع لله يأخذ من نفسه لنفسه بطاعة الله رضا اللهِ، وإن العاصي له يأخذ من نفسه لنفسه بمعصية الله سَخَطَ اللهِ، وإنكم من أهل الأرض، والأرض تحتاج إلى السماء، والسماء تستغني عن الأرض، فأطيعوا الله تستطيبوا حياتكم وتأمنوا ما بعدها، وإن الأرض العريضة تضيق عن البعوضة بسخط الله.

وفي المعنى قلت: [من المديد]

إِيَّـاكَ عِـصْيانَ مَـنْ تَعـالَى تَكُـنْ بِعِـصْيانِهِ بَغِيْـضَه

فَـالأَرْضُ مَـعْ أَنَّهـا عَرِيْـضَةٌ تَـضِيْقُ بِالـسُّخْطِ عَـنْ بَعُوْضَـه

وقال المعافى بن زكريا في «الأنيس والجليس»: حدثنا محمد ابن القاسم الأنباري، حدثني أبي قال: سمعت أحمد بن عبيد، عن المدائني قال عبد الملك بن عمير: عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن في ولاية أبي بكر الصِّديق رضي الله تعالى عنه، فأبرز لنا عن باب البلق وهو الرخام، فظنناه كنزاً، فكتبنا إلى أبي بكر نعلمه، فكتب إلينا: لا تحركوه حتى يقدم عليكم أمناء من قبلي، قال: فلما قدم أمناؤه فتحناه، فإذا نحن برجل على سرير طوله سبعة عشر ذراعاً، وعليه سبعون حلة منسوجة بالذهب، وفي يده اليمنى لوح، وفي يده اليسرى محجن، وفي اللوح مكتوب ما هذه ترجمته: [من الوافر]

إِذا خـانَ الأَمِـيْنُ وَكاتِبـاهُ وَقاضِـي الأَرْضِ داهَنَ فِي الْقَضاءِ

فَوَيْـلٌ ثُـمَّ وَيْـلٌ ثُـمَّ وَيْـلٌ لِقاضِـي الأَرْضِ مِنْ قاضِـي السَّماءِ

قال: وإذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقل، وعلى السيف مكتوب: هذا سيف هود بن عاد بن إرم(١).

وروى أبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان

---

(١) رواه المعافى بن زكريا في «الجليس الصالح والأنيس الناصح» (ص: ٤٦٥).

عمر هود عليه السلام أربعمئة سنة واثنتين وسبعين سنة[1].

وروى ابن عساكر عن سالم بن أبي الجعد، عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: ذكر الأنبياء عليهم السلام عند النبي ﷺ، فلما ذكر هود عليه السلام قال: «ذَاكَ خَلِيْلُ اللهِ»[2].

وفيه دليل على أن الخلة لم تختص بإبراهيم عليه السلام ـ وإن كانت فيه أظهر ـ.

أو كانت خلته بمظهر الرحمة، ومن هنا سمي خليل الرحمن.

وثبت في «الصحيح»: أن النبي ﷺ قال عن نفسه: «وَإِنَّ صَاحِبَكُم خَلِيْلُ اللهِ»[3].

وروى الإمام أحمد، وأبو يعلى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما حج رسول الله ﷺ مرَّ بوادي عُسفان فقال: «لَقَدْ مَرَّ بِهِ هُوْدٌ وَصَالِحٌ عَلَىْ بَكَرَاتٍ حُمْرٍ، خُطُمُهُنَّ اللِّيْفُ، أُزُرُهُمُ الْعَبَاءُ، وَأَرْدِيَتُهُمُ النِّمَارُ، يُلَبُّونَ وَيَحُجُّوْنَ الْبَيْتَ الْعَتِيْقَ»[4].

وروى ابن عساكر عن ابن سابط قال: بين المقام والركن وزمزم

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٨٨).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٨٧)، وكذا ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٧٨٠).

(٣) رواه مسلم (٢٣٨٣) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٣٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٢٠): رواه أحمد، وفيه زمعة بن صالح، وفيه كلام وقد وثق.

قبر تسعة وسبعين نبياً، وإن قبر نوح، وهود، وشعيب، وصالح، وإسماعيل عليهم السلام في تلك البقعة(١).

وروى البخاري في «تاريخه»، وابن جرير، وابن عساكر عن علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: قبر هود عليه السلام بحضرموت في كثيب أحمر، عند رأسه سدرة(٢).

وروى ابن سعد، وابن عساكر عن إسحاق بن عبدالله بن أبي فروة قال: ما يعلم قبر نبي من الأنبياء إلا ثلاثة: قبر إسماعيل عليه السلام؛ فإنه تحت الميزاب بين الركن والبيت.

وقبر هود عليه السلام؛ فإنه في حقف تحت جبل من جبال اليمن عليه شجرة، وموضعه أشد الأرض حراً(٣).

وروى ابن عساكر عن عثمان بن أبي العاتكة قال: قبلة مسجد دمشق قبرُ هود عليه السلام(٤).

وروى الزبير بن بكار في «الموفقيات» عن عبدالله بن عمرو بن

---

(١) روى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٨٨) الشطر الثاني منه، وانظر: «الدر المنثور» (٣/ ٤٨٧).

(٢) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١٣٥)، والطبري في «التفسير» (٨/ ٢١٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٦/ ١٣٩).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٥٢)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٨٧).

(٤) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٨٨).

العاص رضي الله تعالى عنهما قال: عجائب الدنيا أربعة: مرآة كانت معلقة بمنارة الإسكندرية، وكان يجلس الجالس تحتها فيبصر من القسطنطينية، وبينهما عرض البحر.

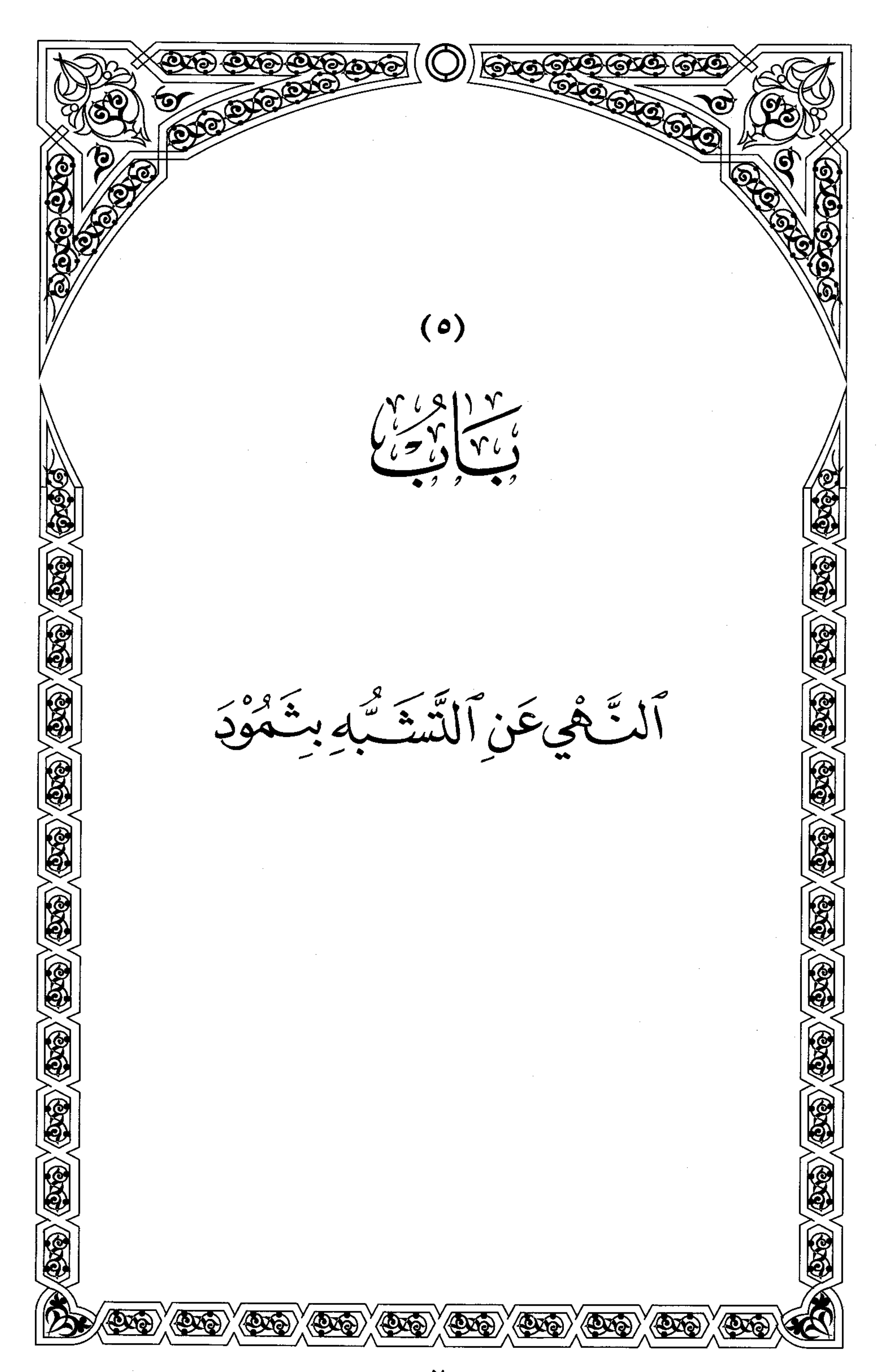
وفرس كانت من نحاس بأرض الأندلس قائلاً بكفه كذا، باسطاً يده؛ أي: ليس خلفي مسلك، فلا يطأ تلك البلاد واحد إلا أكلته النمل.

ومنارة من نحاس عليها راكب من نحاس بأرض عاد؛ فإذا كانت الأشهر الحرم هطل منها الماء فشرب الناس، وسقوا وصبوا في الحياض، فإذا انقطعت الأشهر الحرم انقطع ذلك الماء.

وشجرة من نحاس عليها سودانية من نحاس بأرض رومية؛ إذا كان أوان الزيتون صفرت السودانية التي من نحاس، فتجيء كل سودانية من الطيارات بثلاث زيتونات؛ زيتونتين برجليها، وزيتونة بمنقارها، حتى تلقيه على تلك السودانية النحاس، فيعصر أهل رومية ما يكفيهم لإدامهم وسرجهم شتويتَهم إلى قابل[1].

❐ ❐ ❐

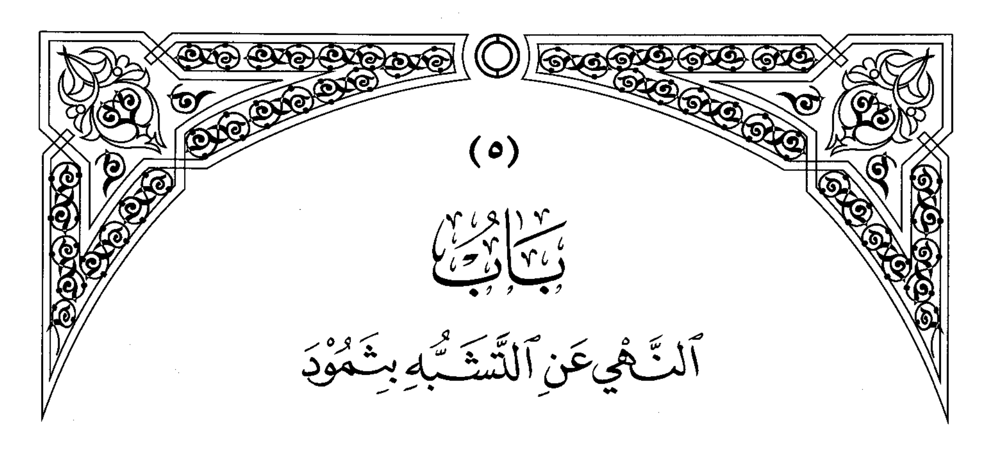
(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٨٨).



(٥)

بَابُ

ٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلتَّشَبُّهِ بِثَمُودَ



وكانوا أول من هلك بطاعة النساء.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾[الإسراء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾[الأعراف: ٧٣] الآيات.

وكان صالح عليه السلام أخاهم في النسب لا في الدِّين.

وذكر ابن إسحاق، وغيره: أن عاداً لما هلكت وتقضَّى أمرها، عمِّرت ثمود بعدها، واستخلفوا في الأرض، فنموا فيها، وكثروا وعمروا حتَّى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل منهم حي، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً، وكانوا في سعة من معاشهم، فعتوا عن أمر ربهم، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا غير الله تعالى، فبعث الله إليهم صالحاً عليه السلام وهو شاب، فدعاهم إلى الله ﷻ حتى شمط لا يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون، فلما ألح عليهم بالدعاء والتبليغ، وأنذرهم وَحذرهم، سألوه أن يريهم آية، فقال لهم: أي آية تريدون؟

قالوا: تخرج معنا غداً إلى عيدنا ـ وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم في يوم معلوم من السنة ـ تدعو إلهك، وندعو آلهتنا؛ فإن استجيب لك اتبعناك.

فقال لهم صالح: نعم.

فخرجوا، فدعَوا أوثانهم، وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به.

ثم قال قائلهم لصالح: ادع لنا ربك يخرجْ لنا من هذه الصخرة ـ عن صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها: الكاثبة ـ ناقةً مخترجة؛ وهي ما شاكل البخت جوفاء وبراء، فنؤمن لك ونصدق.

فدعا الله تعالى، فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، ثم انصدعت عن ناقة بالصفة التي ذكروا لا يعلم ما بين جنبيها عظماً إلا الله تعالى، ثم نتجت سقباً مثلها في العظم، فآمنت به طائفة من قومه، وهمَّ أكثرهم أن يؤمنوا فمنعهم أشرافهم.

قال لهم صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾[الشعراء: ١٥٥ ـ ١٥٦]، فكانت تعمهم بلبنها وخيرها، وكانت ربما أضرت بمواشيهم، ومنعتها المشتا والمصيف، وكان ممن تضرر منها امرأتان يقال لإحداهما: عنيزة بنت غنم، وكانت عجوزاً مسنة، لكنها كانت ذات مال وماشية وبنات حسان.

[و]كان يقال للثانية: صدوف بنت المحيا، وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام، وأحرصهم على عَقر الناقة، فدعت صدوف ابن عم لها يقال له:

مصدع بن مُهَرجِ بن المحيا، وجعلت له نفسها إن عقر الناقة، ودعَت عنزة رجلاً من ثمود يقال له: قَدَّار بن سالف ـ زعموا أنه كان ابن زنا، ولم يكن من سالف ولكن ولد على فراشه ـ وجعلت له أي بناتها شاء إن عقر الناقة، فانطلق هو ومصدعٍ، واستغويا غواة ثمود، فاتبعهم سبعة نفر، وكانوا تسعة رهط، فانطلقوا ورصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء، وكَمَن لها قدار في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في طريق آخر، فمرت على مصدع فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها، ثم خرجت عنيزة فَأمرت إحدى بناتها أن تسفر لقدار خشية أن يجبن عن عقر الناقة، فكشف عرقوبها فخرت، فبعث الله العذاب على ثمود في ثلاثة أيام، فهلكوا[1].

والقصة مفصلة في محالِّها، وهذا ملخصها.

وروى ابن جرير، والحاكم في «المستدرك»، وغيرهما عن عمرو ابن حارثة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «كَانَتْ ثَمُوْدُ قَوْمُ صَالِحٍ أَعْمَرَهُمُ اللهُ فِيْ الدُّنْيَا، فَأَطَالَ أَعْمَارَهُمْ حَتَّى جَعَلَ أَحَدُهُمْ يَبْنِي السَّكَنَ مِنَ الْمَدَرِ، فَيَنْهَدِمُ وَالرَّجُلُ مِنْهُمْ حَيٌّ، فَلَمَّا رَأَوا ذَلِكَ اتَّخَذُوْا مِنَ الْجِبَالِ بُيُوْتاً، فَنَحَتُوْهَا وَجَابُوْهَا، وَخَرَّقُوْهَا، وَكَانُوْا فِيْ سَعَةٍ مِنْ مَعَايشِهِم، فَقَالُوْا: يَا صَالِحُ! ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا آيَةً نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُوْلُ اللهِ، فَدَعَا صَالِحُ رَبَّهُ فَأَخْرَجَ لَهُمْ آيَةً، فَكَانَ شِرْبُهَا يَوْماً

(١) انظر: «تاريخ الطبري» (١/ ١٣٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٥١٢)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٥٢).

وَشِرْبُهُمْ يَوْماً مَعْلُوْماً، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ شِرْبِـهَا خَلَّوا عَنْهَا وَعَنِ الْمَاءِ، وَحَلَبُوْهَا لَبَناً مَلؤوا مِنْهُ كُلَّ إِنَاءٍ وَوِعَاءٍ وَسِقَاءٍ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ شِرْبِـهِم صَرَفُوْهَا عَنِ الْمَاءِ فَلَمْ تَشْرَبْ مِنْهُ شَيْئاً، فَمَلَؤوا كُلَّ إِنَاءٍ وَوِعَاءٍ وَسِقَاءٍ، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى صَالِحٍ: إِنَّ قَوْمَكَ سَيَعْقِرُوْنَ نَاقَتَكَ، فَقَالَ لَهُمْ، فَقَالُوا: مَا كُنَّا لِنَفْعَلَ.

فَقَالَ: إِنْ لا تَعْقِرُوْهَا أَنْتُمْ يُوْشِكُ أَنْ يُوْلَدَ فِيْكُمْ مَوْلُوْدٌ يَعْقِرُهَا.

قَالُوْا: فَمَا عَلامَةُ ذَلِكَ الْمَوْلُوْدِ؟ فَوَاللهِ لا نَجِدُهُ إِلاَّ قَتَلْنَاهُ.

قَالَ: فَإِنَّهُ غُلامٌ أَشْقَرُ، أَزْرَقُ، أَصْهَبُ، أَحْمَرُ.

وَكَانَ فِيْ الْمَدِيْنَةِ شَيْخَانِ عَزِيْزَانِ مَنِيْعَانِ لأَحَدِهِمَا ابْنٌ يَرْغَبُ بِهِ عَنِ النَّاكِحِ، وَلِلآخِرِ ابْنَةٌ لا يَجِدُ لَهَا كُفُؤاً، فَجَمَعَ بَيْنَهُمَا مَجْلِسٌ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِـهِ: مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُزَوِّجَ ابْنَكَ؟

فَقَالَ: لا أَجِدُ لَهُ كُفُؤاً.

قَالَ: فَإِنَّ ابْنَتِيَ كُفُؤٌ لَهُ، فَأَنَا أُزَوِّجُكَ.

فَزَوَّجَهُ، فَوَلَدُ بَيْنَهُمَا ذَلِكَ الْمَوْلُوْدُ، وَكَانَ فِيْ الْمَدِيْنَةِ ثَمَانِيَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُوْنَ فِيْ الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُوْنَ، فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ صَالِحُ: إِنَّمَا يَعْقِرُهَا مَوْلُوْدٌ فِيْكُمْ اخْتَارُوْا ثَمَانِي نِسْوَةٍ قَوَابِـلَ مِنَ الْقَرْيَةِ، وَجَعَلُوْا مَعَهُنَّ شُرَطاً، كَانُوْا يَطُوْفُوْنَ فِيْ الْقَرْيَةِ، فَإِذَا وَجَدُوْا الْمَرْأَةَ تَمخضُ نَظَرُوا إِلَى وَلَدِهَا؛ إِنْ كَانَ غُلاماً قَلَبْنَهُ فَنظَرُوْا مَا هُوَ، وَإِنْ كَانَتْ جَارِيَةً أَعْرَضْنَ عَنْهَا، فَلَمَّا وَجَدُوْا ذَلِكَ الْمَوْلُوْدَ صَرَخَ النِّسْوَةُ: هَذَا الَّذِيْ يُرِيْدُ

رَسُوْلُ اللهِ صَالِحُ، فَأَرَادَ الشُّرَطَ أَنْ يَأْخُذُوْهُ، فَحَالَ جَدَّاهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وَقَالا: لَوْ أَنَّ صَالِحاً أَرَادَ هَذَا قَتَلْنَاهُ.

فَكَانَ شَرَّ مَوْلُوْدٍ، وَكَانَ يَشُبُّ فِيْ الْيَوْمِ شَبَابَ غَيْرِهِ فِيْ جُمْعَةٍ، وَيَشُبُّ فِي جُمُعَةٍ شَبَابَ غَيْرِهِ فِي الشَّهْرِ، وَيَشُبُّ فِيْ الشَّهْرِ شَبَابَ غَيْرِهِ فِي السَّنَةِ، فَاجْتَمَعَ الثَّمَانِيَةُ الَّذِيْنَ يُفْسِدُوْنَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُوْنَ، فَقَالُوْا: اسْتَعْمِلُوْهُ عَلَيْنَا لِمَنْزِلَتِهِ وَشَرَفِ جَدَّيْهِ، فَكَانُوْا تِسْعَةً، وَكَانَ صَالِحُ عَلَيْهِ السَّلامُ لا يَنَامُ مَعَهُمْ فِيْ الْقَرْيَةِ، كَانَ يَبِيْتُ فِي مَسْجِدِهِ، فَإِذَا أَصْبَحَ أَتَاهُمْ، فَوَعَظَهُمْ وَذَكَّرَهُمْ، وَإِذَا أَمْسَى خَرَجَ إِلَى مَسْجِدِهِ فَبَاتَ فِيْهِ.

قَالَ: وَأَرَادُوْا أَنْ يَمْكُرُوا بِصَالِحَ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَمَشَوْا عَلَى شُرفِ طَرِيْقِ صَالِحٍ، فَاخْتَبَأَ فِيْهِ ثَمَانِيَةٌ، وَقَالُوْا: إِذَا خَرَجَ عَلَيْنَا قَتَلْنَاهُ، وَأَتَيْنَا أَهْلَهُ فَبَيَّتْنَاهُمْ.

فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى الأَرْضَ فَاسْتَوَتْ عَلَيْهِمْ، فَاجْتَمَعُوْا وَمَشَوْا إِلَى النَّاقَةِ وَهِيَ عَلَى حَوْضِـهَا قَائِمَةٌ، فَقَالَ الشَّقِيُّ لأَحَدِهِمْ: ائْتِهَا فَاعْقِرْهَا، فَأَتَاهَا، فَتَعَاظَمَهُ ذَلِكَ، فَأَضْرَبَ عَنْ ذَلِكَ، فَبَعَثَ آخَرَ فَأَعْظَمَهُ ذَلِكَ، فَبَعَثَ فَجَعَلَ لا يَبْعَثُ رَجُلاً إِلاَّ تَعَاظَمَهُ أَمْرُهَا حَتَّىٰ مَشَىٰ إِلَيْهَا، وَتَطَاوَلَ فَضَرَبَ عُرْقُوْبَهَا، فَوَقَعَتْ، فَرَكَضَ فَرَأَى رَجُلٌ مِنْهُمْ صَالِحاً، فَقَالَ: أَدْرِكِ النَّاقَةَ فَقَدْ عُقِرَتْ، فَأَقْبَلَ وَخَرَجُوْا يَتَلَقَّوْنَهُ وَيَعْتَذِرُوْنَ: يَا نَبِيَّ اللهِ! إِنَّمَا عَقَرَهَا فُلانُ، إِنَّهُ لا ذَنْبَ لَنَا.

قَالَ: فَانْظُرُوْا هَلْ تَدْرُكُوْنَ فَصِيْلَهَا؟ فَإِنْ أَدْرَكْتُمُوْهُ فَعَسَى اللهُ أَنْ

يَرْفعَ عَنْكُمُ الْعَذَابَ.

فَخَرَجُوْا يَطْلُبُوْنَهُ، فَلَمَّا رَأَى أُمَّهُ تَضْطَرِبُ أَتَىٰ جَبلاً يُقَالُ لَهُ: الْقَارَّةُ قَصِيْرَاً، فَصَعِدُوا وَذَهَبُوا لِيَأْخُذُوْهُ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى الْجَبْلِ فطَالَ فِي السَّمَاءِ حَتَّىٰ مَا تَنَالُهُ الطَّيْرُ، وَدَخَلَ صَالِحُ الْقَرِيَةَ، فَلَمَّا رَآهُ الْفَصِيْلُ بَكَى حَتَّىٰ سَالَتْ دُمُوْعُهُ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ صَالِحَاً، فَرَغَا رَغْوَةً، ثُمَّ رَغَا أُخْرَى، ثُمَّ رَغَا أُخرَى، فَقَالَ صَالِحُ لِقَوْمِهِ: لِكُلِّ رَغْوَةٍ أَجَلٌ، فَتَمَتَّعُوْا فِيْ دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّام، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوْب.

أَلا إِنَّ آيَةَ الْعَذَابِ تصْبحُ وُجُوْهُكُمْ مُصْفَرَّةً، وَالْيَوْم الثَّانِي مُحْمَرَّةً، وَالْيَوْم الثَّالِثِ مُسْودَّةً، فَلَمَّا أَصْبَحُوْا إِذَا وُجُوْهُهُمْ كَأَنَّهَا طُلِيَتْ بِالْخَلُوْقِ؛ صَغِيْرُهُمْ وَكَبِيْرُهُمْ، ذَكَرُهُمْ وَأُنْثَاهُمْ، فلَمَّا أَمْسَوْا صَاحُوْا بِأَجْمَعِهِمْ: أَلا قَدْ مَضَىٰ يَوْمٌ مِنَ الأَجَلِ، وَحَضَرَكُمُ الْعَذَابُ، فَلَمَّا أَصْبَحُوْا الْيَوْمَ الثَّانِيْ إِذَا وُجُوْهُهُمْ مُحْمَرَّةٌ كَأَنَّهَا خُضِبَتْ بِالدِّمَاءِ، فَصَاحَوْا، وَضَجُّوْا، وَبَكَوْا، وَعرَفُوْا أَنَّهُ الْعَذَابُ، فَلَمَّا أَمْسَوْا صَاحَوْا بِأَجْمَعِهِمْ: أَلا قَدْ مَضَى يَوْمَانِ مِنَ الأَجَلِ وَحَضَرَكُمُ الْعَذَابُ، فَلَمَّا أَصْبَحُوْا الْيَوْمَ الثَّالِثَ قَامُوْا وَوُجُوْهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ كَأَنَّمَا طُلِيَتْ بِالْقَارِ، فَصَاحَوْا جَمِيْعَاً: أَلا وَقَدْ حَضَرَكُمُ الْعَذَابُ فتَكَفَّنُوْا وَتَحَنَّطُوْا، وَكَانَ حَنُوْطُهُمُ الصَّبْرُ وَالْمَغِرَةُ، وَكَانَتْ أَكْفَانُهُمْ الأَنْطَاع، ثُمَّ أَلْقَوْا أَنْفُسَهُمْ بِالأَرْضِ فَجَعَلُوْا يَقَلِّبُوْنَ أَبْصَارَهُمْ فَيَنْظِرُوْنَ إِلَى السَّمَاءِ مَرَّةً، وَإِلَى الأَرْضِ مَرَّةً، فَلا يَدْرُوْنَ مِنْ أَيْنَ يَأْتِيْهِمُ الْعَذَابُ؛ مِنْ فَوْقِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْ

الأَرْضِ، خَسْفاً أَوْ قَذْفاً، فَلَمَّا أَصْبَحُوْا الْيَوْمَ الرَّابِـعَ أَتَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيْهَا كُلُّ صَاعِقَةٍ، وَصَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ صَوْتٌ فِيْ الأَرْضِ، فَتَقَطَّعَتْ قُلُوْبُهُمْ فِيْ صُدُوْرِهِمْ، فَأَصْبَحُوْا فِيْ دِيَارِهِمْ جَاثِمِيْنَ»[١].

وروى البخاري عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عَجَنَّا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين، ويهريقوا ذلك الماء[٢].

وعن نافع، عن ابن عمر: فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بيارها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة[٣].

وعن سالم بن عبدالله، عن أبيه: أن النبي ﷺ لما مر بالحجر قال: «لا تَدْخُلُوا مَساكِنَ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا إلاَّ أَنْ تَكُونُوا باكِيْنَ أَنْ يُصِيْبَكُمْ ما أَصابَهُمْ»، ثم تقنَّع بردائه وهو على الرحل[٤].

وقال عبد الرزاق: عن معمر: ثم قنع رأسه، وأسرع حتى جاوز الوادي[٥].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ٦٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٦٩).

(٢) رواه البخاري (٣١٩٨).

(٣) رواه البخاري (٣١٩٩).

(٤) رواه البخاري (٣٢٠٠).

(٥) رواه البخاري (٤١٥٧).

وفي ذلك دليل على استحباب التقنع والإسراع لمن مر بمقابر الكفار، وأماكن الكفر، ومواقع العذاب، وعلى كراهية الدخول إلى ديار الكفار والظالمين فضلاً عن استيطانها إلا أن يكون الداخل إليها باكياً معتبراً.

وقد دل على إباحة النظر إليها على وجه الاعتبار قوله تعالى حكاية عن ثمود: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[النمل: ٥٢].

وإذا كان النبي ﷺ قد نهى عن دخول مساكن ثمود وأمثالهم إلا لمن كان باكياً وجِلاً معتبراً فما ظنك بالتشبه بهم فيما انطووا عليه وقد كانوا على خبائث؟

١ ـ فمنها: الكفر، والتكذيب، وعبادة الأوثان، والزنا.

كما تقدم نظائر ذلك في قوم نوح، وهود عليهما السَّلام.

٢ ـ ومنها: محاجة أهل الحق في أصول الديانات ميلاً مع الهوى.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾[النمل: ٤٥].

قال قتادة: إذا القوم بين مصدق بالحق ونازل عنده، ومكذب بالحق وتاركه؛ في ذلك كانت خصومتهم[1].

وقال مجاهد في قوله: ﴿فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾[النمل: ٤٥]:

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٨٩٨).

مؤمن وكافر، قولهم: صالح مرسل من ربه، وقولهم: ليس بمرسل. رواهما عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وغيرهم[1].

وقد بين الله تعالى من خصومتهم، فقال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦].

والمخاصمة في الباطل مذمومة.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾[البقرة: ٢٠٤] الآيات.

وروى الشيخان، والترمذي، والنسائي عن عائشة رضي الله تعالى عنها، عن النبي ﷺ قال: «أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِيْمُ»[2].

وروى الترمذي، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كَفَى بِكَ إِثْماً أَنْ لا تَزَالَ مُمَارِياً، وَكَفَى بِكَ ظَالِماً أَنْ لا تَزَالَ مُخَاصِماً، وَكَفَى بِكَ كَاذِباً أَلاَّ تَزَالَ مُحَدِّثاً إِلاَّ حَدِيْثاً فِيْ ذَاتِ اللهِ ﷻ»[3].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ١٧٠)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٨٩٨).

(٢) رواه البخاري (٢٣٢٥)، ومسلم (٢٦٦٨)، والنسائي (٥٤٢٣)، وعندهم: «الخَصِم» بدل «الخصيم».

(٣) رواه الترمذي (١٩٩٤) وقال غريب، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٤٣٣). لكن روى منه الترمذي فقط: «كفى بك إثماً أن لا تزال =

٣ ـ ومنها: الأخذ بالرأي في مصادمة النص.

وروى الخطيب البغدادي في كتاب «شرف أصحاب الحديث» عن أبي بكر أحمد بن عبد الرحمن النسفي المقرىء قال: كان مشايخنا يسمون أبا بكر بن إسماعيل أبا ثمود؛ لأنه كان من أصحاب الحديث، فصار من أصحاب الرأي؛ يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[فصلت: ١٧][1].

قلت: وهذا استنباط حسن.

أو معنى: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾: دلَلْناهم على الحق والخير بنبينا صالح، فكان ينص الدين لهم عن وحي، وهم يختارون رأي أنفسهم على نصه والاقتداء به، ولذلك قال الله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾[هود: ٦٣].

والبينة هي المشافهة بالوحي المفيدة لليقين، ومكافحة الحق.

وقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾[هود: ٦٣]؛ أي: بمخالفة الوحي.

ففيه تربية لهم، وتخويف من العصيان الحاصل بمخالفة النص.

= مخاصماً»، وزاد البيهقي: «كفى بك إثماً أن لا تزال ممارياً».
ورواه بلفظ الأصل: الدارمي في «السنن» (٢٩٣) عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(١) رواه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٥٧)

٤ ـ ومنها: بغض الناصحين، والأنفة من قول النصيحة.

قال تعالى حكاية عن صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

ذكر الحارث بن أسد المحاسبي في بعض كتبه: أن عمر رضي الله تعالى عنه كان يقول: لا خير في قوم لا يكونون ناصحين، ولا خير في قوم لا يحبون الناصحين[1].

وروى البيهقي في «الشعب» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إن من أكبر الذنب عند الله تعالى أن يقول الرجل لأخيه: اتق الله، فيقول: عليك بنفسك؛ أنت تأمرني[2]؟

٥ ـ ومنها: طاعة المترفين والمفسدين، وموافقتهم على ما هم عليه.

قال الله تعالى حكاية عن صالح عليه السَّلام: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

وإنما أكده بقوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ إشارة أن فسادهم مصمت لا صلاح معه، وليس لهم خصلة صالحة.

قال في «الكشاف»: استعير لامتثال الأمر، وارتسامه طاعة الآمر

---

(١) انظر: «رسالة المسترشدين» للمحاسبي (ص: ٧١).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٢٤٦).

المطاع؛ إذ جعل الأمر مطابقاً على المجاز الحكمي، والمراد الآمر، ومنه قولهم: علي إمرة مطاعة، انتهى[1].

وفيه من المبالغة ما لا يخفى؛ فإنه يدل على أن أمرهم صار أمراً متعارفاً فيهم بحيث لا يحيدون عن طريقه، ولا يأخذون في أمر يخالفه.

ومن هذا القبيل عصيان الأمر، ولذلك جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾[طه: ٩٠ ـ ٩٣].

فوقع عصيان الأمر في كلام موسى عليه السلام كما وقعت طاعة الأمر في كلام أخيه عليهما السلام، وهو أبلغ من طاعة الآمر وعصيان الْمَعْصِيِّ.

و أيضاً في النهي عن طاعة أمر المسرفين النهي عن التشبه بهم في أمرهم ـ وإن غابوا أو هلكوا ـ فإنه مذموم مطلقاً، سواء كان الحامل عليه رجاؤهم إياهم وخوفهم منهم، أو استحسان أمرهم وموافقتهم في رأيهم.

وقد أخبر الله ﷻ في كتابه بأن هلاك كل قرية كان من مكر أكابرهم، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[الأنعام: ١٢٣].

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ٣٣٣).

وإنما خصص الأكابر لأنه أقوى على استتباع الناس والمكر بهم، والناس يتبعونهم ما لا يتبعون غيرهم؛ إما رغبة فيما عندهم، وإما رهبة منهم.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾[الإسراء: ١٦].

أي: أمرناهم بالطاعة، فحملتهم الأنفة على المخالفة والفسق، وإنما خصهم بذلك لأنهم أسرع إلى الحماقة، وأقدر على الفجور ابتلاء من الله تعالى لهم وبهم.

ومن هنا جعل بعضهم قوله: ﴿أَمَرۡنَا﴾ منقولاً من أمرنا لهم إمارة، أو جعلناهم أمراً، واستدل له بقراءة يعقوب: «آمرنا» ـ بالمد ـ، والرواية عن أبي عمرو: «وأمَّرنا» ـ بالتشديد ـ[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾[هود: ٥٩].

فنص على أنهم اتبعوا أكابرهم، فهلكوا وأبعدوا كما قال: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾[هود: ٦٠].

وشتَّان بين اتباع الأخيار واتباع الأشرار.

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٨٢)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٥/ ١٩).

ولقد قلت: [من الرَّمل]

إِنَّمــا كــانَ هَــلاكُ الْغابِــرِيْنَ ... بِــاتِّباعِ الْقَــوْمِ أَمْـرَ الْمُفْسِدِيْنَ
كَــمْ وَكَــمْ مِــنْ قَرْيَــةٍ مــا دُمِّـرَتْ ... أَهْلُهــا إِلاَّ بِـفِــسْقِ الْمُتْــرَفِيْنَ
فَــاعْتَزِلْ عَــنْهُمْ وَلا تَمْـشِ عَلَــى ... ما مَشَوْا وَاسْلُكْ طَرِيْقَ الْعارِفِيْنَ
قادَةٌ فِي الْخَيْرِ مَنْ يَسْلُكْ عَلـى ... سَمْتِهِمْ يَقْفُ الْكِـرامَ الـسَّالِفِيْنَ
فَاتَّصِفْ ما كانَ فِي وَصْفِ الْهُدى ... غُنْيَـةٌ دُونَ اتِّـصافِ الْواصِـفِيْنَ

٦ ـ ومن أخــلاق ثمود: التطير بأهـل الخير واليُمن، أو مطلق الطيرة والتشاؤم.

قــال الله تعــالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٥ ـ ٤٧].

وكــانوا قد قحطـوا ومنعـوا المطر، فقــالوا: ما منعنـا الغيث إلا بسبب صالح ومَنْ تبِـعه.

وفي الحديث: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ». رواه الإمام أحمد، وأصحاب السنن عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه[1].

وروى الطبراني في «الكبير» عن عمران بن حصين رضي الله تعالى

---

(١) تقدم تخريجه.

عنه: أن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ وَلا مَنْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ»(١).

٧ ـ ومنها: طاعة النساء.

فإن قدار ومصدعاً إنما حملهما على عقر الناقة طاعتهما لصدوف وعنيزة.

ومن هنا كان عاقر الناقة أشقى الأولين كما قال تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾[الشمس: ١٢].

وقاتل علي رضي الله تعالى عنه أشقى الآخرين، كما رواه الطبراني، وأبو يعلى بسند جيد، من حديث صهيب رضي الله تعالى عنه(٢)؛ لأنهما اشتركا في أن الحامل لكل منهما على ما فعل طاعة النساء.

أما عاقر الناقة فقد علمت، وأما قاتل علي فهو عبد الرحمن بن مُلجم المرادي سافر من مكة إلى الكوفة ليقتل علياً رضي الله عنه، فلقي بها امرأة من تيم الرباب يقال لها: قطام بنت الشحنة، وقد قتل علي رضي الله تعالى عنه أباها وأخاها يوم النهروان، وكانت فائقة في الجمال، فلما رآها التبست بعقله ونسي حاجته التي جاء لها، فخطبها فأبت عليه إلا أن يجهز

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٣١١)، وأبو يعلى في «المسند» (٤٨٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٣٦): وفيه رشدين بن سعد، وقد وثق، وبقية رجاله ثقات.

إليها ثلاثة آلاف، وعبداً وقينة، ويقتل علياً رضي الله تعالى عنه، وقالت: إن أصبته شفيت نفسك ونفسي، ونفعك معي العيش، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا.

فقال: ما جاء بي إلى المصر إلا قتل علي، ثم شد عليه وهو رضي الله تعالى عنه في صلاة الصبح فضربه، ثم قتل ابن ملجم الملعون الخبيث، ولم يظفر بما طلب من نكاح قطام الخبيثة[1].

وروى القضاعي، وابن عساكر عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن النبي ﷺ قال: «طَاعَةُ النِّسَاءِ نَدَامَةٌ»[2].

وروى ابن عدي نحوه من حديث زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنهم[3].

وروى الدارقطني في «الأفراد» عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «لا يَزَالُ الرِّجَالُ بِـخَيْرٍ مَا لَمْ يُطِيْعُوْا النِّسَاءَ»[4].

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ٣٦).

(٢) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢٢٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٣/ ١٤١)، وكذا ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٢٦٢) وقال: لم يروه عن هشام إلا ضعيف.

(٣) رواه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ٢٦٢) في ترجمة عنبسة بن عبد الرحمن، وقال: هو منكر الحديث.

(٤) رواه الدارقطني في «الأفراد» كما في «أطراف الغرائب والأفراد» لابن طاهر المقدسي (٥/ ٢٨٢) وقال: وهو وهم، والصواب: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر».

٨ ـ ومنها: الوقوع في المعصية والإثم والبلاء رغبة في ذوات الجمال.

كما وقع لمصدع وقدار.

وقلَّ أن يرغب أحد في نكاح امرأة لمالها، أو لجمالها، أو لعزها إلا كانت عليه فتنة في دينه، ولذلك جاء الشرع بالترغيب في ذات الدين إذا دار الأمر بين ديِّنة غير جميلة، وجميلة غير ديِّنة.

ويدل له حديث الأئمة الستة إلا الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحُسْنِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِيْنِهَا؛ فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّيْنِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»[1]؛ أي: إن اخترت غيرها عليها لمال أو حسن أو جمال.

ولعله إنما قدم المال لأن الناس في ذات المال أرغب، ثم في ذات الحسب، ثم في ذات الجمال، ورغبتهم في ذات الدين المجرد عما قبله قليلة.

وكم من أحمق رماه الطمع في المال، أو الرغبة في الحسب، أو الغرام بالجمال في شوهاء، أو شمطاء، أو دفراء، أو ناقصة الخلقة، فوقع في البلاء المحيط والشر الدائم.

وقد روى البزار عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى

---

(١) رواه البخاري (٤٨٠٢)، ومسلم (١٤٦٦)، وأبو داود (٢٠٤٧)، والنسائي (٣٢٣٠)، وابن ماجه (١٨٥٨).

عنه: أن النبي ﷺ قال في حديث: «وَلا عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوْا امْرَأَةً مِنْ أَجْلِ حُسْنِهَا فَقَلَّ أَنْ لا تَأْتِيَ بِخَيْرٍ، وَلَكِنْ ذَوَاتُ الدِّيْنِ وَالأَمَانَةِ فَابْتَغُوْهُنَّ»(١).

وروى الطبراني عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لِعِزِّهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلاَّ ذُلاًّ، وَمَنْ تَزَوَّجَهَا لِمَالِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلاَّ فَقْراً، وَمَنْ تَزَوَّجَهَا لِحَسَبِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلاَّ دَنَاءَةً، وَمَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لَمْ يَتَزَوَّجْهَا إِلاَّ لِيَغُضَّ بَصَرَهُ، أَوْ يَحْفَظَ فَرْجَهُ، أَوْ يَصِلَ رَحِمَهُ بَارَكَ اللهُ لَهُ فِيْهَا، وَبَارَكَ لَهَا فِيْهِ»(٢).

٩ ـ ومنها: القيادة، ودعوة المرأة الرجل إلى نفسها أو إلى غيرها.

كما علمت من فعل عنيزة وصدوف قبحهما الله تعالى، وهذا من أكبر الكبائر لأنهما لم يدعوان مصدعاً وقداراً إلى النكاح المباح، بل المحرم.

والقيادة من النساء قبيحة جداً، لكنها من الرجال أقبح.

وأول من قاد من خلق الله الشيطان، ومن أولاد آدم فيما بلغنا عنيزة بنت غنم الثمودية؛ قادت على بناتها لمصدع، ووعدته بهن إن

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٥٥): رواه البزار، وفيه يزيد بن عياض، وهو متروك.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٣٤٢)، وكذا ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ١٥١) في ترجمة عبد السلام بن عبد القدوس، وقال: لا يحل الاحتجاج به.

عقر الناقة، وصدوف بنت المحيا قادت على نفسها لقدار، ووعدته بنفسها إن عقر الناقة.

والمتشبهات بهما في ذلك ملعونات.

١٠ ـ ومنها: الاغترار بالدنيا، والتأنق في جمعها وبنيانها، وإتقان البنيان وإحكامه أملاً وأشراً.

كما تقدم نظيره في عاد، لكن تميزت عنهم ثمود باتخاذ بيوتهم من الجبال؛ إذ كان الواحد منهم يبني البيت من المدر فكان ينهدم وبانيه حي، فاتخذوا من الجبال بيوتاً، وكانوا يغترون بطول الأعمار، وكثرة الزروع والثمار، وسعة الأموال، وحسن الحال، ولا يخافون هجوم الموت عليهم.

ولذلك قال لهم أخوهم صالح عليه السَّلام: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾؛ أي: ثمرها لطيف يانع نضيج ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾[الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩].

أي: حاذقين بنحتها وصناعتها.

وهذه البيوت إلى هذا الوقت باقية في مدائن الحجر بطريق الحاج الشامي بين مبرك الناقة وقرية العلا، ينظر إليها الناس ويعتبر بها من كان من أهل البصائر والاعتبار.

وقد أرشد الله تعالى السائرين في الأرض من هذه الأمة إلى النظر في آثار الأمم الماضية ليتذكروا ما صار لهم من الهلاك وخلو البلاد عنهم بعد ما عَمَروا وعمَّروا، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ

فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[الروم: ٩].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[غافر: ٢١].

وقرأ ابن عامر(١): ﴿كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[غافر: ٢١-٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[يوسف: ١٠٩].

١١ - ومن قبائح ثمود: سوء الأعمال مع طول الأعمار.

وكذلك حال قوم نوح، وقوم هود إلا أن قوم صالح تميزوا عنهم باتخاذ البيوت من الجبال كما قال تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾[الفجر: ٩].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لأبي بكر البغدادي (ص: ٥٦٩) وقال: قرأ ابن عامر وحده «كانوا هم أشد منكم قوة» بالكاف، وكذلك في «مصاحفهم»، و«الحجة في القراءات السبع» لابن خالويه (ص: ٣١٣).

قال مجاهد في تفسيرها: خرقوا الجبال فجعلوها بيوتاً. رواه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[1].

وروى هؤلاء عن ابن عباس نحوه[2].

وروى الترمذي، والحاكم وصححاه، والطبراني بإسناد صحيح، عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله! أي الناس خير؟

قال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ».

قال: فأي الناس شر؟

قال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»[3].

وقلت: [من الطويل]

أَلا إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ طالَ عُمُرُه ... وَقَدْ ساءَ مِنْهُ قَوْلُهُ وَفِعالُهُ
فَبُعْداً لَهُ ما كانَ أَقْبَحَ حالَهُ ... وَأَقْبَحُ مِنْ دُنْياهُ حالاً مآلُهُ

١٢ ـ ومنها: الأشر والبطر، والفرح بالدنيا، والبخل بها، والتأنق في تحصيلها وتحصينها، والشره، والإعجاب بالنفس، وبما لهَا أو

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٣٠/ ١٧٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٢٦)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٣٠/ ٣٧٠).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٣٠/ ١٧٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٢٦).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٣٠) وصححه، والحاكم في «المستدرك» (١٢٥٦).

مِنها، والأمن من مكر الله تعالى، وكفران نعمه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[الحجر: ٨٠ ـ ٨٤]؛ أي: من الأموال والأملاك.

وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ أي: من عذاب الله وقضائه؛ يحسبون أن بيوتهم تمنعهم منه أو من مكره، أو من اللصوص والأعداء.

وقال الله تعالى حكاية عن صالح عليه السَّلام يقول لقومه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾؛ أي: في الحجر، أو في الدنيا ﴿ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾[الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أي: أَشِرين بَطِرين. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم(١).

وقيل: فرحين.

وقال مجاهد رحمه الله تعالى: شرهين. رواه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم(٢).

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ١٠١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٨٠٣).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٨٠٣).

والشره ـ بالتحريك ـ كما في «الصحاح»: غلبة الحرص.

ويقال منه: شره، وشرهان، كما في «القاموس»[١].

وقال قتادة رحمه الله تعالى في الآية: معجبين بصنعكم. رواه عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٢].

وفي القراءة الأخرى: ﴿فَرِهِينَ﴾، وهو في «تفسير ابن عباس»، وغيره بمعنى: حاذقين[٣].

وقال عبدالله بن شداد رحمه الله تعالى: يتخيرون.

وقال الضَّحَّاك رحمه الله تعالى: حاذقين: كيسين. رواهما عبد ابن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم[٤].

والكياسة والحذق بمعنى ذكاء القلب والظرافة، وبها يحصل تخير الشيء.

وذلك أنهم كانوا يختارون في نحت البيوت ما هو الأوفق لنفوسهم من الهيئة، والصورة، والسعة والضيق.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٦١٠) (مادة: شره).

(٢) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٧٥)، والطبري في «التفسير» (١٩/ ١٠١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٨٠٣).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (١٩/ ١٠٠)، و«حجة القراءات» لابن زنجلة (ص: ٥١٩).

(٤) رواهما الطبري في «التفسير» (١٩/ ١٠١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٨٠٢).

وحاصله أن حذقهم كان في دنياهم وما لا يجدي، وهذا حال أكثر الناس كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾[الروم: ٦ ـ ٨].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الروم: ٧]: يعني: معايشهم؛ متى يغرسون، ومتى يزرعون، ومتى يحصدون.

وفي رواية: يعرفون عمران الدنيا وهم في أمر الدين جهال. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم[1].

وقال الحسن رحمه الله تعالى: ليبلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن يصلي. رواه ابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وكل ذلك من ثمرات البطر.

قال أبو إسحاق الزجاج: والبطر: الطغيان بالنعمة[2].

وهذا يرجع إلى كفران النعمة، أو هو أعظم أنواع الكفران،

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢١/ ٢٣)، وكذا أبو حاتم في «الزهد» (ص: ٨٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٩٠).

والكفران أشد أسباب زوال النعم، وهو بلاء سائر الأمم الهالكة كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨].

قلت: وفي الآية دليل على أن القوم وأهل القرية إذا بطروا المعيشة تهدَّموا وانفكَّ أمرهم، فلا يعودون إلى ما كانوا عليه، وقلما خربت قرية من القرى ورحل أهلها بسبب البطر فعادت إلى ما كانت عليه من العمارة ـ وإن رجعوا إليها ـ وهذا أمر مشاهد.

* **تَنْبِيهٌ**:

في قول صالح عليه السلام: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٦] إشارةٌ إلى أن الموت لا يترك أحداً؛ أي: أتتركون أنتم في الدنيا ولم يترك فيها قبلكم أحد، وهذا مما لا يكون.

وقد كان بمكة شاب له أبوان مقعدان يقوم عليهما، ويحملهما إلى المسجد الحرام، فمات، فقال رسول الله ﷺ: «لا يَتْرُكُ الْمَوْتُ أَحَدَاً لأَحَدٍ؛ لَوْ تَرَكَ أَحَداً لأَحَدٍ لَتَرَكَ ابْنَ الْمُقْعَدَيْنِ». رواه البيهقي في «سننه» عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما[1].

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٦٦)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٧٨) ثم قال: وهذه الأحاديث التي أمليتها لعبدالله بن جعفر عن عبدالله ابن دينار عن ابن عمر، كلها غير محفوظات، لا يحدث بها عن ابن دينار غير عبدالله بن جعفر.

١٣ ـ ومن أعمال ثمود، وأخلاقهم: تعيير أهل الدين بحرفتهم ونحوها مما تعده النفوس الطاغية نقصاناً.

ألا ترى إلى قولهم لصالح عليه السلام وقد قال لهم: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٤].

قال في «الكشاف»: المسَحَّر: الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله[1].

وروى عبد بن حميد عن [عاصم] أنه قرأ: ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ مشدَّدةً، وقال: المسحر: السوقة الذي ليس بملك[2].

وفي «القاموس»: المسحر كمعظم: المحترف.

واعلم أن من عير العالم أو الصالح بحرفته أو كسبه الذي لا يخالف فيه الشرع فهو أشبه الناس بثمود، وكذلك تعييره بالفقر أو بشيء من المباحات كتناول الطعام والشراب.

وقد قيل في معنى قولهم لصالح: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]: إنه من السحر ـ بالفتح وإسكان الحاء المهملة، وقد يضم أوله، ويقال بفتحتين أيضاً ـ وهو الرئة؛ أي: ممن لهم رئة يحتاجون إلى الطعام والشراب، وكل ذي رئة يأكل ويشرب، وهو قريب من قول قريش:

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٣/ ٣٣٣).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٣١٦).

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[الفرقان: ٧][1].

١٤ ـ ومنها: اكتساب الإثم، ورمي البريء به.

فإن حالهم في الأشر والبطر مقرر بحيث إن الله تعالى أخبر به عنهم، ثم كانوا يرمون به صالحاً كما قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾[القمر: ٢٣ ـ ٢٦].

وهذا الخُلق من شر الأخلاق، وأعظم الآثام.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[النساء: ١١٢].

وقال بعض السلف: بحسب ابن آدم من الشر أن لا يكون صالحاً، ويقع في الصالحين.

١٥ ـ ومنها: الاستكثار من الشر.

وقد قرئت الآية: ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾[القمر: ٢٦] على صفة أفعل التفضيل.

قال في «الكشاف»: وهو الأبلغ في الشرارة.

قال: والأَخْير والأَشَر أصل قولهم: هو خير منه وشر منه، وهو أصل مرفوض.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٩٧)، و«أساس البلاغة» للزمخشري (ص: ٢٨٧).

وقد حكى ابن الأنباري: تقول العرب: هو أخير وأشر، وما أخيره وما أشره[1].

والشرارة والشرية نقيض الخير، كما في «القاموس»[2].

ويقال فيه: شررت يا رجل ـ مثلثاً ـ.

وقد روى ابن ماجه عن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ مِنَ النَّاسِ نَاسَاً مَفَاتِيْحُ لِلْخَيْرِ مَغَالِيْقُ لِلشَّرِ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ نَاسَاً مَفَاتِيْحُ لِلشَّرِّ مَغَالِيْقُ لِلْخَيرِ، فَطُوْبَى لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيْحَ الْخَيْرِ عَلَىْ يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيْحَ الشَّرِّ عَلَىْ يَدَيْهِ»[3].

واعلم أن الإكثار من الشر يوجب معرفة المكثر منه به كما قال عمر رضي الله تعالى عنه: مَنْ أَكْثَرَ من شيء عُرِف به؛ كما رواه ابن أبي شيبة، والعسكري في «الأمثال»[4].

١٦ ـ ومنها: الطغيان.

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾[الشمس: ١١].

والطغوى، والطغو، والطغيان ـ بضم الطاء، وكسرها ـ: مجاوزة القدر، أو الغلو في الكفر، أو الإسراف في المعاصي والظلم، أو الارتفاع.

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٤/ ٤٣٧).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٥٣١) (مادة: شر).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه العسكري في «جمهرة الأمثال» (١/ ٢٠)، وكذا ابن أبي الدنيا في «الحلم» (ص: ٧٧)،

قال في «الكشاف»: والباء فيه؛ أي: في قوله تعالى: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ مثلها في: كتبت بالقلم[1]، يجعلها للاستعارة؛ أي: متقوية بطغواها.

وقال القاضي: بسبب طغواها؛ يجعلها للسببية[2].

قلت: ويحتمل أن تكون بمعنى مع، أو في؛ أي: كذبت متلبسة بطغياها مصاحبة له.

وجعلها آخرون للتعدية؛ أي: بعذابها التي وعدت به[3].

والطغوى اسم العذاب كالطاغية كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾[الحاقة: ٥]؛ أي: الصيحة المجاوزة للحد في الشدة، والأخذ، والطغيان بسبب حلول الغضب والهلاك بالإنسان.

قال الله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾[طه: ٨١].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ يقول: لا تظلموا[4].

وقال ابن زيد رحمه الله تعالى: الطغيان فيه أن يأخذه بغير حله.

---

(١) انظر: «الكشاف» للزمخشري (٤/ ٧٦٤).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٤٩٦).

(٣) انظر: «فتح القدير» للشوكاني (٥/ ٤٤٩).

(٤) ورواه الطبري في «التفسير» (١٦/ ١٩٣).

رواهما ابن أبي حاتم[1].

واعلم أن الطغيان قد يكون في طلب المال كما فسرت به هذه الآية، فيكون تناول أموال الناس بالباطل.

وقد يكون بسبب الغنى بالمال، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

ولا أدري أي الطغيانين أشد إثماً؛ لأن الأول سببه عدم الرضا بما قدره الله تعالى، والطمع فيما لم يأذن فيه الله، والثاني بسبب الطمع وعدم القناعة، والحسد، ومنازعة أمر الله تعالى، والكل مهلكات.

ومن فتح عليه باباً من الطغيان يوشك أن لا يدع منه باباً إلا دخله، ولا حالاً إلا تلبس به، فيخشى عليه أن يهلك بالطاغية التي هلكت بها ثمود، أو ما يشاكلها.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنهما: منهومان لا يشبعان: صاحب علم، وصاحب دنيا؛ فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧]. رواه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي موقوفاً[2].

وروى صدره الطبراني، والقضاعي مرفوعاً عنه، والبزار عن ابن عباس،

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٥٩٠).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٥٠)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٣٠٠) وقال: هذا موقوف وهو منقطع.

وابن عدي عن أنس رضي الله تعالى عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ: «مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا»[1].

وقد مثل بعض الحكماء طلب الدنيا بشرب ماء البحر لا يروي[2].

وأبلغ ما يشبه به الطغيان، وتناول أموال الناس واستملاؤها بالنار؛ كلما ألقي فيها الحطب والحلفاء قويت، وكلما قويت أكلت ما ألقي فيها من ذلك، فهي تطلب في المرة الثانية من الأحطاب أكثر مما طلبت أولاً.

١٧ ـ ومنها: نقض عهد الله وميثاقه.

وفي معنى ذلك عدم الوفاء بالنذر؛ فإن ذلك من أفعال ثمود حيث روي في القصة أنهم عاهدوا صالحاً عليه السلام إن أخرج لهم الناقة من الصخرة أن يؤمنوا به ويتبعوه، فلما أخرجها لهم أَنِفوا

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٣٨٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٢٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه. وضعف العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٨٩٤).

ورواه البزار في «المسند» (٤٨٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٣٥): وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

ورواه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٩٥)، وكذا الحاكم في «المستدرك» (٣١٢) عن أنس رضي الله عنه. وقال ابن عدي ما معناه: صُحف والصواب عن الحسن مرسلاً.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١/ ٣٢٤) عن أبي عبدالله الصوفي من كلام عيسى عليه السلام.

من قــول الحــق(١).

وروى الحاكم وصححه، عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: «لا تَسْأَلُوا الآيَاتِ؛ فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ فَبَعَثَ اللهُ لَهُمُ النَّاقَةَ، فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوا عَنْ أَمْرِ رَبِّــهِم، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، فَأَهْمَدَ اللهُ مَنْ تَحْتَ أَدِيْمِ السَّمَاءِ مِنْهُم إِلاَّ رَجُلاً وَاحِداً كَانَ فِيْ حَرَمِ اللهِ تَعَالَى».

قيل: من هو؟

قال ﷺ: «أَبُو رِغَالٍ».

قال: «فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ»(٢).

ورغال ـ بكسر الراء، وبالغين المعجمة ـ قال في «القاموس»: في «سنن أبي داود»، و«دلائل النبوة»، وغيرهما عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر، فقال: «هَذَا قَبْرُ أَبِــي رِغَالٍ، وَهُوَ أَبُو ثَقِيْفٍ، وَكَانَ مِنْ ثَمُوْدَ، وَكَانَ بِهَذَا الْحَرَمِ يَدْفَعُ عَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَتْهُ النِّقْمَةُ الَّتِي أَهْلَكَت قَوْمَهُ بِـهَذا الْمَكَانِ، فَدُفِنَ فِيْهِ». الحديث.

قال: وقول الجوهري: وكان دليلاً للحبشة حين توجهوا إلى مكة فمات في الطريق؛ غير جيد.

قال: وكذا قول ابن سِيْده: وكان عبداً لشعيب، وكان عشَّاراً

---

(١) تقدم تخريجها.

(٢) رواه الحاكم في «المستدك» (١٤١٩٣)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٢٩٦). وصحح ابن كثير إسناده في «السيرة النبوية» (٤/ ٢٠).

جائراً، انتهى[1].

وتمام الحديث الذي ذكره: «وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ دُفِنَ مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ؛ إِنْ أَنْتُمْ نَبَشْتُمْ عَنْهُ أَصَبْتُمُوهُ».

فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن[2].

١٨ ـ ومنها: تضييع الأمانة، والتعدي عليها.

فإن الناقة كانت أمانة الله عندهم ووديعته لديهم، فخانوه فيها فعقروها، والمتعدي على الوديعة والأمانات ضامنٌ في شريعتنا، وآثم، ولعل هذا في سائر الملل؛ لأن حفظ الأمانة مكتوب على كل إنسان مكلف، بل لم يسقط الضمان فيها عن صغير ولا مجنون.

وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وروى ابن جرير بسند ضعيف، عن الحكم بن عمير رضي الله تعالى عنه ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ الأَمَانَةَ وَالْوَفَاءَ نزلا عَلَى ابنِ آدَمَ مَعَ الأَنْبِيَاءِ، فَأُرْسِلُوا بِهِ؛ فَمِنهُمْ

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٣٠١ ـ ١٣٠٢) (مادة: رغل).

(٢) رواه أبو داود (٣٠٨٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٩٧). قال المزي في «تهذيب الكمال» (٤/ ١١): وهو حديث حسن عزيز.

رَسُولُ اللهِ، وَمِنْهُمْ نَبِـيٌّ، وَمِنْهُمْ نَبِـيٌّ رَسُولٌ، وَنزَلَ الْقُرْآنُ وَهُوَ كَلامُ اللهِ، وَنزَلَتِ الْعَرَبِـيَّةُ وَالْعَجَمِيَّةُ، فَعَلِمُوا أَمْرَ الْقُرْآنِ، وَعَلِمُوا أَمْرَ السُّنَنِ بِـأَلْسِنَتِهِم، وَلَمْ يَدَعِ اللهُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِهِ مِمَّا يَأْتُوْنَ وَمِمَّا يَجْتَنِبُوْنَ ـ وَهِيَ الْحُجَجُ عَلَيْهِمْ ـ إِلاَّ بيَّنَهُ لَهُمْ، فَلَيْسَ أَهْلُ لِسَانٍ إِلاَّ وَهُمْ يَعْرِفُوْنَ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِـيْحِ، ثُمَّ الأَمَانَةُ أَوَّلُ شَيْءٍ يُرْفَعُ وَيَبْقَىْ أَثَرُهَا فِيْ صُدُوْرِ قُلُوْبِ النَّاسِ، ثُمَّ يُرْفَعُ الْوَفَاءُ وَالْعَهْدُ وَالذِّمَمُ، وَتَبْقَىْ الْكُتُبُ؛ فَعَالِمٌ يَعْمَلُ، وَجَاهِلٌ يَعْرِفُهَا وَيُنْكِرُهَا وَلا يَحْمِلُهَا حَتَّى وَصَلَ إِلَيَّ وَإِلَى أُمَّتِي، فَلا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ إِلاَّ هَالِكٌ، وَلا يغْفلُهُ إِلاَّ تَارِكٌ، وَالْحَذَرَ أَيُّهَا النَّاسُ، وَإِيَّاكُم وَالْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ؛ فَإِنَّمَا يَبْلُوْكُمْ أَيُّكم أَحْسَنُ عَمَلاً»[1].

وروى البخـاري في «تـاريخه»، وأبو داود، والترمـذي، والحـاكم ـ وصححاه ـ عن أبي هريرة، والدارقطنيُّ عن أبي بن كعب، وهو والحاكم عن أنس، والطبرانيُّ عن أبي أمـامة رضي الله تعـالى عنهم، كـلهم عن النبي ﷺ أنه قال: «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلا تَخُنْ مَن خَانَكَ»[2].

---

(١) رواه الطبـري في «التفسـير» (٢٢/ ٥٥). قـال ابـن كثيـر في «التفسـير» (٣/ ٥٢٤): هذا حديث غريب جداً، وله شواهد من وجوه أخرى.

(٢) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ٣٦٠) وأبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤) وحسنه، والحاكم في «المستدرك» (٢٢٩٦).
ورواه الدارقطني في «السنن» (٣/ ٣٥) عن أبي بن كعب ﷺ. =

وروى الإمام أحمد، وابن حبان في «صحيحه» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إِيْمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، وَلا دِيْنَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ»[1].

وروى البيهقي في «الشعب» عن علي رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «ثَلاثٌ لَيْسَ لأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فِيْهِنَّ رُخْصَةٌ: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ مُسْلِمَاً كَانَ أَوْ كَافِرَاً، والوفاءُ بالعهد لمُسْلمٍ كَانَ أَوْ كَافِرَاً، وَأَدَاءُ الأَمَانَةِ إِلَىْ مُسْلِمٍ كَانَ أَوْ كَافِرٍ»[2].

١٩ ـ ومنها: إقرار أهل المعاصي على معصيتهم، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن عاقر الناقة واحد أو اثنان، أو هما مع مساعدة السبعة النفر، فنسب الله تعالى العقر إليهم أجمعين، فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾[الشمس: ١٤]، فسلط العذاب عليهم أجمعين لأنهم لم يأخذوا على يد الظالم منهم، بل كانوا راضين بعقر الناقة، والرضا بالمعصية عين المعصية.

= ورواه الدارقطني في «السنن» (٣/ ٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢٢٩٧) عن أنس ﷺ.

ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٥٨٠) عن أبي أمامة ﷺ.

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٣٥)، وابن حبان في «صحيحه» (١٩٤).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٦٣) وضعفه.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه عن جرير بن عبدالله البجلي رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيْهِم بِـالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ، ثُمَّ لَم يُغَيِّرُوْهُ إِلاَّ عَمَّهُمُ اللهُ مِنْهُ بِـعَذَابٍ»[1].

٢٠ ـ ومنها: **ذبح الحيوان الموقوف** لغير ضرورة داعية؛ كالشاة الموقوفة على الفقراء ليأكلوا من لبنها، والبعير الموقوف على من يحج من المساكين، والفرس الموقوفة على من يجاهد منهم، فليس لأحد أن يمسه بسوء، فمن فعل ذلك كان متشبهاً بثمود في عقر الناقة، وقد كان لبنها مسبلاً عليهم، والملك فيها كان لله وحده.

وكذلك الموقوف من العقارات وغيرها في شريعتنا الملكُ فيها لله تعالى على الأصح، فالخيانة في الأوقاف بالإتلاف والتخريب والتعمير والبيع من هذا القبيل.

بل كذلك الخيانة في الأموال المشتركة بين المسلمين كمال المصالح؛ كل ذلك فاعله متشبه بثمود في خيانتهم.

٢١ ـ ومنها: الاعتداء في الصدقة.

روى الحاكم وصححه، والبيهقي من طريقه عن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ بعثه ساعياً

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٦٤)، وأبو داود (٤٣٣٩)، وابن ماجه (٤٠٠٨).

فقال له: «لا تَخْرُجْ حَتَّىٰ تُحَدِّثَ بِـرَسُوْلِ اللهِ ﷺ».

فلما أراد الخروج أتى رســول الله ﷺ، فقال له رســول الله ﷺ: «يَا قَيْسُ! لا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقْبَتِكَ بَعِيْرٌ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خِوَارٌ، أو شَاةٌ لَهَا يَعَارٌ، ولا تَكُنْ كأبي رِغَالٍ».

فقال سعد: يارسول الله! وما أبو رغال؟

فقال: «مُصَدِّقٌ بَعَثَهُ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ فَوَجَدَ رَجُلاً بِـالطَّائِفِ فِي غُنَيْمَةٍ قَرِيْبَةٍ مِنْ الْمِئَةِ شَصَاصٍ إِلاَّ شَاةً وَاحِدَةً، وَابْنٍ لَهُ صَغِيْرٍ لا أُمَّ لَهُ، فَلَبَنُ تِلْكَ الشَّاةِ عَيْشُهُ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ الغَنَمِ: مَنْ أَنْتَ؟

قَالَ: أَنا رَسُوْلُ رَسُوْلِ اللهِ.

فَرَحَّبَ، وَقَالَ: هَذِهِ غَنَمِي؛ فَخُذْ مَا أَحْبَبْتَ.

فَنَظَرَ إِلَىٰ الشَّاةِ اللَّبُوْنِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: هَذَا الْغُلامُ كَمَا تَرَى لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ وَلا شَرَابٌ غَيْرُهَا.

قَالَ: إِنْ كُنْتَ تُحِبُّ اللَّبَنَ فَأَنَا أُحِبُّهُ.

فَقَالَ: خُذْ شَاتَيْنِ مَكَانَهَا، فَأَبَىٰ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَزِيْدُهُ وَيَبْذُلُ حَتَّى بَذَلَ لَهُ خَمْسَ شِيَاهٍ شَصَائِصَ مَكَانَهَا، فَأَبَى عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَىٰ عَمَدَ إِلَى قَوْسِهِ فَرَمَاهُ، فَقَتَلَهُ، وَقَالَ: مَا يَنْبَغِي لأَحِدٍ أَنْ يَأْتِي رَسُوْلَ اللهِ عَلَيْهِ السَّلامُ بِـهَذَا الْخَبَرِ قَبْلِي، فَأَتَى صَاحِبُ الْغَنَمِ صَالِحَاً النَّبِـيَّ، فَقَالَ صَالِحُ: اللَّهُمَّ الْعَنْ أَبَا رِغَالٍ، اللَّهُمَّ الْعَنْ أَبَا رِغَالٍ».

فَقَالَ سعد: يا رسول الله! أعف قيساً من السعاية[1].

* **فائِدَةٌ:**

من عتو الحجاج بن يوسف: ما أخرجه المعافى بن زكريا في «الأنيس والجليس» عن عوانة قال: خطب الحجاج الناس بالكوفة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أهل العراق! تزعمون أنا من بقية ثمود؟ وتزعمون أني ساحر؟ وتزعمون أن الله علمني اسماً من أسمائه أقهركم به؟ وأنتم أولياؤه بزعمكم؟ وأنا عدوه؟ فبيني وبينكم كتاب الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾[هود: ٦٦]، فنحن بقية الصالحين إن كنا من ثمود.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[طه: ٦٩]، والله أعدل في حكمه من أن يعلم عدواً من أعدائه اسماً من أسمائه يهزم به أولياءه.

ثم حمي وكثر كلامه، فتحامل على رمانة المنبر فحطمها، فجعل الناس يتلاحظون بينهم وهو ينظر إليهم: يا أعداء الله! ما هذا الترامز؟ إنا حُذيا الظبي السانح، والغراب الأبقع، والكوكب ذي الذنب.

ثم أمر بذلك العود فأصلح قبل أن ينزل عن المنبر[2].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٤٥٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ١٥٧).

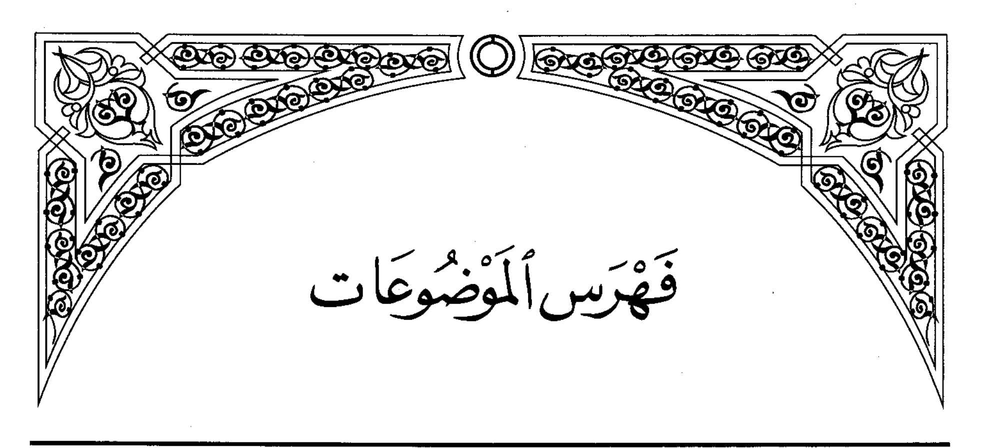
(٢) رواه المعافى بن زكريا في «الجليس الصالح والأنيس الناصح» (ص: ٤٢٣).

والحُذَيا كالثريا من: حذوته ـ بالحاء المهملة، والذال المعجمة ـ: تَبعته، وعملت مثل عمله.

قال ابن الأنباري: الحذيا أن يحذى الرجل الرجل، فيقول: افعل كذا حتى أفعله، ثم يفعل كفعل أخيه.

ومعنى كلام الحجاج: إنا نفعل بالناس من الخير والشر ما يتوقعونه من سنوح الطير، وشؤم الغراب، وإشارة الكوكب المذنب؛ فإن الناس يرجون بالأول حصول الخير واليُمن، ويخافون من الثاني وقوع البلاء والسوء، ويستدلون بالثالث على حدوث النوائب والنوازل، فكان يقول: إن أمره محقق، وإنه ظاهر التأثير في الخير والشر، وهذا من غلوه في عتوه.





فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

تابع

النوع الأول من القسم الثاني

في النهي عن التشبه بالشيطان، لعنه الله تعالى

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة
١٢٨ ـ ومنها: كراهية شهر الصوم، وترك الصيام فيه لغير عذر	١٤٢
١٢٩ ـ ومنها: محبة سماع الأشعار	١٤٤
١٣٠ ـ ومنها: كثرة الكلام والتشدق به	١٤٦
١٣١ ـ ومنها: الصمت عن ذكر الله تعالى في محله، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	١٤٧
١٣٢ ـ ومنها: الغناء والنَّوح والصياح، وحضور مجالسها	١٤٩
١٣٣ ـ ومنها: الزفن (الرقص) لهواً ولعباً	١٥٥
١٣٤ ـ ومنها: اتخاذ آلات اللهو وسماعها	١٥٥
ـ تنبيه	١٥٨
ـ فائدة	١٥٩
١٣٥ ـ ومنها: كراهية الديك والتحرُّج عن سماع صوته	١٦٢
١٣٦ ـ ومنها: الاستماع إلى نهيق الحمار ونباح الكلب	١٦٦
١٣٧ ـ ومنها: إشلاء الكلاب ونحوها على الناس	١٦٧
١٣٨ ـ ومنها: اللعب بالحَمَام الطيارة	١٦٧
١٣٩ ـ ومنها: لباس الحُمرة والملونات	١٦٨
١٤٠ ـ ومنها: تشبيك الأصابع عبثاً وتلهياً عن ذكر الله تعالى	١٦٩
١٤١ ـ ومنها: رفع البصر إلى السماء في محل يطلب فيه الخضوع والاتضاع	١٧١
١٤٢ ـ ومنها: الاختصار؛ بمعنى وضع اليد على الخاصرة	١٧١
١٤٣ ـ ومنها: التبختر في المشية، والمبالغة في الإسراع بها	١٧٣

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

النوع الثاني من القسم الثاني من الكتاب
في النهي عن التشبه بالكفار

(١)

باب
النهي عن التشبه بقابيل القاتل لأخيه هابيل

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

(٢)

بَابُ
النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِقَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

(٣)

بَابُ

النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِكَنْعَانَ بْنِ نُوحٍ

الموضـــوع	الصفحة

(٤)

بَابُ
النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِعَادٍ

الموضوع	الصفحة

(٥)

بَابُ

النَّهي عَنِ التَّشَبُّهِ بِثَمُودَ

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

❑❑❑